مرآة الجنان

وعبرة اليقظان

في

معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان

تأليف

الإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان

اليافعي اليمني المكي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ

وضع حواشيه

خليل المنصور

الجزء الرابع

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

مرآة الجنان

وعبرة اليقظان

في

معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان

تأليف

الإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان
اليافعي اليمني المكي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ

وضع حواشيه

خليل المنصور

الجزء الرابع

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

سنة احدى وست مائة

فيها تغلبت الفرنج على مملكة القسطنطينية وأخرجوا الرّوم عنها بعد حصار طويل وحروب كثيرة.

وفيها توفي المحدث أحمد بن سُليمان الحربيّ المقرىء المفيد، والرجل الصالح عبد الرحيم بن محمّد بن محمد نزيل همدان، وأبو الفضل محمد بن الحسين المقريّ الدمشقيّ المعروف بابن الخصيب.

سنة اثنتين وست مائة

فيها سلّم خوارزم شاه محمّد بن ترمذ إلى ملك الخطا، فكان ذلك هو الخطأ بعينه وتشوش الناس لذلك قيل: وما فعله إلا مكيدة ليتمكن من ممالك خراسان.

وفيها توفي مدرس الأرمينية المعروف بالتقي الأعمى سرق ماله فاتّهم به قائده، فاحترق قلبه، فأهلك نفسه، وجد مشنوقاً بالمنارة الغربية، نسأل الله العافية.

وفيها توفي الإمام العلاّمة أبو عمر. وعثمان بن عيسى الهدبانيّ بالدال المهملة والباء الموحدة، وقبل ياء النسبة نون الماراني بالراء بين الألفين والنون بعد الثانية الملّقب ضياء الدين، كان من أعلم الفقهاء في وقته بمذهب الإمام الشافعيّ قرأ وتمهّر في فروع المذهب وأصوله، وشرح المهذّب شرحاً لم يسبق إلى مثله في قريب من عشرين مجلداً، لكنه لم يكمله بلغ فيه إلى كتاب الشهادات، وسماه الاستقصاء لمذاهب الفقهاء. وشرح اللمع في أصول الفقه للشيخ أبي اسحاق الشيرازيّ أيضاً شرحاً مستوفي في مجلدين، وغير ذلك، ووقف عليه الأمير جمال الدين الهكاريّ في مدرسة أنشأها في القاهرة، وفوض تدريسها إليه، ولم يزل بها إلى أن توفي، وفوض إليه السلطان صلاح الدين القضاء بالديار المصرية، وهو في نسبته راجع إلى ابن عبدوس المارانيّ نسبةً إلى بني ماران، توفي بعد أن نيف على الثمانين، ودفن بالقرافة الصغرى.

وفيها توفي السلطان أبو المظفر محمّد شهاب الدين الغوريّ صاحب غزنة قتلته الإسماعيلية بعد قفوله من غزو الهند، وكان ملكاً جليلاً مجاهداً، واسع المملكة حسن السيرة، وهو الذي حضر عنده الإمام فخر الدين الرازيّ، فوعظه وقال: يا سلطان العالم لا سلطانك يبقى، ولا تلبيس الرازيّ يبقى، فانتحب السلطان باكياً.

وفيها توفي أبو العز عبد الباقي بن عثمان الهمدانيّ الصوفيّ، وكان ذا علم وصلاح.

وفيها توفي أبو يعلى حمزة بن عليّ بن حمزة البغداديّ، كان خيراً زاهداً بصيراً بالقراءات، حاذقاً فيها.

سنة ثلاث وست مائة

فيها وقعت حروب خراسان، قوي فيها ملك خوارزم شاه، واتسع وافتتح بلخ[1] وغيرها، ونازلت الفرنج حمص، فصار إليهم المبارز وحاربهم.

وفيها توفي الحافظ الثقة عبد الرزّاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي[2] أسمعه أبوه من أبي الفضل الأرمويّ وطبقته، ثم سمع هو بنفسه، قيل: لم ير مثله في وقته في يقظة وتجربة.

وفيها توفي داود بن محمد بن محمود الأصبهاني وفيها توفي الحافظ أبو الحسن عليّ ابن فاضل الصوريّ المصريّ، كتب الكثير، وأكثر عن السلفيّ سمع بمصر من الشريف الخطيب، وقرأ القراءات على الغافقيّ.

وفيها توفي مُحمّد بن معمر القرشيّ الأصبهانيّ، سمع من خلق كثير، وكان عارفاً بمذهب الشافعيّ، وبالعربية والحديث، قويّ المشاركة، محتشماً ظريفاً وافر الجاه.

وفيها توفي أبو الحزم الإمام العلاّمة ضياء الدين مُحمّد الموصلي المقري النحويّ الضرير، صاحب ابن الخشّاب، برع في القراءات والعربية واللغة وغير ذلك، وذكره أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ إربل[3] فقال: هو جامع فنون الأدب، وحجة كلام العرب، والمجمع على دينه وعقله، والمتفق على علمه وفضله رحل إلى بغداد، ولقي بها مشائخ

---

(١) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، أول من بناها لُهْراسف الملك، وقيل: الإسكندر، كانت تسمى الاسكندرية قديماً معجم البلدان ١/ ٥٦٨.

(٢) في البداية والنهاية ٨/ ٥٥١: الجيلاني.

(٣) إربل: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة، في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق عميق، وهي في طرف من المدينة، وسور المدينة ينقطع في نصفها، وهي على تلّ عالٍ من التراب عظيم واسع الرأس، وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية، وجامع للصلاة. معجم البلدان ١/ ١٦٧.

النحو واللغة والحديث، وكان واسع الرواية، وكان أبداً يتعصب لأبي العلاء المعريّ ويطرب إذا قُرِىء عليه شعره للجامع بينهما من العمى والأدب. .

قال ابن خلكان: وحكى بعض من أخذ عنه أنه لما كان ببلده كان جيرانهُ ومعارفهُ يسمّونه مكيك تصغير مكيّ، فلما ارتحل واشتغل وحصل اشتاقت نفسه إلى وطنه، فعاد إليه، فتسامع به من بقي ممن كان يعرفه، فزاروه وفرحوا به لكونه فاضلاً من أهل بلدهم، وبات تلك الليلة، فلما كان سحر خرج إلى الحمّام فسمع امرأة في غرفتها تقول لأخرى: ما تدرين من جاء؟ فقالت: لا، فقالت: مكيك ابن فلانة، فقال: والله لا أقعدن في بلد. أدعى فيها مكيك، فسافر من غير تربث، وعاد إلى الموصل، ثم سافر إلى الشام لزيارة بيت المقدس.

سنة أربع وست مائة

فيها تملك الملك الأوحد أيوب بن العادل مدينة خلاط[١].

وفيها توفي أبو العبّاس الرعيني أحمد بن محمّد الإشبيلي المقري، وكان من الأدب والزهد بمكان.

وفيها توفي ابن الساعاتي عليّ بن محمّد الشاعر الملفق صاحب ديوان الشعر.

وفيها توفي أبو ذرّ مُصعب بن محمّد الجيانيّ النحويّ اللغويّ صاحب التصانيف، وحامل لواء العربية في الأندلس، ولي خطابة إشبيلية مدة، ثم قضاء جيان[٢]، ثم تحوّل إلى فاس[٣]، بَعُدَ صيته، وسارت الركبان بتصانيفه.

سنة خمس وست مائة

فيها توفي الملك سنجر شاه ابن غازي قتلة ابنه غازي وحلفوا له ثم وثب عليه من الغد خواص أبيه وقتلوه، وملكوا أخاه الملك المعظم، وكان سنجر سيىء السيرة ظلوماً.

وفيها توفي المحدّث العالم محمّد بن المبارك البغداديّ.

وفيها توفي أبو الجود غيّاث بن فارس اللخميّ مقري الديار المصرية.

---

(١) خلاط: هي من فتوح عياض بن غنم، وهي قصبة أرمينية الوسطى، فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة وبردها في الشتاء يضرب المثل، ولها البحيرة التي ليس لها في الدنيا نظير معجم البلدان ٢/ ٤٣٥.

(٢) جيّان: مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة معجم البلدان ٢/ ٢٢٦.

(٣) فاس: مدينة مشهورة كبيرة على برّ المغرب في بلاد البربر، وفاس مختطّة بين ثنيتين عظيمتين وقد تصاعدت العمارة في جنبيها على الجبل، وفيها قلعة وثلاثة جوامع معجم البلدان ٤/ ٢٦١.

سنة ست وست مائة

فيها نزلت الكرج بالراء الجيم على خلاط، فلما كادوا أنْ يأخذوها، زحف ملكهم في جيشه، فوصل إلى باب البلد.

وفيها توفي الأوحد بن العادل، فبرز إليه عسكر المسلمين، فظفر به فرسه فأحاط المسلمون، وأسروه، وهرب جيشه.

وفيها سار خوارزم شاه صاحب خراسان في جيوشه، وقطع النهر، فالتقى الخطا، وكانت ملحمة عظيمة انكسر فيها، وقتل منهم خلق كثير، واستولى خوارزم شاه على ما وراء النهر، وكان كشلوخان بالشين والخاء المعجمتين وعسكره، وقد أخرجتهم الخطا من أرضهم ، ونزلوا بلاد الترك، وجرت لهم حروب مع الخطا، فلما عرفوا أنّ خوارزم شاه كسرهم قصدوهم، فكاتب ملك الخطا في الحال خوارزم شاه يقول: إما ما كان منك من أخذ بلادنا، وقتل رجالنا، فمغفور فقد أتانا عدو لا قبل لنا به، وقد انتصروا علينا وأخذونا لم يبق لهم دافع عنك والمصلحة أن تسير إلينا وتجيرنا، فكاتب خوارزم شاه كشلوخان، إنا معك، وكاتب ملك الخطأ كذلك، وسار بجيوشه إلى أن نزل بقرب مكان المصاف، فتوهّم كلا الفريقين أنه معهم، وأنه مكين لهم، فالتقوا، فانهزمت الخطا فمال حينئذٍ مع كشلوخان، ورأى رأياً نحساً، وهو إن أمر أهل بلاد الترك بالجلاء إلى بخارى[١] وسُمَرقند[٢]، ثم خربهما جميعاً وشتّت الناس.

وفيها توفي أسعد بن المنجا بن أبي البركات القاضي أبو المعالي التنوخي المغربي، ثم الدمشقيّ. روي عن القاضي الأرمويّ وتفقه على الشيخ عبد القادر وغيره.

وفيها توفيت أم هاني عفيفة بنت أحمد بن عبدالله الأصبهانية، وهي آخر من روى عن عبد الواحد صاحب أبي نعيم، ولها إجازة من أبي عليّ الحدّاد وجماعة، وسمعت المعجمين الصغير والكبير للطبرانيّ من فاطمة الجوزدانية.

وفيها توفي الإمام الكبير العلاّمة النحرير الأصولي المتكلم المناظر المفسر صاحب التصانيف المشهورة في الآفاق الحظية في سوق الإفادة بالاتفاق فخر الدين الرازي أبو عبدالله محمّد بن عمر بن الحسين القرشيّ التيميّ البكريّ الملّقب بالإمام عند علماء الأصول المقرر

---

(١) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلّها، يُعبر إليها من آمل الشطّ، وبينها وبين جيحون يومان وكانت قاعدة ملك السامانية معجم البلدان ١/ ٤١٩.

(٢) سُمَرْقَنْد: بلد معروف مشهور، قيل: إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر، وهو قصبة الصفد مبنية على جنوبي وادي الصفد مرتفعة عليه معجم البلدان ٣/ ٢٧٩.

لشبه مذاهب الفرق المخالفين والمبطل لها بإقامة البراهين الطبرستاني الأصل الرازي المولد المعروف الشافعيّ المذهب فريد عصره، ونسيج وحد الذي قال فيه بعض العلماء.

خصّه الله برأي هو للغيب طليعة فيرى الحق بعين دونها حد الطبيعة

ومدحه الإمام سراج الدين يوسف بن أبي بكر بن محمّد السكاكي الخوارزمي بقوله.

أعلمن علماً يقيناً إنّ رب العالمينا لو قضى في عالميهم خدمة للأعلمينا

أخدم الرازي فخر أخدمة العبد بن سينا

فاق أهل زمانه الأصلين والمعقولات، وعلم الأوائل، صنّف التصانيف المفيدة في فنون عديدة. منها تفسير القرآن الكريم جمع فيه من الغرائب والعجائب ما يطرب كل طالب، وهو كبير جداً لكنه لم يكمله وشرح سورة الفاتحة في مجلد، ومنها في علم الكلام المطالب العالية ونهاية العقول وكتاب الأربعين والمحصل وكتاب البيان والبُرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان وكتاب المباحث المشرقية، وكتاب المباحث العمادية في مطالب المعادية وكتاب تهذيب الدلائل وعيون المسائل وكتاب إرشاد النظار إلى لطائف الأسرار وكتاب أجوبة المسائل النجارية وكتاب تحصيل الحق وكتاب الزبدة والمعالم وغير ذلك، وفي أصول الفقه والمحصول والمعالم في الحكمة الملخص وشرح الملخص لابن سينا وشرح الإشارات لابن سينا وشرح عيون الحكمة وغير ذلك، وفي الطلسمات السر المكتوم وشرح أسماء الله الحُسنى ويقال: إن له شرح المفصل في النحو للزمخشريّ وشرح الوجيز في الفقه للغزاليّ. وشرح سقط الزند للمعريّ. وله مختصر في الإعجاز ومؤاخذات جيدة على النحاة وله طريقة في الخلاف، وله في الطب شرح الكليات للقانون، وصنف في علم الفراسة، وله مصنف في مناقب الشافعيّ، وكل كتبه مفيدة، وانتشرت تصانيفه في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة بين العباد، فإن الناس اشتغلوا بها، وهو أول من اخترع هذا الترتيب في كتبه، وأتي فيها بما لم يسبق إليه، وله في الوعظ اليد البيضاء ويعظ باللسانين العربيّ والعجميّ، وكان يلحقه الوَجْدُ حال الوعظ، ويكثر البكاء، وكان يحضر مجلسه بمدينة هَراة[1] أرباب المذاهب والمقالات، ويسألونه وهو يجيب كل سائل بأحسن الأجوبة، المجادلات على اختلاف أصنافهم ومذاهبم ويجيء إلى مجلسه الأكابر والأمراء والملوك، وكان صاحب وقار وحشمة ومماليك وثروة، وبزة حسنة، وهيئة جميلة، إذا ركب مشى معه نحو ثلاث مائة مشتغل على اختلاف مطالبهم في التفسير والفقه والكلام والأصول والطب

(١) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوّة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء معجم البلدان ٥/ ٤٥٦.

وغير ذلك، ورجع بسببه خلق كثير من الطائفة الكرامية وغيرهم إلى مذهب أهل السنة كان يلقب بهراة شيخ الإسلام، وكان مبدأ اشتغاله على والده إلى أن مات، ثم قصد الكمال السمناني بالسين المهملة والنون مكررة قبل الألف وبعدها، واشتغل عليه مدة، ثم عاد إلى الريّ، واشتغل على المجد الجيليّ صاحب محمّد بن يحيى الفقيه أحد تلامذة الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزاليّ، ولما طلب المجد إلى مراغة ليدرس بها صحبه وقرأ عليه مدة طويلة علم الكلام والحكمة، ويقال: إنه كان يحفظ الشامل لإمام الحرمين في أصول الدين والمستصفى في أصول الفقه للغزاليّ وكذا المعتمد لأبي الحسين البصريّ، ثم قصد خوارزم وقد تمهر في العلوم فجرى بينه وبين أهلها كلام فيما يرجع إلى المذهب والاعتقاد، فأخرج من البلد، فقصد ما وراء النهر، فجرى له أيضاً هنالك كذلك، فعاد إلى الريّ، وكان بها طبيب حاذق له ثروة ونعمة، وكان للطبيب ابنتان، ولفخر الدين ابنان، فمرض الطبيب، وأيقن بالموت، فزوج ابنتيه لولديّ فخر الدين، ومات الطبيب، فاستولى فخر الدين على جميع أمواله، كذا قاله ابن خلكان[١].

قلت: وعلى تقدير صحة ذلك يحمل على استيلاء شرعيّ من نحو وصاية أو وكالة قال: ولازم الأسفار، وعامل شهاب الدين الغوري صاحب غَزْنَة[٢] بالغين المعجمة والزاي والنون في جملة من المال، ثم مضى إليه لاستيفائه منه، فبالغ في إكرامه والإنعام عليه، وحصل له من جهته مال طائل، وعاد إلى خراسان، واتصل بالسلطان محمّد المعروف بخوارزم شاه، فحظي عنده، ونال أسمى المراتب، ولم يبلغ أحمد منزلته عنده، ولما قدم إلى هراة نال من الدولة إكراماً عظيماً، فاشتد ذلك على الكرامية، فاجتمع يوماً مع القاضي مجد الدين ابن القدوة، فتناظر ثم استطال فخر الدين علي ابن القدوة، ونال منه وأهانه فعظم ذلك على الكرامية، وثاروا من كل ناحية، فقامت بينهم فتنة فأمر السلطان الجند بتسكينها وذلك في سنة خمس وتسعين وخمس مائة ولم يزل بينه وبين الكرامية السيف الأحمر، فينال منهم وينالون منه سباً وتكفيراً حتى قيل إنهم سموه فمات من ذلك، وكان موته بهراة يوم الاثنين يوم عيد الفطر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

ومناقبه أكثر من أن تُحصر به وتُعد وفضائله لا تُحصى ولا تُحَدّ.

وكان له مع ما جمع من العلوم شيء من الكلام المنظوم، ومن ذلك قوله:

نهـــايـــة إقـــدام العقـــول عقـــال وأكثـــر سعـــي العـــالميـــن ضـــلالُ

(١) انظر وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٢) غَزْنَة: وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرق خراسان، وهي الحدّ بين خراسان والهند في طريق فيه خيرات واسعة معجم البلدان ٤/ ٢٢٨.

فأرواحنا[١] في وحشة من جسُومنا وحاصلُ دنيانا أذىً ووبالُ
ولم تستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال[٢]
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالُ
وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا

وكان العلماء يقصدونه من البلاد، وتشد إليه الرحال من الأقطار.

وحكى شرف الدين بن عنين أنه حضر درسه يوماً، وهو يُلقي الدروس في مدرسته ودرسه حفل بالأفاضل واليومُ شاتٍ وقد سقط ثلج كثير، فسقطت بالقرب منه حمامة، وقد طردها بعض الجوارح، فلما دفعت ما رجعت خوفاً من الحاضرين في المجلس، ولم تقدر الحمامة على الطيران من خوفها وشدة البرد، فلما قام فخر الدين من الدرس وقف عليها ورق لها وأخذها.

قلت: هكذا حكى والدي حكوا في علم المعاني والبيان أنها وقعت في حجر الإمام فخر الدين فأنشده بن عنين في الحال.

يا ابن الكرام المطعمين إذا استوى[٣] في كل مسغبة وثلج خاشِفِ
الغامضين[٤]إذا النفوسُ تطايرتْ بين الصوارم والوشيح الزاعفِ
من نَبَأ الورقاء أن محلّكُم حرمٌ وأنك ملجأ للخائف

مع أبيات أخرى منها قوله:

جاءت سليمان الزمان لشكوها[٥] والموت تلمع[٦] من جناحَيْ خاطف

وهذا البيت مع البيت الثالث هما اللذان المذكوران في علم المعاني والبيان من المبدعات إذا افتتحا بقوله جاءت سليمان الزمان حمامة إلى آخره، ثم أتبع بقوله: من نبأ الورقاء أن محلكم إلى آخره كانا من الموجز المبدع قوله: خاشف هو بالخاء والشين المعجمتين يقال: خشف الثلج إذا تحرّك، ومنه قول الشاعر يصف البرده:

إذا كبد النجم السماء يشنو على حين هر الكلب والثلج خاشف

(١) وأرواحنا: وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٠.
(٢) وقالوا وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٠.
(٣) شَتَوْا وفيات الأعيان ٤/ ٢٥١.
(٤) العاصمين وفيات الأعيان ٤/ ٢٥١.
(٥) بشكوها وفيات الأعيان ٤/ ٢٥١.
(٦) يلمع وفيات الأعيان ٤/ ٢٥١.

وقال أبو عبدالله الحسين الواسطيّ: سمعت فخر الدين بهراة ينشد على المنبر عقب كلام عاتب فيه أهل البلد:

المــرءُ مــا دام حيّــاً يُستَهــان بــه ويعظــم الــرزء فيــه حيــن يفتقــدُ

وذكر فخر الدين في كتابه الموسوم [بتحصيل الحق] أنه اشتغل في علم الأصول على والده ضياء الدين عمر، ووالده على أبي القاسم سُليمان بن ناصر الأنصاريّ، وهو على إمام الحرمين أبي المعالي، وهو على الأستاذ أبي الإسحاق الإسفرائيني[١] وهو على الشيخ أبي الحسن الباهليّ وهو على شيخ السنة أبي الحسن عليّ بن أبي إسماعيل الأشعريّ الناصر لمذهب أهل السنّة والجماعة، وأما اشتغاله في فروع المذهب، فإنه اشتغل على والده المذكور، ووالده على أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغويّ، وهو على القاضي حسين المروزي، وهو على القفال المروزيّ، وهو على أبي زيد المروزيّ، وهو على أبي إسحاق المروزيّ، وهو على أبي العبّاس بن شريح[٢]، وهو على أبي القاسم الأنماطي، وهو على أبي إبراهيم المزنيّ، وهو على الإمام الشافعيّ المطلبيّ رضي الله تعالى عنه.

وكانت ولادة فخر الدين في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وأربعين، وقيل: ثلاث وأربعين وخمس مائة بالريّ[٣].

وتوفي يوم الاثنين يوم عيد الفطر من السنة المذكورة، كما تقدم رحمه الله تعالى.

وفيها توفي العلاّمة مجد الدين أبو السعادات المبارك بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن محمَّد المعروف بابن الأثير الشيبانيّ الجزريّ، ثم الموصليّ الكاتب.

قال أبو البركات بن المستوفي في حقه: أشهر العلماء ذكر أو أكثر النبلاء قدراً وأوحد الأفاضل المشار إليهم، وفرد الأماثل المعتمد في الأمور عليهم أخذ النحو عن شيخه أبي محمد إسماعيل بن المبارك، وسمع الحديث متأخراً، ولم يتقدم له رواية، وله المصنفات البديعة والرسائل الوسيعة.

منها جامع الأصول في أحاديث الرسول جمع فيه بين الصحاح الستة، وهو على وضع كتاب رزين إلا أنّ فيه زيادات كثيرة، ومنها كتاب النهاية في غريب الحديث في خمس مجلدات، وكتاب الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف في تفسير القرآن أخذه من

---

(١) الإسفرايني وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٢.

(٢) سُريج وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٢.

(٣) الرّيّ: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن. كثيرة الفوكه والخيرات، وهي محطّ الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال معجم البلدان ٣/ ١٣٢.

تفسير الثعلبيّ والزمخشريّ، وله كتاب المصطفى والمختار في الأدعية والأذكار، وكتاب لطيف في صنعة الكتابة، وكتاب البديع في شرح الفصول في النحو لابن الدهان، وديوان رسائل والكتاب الشافي في شرح مسند الإمام الشافعيّ وغير ذلك من التصانيف.

وله ديوان الإنشاء لصاحب الموصل مسعود بن مودود ارسلان شاه وحظي عنده، وتوفرت حرمته لديه، وكتب له مدة، ثم عرض له مرض الفالج، فكف يده من الكتابة ورجليه من الحركة، وأقام في داره يغشاه الأكابر والعلماء وأنشأ رباطاً، ووقف أملاكه على رباطه المذكورة، وعلى داره التي سكّنها.

قال ابن خلكان: وبلغني أنه صنّف كتبه كلها في مدة تعطله، فإنه تفرّغ لها وكان عنده جماعة يعينونه عليها في الأخبار والكتابة، وله شعر يسير، ومن ذلك ما أنشده للأتابك صاحب الموصل، وقد زلت بغلته.

إن زلّتِ البغلة من تحتهِ ... فإنّ في زلتها عذرا
حمَّلها من علمه شاهقاً ... ومن نَدّى راحته بحرا

وحكى أخوه أبو الحسن أنه جاءه رجل مغربي، فالتزم أن يداويه ويبرئه ما هو فيه، وأنه لا يأخذ أجرة إلا بعد برئه. قال: فملنا إلى قوله، وأخذ في معالجته بدهن، حتى لانت رجله، وأشرف على كمال البرء، فقال لي: أعط هذا المغربي شيئاً يرضيه واصرفه، فقلت له: لم ذا وقد ظهر نُجْح معالجته؟ فقال: الأمر كما يكون[1] ولكني في راحة مما كنت فيه من صحبة هؤلاء القوم والالتزام بإحضارهم[2]، وقد سكنت روحي إلى الانقطاع والدعة، وقد كنت بالأمس وأنا معافى أذلّ نفسي بالسعي إليهم. وأنا الآن قاعد في منزلي، فإذا طرأت لهم أمور ضرورية جاؤوني بأنفسهم لأخذ رأيي، وبين هذا وذاك كثير، ولم يكن سبب هذا إلا هذا المرض، فما أرى زواله ولا معالجته، ولم يبق من العمر إلاّ القليل، فدعني أعيش باقيهُ حراً سليماً من الذل، فقد أخذت منه بأوفر حظ. قال: فقبلت منه قوله وصرفت الرجل بإحسان.

وفيها توفي أبو المكارم أسعد بن الخطير مهذب بن ميناء الكاتب الشاعر؛ كان ناظر الدواوين. بالديار المصرية، وفيه فضائل عديدة ونظم سيرة السلطان صلاح الدين، وله ديوان شعر ومن جملته قوله.

---

(١) تقول وفيات الأعيان ٤/ ١٤٣.
(٢) بأخطارهم وفيات الأعيان ٤/ ١٤٣.

يعـاتبنـي وينهـى عـن أمـورٍ[١] سبيـلُ الله[٢] أن يَنْهَـوكَ عنْهـا
أتقـدِرُ أن تكـون كمثـل عَيْنـي وحقّـكَ مـا علـيّ أضـرّ مِنْهـا

سنة سبع وست مائة

فيها توفي صاحب الموصل أرسلان شاه ابن السلطان مسعود، وكان شهماً شجاعاً سائساً مهيباً، قال أبو السعادات ابن الأثير وزيره: ماقات له في فعل خير الإبادر فيه، وقال أبو المظفر ابن الجوزيّ: كان جباراً سافكاً للدماء. وقال[٣] ابن خلّكان: كان شهماً عارفاً بالأمور تحول شافعياً، ولم يكن في بيته شافعيّ سواه، وبنى مدرسة للشافعية بالموصل قلّ أن يوجد مدرسة في حسنها.

توفي في شبارة بالشط ظاهر الموصل والشبارة بالشين المعجمة مفتوحة والموحدة مشددة، وبين الألف والهاء راء، وهي عندهم الحراقة عند أهل مصر، وكتم موته حتى دخل به إلى دار السلطنة بالموصل. ودُفن في تربته التي بمدرستهِ المذكورة، وخلّف ولدين هما الملك القاهر مسعود، والملك المنصور زنكي، وسيأتي ذكر كل واحد منهما في ترجمته إن شاء الله تعالى، وتسلطن بعده ابنه مسعود.

وفيها توفي[٤] مؤيد الدولة أسامة بن مُرشد الكلبيّ من أكابر أهل قلعة سعير وشجعانهم وعلمائهم، له تصانيف عديدة في فنون الأدب، وله ديوان شعر في جزأين منه قوله.

لا تَستعـر جَلَـداً علـى هجـرانهـمْ فقـواك تضعـفُ عـنْ صـدودٍ دائـمِ
واعلـم بـأنّـك إنْ رَجَعْـتَ إليهـمُ طـوعـاً وإلا عُـدْتَ عـودة راغـمِ

ومنه قوله في دار ابن طليب احترقت:

أنظـر إلـى الأيـام كيـف تسـوقنـا قهـرا[٥] إلـى الإقـرار بـالأقـدارِ
مـا أوقـدَ ابـنُ طليـب قـطُّ بـداره نـاراً وكـانَ خـرابهـا بـالنـار

ومما يناسب هذه الواقعة ما حكي، أن إنساناً معروفاً بابن صورة المصريّ كانت له بمصر دار موصوفة بالحسن فاحترقت، فقال أبو الحسن بن مفرج المعروف بابن المنجم:

أقـول وقـد عـاينـت دار ابـن قعـورة وللنـار فيهـا مـارجٌ[٦] يضـرم[٧]

---

(١) تُعاتبني وتنهى عن أمورٍ وفيات الأعيان ١/ ٢١٠.
(٢) الناس وفيات الأعيان ١/ ٢١٠.
(٣) انظر وفيات الأعيان ١/ ١٩٤.
(٤) توفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة بدمشق وفيات الأعيان ١/ ١٩٩.
(٥) قسراً وفيات الأعيان ١/ ٦٩٦.
(٦) مارج: الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد. و...: اللهب المختلط بسواد النار.
(٧) يتضرّم وفيات الأعيان ١/ ١٩٧.

كـذا كـل مـال أصلـه مـن مَهـاوِش فعمـا قليـل فـي نَهـابِـرَ يعـدم
ومـا هـو إلاّ كـافـر طـال عمـره فجـاءتـهُ لمـا استبطـأتـه جهنـم

والبيت الثاني مأخوذ من قوله عليه السلام: «من أصاب مالا من مهاوِش أذهبه الله في نَهابر» والمهاوش: الحرام، والنهابر: المهالك.

فيها توفي مسند العراق الحافظ أبو أحمد عبد الوهاب بن سكينة البغداديّ الصوفيّ، سمع الحديث، وقرأ القراءات، وقرأ الفقه والخلاف والنحو.

وقال ابن النجار: هو شيخ العراق في الحديث والزهد والسّمت[1] وموافقة السنة، كانت أوقاته محفوظة لا يمضي له ساعة إلاّ في تلاوة، أو ذكر، أو تهجد أو اسماع، وكان يديم الصيام غالباً ويستعمل السنة في أموره، قال: وما رأيت أكمل منه ولا أكثر عبادة ولا أحسن سمتاً.

وفيها توفي الشيخ أبو عمر المقدسيّ الزاهد محمّد بن أحمد المعروف بابن قدامة سمع من جماعة، وكتب الكثير بخطه، وحفظ القرآن والحديث والفقه، وكان إماماً فاضلاً مقرياً زاهداً عابداً قانتاً[2] لله خائفاً من الله منيباً إلى الله، كثير النفع لخلق الله، ذا أوراد وتهجد واجتهاد وأوقات مقسمة على الطاعات من الصلاة والصيام والذكر، وتعليم العلم، والفتوة والمروة والخدمة والتواضع، وكان عديم النظير في زمانه حطب بجامع الجبل إلى أن توفي في رحمه الله تعالى.

سنة ثمان وست مائة

فيها قدم بغداد رسول جلال الدجين حسن صاحب الألموت بدخول قومه في الإسلام، وأنهم قد تبرؤوا من الباطنية، وبنوا المساجد والجوامع، وصاموا رمضان، فسر الخليفة بذلك.

وفيها وثب قتادة الشريف الحسني أمير مكّة على الركب العراقي بمنىً[3]، فنهبهم، وقتل جماعة قيل: راح للباس في ذلك ما قيمته ألف ألف دينار.

---

(١) السَّمْت: الطريق والمذهب. و ـ هيئة أهل الخير. يُقال: (ما أحسن سمته) و ـ حُسْن القصد والمذهب في الدنيا والدين.

(٢) قانتاً: قنت: أطاع. و ـ الله وقنت له: لزم طاعته وأقرّ له بالعبودية. فهو قانت.

(٣) منىً: هي بليدة على فرسخ من مكة، طولها ميلان، وعلى رأس منىً من نحو مكة عقبة تُرمى عليها الجمرة يوم النحر ومنىً شعبان بينهما أزقة والمسجد في الشارع الأيمن ومسجد الكبش بقرب العقبة وبها مصانع وآباء وحوانيت، وهي بين جبلين مطلّين عليها معجم البلدان ٥/ ٢٣٠.

وفيها توفي أبو العبّاس العاقوليّ أحمد بن الحسن أبي البقاء المقرىء، قرأ القراءات، وسمع الحديث والروايات المتعددات.

وفيها توفي العلاّمة ابن نوح الغافقي محمّد بن أيوب الأندلسيّ، قرأ القراءات، وسمع الحديث، وتفقه وبرع في مذهب ملك، ولم يبق له في وقته نظير في شرق الأندلس تفنناً واستيخاراً، كان رأساً في القراءات والفقه والعربية، وعقد المشروطة قال: الإبار: تلوت عليه وهو أغزر من لقيت علماً وأبعدهم صيتاً.

وفيها توفي الإمام العلاّمة محمّد بن يونس الملّقب عماد الدين الفقيه الشافعيّ(١)، كان إمام وقته في الأصول والخلاف والجدل، وكان له صيت عظيم في زمانه، وقصده الفقهاء من البلاد الشاسعة للاشتغال، وتخرّج عليه خلق كثير صاروا كلهم أئمة مدرّسين يشار إليهم، وكان مبدأ اشتغاله على أبيه، ثم توجه إلى بغداد وتفقه بالمدرسة النظامية على السديد محمّد السّلَماسي، وكان معيداً بها، والمدرس يومئذٍ الشرْيف(٢) يوسف بن بندار الدمشقيّ، وسمع بها الحديث من أبي عبد الرحمن بن محمّد الكشميهني، ومن أبي حامد محمّد بن أبي الربيع الغرناطيّ، وعاد إلى الموصل، ودرس بها في عدة مدارس، وصنف كتباً في المذهب منها كتاب المحيط في الجمع بين المهذب والوسيط و شرح الوجيز للغزاليّ، وصنف جدلاً وعقيدةً، وتعليقه في الخلاف، لكنه لم يتمها، وكانت إليه الخطابة في الجامع المجاهديّ مع التدريس في المدرسة النورية والغربية والزنكية والنفسية والعلانية(٣)، وتقدم في دولة نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل تقدماً كثيراً، وتوجه رسولاً إلى بغداد من غير مرة، وإلى الملك العادل، وناظر في ديوان الخلافة، واستقل في مسألة شراء الكافر للعبد المسلم، وتولى القضاء بالموصل، ثم انفصل عنه بأبي الفضائل القاسم بن يحيى الشهرزوريّ الملّقب ضياء الدين، وانتهت إليه رياسة أصحاب الشافعيّ بالموصل.

وكان شديد الورع والتقشّف لا يلبس الثوب الجديد حتى يغسله، ولا يمس القلم للكتابة إلاّ ويغسل يده، وكان دمث(٤) الأخلاق يعني سهلها، لطيف الخلوة ملاطفاً بحكايات وأشعار، وكان كثير المباطنة(٥) لنور الدين صاحب الموصل، يرجع إليه في الفتاوى، ويشاوره في الأمور، وله صنف العقيدة المذكورة، ولم يزل معه، أو قال: يبحث معه حتى

---

(١) انظر البداية والنهاية ٨/ ٥٦٨.
(٢) الشرف يوسف بن بندار الدمشقي وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٣.
(٣) في المدرسة النورية والعزية والزينية والبقشية والعلانية وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٣.
(٤) دمث: سَهُل خُلُقُه.
(٥) المباطنة: يُقال: أبطن فلاناً؛ أي: مرّ به وأطلعه على أسراره وحبله من خواصّتِهِ.

انتقل عن مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الشافعيّ رضي الله تعالى عنهما، ولم يوجد في بيت أتابك مع كثرتهم شافعيّ سواه.

ولما توفي نور الدين توجه إلى بغداد في الرسالة بسبب تقرير ولده الملك القاهر مسعود، فعاد وقد قضى الشغل ومعه الخلعة والتقليد، وتوفرت حرمته عند القاهر أكثر مما كانت عند أبيه، وكان مكمل الآداب[١]، غير أنه لم يرزق سعادة في تصانيفه فإنها ليست على قدر فضائله.

وكان الملك المعظم صاحب إربل يقول: رأيت الشيخ عماد الدين في المنام بعد موته، فقلت له: أما مت؟! فقال: بلى، ولكني محترم رحمه الله تعالى.

وفيها توفي القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد السعديّ، الشاعر المشهور، المصريّ صاحب ديوان الشعر البديع، ونظم رائق الحسن الرفيع أحد الفضلاء الرؤساء النبلاء، أخذ الحديث عن أبي طاهر أحمد بن محمّد السلفيّ الأصبهاني، وكان كثير التخصيص والنعم، وافر السعادة من الدنيا، حميد الشيم اختصر كتاب الحيوان للجاحظ وسمي المختصر روح الحيوان، وله ديوان جميعه موشحات سماء دار الطراز وجمع شيئاً من الرسائل الدائرة بينه وبين القاضي الفاضل، ومن محاسن شعره قوله في غزل قصيدة مدح بها القاضي الفاضل:

ولو أبصرَ النظّام جوْهَر ثغرِها ... لما شك فيه أنه الجوهر الفردُ
ومن قال: إنّ الخيرزانة قَدُّها ... فقولوا له: إياك أن يسمع القدُّ

وكان بمصر شاعر يُقال له: أبو المكارم هبة الله بن وزير، فبلغ القاضي الملّقب بالسعيد المذكور أنه هجاه، فأحضره إليه وأدّ به وشتمه، فكتب إليه أبو الحسن المعروف بابن المنجم الشاعر المشهور:

قل للسعيد أدام الله نعمته ... صديق[٢] ابن وزير كيف تظلمه
صَفَعتهُ إذا غدا يهجوك منتقِماً ... وكيف[٣] من بعد هذا ظلت تشتمه
هجو يهجو، وهذا الصفع فيه رباً ... والشرع ما يقتضيه، بل يحرمه
فإن تقل ما بهجو[٤] عنده ألمٌ ... فالصفعُ والله أيضاً ليس يؤلمه

(١) كان مكمل الأدوات وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٤.
(٢) صديقنا وفيات الأعيان ٦/ ٦٤.
(٣) فكيف وفيات الأعيان ٦/ ٦٤.
(٤) مالهجو وفيات الأعيان ٦/ ٦٤.

سنة تسع وست مائة

فيها كانت الملحمة العظمى بالأندلس بن الناصر محمّد بن يعقوب، وبين الفرنج، فنصر الله الإسلام، والحمد لله استشهد بها عدد كثير وتعرف بوقعة العقاب.

وفي السنة المذكورة توفي الحافظ أحمد بن هارون البغويّ الشاطبيّ سمع أباه العلاّمة وابن هذيل، ولما حج سمع من السلفيّ، وكان عجباً في سرد المتون، ومعرفة الرجال والأدب، وكان زاهداً سلفياً متفنناً عدم في وقعة العقاب.

وفيها توفي الملك الأوحد أيّوب بن الملك العادل بن أبي بكر بن أيوب وكان ظلوماً سفاكاً لدماء الأمراء.

وفيها توفي أبو نزار ربيعة بن الحسن الحضرميّ اليمنيّ الصنعانيّ الشافعيّ المحدث، تفقه بظفار[1]، ورحل إلى العراق وأصفهان، وسمع من طائفة منهم أبو المطهر الصيدلانيّ، وكان مجموع الفضائل، كثير التعبد والعزلة.

سنة عشر وست مائة

فيها توفي تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن محمّد بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ المعدل ابن عساكر[2] والد العز النسابة.

وفيها توفي أبو الفضل التركستانيّ أحمد بن مسعود شيخ الحنفية في العراق، وعالمهم ومدرس مسند الإمام أبي حنيفة.

وفيها توفي السلطان شمس الدين، صاحب همدان، وأصفهان، والريّ وصاحب المغرب الملقّب بأمير المؤمنين، محمّد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن القيسيّ، وكان حسن القامة، أشقر، أشهل، طويل الصمت، كبير الأطراف بعيد الغور، ذا شجاعة وحلم، وفي سنة تسع وتسعين سار ونزل على مدينة فارس فأخذها، ثم سار وحاصر المهدية[3] أربعة أشهر، ثم تسلّمها، وقيل: إنه أنفق في هذه السفرة مائة وعشرين حمل ذهب.

وفيها توفي أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزوليّ، كان إماماً في علم النحو كثير الإطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه، وصنّف فيه المقدمة التي سمّاها (القانون)، أتى فيها

---

(١) ظفار: هي مدينة باليمن في موضعين، إحداهما قرب صنعاء معجم البلدان ٤/ ٦٨.

(٢) انظ البداية والنهاية ٨/ ٥٧٢.

(٣) المهديّة: في موضعين: إحداهما بإفريقية والأخرى اختطها عبد المؤمن بن عليّ قرب سلا معجم البلدان ٥/ ٢٦٥.

بالعجائب، وهي مع الإيجاز مشتملة على كثير من النحو قيل، ولم يسبق إلى مثلها واعتنى بها جماعة من الفُضلاء شرحوها، ومنهم من وضع لها أمثلة، ومع هذا فلا يفهم حقيقتها، وأكثر النُحاة يعترفون بقصور إفهامهم عن إدراك مراده منها، فإنها كلها رموز وإشارات، وقد قال بعض أئمة العربية: انا ما أعرف هذه المقدمة، وما يلزم من كونه ما أعرفها إن لا أعرف النحو، ويقال: إنه كان يدري شيئاً من المنطق، وعلى الجملة، ففي مقدمته المذكورة كلام غامض، وعقود لطيفة، وأشار إلى أصول صناعة النحو وغريبه.

وذكر بعضهم أنه كان إذا سُئل عنها، هذه من صنعتك؟ قال: لا لأنه كان متورعاً، وكان قد جرى بين الطلبة بحث حصلت منه فوائد، فعلقها الجزوليّ فيها، وفوائد أخرى من كلام شيخه، فسلم يسعه لذلك أن يقول هي من صنعتي، وإن كانت منسوبة إليه، لأنه الذي انفرد بترتيبها. وكان قد دخل إلى الديار المصرية، وأقام بهامدة حجج، ثم رجع إلى بلاد المغرب، وأقام بمدينة بجاية[1] مدة والناس يشتغلون عليه وانتفع به خلق كثير والجزوليّ بضم الجيم والزاي وسكون الواو نسبة إلى جزولة، وهي بطن من البربر.

وفي السنة المذكورة توفيت عين الشمس بنت أحمد بن أبي الفرج الثقفية الأصفهانية.

وفيها توفي أبو الفتح ناصر بن أبي المكارم المطرزيّ الفقيه النحويّ الأديب الحنفيّ الخوارزميّ، كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب، قرأ على جماعة، وسمع الحديث من طائفة، وكان رأساً في الاعتزال، داعياً إليه منتحلاً مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في الفروع، فصيحاً فاضلاً في الفقه، له عدة تصانيف نافعة منها [شرح المقامات] للحريريّ، وهو على وجازته مفيد محصل للمقصود، وله كتاب [المغرب] تكلم فيه على الألفاظ التي يستعملها الفقهاء من الغريب، وهي للحنفية بمنزلة كتاب الأزهريّ للشافعية. وما قصّر فيه، فإنه أتى جامعاً للمقاصد، وله غير ذلك، وانتفع الناس به وبكتبه ودخل بغداد حاجّاً، وجرى له هناك مباحث مع جماعة من الفقهاء وأخذ أهل الأدب عنه، وكان شهير الذكر بعيد الصيت، وله شعر من ذلك قوله:

وإني لاستحيي من المجد أنْ أرى ... حليف عوان أو أليف غواني

وقوله:

تعامى زماني عن حقوقي وإنه ... قبيح على الزرقاء تبدي تعاميا
فإن تنكّروا فضلي فإنّ دعاءه ... كفى لذوي الأسماع منكم مناديا

---

(١) بجاية: مدينة على ساحل البحرين افريقية والمغرب. وهي في لِحف جبل شاهق وفي قبلتها جبال كانت قاعدة مُلك بين حماد معجم البلدان ١/٤٠٣.

ويقال: إنه كان بخوارزم خليفة الزمخشريّ: والمطرزيّ نسبة إلى من يطرز الثياب ويرقمها إما هو أو أحد من آبائه.

وفيها وقيل: وفي سنة تسع توفي أبو الحسن عليّ بن محمّد الحضرميّ المعروف بابن خروف النحويّ الأندلسيّ الإشبيليّ، كان فاضلاً في علم العربية، وله فيها مصنفات شهدت بفضله وسعة علمه، شرح كتاب سيبويه شرحاً جيداً وشرح الجمل لأبي القاسم الزجاجيّ، وهذا غيرابن خروف الشاعر والحضرميّ نسبة إلى حضرموت.

سنة احدى عشرة وست مائة

فيها توفي الحافظ المتقن مسند العراق عبد العزيز بن محمود المعروف بابن الأخضر البغداديّ.

وفيها توفي الإمام الحافظ المفتي عليّ بن مفضل اللخميّ المقدسيّ الإسكندرانيّ الفقيه المالكيّ، كان فقيهاً فاضلاً في مذهب الإمام مالك، ومن أكابر الحفاظ المشاهير في الحديث وعلومه، صحب الحافظ أبا طاهر السلفيّ الأصبهاني.

وفيها توفي الشيخ العلاّمة زكي الدين أبو محمّد عبد العظيم بن عبد القويّ بن عبدالله المنذري، ولازم صحبته، وبه انتفع، وعليه تخرّج، وعليه أنشد أبو الحسن المقدسيّ المذكور لنفسه:

تجاوَزْتُ ستّين من مَولدي ... فأسْعَدُ أيامنا[١] المُشتَركْ
يسائلني زائري حالتي ... وما حال من حَلَّ في المُعترِكْ

وأنشد أيضاً لنفسه.

أيا نفسُ بالمأثورِ من[٢] خيرِ مرْسَلٍ ... وبأصحابه[٣] والتابعين تَمَسّكي
عساكِ إذا بالَغْتِ في نشرِ دينهِ ... بما طاب من نشر[٤] له أن تمسكي
وخافي غداً يوم الحساب جهنماً ... إذا لفحتْ نيرانُها أن تمسَّكي[٥]

وأنشد أيضاً لنفسه:

(١) أيّامي وفيات الأعيان ٣/ ٢٩١.
(٢) عن البداية والنهاية ٨/ ٥٧٥.
(٣) وأصحابه البداية والنهاية ٨/ ٥٧٥ وفي وفيات الأعيان ٣/ ٢٩١.
(٤) عُرف البداية والنهاية ٨/ ٥٧٥.
(٥) تمسكِ وفيات الأعيان ٣/ ٢٩١.

ولمـا تحيـي[١] مـن تحيـي بـريقهـا كـأنّ مـزاج الـراحِ بـالمسـكِ فـي فيهـا
ومـا ذُقـتُ فيهـا غيـر أنـي رويتُـهُ عـن الثقـةِ المسـواكِ، وهـو مـوافيهـا

هذا المعنى قد سار في كثير من أشعار المتقدمين والمتأخرين، فمن ذلك قول بشار من جملة أبيات:

يـا أطيـب النـاس ريقـاً غيـرَ مختبـر إلا شهـادة أطـرافِ المسـاويـك

وقول آخر:

وأخبـرنـي أتـرابُهـا أنّ ريقهـا علـى مـا حكـى عُـوداً لأراك[٢] لـذيـذُ

وكان مدرساً ونائباً في الحكم.

وفيها توفي الشيخ أبو الحسن بن أبي بكر الهروي، طاف البلاد وأكثر الزيارات حتى كاد يطبق الأرض بالدورات براً وبحراً وسهلاً ووعراً، وكان له فضيلة ومعرفة بعلم السيمياء[٣] وبه تقدم عند الملك الطاهر عند السلطان صلاح الدين صاحب حلب، وكان كثير الرعاية له، وبنى مدرسة بظاهر حلب.

قال ابن خلكان: رأيت فيها بيتين مكتوبين بخط حسن كتابة رجل فاضل نزل هناك قاصداً للديار المصرية. وهما.

رحـم الله مـن دعـا لأنـاس نـزلـوا ههنـا يـريـدون مصـر
نـزلـوا والخـدود بيـض، فلمـا أزف البيـن عـدن بـالـدمـع حمـرا

وللهرويّ المذكور مصنفات منها كتاب الإشارات في معرفة الزيارات وكتاب الخطب الهروية وغير ذلك.

سنة اثنتي عشر وست ومائة

فيها سار الملك المسعود ابن السلطان الملك الكامل من الديار المصرية عندما بلغه موت صاحب البحرين سيف الإسلام، فاستولى على إقليم اليمن بغير حرب.

وفيها استولى خوارزم شاه على غزنة، وهرب ملكها إلى نهاوند، ثم جمع وحشد، والتقى صاحب غزنة.

---

(١) ولمياءَ وفيات الأعيان ٣/ ٢٩١.
(٢) الأراك: شجرٌ كثير الفروع من الفصيلة الزيتونية، ينبُتُ بريّاً في شبه جزيرة العرب وفي فلسطين، وتُتخذ المساويك من فروعه ومن عروقه.
(٣) علم السيمياء.

وفيها انهزم الذي غلب على همدان والريّ وأصبهان، ثم قتل.

وفيها توفي الحافظ عبدالله بن سلمان الأندلسيّ، وكان موصوفاً بالاتقان حافظاً لأسماء الرجال، صنّف كتاباً في تسمية شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود والترمذيّ والنسائي، ولم يكمله، وكان إماماً في العربية والترسل والشعر، وليّ قضاء إشبيلية وقرطبة، وأدب أولاد المنصور صاحب المغرب.

وفيها توفي الحافظ عبد القادر الرهاويّ[١]، كان مملوكاً لبعض أهل الموصل فأعتقه وحُبب إليه فنّ الحديث، فسمع الكثير، وصنف وجمع، وله [الأربعون المتباينة الإسناد والبلاد] وهو شيء ما سبقه إليه أحد ولا يرجوه بعده محدث لخراب البلاد، سمع بأصبهان، وهمدان، وهراة، ومرو، ونيسابور وسجستان، وبغداد ودمشق، ومصر.

وقال ابن خلكان: كان حافظاً ثبتاً، كثير التصاينف، ختم به الحديث وقال أبو أسامة: كان صالحاً مهيباً زاهداً خشن، العيش، ورعاء ناسكاً.

وفيها توفي الوجيه المعروف بابن الدّهان المبارك بن المبارك النحويّ الضرير الواسطيّ؛ قرأ القراءات، واشتغل بالعلم، وسمع الحديث من أبي زُرعة طاهر بن محمّد بن طاهر المقدسيّ، وتفقّه على مذهب أبي حنيفة بعد أن كان حنبلياً، ثم انتقل إلى مذهب الشافعيّ لما شعر المجلس تدريس النحو بالنظامية، وشرط الواقف أن لا يفوض إلاّ إلى شافعيّ المذهب، وفي ذلك يقول أبو البركات المؤيدين يزيد[٢] التكريتي:

ومن مبلغٌ عني الوجيه رسالةً ... وإن كان لا تُجدي إليه[٣] الرسائلُ
تمذهب[٤] للنعمان بعد ابن حنبلٍ ... وذلك لمّا أعوزتك المآكِلُ
وما اخترت رأي الشافعيِّ تديناً[٥] ... ولكنّما يهوي الذي منه حاصِلُ
وعما قليل أنت لا شكَّ صائرٌ ... إلى ملك فأفطن[٦] لما أنت[٧] قائل

وللوجيه المذكور تصنيف في النحو، وله شعر ومنه قوله:

---

(١) كان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة، كان ديّناً خيّراً البداية والنهاية ٨/ ٥٧٦.
(٢) زيد وفيات الأعيان ٤/ ١٥٣.
(٣) لديه البداية والنهاية ٨/ ٥٧٦.
(٤) تمذهبت وفيات الأعيان ٤/ ١٥٣ كذلك في البداية والنهاية ٨/ ٥٧٦.
(٥) ديانةً البداية والنهاية ٨/ ٥٧٦.
(٦) .إلى مالك فانظر البداية والنهاية ٨/ ٥٧٦
(٧) أنا وفيات الاعيان ٤/ ١٥٣.

ولستُ أستفتح اقتضاك[١] بالوعدِ وإن كنتَ سيد الكرماءِ
فإلَهُ السماء قد ضَمِن الرزقَ عليه ويقتضي بالدعاءِ

وفيها توفي الشيخ الكبير الولي الشهير العارف بالله الخبير أبو الحسن عليّ بن حميد الصعيديّ المعروف بابن الصباغ صاحب أحوال سنية ومقامات علية وأنفاس صادقة، وكرامات خارقة، وفضائل جليلة، ومواهب جزيلة صحب الشيخ الكبير عبد الرحيم القناوي، وتخرج به، وكان والده صباغاً، وكان يريد أن يكون ولده صباغاً مثله، ولا يرى بما هو عليه من الاشتغال بسلوك طريق الصوفية، حتى كان بعض الأيام، فاشتد غضبه عليه وخاصمه كما اقتضى الوقت، وهو مشتغل عن الصباغ والثياب على حالها لم يصبغها، وعنده أزيار متعددة فيها أصباغ مختلفة الألوان يصبغ كل ثوب في زير منها على حسب ما يطلب صاحبه من ألوان الصبغ، فأخذوا أبو الحسن مجموع الثياب، وطرحها في زير[٢] واحد، فصاح والده، وإنغاظ عليه غيظاً شديداً، وقال: أتلفت ثياب الناس، فأدخل أبو الحسن يده في الزير، وأخرجها جميعها، وكل واحد منها مصبوغ باللون الذي أراد صاحبه، فعند ذلك اندهش عقل والده وهاله ما رأى من تلك الكرامة التي ظهرت عليه، وسلم له حاله، واعتقد ما هو مائل إليه من السلوك لطريق الصوفية، وخلاه من تلك الصنعة بالكلية، ولما انتهى حاله وضار من أجلاء المرادين التمس منه الصحبة خلايق من المريدين، وكان لا يصحب إلاّ من يراه مكتوباً في اللوح المحفوظ من أصحابه، فجاءهُ إنسان يطلب منه الصحبة وخدمة الفقراء في بعض الوظائف، فأطرق الشيخ ساعة ثم رفع رأسه، وقال: ما بقي عندنا وظيفة، فقال: يا سيدي لا بد أن تفكّر لي في خدمة، فقال: ما عندنا خدمة إلا إن كنت تذهب وتأتي كل يوم بحزمة من الحلفاء[٣]، قال: نعم يا سيدي فصار كل يوم يأخذ المحش[٤] ويأتي بحزمة منها، فلما كان بعد مدة أوجعته يده فرمى بالمحش وترك الفقراء وذهب، فبينا هو في بعض الطريق رأى في منامه كأن القيامة قامت والناس يجوزون على الصراط فمنهم الناجي، ومنهم الواقع في النار نسأل الله السلامة، فلم يقدر يجوز، وبقي في خطر عظيم يكاد يقع فيها، فطلب شيئاً يستمسك، فلم يجد وبقي متحيراً مشرفاً على الهلاك، وإذا حزمة من حزم الحلفاء تحته في النار مارة عليها، فرمى بنفسه فوقها، حتى أخرجته منها ناجياً بلطف الله تعالى، فاستيقظ مرعوباً من هول ما رأى، فرجع إلى الشيخ، فلما وقع بصر الشيخ

(١) ولست أستقبح اقتضاءك ٤/١٥٣.
(٢) زير: الضخم من الجرار.
(٣) الخلفاء: نبات عشبي مُعمّر من الفصيلة النجيلية، أوراقه مستطيلة خيطية أو أسليّة النّصل يلتفّ بعضها على بعض تُصنع منها الحُصر والقُفف والجبال.
(٤) المحش: المنجل.

عليه، قال له: ما قلنا لك ما عندنا خدمة تصلح لك سوى قطع الحلفاء، فاستغفر الله، وعاد إلى ما كان عليه، وكان ابن الصبّاغ المذكور جليلاً، وناهيك لجلالته أن الشيخ الكبير الجليل القدر الشهير أبا عبدالله القرشيّ لما مات شيخه أصابته وحشة، فذهب إليه، وتأنس به رضي الله تعالى عنه مع الجميع منهم ونقضا بهم.

سنة ثلاث عشرة وست مائة

فيها قيل: وقع بالبصرة برد أصفر كالتارنجة الكبيرة، وأكبره ما يستحيي الإنسان أن يذكره.

وفيها: توفي العلاّمة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكنديّ المعروف البغدادي المولد والمنشأ والدمشقي الدار: والوفاة النحويّ اللغويّ المقريّ أكمل القراءات العشرة وله عشرة أعوام.

قال بعضهم: وهذا ما لا أعلمه تهيأ لأحد سواه أتقن القراءات والعربية على جماعة، وقال الشعر الجيد، ونال الجاه الوافر، فإن الملك المعظم كان قديم الاشتغال عليه، وكان ينزل من القلعة إليه، وكان أوحد عصره في فنون الأدب وعلو السماع، لقي جِلّة المشائخ، وأخذ عنهم، منهم الشريف أبو السعادات بن الشجَريّ وأبو محمّد بن الخشّاب، وأبو منصور بن الجواليقي استوطن بدمشق بعد أسفار سافرها، وقصده الناس، وأخذوا عنه، وله كتاب نسخه على حروف المعجم قال ابن خلكان: أخبرني أحد أصحابه أنه قال: كنت قاعداً على باب ابن الخشاب النحويّ ببغداد، وقد خرج من عنده الزمخشريّ الإمام المشهور، وهو يمشي في خشب لأن احدى رجليه كانت سقطت من الثلج، والناس يقولون: هذا الزمخشريّ ونقل من خطه قال: كان الزمخشريّ أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وبه ختم الله فضلاؤهم وكان محققاً بالاعتزال ورأيته عند شيخنا ابن الجواليقي مرتين قارئاً بعض كتب اللغة من فواتحها، مستجيزاً لها لأنه لم يكن له ـ على ما عنده من العلم ـ لقاء ولا رواية.

ولأبي اليمن شعر من جملته قوله، حين طعن في السن:

أرى المرءَ يهوى أن تطولَ حياتُهُ	وفي طولها إرهاقُ ذُل وإزهاقُ
تمنيتُ في عصر الشبيبةِ أنني	أعَمَّرَ والأعمال[1] لا شك أرزاق
فلما أتاني ما تمنيتُ ساءني	من العمر ما قد كنتُ أهوى وأشتاق

(١) والاعمار وفيات الاعيان ٣٤١/٢.

تخيّل لي فكري إذا كنتُ خالياً رُكوبي على الأعناق والسير اعناق
ويذكرني مَرُّ النسيم وروحُهُ ضمائر[1] يعلوها من التربِ أطباق
وها أنا في إحدى وتسعين حجة لها في ارعاد مَخُوفٌ وإبراق
يقولون تِرياقٌ لمثلكَ نافعٌ وما لي إلا رحمة اللهِ ترايق

ولما توفي نزل الناس بموته درجة في القراءات، وفي الحديث لأنه أخر من سمع ممن هو أعلى أهل عصره سنداً.

وفيها توفي الملك الظاهر صاحب حلب أبو الفتح غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان ملكاً عظيماً مهيباً حازماً متيقظاً، كثير الاطلاع على أخبار الملوك، وأحوال رعيته، عالي الهمة، حسن التدبير والسياسة، باسط العدل، ملقباً بغياث الدين، محباً للعلماء مجيزاً للشعراء، ويحكي من سرعة ادراكه أشياء حسنة، منها أنه جلس يوماً فعرض العسكر، وكلما حضر واحدمن الأجناد سأله الديوان عن اسمه، حتى حضر واحد، فسألوه، فقبّل الأرض، فلم يفطن أحد منهم لما أراد فأعادوا سؤاله، ففال الملك الطاهر: اسمه غازي، وكان كذلك وإنما لم يذكر اسمه أدباً لكونه موافقاً الاسم السلطان المذكور.

وفيها توفي الفقيه الإمام معين الدين محمّد بن إبراهيم السهيلي الشافعي مؤلف الكافية في الفقه في مجلد، كان إماماً فاضلاً متفنناً مبرزاً، وله كتاب ايضاح الوجيز في مجلدين أحسن فيه، وله طريقة مشهورة في الخلاف والقواعد المشهورة المنسوبة إليه، واشتغل عليه الناس، وانتفعوا به ويكتبه من بعده خصوصاً القواعد، فإنّ الناس أكبّوا على الاشتغال بها، توفي بكرة يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة.

وفيها توفي العزّ محمّد بن الحافظ عبد الغني المقدسيّ[2]، سمع وكتب الكثير وارتحل، وكان حافظاً فقيهاً ذا فنون ومروءة تامة، وديانة متينة، موصوفاً بحسن القراءات وجودة الفهم.

سنة أربع عشرة وست مائة

فيها سار خوارزم شاه في أربع مائة ألف راكب إلى أنْ وصل همدان قاصداً بغداد ليتملكها، ويحكم على الناصر لدين الله، فاستعد الناصر، وفرّق الأموال والسلاح وراسله، فلم يلتفت إليه، قال الرسول: أدخلت إليه في خيمة عظيمة لم أر مثل دهليزها[3]،

(١) حفائر وفيات الأعيان ٢/ ٣٤١.
(٢) انظر البداية والنهاية ٨/ ٥٨١.
(٣) دهليزها: (فج) فارسية: المدخل بين الباب والدار. (ج) دهاليز.

والأطناب حرير، وفي الخدمة ملوك العجم، وما وراء النهر، وهو شاب عليه شعرات قاعد على تخت، وعليه قباء يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه قلنسوة جلد يساوي درهماً، فسلّمت فما رد ولا أمرني بالجلوس، فخطبت وذكرت فضل بني العبّاس، وأطنبت في فضل الخليفة والترجمان يخبره، فقال: قلُ له هذا الذي تصفه ما هو في بغداد، بل أنا أجيء وأقيم خليفة هكذا، ثم ردنا بلا جواب واتفق أن نزل بهمدان ثلج عظيم أهلك خيلهم، وركب هو يوماً فعثر به فرسه، فتعطب، وقلّت الأقوات على جيوشه ولطف الله فردوا.

وفيها تخربت الفرنج على الملك العادل، ونزلوا على عين جالوت[١]، وقطعوا الشريعة، وسبوا اليزك بالمثناة من تحت والزاي يعني الجرس وعانوا في البلاد، وتهيأ أهل دمشق للحصار، واستحث العادل ملوك النواحي على النجدة، فرجعت الفرنج بالغنائم والسبي إلى نحو عكا، هكذا أذكره الذهبي عكا بالألف وكانوا خمسة عشر ألفاً.

وفيها توفي العماد المقدسي إبراهيم بن عبد الواحد أخو الحافظ عبد الغني قيل: وكان صواماً قواماً، صاحب أحوال وكرامات، سمحاً متفضلاً ورعاً متواضعاً.

وفيها توفي قاضي القضاة عبد الصمد بن محمّد الأنصاريّ الخزرجيّ الدمشقيّ الشافعيّ، سمع من الكبار، ودرس وأفتى وبرع في المذهب وانتهى إليه علو الإسناد، وكان صالحاً عباداً من قضاة العدل.

سنة خمس عشرة وست مائة

فيها الملك الأشرف موسى كسر ملك الروم كيكاوس، ثم أخذ عسكره وعسكر حلب، ودخل بلاد الفرنج ليشغلهم عن دمياط، فأقبل صاحب الروم لأعمال حلب، وأخذ بعض نواحيها، فقصده الملك الأشرف، وقدم بين يديه العرب، فكسروا والروم، وهزموهم.

وفيها التقى الملك المعظم الرّوم، فكسرهم، وقتل خلقاً وأسر مائة فارس، ولكنه تمقت إلى الناس بإدارة المكوس[٢] والجبايات بدمشق، واعتذر لما عنفوه بقلة المال، وخرب بايناس، وبعض البلاد مما يلي تلك الجهة، وكانت قفلاً للشام، وزعم أنه فعل ذلك خوفاً من استيلاء الفرنج، وكذلك خرب قلعة منيعة كان قد أنشأها على الطور، وعجز عن حفظها لإحتياجها إلى المال والرجال.

---

(١) عين جالوت: وهي بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولوا عليها مدة ثم استنقذها منهم صلاح الدين معجم البلدان ٤/ ٠٠.

(٢) المكوس: المكس الضريبة يأخذها الجابي من التجار عن أشياء معينة عند إدخالها المدن أو عند بيعها (ج) مكوس.

وفيها توفي صاحب مصر والشام السلطان الملك العادل سيف الدين محمّد ابن الأمير نجم الدين أيوب، كان أخوه صلاح الدين يستشيره ويعتمد على رأيه لعقله ودهائه، ثم تقلبت به الأحوال بقدرة القدير ذي الجلال، واستولى على المالك وتسلطن ابنه الملك الكامل على الديار المصرية وابنه المعظم على الشام، وابنه الأشرف على الجزيرة، وابنه على خلاط، وابن ابنه المسعود على اليمن، وكان ملكاً جليلاً طويل العمر، عميق الفكر، بعيد الغور، جمّاعاً للمال، ذا حلم وسؤدد وله نصيب من صوم وصلاة، وكان يضرب به المثل في كثرة أكله، ولم يكن محبباً إلى الرعية لمجيئه بعد الدولتين النورية والصلاحية.

قال الملك العادل: لما عزمنا على المسير إلى مصر احتجت إلى حرمدان يعني الذي يسميه الناس اليوم حمدان، فطلبته من والدي، فأعطاني وقال: يا أبا بكر إذا ملكتم مصر، فاعطني ملؤه ذهباً، فلما جاء إلى مصر، قال: يا أبا بكر أين الحرمدان فرحت وملأته من الدراهم السود، وجعلت على أعلاه شيئاً من الذهب وأحضرته إليه، فلما آره اعتقده ذهباً، فقلبه وظهرت الفضة السوداء، فقال: يا أبا بكر تعلمت من دغل[1] المصريين.

ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه في حال غيبته في الشام، واستدعي منه الأموال للانفاق في الجند وغيرهم، فتقدم السلطان إلى العماد الأصفهاني إلى أنْ يكتب إلى أخيه الملك العادل يستحثه على انفاذها. حتى قال: يسير الحمل من مالنا أو من ماله؛ ولما وصل إليه الكتاب شقّ عليه، فشكا إلى القاضي الفاضل، وكتب الفاضل جوابه ومن جملته «وإماماً ذكره المولى من قوله يسير الحمل من مالنا أو من ماله، فتلك لفظة لم يكن المقصود بها النجمة، وإنما المقصود بها من الكاتب السجعة، وكم من لفظة فضة[2]، وكلمة فيها غلظة، حيرت الأقلام[3]، وسدت خلل الكلام» وخلّف تسعة عشر ابناً تسلطن منهم خمسة. الكامل، والمعظم، والأشرف، والصالح وشهاب الدين غازي.

وفيها توفي صاحب الموصل السلطان الملك القاهر عز الدين أبو الفتح مسعود بن السلطان نور الدين ارسلان شاه ابن المسعود الأتابكي وصاحب الروم السلطان الملك الغالب عزّ الدين بن كيكاوس.

وفيها توفي محدث بغداد الحافظ أبو العبّاس أحمد بن أحمد البندنيجي.

وفيها توفي الفقيه أبو حامد محمّد بن محمّد بن محمد العميديّ الحنفيّ السمرقنديّ،

---

(١) رغل المصريين وفيات الأعيان ٥/ ٧٤.

(٢) فظة وفيات الأعيان ٥/ ٧٥.

(٣) جبرت عيّ الأقلام وفيات الأعيان ٥/ ٧٥.

كان إماماً في فنّ الخلاف، وهو أول من أفرده بالتضيف، ومن تقدمه، كان يمزجه بخلاف المتقدمين، ومن تصانيفه أيضاً كتاب النفائس اختصره شمس الدين أحمد بن الجليل الفقيه الشافعيّ الجونيّ قاضي دمشق وسماه (عرائس النفائس)، وكان كريم الأخلاق، كثير التواضع، طيب المعاشرة.

وفيها توفي الفقيه العلاّمة عماد الدين أبو القاسم الدامغاني قاضي القضاة عبد الله بن حُسين، وليّ القضاء بالعراق نحو ثمان سنين، ثم عُزل، وأبو الفتوح محمّد بن محمّد بن محمّد القرشي التيميّ البكريّ الصوفيّ.

وفيها توفيت أمّ المؤيّد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الجرجانيّ الأصل، النيسابوريّ الدار، الصوفيّ المذهب المعروف بالشعريّ بفتح الشين المعجمة، وسكون العين المهملة، وكسر الراء، كانت عالمة أدركت جماعة منّ العلماء، وأخذت عنهم رواية واجازة منهم الإمام أبو المظفر بن عبد المنعم بن عبد الكريم القشيري والحافظ أبو الحسين عبد الغافر بن إسماعيل الفارسيّ وأبو البركات ابن الإمام محمّد بن الفضل الفزاريّ والعلاّمة أبو القاسم الزمخشريّ صاحب الكشاف وغيرهم.

سنة ست عشرة وست مائة

في أولها خرب الملك المعظم سور بيت المقدس خوفاً وعجزاً من الفرنج أن يملكه، فشتت أهله وتضرروا، وكان هو مع أخيه الكامل في كشف الفرنج عن دمياط[1]، وتمت لهم وللمسلمين حروب وقتال كثير، وجدت الفرنج في محاصرة دمياط، وعملوا عليهم خندقاً كبيراً، وثبت أهل البلد ثباتاً لم يسمع بمثله، وكثر فيهم القتل والجراح، وعدمت الأقوات، ثم سلموها بالأمان وتسارعت الفرنج من كل فج عميق، وشرعوا في تحصينها، وأصبحت دار هجرتهم وترجوا أخذ ديار مصر، وأشرف الإسلام على الإنكسار والدمار، وأقبل أعداء الله من المشرق والمغرب، وأقبل المصريّون على الجلاء فيهم الكامل إلى أن سار أخوه الأشرف كما سيأتي في سنة ثمان عشر وست مائة.

وفيها توفي أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبريّ الضريريّ النحويّ صاحب التصانيف، أخذ النحو عن أبي محمّد بن الخشّاب وغيره من مشائخ عصره ببغداد، وسمع الحديث من أبي الفتح محمّد بن عبد الباقي المعروف بابن البطي، ومن أبي زرعة طاهر بن محمّد المقدسي وغيرهما، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله في فنونه على ما قيل:

---

(١) دمياط: مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاوية بين بحر الروم المسلح والنيل وهي ثغر من ثغور الإسلام معجم البلدان ٢/٥٣٧.

وكان الغالب عليه علم النحو وتصانيفه مفيدة منها شرح كتاب الإيضاح لأبي عليّ الفارسيّ وديوان المتنبي واعراب القرآن الكريم في جزأين وكتاب اعراب الحديث وكتاب شرح اللمع لابن جنّي وكتاب اللُباب في علل النحو وكتاب اعراب شعر الحماسة وشرح المفصل للزمخشريّ شرحاً مفصلاً، وشرح الخطيب النباتية والمقامات الحريرية، وصنف في النحو والحساب، واشتغل عليه خلق كثير، وانتفعوا به واشتهر اسمه في البلاد في حياته وبعد صيته، وحكى في شرح المقامات عند ذكر العنقاء أنّ أهل الرس كان بأرضهم جبل يقال له: دمح صاعد في السماء قد رميل، وكانت به طيور كثيرة، وكانت العنقاء طائرة عظيمة الخلق طويلة العنق لها وجه إنسان وفيها من كل حيوان شبه من أحسن الطير، وكانت تأتي في السنة مرة هذا الجبل، فتلتقط طيره، فجاعت في بعض السنين وأعوزها الطير، فانقضت على صبي، فذهبت به، فسميت عنقاء مغرب والمغرب الذي يجيء بالغرائب لإبعادها بما تذهب به، ثم ذهبت بجارية أخرى، فشكى أهل الرسل إلى نبيهم حنظلة بن صفوان، فدعا عليها فأصابتها صاعقة، فاحترقت، والله أعلم انتهى.

قال بعض أهل العلم: هذا حنظلة بن صفوان نبي أهل الرس كان في زمن الفترة بين عيسى ونبينا صلوات الله وسلامه عليهما.

وذكر بعض المؤرخين، وهو الفرغانيّ نزيل مصر أنّ العزيز نزار بن المعزّ صاحب مصر اجتمع عنده من غرائب الحيوان ما لم يوجد عند غيره، فمن ذلك العنقاء، وهي طائر جاءه من صعيد مصر في طول البلسون، وأعظم جسماً منه له غبب[1] ولحية، وعلى رأسه وقاية، وفيه عدة ألوان، ومشابهة من طيور كثيرة.

وذكر الزمخشريّ في كتاب ربيع الأبرار في باب الطير، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنّ الله تعالى خلق في زمن موسى طائرة اسمها العنقاء، لها أربعة أجنحة من كل جانب، ووجه كوجه الإنسان وأعطاها من كل شيء قسطاً، وخلق لها ذكر أمثلها، وأوحي إليه إني خلقت طائرين عجيبين وجعلت رزقهما في الوحوش التي حول بيت المقدس وأنستك بهما وجعلتهما زيادة فيما فضلت به بني إسرائيل، فتناسلا، وكثر نسلهما، فلما توفي موسى عليه السلام انتقلت، فوقعت بنجدوا الحجاز، فلم تزل تأكل الوحوش، وتخطف الصبيان إلى أن شكوها إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا الله تعالى، فقطع نسلهما وانقرضت، والله أعلم.

قلت: وأما ما يقال في المثل في عدم وجود بعض الأشياء كالعنقاء يسمع بها ولا يرى

(١) غبب: ما يتدلّى منتفخاً تحت الحنك من الناس والديكة والبقر (ج) أغباب.

على هذا يكون المراد بعدم رؤيتها بعد الانقراض المذكور.

وقال بعضهم: شيئان يسمع بهما ولا يُريان العنقاء والغول، هكذا قيل قلت: ولكن قد حُكي في رواية الغول حكايات كثيرة وإنها تتلون وإلى ذلك أشار كعب بن زهير في قوله:

ولا تدوم على حال تكون بها كما تلون في أثوابها الغول

وهي من سعالى[1] الشياطين تعوذ بالله منهم، وقد قيل: إنها تجيء بعض الناس في صورة امرأة حسناء، ثم تسحره حتى يصير في صورة حمار، فتركب عليه وتركضه إلى حيث شاء، ثم تتركه أو ترده، ثم تروح وتخليه، وعلى لسان حال من وقع له هذا قلت أبياتاً في وصف الدنيا مشبهاً لها بالغول على طريق الخناس منها قولي.

كغول ذي غول ذي خداع وجابي الأرض ركضاً، ثم جابي
سعى لي مع سعالى ثم دلى يد الماجري بي في جرابي
ولي أهوى بما أهوى، فلما ترقي في حرابي في حرابي
رمى نحري لنحري ثم جهدي أنادي بالحرابي وأحرابي

ومعنى قولي في البيت الأول وجابي الأرض من الوحي الذي هو الدق أي ركض بي، وقولي في آخره: ثم جابي من المجيء أيّ ردني، وفي البيت الثاني سعالى من سعى يسعى مع سعالى جمع سعلان لما جرى بي من الجري، وفي جرابي الجراب المعروف، ولي أهوى أي أخرج من الجراب شيئاً أهوى به إلي بما أهوى أيّ بما أحب، والمعني أنه طمنني حتى أسكت خداعاً منه، فلما ترقي في حرابي حراً هو الجبل المبارك المعزوف الذي ترقي فيه، وفي حراب الثاني جمع حربة رمي نحري أي بتلك الحراب لنحري أي لقتلي كما ينحر الناقة، معنى أنادي بالحرابي أيّ بالجهد والطاقة مني التي لا أقدر على غيرها، وأحرابي من الحرب أيّ جهدي أقول واحرباه.

وفيها توفي الإمام العلاّمة أبو محمّد عبدالله المعروف بابن شاس الجذاميّ المصريّ شيخ المالكية. صاحب كتاب الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة وضعه على ترتيب وجيز الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزاليّ رحمه الله تعالى.

قال ابن خلكان: والطائفة المالكية بمصر عاكفة عليه لحسنه، وكثرة فوائده، وكان مدرساً بمصر بالمدرسة المجاورة للجامع، وتوجه لمجاهدة العدّو لما أخذ دمياط، فتوفي هناك رحمه الله، كان من أكبار أئمة العالمين، حجّ في أواخر عمره، ورجع وامتنع من الفتيا

---

(١) سعالى: السِّعلاة والسعلاء: الغول أو أنثى الغيلان (ج) سعالى.

إلى أنْ مات مجاهداً في سبيل الله.

وفيها توفي الحافظ عليّ بن القاسم ابن الحافظ الكبير أبي القاسم بن عساكر وصاحب سنجار الملك المنصور قطب الدين محمّد بن عماد الدين زنكي، وستّ الشام الخاتون بنت أيوب أخت الملك العادل، توفيت في دمشق، ودفنت في مدرستها الشامية[1].

وفيها توفي أبو الفرج عبدالله بن أسعد بن عليّ المعروف بابن الدّهان الموصليّ الفقيه الشافعيّ المنعوت بالمهذب؛ كان فيهاً أديباً فاضلاً شاعراً، لطيف الشعر، مليح السبك، حسن المقاصد، غلب عليه الشعر واشتهر به، وله ديوان صغير وكله جيد، وهو من أهل الموصل. لما ضاقت به الحال عزم على قصد الوزير بمصر الملقب الملك الصالح، وعجز عن استصحاب زوجته، فكتب إلى نقيب العلويين بالموصل أبي طاهر زيد بن محمّد الحسيني هذه الأبيات.

وذات شجو أسأل البَيْنُ غيرتها[2] ... باتت تؤمّلُ بالتقييد[3]امساكي
لجّت فلما رأتني لا أصيخُ لها ... بكَتْ فأقرح قلبي خفتها[4]الباكي
قالت وقد رأتِ الأجمال محدجة[5] ... والبينُ قد جمع المشكوَّ والشاكي
مالي[6] إذا غبتُ في ذا المحل قلتُ لها: ... الله وابنُ عبيد الله مولاكِ
لا تجزعي بانحباس الغيث عنك فقد ... سألتُ نواءَ الثريّا جوف[7] مغناكِ

فكفل بالشريف بن عبيدالله المذكور لزوجته بجميع ما تحتاج إليه مدة غيبته عنها، فتوجه إلى مصر، ومدح الصالح بقصيدته الكافية أولها.

أما كفاك تلافي في تلافيكا ... ولست تنقم إلا فرط حبيكا

ومنها:

أأمدح التّرك أبغي الفضل عندهُم ... والشعر مازل عند لترك متروكا
لا نلت وصلك إن كان الذي زعموا ... ولا شفا ظمأى جود ابن رزيكا

---

(١) دفنت بتربتها بالعوينة: مرآة الزمان ٨/ ٦٠٧.
(٢) عبرتها: وفيات الأعيان ٣/ ٥٧.
(٣) بالتفنيد: وفيات الأعيان ٣/ ٥٧.
(٤) جفنها: وفيات الأعيان ٣/ ٥٨.
(٥) محدّجة: حدج البعير حدجاً: شدَّ عليه الحدج. والحدوج: الإبل برحالها والحدج مركب للنساء كالهودج والمحفّة.
(٦) من لي وفيات الأعيان ٣/ ٥٨.
(٧) جودَ وفيات الأعيان ٣/ ٥٨.

ابن رزيك بضم الراء وكسر الزاي المشددة، وهو الممدوح، وقال العماد الكاتب أنشدني:

تردي الكتائب كُتُبُه فإذا انبرى[1] لم يدر[2] أنفذا أسطرا أم عسكرا

وفي معنى تشبيه القلم بالعسكر قول بعضهم:

قومٌ إذا أخذوا الأقلام عن غضب ثم استمدّوا بها ما المنيّاتِ
نالوا بها في أعاديهم وإن بعدوا ما لم ينالوا بحدّ المَشْرفيّاتِ

سنة سبع عشرة وست مائة

في رجب منها حصلت وقعة البرنس بين الكامل والفرنج، وكان فتحاً نصر الله فيه المسلمين، وقُتل من الملاعين عشرة آلاف، وانهزموا إلى دمياط.

وفيها حج بالعراقيين مملوك الخليفة الناصر اشتراه بخمسة آلاف دينار، وكان معه تقليد بمكة لحسن بن قتادة، وكان أبوه قد مات في وسط العام، فجاءه بعرفات، فقال: أنا أكبر أولاد قتادة، فولّى، فتوهم حسن أنه معزول، فأغلق أبواب مكة، فركب المملوك ليسكن الفتنة، وقال: ما قصدي قتال، فثار به العبيد والأشرار وحملوه، فانهزم أصحابه، فتقدم عبدٌ فعرفت فرسه، فذبحوه، وعلقوا رأسه، وأرادوا نهب العراقيين، فقام في ذلك أمير الشاميين المعتمد والي دمشق ورد معه ركب العراق.

وفيها أخذت التتار بالتاء المثناة من فوق مكررة قبل الألف، وبعدها راء كثيراً من البلدان منها بخارى، وسمرقند، ثم عبر نهر جيحون، واستولى على خراسان قتلاً وسبياً وتخريباً إلى حدود العراق بعد أن هزموا جيوش خوارزم، ومزقوهم، ثم عطفوا على قزوين فاستباحوها، وكذلك استباحوا أذربيجان، وحاصروا تبريز[3]، وبها أن البهلوان، فبذل لهم أموالاً وتحفاً، فرحلوا عنه، وحاربوا الكرخ، وهزموهم، ثم ساروا إلى مراغة[4] وأخذوها بالسيف ثم كرّوا نحو إربل، فاجتمع لحربهم عسكر العراق والموصل مع صاحب إربل، فهابوهم، وعرجوا على همدان، فحاربهم أهلها أشدّ محاربة في العام المقبل، وأخذوها بالسيف وأحرقوها، ثم نزلوا على بيلقان وأخذوها بالسيف وقتلوا ثم حاربوا الكرخ أيضاً،

---

(١) انبرت وفيات الأعيان ٣/٥٨.
(٢) تذر وفيات الأعيان ٣/٥٨.
(٣) تبريز: من أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجص وفي وسطها عدة أنهار جارية معجم البلدان ٢/١٥.
(٤) مراغة: بلدة مشهورة عظيمة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان معجم البلدان ٥/١٠٩.

وقتلوا منهم ثلاثين ألفاً، ثم سلكوا طرقاً وعرة في الجبال إلى أن وصلوا بلاد اللّان وفيها طوائف من الترك، وقليل من المسليمن، فالتقوا وكانت الدائرة على اللان، فقتلوا وسبوا ومروا إلى أن وصلوا مدينة سوادق ولم يزالوا يطوون الأرض ويضربون إلى أن كلت أسلحتهم وتكلكلت أيديهم مما قتلوا من النساء والأطفال، فضلاً عن الرجال، وكان خوارزم شاه بطلاً مقداماً، وعسكره أو باشاً ليس لهم أقطاع، ولا ديوان بل يعيشون من النهب والغارات، وهم ما بين تركي كافر، أو مسلم جاهل لا يعرفون تعبية العسكر في المصاف، ولا أدمنوا إلاّ على المهاجمة وما لهم زرديات[1] ولا عدة جيدة للحرب ثم أنه كان يقتل بعض القبيلة، ويستخدم باقيها، ولم يكن فيه شيء من المداراة لا لجنده ولا لعدوه، ويحرش بالتتار، وهم يغضبون على من يرضيهم، فكيف من يبغضهم ويوذيهم؟! فخرجوا عليه وهم بنواب وأولو كلمة مجتمعة وقلب واحد ورئيس مطاع، فلم يمكن خوارزم شاه أن يقف بين أيديهم ولكل أجل كتاب.

وفي السنة المذكورة توفي قاضي القضاة زكي الدين محمّد بن يحيى القرشيّ الدمشقيّ، كان ذهيبة، وسطوة، وحشمة، وكان الملك المعظم يكرهه فاتفق أنه طالب جابي العزيزية بالحساب، فأساء الأدب عليه فأمر بضربه بين يديه، فوجد المعظم سبيلاً إلى أذيته، وبعث إليه بخلعة[2] أمير قباء وكلوته[3]، وألزمه يلبسها في مجلس حكمه، ففعل، ثم قام، فدخل ولزم بيته ومات كمداً يقال: إنه رمي قطعاً من كبده، ومات كهلاً، فندم المعظم.

وفيها توفي الشيخ المقدم أسد الشام عبدالله بن عثمان اليويثيني[4]، كان شيخاً مهيباً طوالاً حاد الحال، تام الشجاعة أمّاراً بالمعروف نهّاء على المنكر، كثير الجهاد، دائم الذكر، عظيم الشأن، منقطع القرين، صاحب مجاهدات، وكان الأمجد صاحب بعلبك يزوره، وكان يهينه ويقول: يا مجيد أنت تظلم. وتفعل وتفعل[5]، وهو يعتذر إليه وقيل: كان قوسه ثمان عشرة رطلا، وكان لا يبالي بالرجال، قلّوا أمْ كثروا، وكان ينشد هذه الأبيات ويبكي.

شفيعي إليكم طول شوقي إليكم ... وكلّ كريم للشفيع قبول
وعذري إليكم أنني في هواكم ... أسير وما سور الغرام ذليل

---

(١) زرديات: حِلَقٌ من الحديد في الدرع والمغْفَر المغفر ما يلبس على الرأس لوقايته مصنوعاً من الزرد.
(٢) خلعة: الثوب تخلعه وتمنحه غيرك وما تخلعه من الثياب و ـــ : خيار المال.
(٣) كلوته: الكِلّة: الستر الرقيق وغشاء رقيق مثقب يُخاط كالبيت يُتوقّى به من البعوض وغيره.
(٤) اليونيني: مرآة الزمان ٨/ ٦١٢.
(٥) وتصنع: مرآة الزمان ٨/ ٦١٢.

فإن تقبلوا عذري فأهلاً ومرحباً وإن لم تجيبوا فالمحب حمول
سأصبر لا عنكم ولكن عليكم عسى لي إلى ذاك الجناب وصول

توفي في شهر ذي الحجة، وهو صائم، وقد نيف على الثمانين.

قلت: ما أطنب الذهبيّ في كتابه العبر في مدح أحد من الشيوخ أرباب الأحوال العارفين بالله الرجال سوى في مدح الشيخ المذكور.

وفيها توفي شيخ الشيوخ أبو الحسن محمّد ابن شيخ الشيوخ عمر بن عليّ الجوينّي، برع في مذهب الشافعي، ودرس وأفتى وسمع من يحيى الثقفيّ وأجاز له أبو الوقت وجماعة، وكان كبير القدر، ثم ولّي بمصر تدريس الشافعيّ ومشهد الحسين، وبعثه الكامل رسولاً يستنجد بالخليفة وجيشه على الفرنج، فأدركه الموت بالموصل.

وفيها توفي مسند خراسان المؤيّد بن محمد رضيّ الدين أبو الحسن الطوسيّ المقري انتهى إليه علو الإسناد بنيسابور، ورحل إليه من الأقطار، وخوارزم شاه محمد ابن السلطان الكبير علاء الدين، كان ملكاً جليلاً أصيلاً، عالي الهمة، واسع الممالك، كثير الحروب، ذا ظلم وجبروت وعزّ ودهاء.

سنة ثمان عشرة وست مائة

فيها سار الملك الأشرف ينجد أخاه الكامل، وسار معه عسكر الشام، وخرجت الفرنج من دمياط بالفارس والراجل أيام زيادة النيل، فنزلوا على ترعة، فتوثق المسلمون عليها النيل، فلم يبق لهم وصول إلى دمياط وجاء الأسطول، فأخذوا مراكب الفرنج، وكانوا مائة كند بالنون والدال المهملة المركب، وثمان مائة فارس فيهم صاحب عكا، وخلق من الرجالة، فلما رأوا الغلبة بعثوا يطلبون الصلح، ويسلمون دمياط إلى الكامل، فأجابهم، ثم جاء أخواه بالعساكر في رجب، وعمل سماطاً[1] عظيماً، وأحضر ملوك الفرنج، فأنعم عليهم، ووقف في خدمته الملك المعظم والأشرف، وكان يوماً مشهوراً، وقام راجح الحلي، فأنشده قصيدة منها:

ونادى لسان الكون في الأرض رافعاً عقيرتَهُ في الخافقينَ ومُنشِدَا
أعبادَ عيسى إنَّ عيسى وحِزْبَهُ ومُوسَى جميعاً ينصران[2] محمّدا

---

(١) سماطاً: السماط الشيء المصطف. وسماط القوم: صفّهم. وسماط الطعام: ما يُسبط ليوضع عليه الطعام.

(٢) يخدمون: مرآة الزمان ٨/ ٦٢١.
كذلك وردت في البداية والنهاية ٨/ ٦٠٣.

اشارة إلى الإخوة الثلاثة قلت: وما ألطف هذه الإشارة، وأظرف هذه العبارة: وحسن سهولة هذا النظم وعذوبته، وأشار بعيسى إلى الملك المعظم، وبموسى إلى الملك الأشرف، وبمحمد إلى الملك الكامل وحسن مطابقة الحال أنّ عيسى وموسى المذكورين كانا في خدمة محمّد، ومتابعة طاعته، وتبجيله، واحترامه كذلك موسى وعيسى صلوات الله على نبينا وعليهما لم يزالا في تبجيل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم واحترامه، فلو كانا حيّين ما وسعهما إلاّ متابعته كما ورد في الحديث وجاءت في هذه المطابقة أعظم تبكيت للفرنج الحاضرين بل لليهود والنصارى أجمعين، فلما أحسن هذا الاتفاق العجيب والمعنى الغريب.

وفيها توفي الشيخ الكبير السيد الشهير ذو المعارف والأسرار واللطائف والأنوار والمقامات العليات، والأحوال السنيات، والأنفاس الصادقات والكرامات الخارقات، والقدر الجليل، والعطاء الجزيل، المحقق، المحدث قدوة المحدثين ، وإمام السالكين ناصر السنة نجم الدين البكري، رحل إلى الأقطار وتنقّل في الأمصار، ورأى المشائخ الجلة الكرام، وحج بيت الله الحرام راكباً وماشياً، وفضله لا يزال يسمو في الأيام فاشياً. سمع الحديث والأخبار والتفاسير والآثار عمن لا يُحصى كثرة، ولبس خرقة الأصل من يد الشيخ العارف أبي الحسن إسماعيل القصريّ، عن محمّد بن مانكيل، عن داؤد بن محمد المعروف بخادم الفقراء، عن العباس بن إدريس، عن أبي القاسم بن رمضان، عن أبي يعقوب الطبريّ، عن عبدالله بن عثمان، عن أبي يعقوب النهرجوريّ، عن أبي يعقوب السوسي، عن عبد الواحد بن زيد، عن كميل بن زياد، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولبس خرقة البترك من الشيخ أبي ياسر عمار بن ياسر التدليسي، عن الشيخ أبي النجيب عبد القاهر بن عبدالله السهرورديّ، عن أبيه، عن عمه عمر بن محمد، عن أبيه محمّد بن عمويه، عن أحمد بن سبا، عن ممشاد الدينوريّ، عن أبي القاسم الجنيد، عن خاله السري السقطي، عن معروف الكرخي، عن داؤد الطائي، عن الحبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن عليّ رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واختلف في تسمية الشيخ نجم الدين الكبري فقال بعضهم: هو الكبرى مقصور وقال آخرون هو ممدود مفتوح الموحدة أيّ هو نجم الكبرى جمع تكسير الكبير قالوا والصحيح هو الأول ووجه صحته على ما ذكروا أنه كان أيام صباه شديد الذكاء فطناً لم يلق مؤدبه إلى أقرانه في المكتب شيئاً من المشكلات إلا سبقهم بثاقب ذهنه، فلقبوه الطامة الكبرى[١]، ثم غلب عليه ذلك اللقب، فحذفوا الطامة ولقبوه بالكبرى، وهو وجه صحيح

---

(١) الطامّة الكبرى: الطامّة الداهية تفوق ما سواها.

نقله جماعة من أصحابه ممن يوثق بهم، واستشهد رضي الله تعالى عنه بظاهر خوارزم في الوقعة العامة، والفتنة التتارية في السنة المذكورة، قال الراوي الشيخ الجليل كمال الدين العارف بالله السالك الحفيل المعروف بالسفناقي بالسين المهملة والفاء والنون، وقبل ياء النسبة قاف من أصحاب الشيخ نجم الدين المذكور قال: لما وصل التتار إلى خوارزم سنة سبع عشرة وست مائة، وحصروها جمع الشيخ أصحابه وهم أكثر من ستّين، وقد هرب السلطان محمد وهم يظنون أنه بها، ودخلوا البلد، وكان في أصحاب الشيخ المذكور الشيخ سعد الدين الحموي، والشيخ عليّ لالا، وابن أخيه عليّ بن محمّد مع جماعة من العارفين، فطلبهم الشيخ، وقال لهم: قوموا وارتحلوا وارجعوا إلى بلادكم، فإنه خرجت نار من المشرق وتحرق إلى قريب المغرب، وهي فتنة عظيمة ما وقع في هذه الأمة مثلها فقال بعضهم: لو دعوت الله أن يرفع هذه الفتنة عن بلاد المسلمين، فقال: هذا قضاء من الله تعالى محكم لا يرده ولا ينفع فيه الدعاء، فقالوا: يا مولانا معنا دواب تركب معنا وتخرج الساعة، فقال أني: أقتل هاهنا ولم يأذن الله لي أن أخرج منها فاستعدوا لخروجكم إلى خُراسان، فخرجوا، ولما دخل الكفّار إلى البلد نادى الشيخ في أصحابه الذين لم يأمرهم بالخروج للصلاة جامعة، ثم قال: قوموا على اسم الله تقاتل في سبيل الله، ودخل البيت، ولبس خرقة شيخه، وشدّ وسطه وكانت فرجية وجعل الحجارة في جانبيها، وأخذ العنزة، وخرج، ولما واجههم أخذ يرميهم بالحجارة حتى فرغ جميع ما معه، ورموه بالنبل، فجرحوه، وأخذ يدور ويرقص، فجاءه سهم في صدره، فنزعه ورمى به نحو السماء، وفاز الدم من صدره، فأخذ ينشد شعراً بالعجمي من جملة معناه إن أردت فاقتلني بالوصال، أو بالفراق فأنا فارغ عنهما محبتك تكفيني، وما أنا حل إن قلت أغثني، ثم توفي ودُفن في رباطة رحمة الله تعالى عليه، ومما رثاه المؤيّد بن يوسف الصلاحي، فقال في أثناء مرثيته:

ما زال يجهد في مرضاة خالقه ... وما أعدّ له الرحمن ما كسبا
من ذا رأى بحر علم في بحار دم ... يجري إذا ما طفت أنواره سببا
يهوى النجوم الدراري من يكون لها ... يوماً نسيباً تداتيه إذا انتسبا
يا يوم وقعة خوارزم التي اتصفت ... فجعتنا وفقدنا الدين والحسبا
أبح يا أله الخلق نيل رضى ... لا يدرك الكنه منه حاسب حسبا

وفيها توفي أبو نصر موسى بن شيخ محمود قطب الوجود مغدن الفضائل والمفاخر محيي الدين عبد القادر، روى عن أبيه وسعيد بن البناء، وابن ناصر، وأبي الوقت، وسكن دمشق رحمه الله تعالى.

وفيها توفي أبو الدر ياقوت بن عبدالله الموصليّ الكاتب أخذ النحو عن الدهان، وقرأ

عليه جملة من تصانيفه، وديوان المتنبي والمقامات الحريرية، وكان علامة، وكتب الكثير، وكان كاتباً مشهوراً منتشراً خطه في البلاد في نهاية من الحسن، ولم يكن في أواخر زمانه من يقاربه في حسن الخط، ولا يودي طريقة ابن البواب في النسخ مثله مع فضل غزير ونباهة تامة، وكان مغرماً بنقل الصحاح للجوهريّ، وكتب منها نسخاً كثيرة كل نسخة في مجلد واحد يباع بمائة دينار، وكتب عليه خلق كثير، وكانت له سمعة سائرة، وقصده الناس من الأقطار، وسير إليه من بغداد النجيب أبو عبدالله الواسطي قصيدة مدحه بها أولها:

ابن غزلان عالج والمصلّى ... من ظبا سكن نهر المعلى

قلت هذا البيت وإن كان في النظم مليحاً فأراه في الأدب قبيحاً لإستحقار غزلان المصلى:

سنة تسع عشرة وست مائة

وفيها توفي الأمير أبو المحاسن العبّاس بن أحمد ابن الأمير سيف الدين أبي الحسن عليّ ابن أحمد بن أبي الهيجاء المعروف بابن المشطوب لشطب كان بوجهه؛ وهو ملقب نعمة، كان أميراً وافر الحشمة والحرمة بين الملوك، معدوداً بينهم كواحد منهم، وكان عالي الهمة، غزيز الوجود، واسع الكرم، شجاعاً أبيّ النفس، تهابه الملوك، وله وقائع مشهورة في الخروج عليهم، وهو من أمراء الدولة الصالحية، وجرت لهم أمور وتنقلات آخرها أنّ الملك الأشرف ابن الملك العادل قبض عليه في السنة المذكورة فاعتقله في قلعة حران وضيّق عليه تضييقاً شديداً من الحديد الثقيل في رجليه والخشب في يديه، ولم يزل في تلك الحال إلى أن توفي في شهر ربيع الآخر منها، ولما سجنه كتب إليه بعض الأدباء:

يا أحمد ما زلت عماداً للدين ... يا أشجع من ملك سيفاً[١] بيمين
لا تيئس إنْ[٢] حصلت في سجنهم ... يوسف[٣] قد أقام في السجن سنين

وهذا مأخوذ من قول البحتريّ من جملة أبيات:

أمّا في رسُول الله يوسُفَ أسوةٌ ... لمثلك مَحْبُوساً على الظلم والإفكِ
أقام جميلَ الصبر في السجنِ برهة ... فآل به الصبر الجميل إلى المُلْكِ

قال ابن خلكان: ورأيت في بعض رسائل القاضي الفاضل أنّ الأمير سيف الدين

(١) رُمحاً وفيات الأعيان ١/ ١٨٢.
(٢) لا تأس إذ وفيات الأعيان ١/ ١٨٢.
(٣) هايوسف وفيات الأعيان ١/ ١٨٢.

المعروف بابن المشطوب كتب إلى الملك الناصر صلاح الدين يخبره بولادة امرأة عمَّه عماد الدين[١]، وإن عنده امرأة أخرى ذكر أنها حامل، فكتب القاضي الفاضل جوابه «وصل كتاب الأمير دالاً على الخبر بالولدين، الحامل[٢] على التوفيق، والسايل[٣] كتب الله سلامته في الطريق فسررنا بالغُرَّةِ الطالعة من لثامها، وتوقعنا المسرة بالثمرة الباقية في أكمامها قالت: ورأيت بخط القاضي الفاضل «ورد الخبر بوفاة الأمير سيف الدين المشطوب، أمير الأكراد وكبيرهم. سبحان الحيّ الذي لا يموت ويهدم به بنيان قوم والدهر قاضٍ ما عليه لوم».

قال ابن خلّكان: هذا الكلام حلّ فيه بيت الحماسة:

فما كان قَيسٌ هلكهُ هلك واحدٍ ولكنهُ بنيانُ قوم تَهدّما

قال: وهذا البيت من جملة مرثية، رثي بها قيس بن عاصم التميميّ الذي قدم من البادية على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم في وفد تميم في سنة تسع من الهجرة، وأسلم، وقال صلى الله عليه وآله وسلّم في حقه: «هذا سيد أهل الوبر» وكان عاقلاً مشهوراً بالحلم والسؤدد، وهو أوّل من وأد البنات في الجاهلية للغيرة والأنفة من النكاح، وتبعه الناس في ذلك إلى أن أبطله الإسلام، وقد قدمت ذكر ذلك، ومن جملة المرثية المذكورة:

عليك سلامُ الله قيسُ بن عاصمٍ ورحَمتُهُ ما شاء أن يتَرحما
تحيةُ من غادرَتهُ غرضَ الرّدى إذا زار عن سخطٍ[٤] بلادك سلما
فما كان قيسٌ هلكهُ هلك واحدٍ ولكنه بُنيان قوم تهدما

قلت: وقوله: عليك سلام الله إن صحّ سماعه أو اسماعه ممن يقتدي به، فهو شاهد، وبجواز قول كثير من الناس في مكاتباتهم سلام الله ورحمته وبركاته على فلان ابن فلان، وإلا ففي جواز ذلك نظر، والله أعلم أعني كونه قال: سلام الله عليك، فجعل السلام عليه من الله تعالى، ولم يقل: منّي وليس لجواز هذا شاهد يُعتمد عليه.

وقد اختلف العلماء في: هل يقال لغير الأنبياء عليه السلام؟ فجوزه بعضهم، ومنع الأكثرون فما علمت، وقالوا: حكمه حكم الصلاة والذي أراه أنه يفرّق بينه وبين الصلاة وبين الترضي والصلاة مخصوصة على المذهب الصحيح بالأنبياء والملائكة، والترضّي مخصوص بالصحابة والأولياء والعلماء أعني في الأدب، والترحّم لمن دونهم، والعفو

---

(١) يخبره بولادة ولده عماد الدين أبي العباس أحمد وفيات الأعيان ١/ ١٨٢.
(٢) الحالُ وفيات الأعيان ١/ ١٨٢.
(٣) السائر وفيات الأعيان ١/ ١٨٢.
(٤) شحطٍ وفيات الأعيان ١/ ١٨٤.

للمذنبين، والسلام مرتبة بين مرتبة الصلاة والترضي، فيُحسن أن يكون منزلته بين منزلتين لكونه مرتبة بين مرتبتين، أعني يقال لمن اختلف في نبوّتهم كالخضر، ولقمان، وذي القرنين دون من دونهم.

وفيها توفي الشيخ الجليل العارف ذو الأسرار والمعارف السيد الكبير البعيد الصيت الشهير عليّ بن إدريس اليعقوبي صاحب الشيخ عبد القادر الجيليّ رضي الله عنهما.

وفيها توفي أبو العبّاس نصر بن خضر بن نصر الإربلي الشيخ الفقيه الشافعيّ، كان فاضلاً ورعاً زاهداً صالحاً عابداً متقللاً من الدنيا ومباركاً ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق وأثنى عليه، وكان قد قدم دمشق، وأقام بها مدة، وكان عارفاً بالمذهب والفرائض والخلاف، اشتغل ببغداد على الكيا وابن الشاشي، ولقي جماعة من مشائخها، ثم رجع إلى اربل، وبنى له صاحب اربل، مدرسة القلعة، فدرّس بها زماناً، وهو أوّل من درَّس باربل. وله عدة تصانيف حسان كثيرة في التفسير والفقه وغير ذلك، وله كتاب ذكر فيه ستّاً وعشرين خطبة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وكلها مسندة، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا.

ومن جملة من تخرّج عليه الشيخ الفقيه الإمام أبو عمرو عثمان بن عيسى الهذباني المارانيّ شارح «المهذب» المتقدم ذكره في سنة اثنتين وست مائة، وكانت وفاته[1] ليلة الجمعة، ولما توفي تولى موضعه ابن أخيه نصر بن عقيل، وكان فاضلاً قد تخرّج على عمّه المذكور، فسخط عليه الملك المعظّم صاحب إربل، وأخرجه منها فانتقل إلى الموصل، فكتب إليه أبو الدرّ الروميّ من بغداد، وكان صاحبه.

أيا ابن عقيلٍ لا تخفْ سطوة العدى ... وإن أظهرتْ ما أضمَرتْ من عِنادِها
وأفضتك[2] يوماً عن بلادك فتنة[3] ... رأت فيك فضلاً لم يكن في بلادها
كذا عادة الغِربان تكره أن ترى ... بياضَ البراد[4] الشُّهب دون سوادِها

أشار بذلك إلى الجماعة الذين سعوا به حتى غيروا خاطر الملك عليه.

وفيها توفي الشيخ الشهير بالأحوال الباهرة والكرامات الظاهرة يونس بن يوسف الشيباني، قال الذهبي في ترجمته، وهذا شيخ الطائفة اليونسية أولى الشطح، وقلة العقل، وكثرة الجهل أبعد الله شرّهم. قال: وكان رحمه الله تعالى صاحب حال وكشف يحكى عنه

---

(١) كانت وفاته ليلة الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وستين وخمسمائة بإربل وفيات الأعيان ٢/٢٣٨.

(٢) وأقصتك وفيات الأعيان ٢/٢٣٨.

(٣) فتيةٌ وفيات الأعيان ٢/٢٣٨.

(٤) البُزاة وفيات الأعيان ٢/٢٣٨.

كرامات قلت: قد ذكرت في غير موضع من هذا الكتاب غيظ الذهبي عن الصوفية وتعريضه بالقدح فيهم وما على البدر إنْ قالوا به كلف، وهذا مع اعترافه بأنّ الشيخ المذكور كان من ذوي الكشف والأحوال والكرامات المخصوص بها أولى القرب والنوال نفعنا الله تعالى بعباده الصالحين، وأعاد علينا من بركاتهم أجمعين.

سنة عشرين وست مائة

وفيها توفي شيخ الشافعية بالشام في عصره أبو منصور عبد الرحمن بن محمد المعروف بفخر الدين ابن عساكر[1] ابن أخي الإمام الحافظ أبي القاسم عليّ ابن عساكر. صاحب «تاريخ دمشق»، وخرج من بينهم جماعة من العلماء والرؤساء كان إمام وقته في علمه ودينه تفقه ودرس بالقدس زماناً وبدمشق، واشتغل عليه خلق كثير، وتخرجوا عليه، وصاروا أئمة فضلاء: وكان مسدداً في الفتاوى، وكان لا يملّ الناظر من رويته بحسن سمته واقتصاده في لباسِه ولطفِه، ونور وجهه، وكثرة ذكره لله عزّ وجل. عرض المعظم عليه القضاء فامتنع، وله مصنّفات في الفقه لم تُنشر. توفي في رجب، وله سبعون سنة قال ابن خلّكان: وزرت قبره مراراً بمقابر الصوفية ظاهر دمشق.

وفيها توفي صاحب المغرب السّلطان المُستنصر بالله أبو يعقوب يوسف بن محمّد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن القيسيّ. وليّ الأمر عشر سنين بعد أبيه، ومات شاباً ولم يعقب.

وفيها توفي الشيخ موفق الدين المقدسيّ أحد الأئمة الأعلام عبدالله بن أحمد بن محمّد ابن قُدامة الحنبليّ[2] صاحب التصانيف حفظ القرآن، وتفقه، ثم ارتحل إلى بغداد فأدرك الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، وسمع منه ومن جماعة، وانتهت إليه معرفة المذهب وأصوله كان تقياً ورعاً زاهداً مستغرق الأوقات في العلم والعمل، وقال بعض الأئمة: رأيت الإمام أحمد في النوم، فقال: ما قصر صاحبكم الموفق في شرح الخرقي قال الرائيّ: المنام المذكور، وسمعت الشيخ أبا عمر وابن الصلاح المفتي يقول: ما رأيت مثل الشيخ الموفق.

سنة احدى وعشرين وست مائة

فيها[3] استولى السلطان جلال الدين الخوارزميّ على بلاد أذربيجان وراسله الملك

---

(١) انظر مرآة الزمان ٨/ ٦٣٠ ـ ٦٣١.

(٢) ولد بجماعيل سنة احدى وأربعين وخمسمائة، وقدم مع أهله إلى دمشق في سنة احدى وخمسين وقرأ القرآن وسمع الحديث، ورحل مرتين إلى العراق ثم حجّ، وتفقه ببغداد. البداية والنهاية ٨/ ٦٠٨.

(٣) انظر مرآة الزمان ٨/ ٦٣٢.

المعظم، واتفق معه أنه يُعينه على أخيه الملك الأشرف لفساد حدث بينهما، وفيها استولى لؤلؤ على الموصل، وخنق محمودين القاهر، وزعم أنه مات.

وفيها عادت التتار إلى أن وصلوا إلى الريّ، وكان ممن سلم من أهلها وتراجعوا إليها وما شعروا إلاّ بالتتار، وقد أحاطوا بهم، فقتلوا وسبوا، ثم ساروا إلى ساوة[١]، ففعلوا بأهلها كذلك، ثم كذلك قاشان، ثم عطفوا إلى همدان فأبادوا من بقي بها، ثم ساروا إلى تبريز، فوقع بينهم وبين الخوارزمية مصاف.

وفيها توفي القاضي الأسعد أبو البركات عبد القويّ ابن القاضي عبد العزيز التميمي السعدي المصري المالكي وعبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن سلطان المغرب ولي الأمر في العام الماضي، فلم يدار أمراء الموحدين، فخلعوا وحنقوا، وكانت لإيته تسعة أشهر، وفي أيامه استولى على مملكة الأندلس ابن أخيه عبدالله بن يعقوب الملّقب بالعادل، والتقى الفرنج، فهزموا جيشه، فقصدوا مراكش بأسوء حال، فقبضوا عليه وتملك الأندلس أخوه ادريس مدة، وخرج عليه محمد بن يوسف بن هود الجذاميّ، ودعا إلى بني العبّاس، فمال الناس إليه، فهرب إدريس بعسكره إلى مراكش، فالتقاه صاحبها يومئذٍ يحيى بن يعقوب بن يوسف، فهزم يحيى.

وفيها توفي الشيخ العارف صاحب الأسرار والمعارف والأحوال والأنوار أبو الحسن علي المعروف بالفريثي بالفاء والراء والمثناة من تحت، ثم المثلثة. قال الذهبي: كان صاحب حال، وكشف، وعبادة، وصدق، وأصحاب بسفح قاسيون قلت: وهو الذي حكي عنه في مناقب الشيخ عبد القادر أنه قال: رأيت أربعة من المشائخ يتصرفون في قبوركم كتصرف الأحياء، الشيخ عبد القادر، والشيخ معروفاً الكرخيّ، والشيخ عقيلاً المنبجي، والشيخ حياة بن قيس الحراني رضي الله تعالى عن الجميع ونفعنا بهم.

وفيها توفي شيخ المالكية أبو الحسن محمّد بن محمّد بن سعيد الأنصاري الإشبيلي، كان من كبار المتعصبين للمذهب، فأوذي من جهة بني عبد المؤمن لما أبطلوا القياس، وألزموا الناس الأخذ بالأثر والظاهر، وقد صنف كتاب المعلى والرد على المحلّى لابن حزم.

سنة اثنتين وعشرين وست مائة

فيها جاء جلال الدين بن خوارزم شاه، فوضع السيف في دقوقا[٢] وأحرقها، وعزم

---

(١) ساوة: مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط معجم البلدان ٣/ ٢٠١.

(٢) دَقُوقا: مدينة بين إربل وبغداد معروفة. معجم البلدان ٢/ ٥٢٣.

على هجم بغداد، فانزعج الخليفة الناصر، وحصّن بغداد، وأقام المجانيق[١]، وأنفق ألف ألف دينار، فأعلم ابن خوارزم شاه أن الكرج قد خرجوا على بلاده، فساق إليهم والتقاهم، وظفر بهم، وقتل منهم سبعين ألفاً، ثم أخذ تفليس[٢] بالسيف، وقتل بها ثلاثين ألفاً، وكان قد أخذ تبريز بالأمان، وتزوج بابنة السلطان ابن سلجوق.

وفيها توفي أيضاً أبو الدرّ ياقوت بن عبدالله الروميّ الملقّب مهذّب الدين الشاعر المشهور، اشتغل بالعلم، وأكثر من الأدب، وأجاد النظم، ولما تميز ومهر سمى نفسه الرحمن، قرأ القرآن وشيئاً من الأدب، وكتب خطاً حسناً، وقال الشعر وأكثر النظم منه في المحبة والرقاق.

ومنه قوله:

خليليّ لا والله ما جنّ عاشقٌ[٣] ... وأظلم إلاّ حره وحر عاشق[٤]
إذا غاض دمعك والأحبابُ قد ماتوا[٥] ... فكل ما تدّعي زورٌ وبهتانُ
وكيف تأنسُ أو تنسى خيالهم ... وقد خلى منهم ربعٌ وأوطانُ
لا أوحش الله من قومٍ نأوا فنأى ... عن النواظر أقمار وأغصان

ومنه قوله:

إلا من مبلغٌ وجدي بها وغرامي ... ومهد إلى دار السلام سلامي

وله ديوان شعر كبير. وذكر في بعض التواريخ أنه وجد ميتاً بمنزله ببغداد.

وفي السنة المذكورة توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، كان فيه شهامة واقدام وعقل ودهاء، وتولى الخلافة في سنة خمس وسبعين وخمس مائة، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وهو أطول بني العباس خلافة. كما أنّ الناصر لدين الله الأمويّ صاحب الأندلس أطول بني أمية دولة، وكما أنّ المستنصر بالله العبيدي أطول بني عبيد دولة، وكما أنَّ السلطان سنجر ابن ملك شاه أطول بني سلجوق دولة، وكان الخليفة الناصر لدين الله مستقلاً بالأمور بالعراق متمكّناً من الخلافة يتولى الأمور بنفسه، حتى كان

---

(١) المناجيق: مرآة الزمان ٨/ ٦٣٤.
(٢) تفليس بلد بأرمينية الأولى. وبعض يقول بأرّان، وهي قصبة ناحية جُرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة أزلية، يجري في وسطها نهر. وعليها سور عظيم وبها حمامات شديدة الحر. معجم البلدان ٢/ ٤٢.
(٣) غاسقٌ: وفيات الأعيان ٦/ ١٢٣.
(٤) وأظلم إلا منّ أو جنّ عاشقُ: وفيات الأعيان ٦/ ١٢٣.
(٥) بانوا: وفيات الأعيان ٦/ ١٢٣.

يشقّ الدروب والأسواق أكثر الليل والناس يتهيأون لقاءه، وما زال في عزّ وجلالة واستظهار وسعادة عاجلة، نسأل الله الكريم السعادة الآجلة.

وفي السنة المذكورة توفي الإمام الكبير الفاضل الشهير أبو الفضل أحمد ابن الإمام العلاّمة كمال الدين أبي الفتح موسى ابن الفقيه المفتي رضيّ الدين يونس الموصلي الشافعي.

قال ابن خلكان: كان كثير المحفوظات، عزيز المادة، حسن السَّمت، جميل المنظر، شرح كتاب «التنبيه» في الفقه، واختصر «إحياء علوم الدين» للإمام الغزاليّ مختصرين: كبيراً وصغيراً. قال: وكان يلقي في جميع دروسه من كتاب الإحياء دروساً حفظاً، ونسج على منوال والده في اليقين[1] في العلوم، تخرّج عنه جماعة كثيرة. قال: وتولى التدريس بمدرسة الملك المعظم صاحب إربل بعد والده، وكان وصوله إلى هنالك من الموصل في أوائل شوال سنة عشر وست مائة، وكانت وفاة الوالد ليلة الاثنتين الثاني والعشرين من شعبان السنة المذكورة، قال: وقد كنت أحضر درسه وأنا صغير، وما سمعت أحداً يلقي الدرس مثله، ولم يزل على ذلك إلى أن حجّ، ثم عاد وأقام قليلاً، ثم انتقل إلى الموصل في سنة سبع عشرة وست مائة، وفوضت إليه المدرسة القاهرية، فأقام بها ملازم الاشتغال والإفادة، وقد كان من محاسن الوجود، وما أذكره إلاّ وتصغر الدنيا في عيني، وكان مبدأ شروعه في شرح «التبيبه» بإربل، واستعار منّا نسخة التنبيه عليها حواش مفيدة بخط بعض الأفاضل، ورأيته بعد ذلك، وقد نقل الحواشي كلها في شرحه.

وكان اشتغاله على أبيه بالموصل، ولم يتغرب لأجل الاشتغال بالعلم، وكان الفقهاء يتعجب منه كيف اشتغل في وطنه، وبين أهله، وفي عزّه واشتغاله بالدنيا، وخرج منه ما خرج، قال: وهو من بيت العلم، وأطنب المدح في أبيه وعمّه وجدّه، قال: ولو شرعت في وصف محاسنه لأطلت، وفي هذا القدر كفاية، وقال غيره: عاش أبوه بعده سبع عشرة سنة.

قلت: أما إطنابه في محاسنه، فالمحاسن لها وجوه متعددة، فأثنى عليه بما شاهده منه فيه، وأما مدحه لكتابة شرح التنبيه، فغير جدير بمدحه المذكور، فهو خالٍ من التفضيل والتفريع والفوائد الموجودة في غيره كشرح الفقيه الإمام ابن الرفعة الذي هو جدير بالمدح الكامل لما تضمنه من الفوائد العقائل، وأما مدحه لإلقاء الدرس، وأنه ما سمع مثله في الإلقاء المذكور، فهو محتمل، ويكون ذلك بحسن سياقه وتصرفه في المباحث وظرافته ومزجه بالاستعارات المستحسنة، والنوادر المستطرفة، وغير ذلك مما يطرب السامع والمدح

---

(١) التفنن في العلوم: وفيات الأعيان ١٠٨/١.

بذلك من مثل ابن خلكان ثناء عظيم لصاحبه رافع.

وفيها توفي الملك الأفضل نور الدين عليّ ابن سلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، سمع من جماعة، وله شعر وترسل، وجودة كتابة. تسلطن بدمشق، وتملك أخوه الملك العزيز الديار المصرية، ولقي الملك الطاهر أخوهما بحلب، ثم جرت للملك الأفضل مع أخيه الغريز وقائع يطول شرحها، وآخر الأمر أنّ العزيز والعادل عمّه حاصرا دمشق، وأخذاها من الأفضل، وأعطياه صرخد، ثم بعد قليل مات العزيز، وتولى ولده المنصور، ثم إنّ الملك العادل أخذ الديار المصرية، ودفع للملك الأفضل عدة بلاد: الشرق، ولم يحصل له منها إلاّ سميساط[1]، فأقام بها إلى أن مات.

وكان الأفضل فيه فضيلة ونباهة، وكان يحب العلماء، ويعظم حرمتهم. ومن الشعر المنسوب إليه ما كتب إلى الإمام الناصر يشكو عمه العادل، وأخاه العزيز لما أخذوا منه دمشق هذه الأبيات:

مولايَ إنّ أبا بكرٍ وصَاحِبَهُ ... عثمان قد غَصَبا بالسيفِ حقَّ عَليّ
وهو الّذي كانَ قد ولاّه والدُهُ ... عليهما، فاستقام الأمرُ حينَ وَلّي
فخالفاهُ وحلاّ عِقْدَ بيعتِهِ ... والأمرُ بينهُما والنصُّ فيه جَلِي
فانظرْ إلى خط[2] هذا الاسمِ كيف لقي ... من الأواخرِ ما لاقى منَ الأولِ

فأجابه الإمام الناصر بجواب أوله:

وافى كتابُكَ بابن يوسف معلناً ... بالودّ يُخبر أنّ أصلك طاهرُ
غصبوا عليّاً حقّه إذ لم يكن ... بعد النبيّ له بيثرب ناصرُ
فابشر فإنّ غداً عليه حسابهم ... واصبر فناصرك الإمام الناصِرُ

ثم حارب أخاه العزيز صاحب مصر على الملك، ثم زال سلطانه، وتملك سميساط، وأقام بها مدة، وكان فيه عدل وحلم وكرم.

وفيها توفي الفخر الفارسيّ السيد الجليل مطلع الأنوار، ومنبع الأسرار، ومعدن المحاسن والفخار أبو عبدالله محمّد بن إبراهيم الفيروزأبادي الشافعي الصوفيّ صاحب العلوم الربّانية الغامضة المستغربة في التصوف، والوصل والمحبة.

وأما ما ذكره الذهبي أن في تصانيفه أشياء منكرة، فكلام من ليس له بعلوم القوم

---

(١) سُميساط: هي قلعة في بر الشام على الفرات في ناحية بلاد الروم بين قلعة الروم وملطية.

(٢) حظّ: مرآة الزمان ٨/٦٣٨. وفيات الأعيان ٣/٤٢٠.

مخبرة، ولا قوة اعتقاد قويم تحمله على حسن الظن والتسليم، ولعمري من خلا عن هذين المذكورين، فهو بمعزل عن نهجهم، واعتقاد فضلهم المشكورين واقع لا محللة في ذمهم، وسوء الظنّ بهم المذمومين، توفي الفخر رحمه الله تعالى في ثامن ذي الحجّة وقد نيف السبعين، وقبره في قرافة مصر مزور شهير، وهو ممن روى عن الإمام السلفي الكبير.

سنة ثلاث وعشرين وست مائة

فيها سار الملك الأشرف إلى أخيه المعظم وأطاعه وسأله أن يكاتب جلال الدين خوارزم شاه ليحمل جنده عليه ليترحل عن خلاط، فكتب إليه، فترحل عنها، وكان المعظّم يلبس خلعة جلال الدين ويركب فرسه، وإذا خاطب الأشرف حلف وحياة رأس السلطان جلال الدين، فيتألم بذلك.

وفيها حارب جلال الدين المذكور التركمان، ومزقهم، ثم التقى الكرج، فهزمهم وأخذ التفليس بالسيف، وكانت إذ ذاك دار ملكهم بها في أيديهم أكثر من مائة سنة.

وفيها توفي أبو العزّ مظفر بن إبراهيم العيلانيّ بالعين المهملة الشاعر المشهور المصري؛ كان أديباً عروضياً، شاعراً مجيداً، صنف في العروض تصنيفاً مختصراً جيداً دلّ على حذقه، وله ديوان شعر رائق، وكان ضريراً، وفي ذلك قال:

قالوا: عشقت وأنت أعمى ... ظبياً كحيل الطرف ألمى
وحُلاهُ ما عاينتَها ... فيقول قد شغفتك وهماً[1]
فأجبت إني مُوسَوِيُّ ... العشق أنساً[2] وفهماً
أهوى بجارحة السماع ... ولا أرى ذاك المسمّى

ولما عاد الوزير صفيّ الدين بن شكر من الشام إلى مصر خرج أصحابه للقائه إلى الخشبي المنزلة الرفيعة المعروفة، فكتب مظفر المذكور يعتذر إليه عن تأخره عن التقائه بهذه الأبيات:

قالوا إلى الخشبي سرنا على عجل ... نلقى الوزير جميعاً من ذوي الرّتبِ
ولم تسر أيها الأعمى، فقلت لهم: ... لم أخشَ من تعب ألقى ولا نصب

---

(١) همّا: وفيات الأعيان ٥/٢١٣.
(٢) إنصاتاً: وفيات الأعيان ٥/ ٢١٤.

وإنما النار في قلبي لوحشته فخفت أجمع بين النار والخشب

وهذا المعنى مطروف لكنه أبرزه في جملة استعمال تروق قال ابن خلكان: وأخبرني بعض أصحابه أنج شخصاً قال له: رأيت في بعض تواليف أبي العلاء المعريّ ما صورته: أصلحك الله وأبقاك، لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الخالي لكي تحدث عهداً بك يا زين الأخلاء فما مثلك من غيّر عهد أو عقل[١]؛ وسأله: من أيّ بحر هو؟ وهل هو بيت واحد أم أكثر؟ فإن كان أكثر، فهل أبياته على روي واحد أم هي مختلفة الروي؟ قال: فأفكر فيه، ثم أجابه بجواب حسن.

قال ابن خلكان: فلما قال لي المخبر ذلك قلت له: اصبر حتى أنظر فيه، ولا تقل ما قاله، ثم قال فكرت فيه فوجدته يخرج من بحر الرجز، وهو المجزومة[٢] وتشتمل هذه الكلمات على أربعة أبيات على رويّ اللام، وهي على صورة يسوغ استعمالها عند العروضيين، ومن لا يكون له بهذا الفنّ معرفة، فإنه ينكرها لأجل قطع الموصول منها، ولا بد من بيانها ليظهر صورة ذلك، وهي هذه:

أكرمك[٣] الله وأتقاك لقد كان من آل
واجب أن تأتينا فاليوم إلى منازلنا[٤]
خالي لكي حدث عهداً بك يا زين الأخل
لاء فما مثلك من غير عهداً أو عقل[٥]

فقال: وهذا إنما يذكره أهل هذا الشأن للمعاياة، لا لأنه من الأشعار المستعملة، فلما استخرجته عرضته على ذلك الشخص، فقال: هكذا قال مظفر الأعمى.

قال: وكتب مظفر المذكور لتقي الدين، ومدحه جماعة منهم، فخلع على الجميع ولم يخلع عليه، فكتب إليه:

العبد مملوك مولانا وخادمه مظفر الشاعر الأعمى خليفتنا[٦]
يقبّل الأرض إجلالاً لمالكهِ رقاً، وينهي إليه بعد كل هنا
أنّ القميص جميع الناس قد بصروا به وما منهم يعقوب غير أنا

---

(١) غفل: وفيات الأعيان ٥/ ٢١٥.
(٢) المجزوء منه: وفيات الأعيان ٥/ ٢١٥.
(٣) أصلحك: وفيات الأعيان ٥/ ٢١٥.
(٤) منزلنا: وفيات الأعيان ٥/ ٢١٥.
(٥) عقل: وفيات الأعيان ٥/ ٢١٥.
(٦) حليف ضنى: وفيات الأعيان ٥/ ٢١٦.

وله يوم زينة[١] الشواني

يا أيها الملك المسرور آمله هذي شوانيك تُرمى يوم سرّاء[٢]
كأنما هي عقبان بها ظمأ طارت من البر[٣] وانقضت على الما[٤]

وله في يوم لعبها

مولاي هذي[٥] الشواني في ملاعبها مثل الشواهين في سهل وفي جبلِ[٦]
يسعى[٧] محاذيفها ماء وينقضه بعض العقاب جناحيها من البللِ

قلت يعني بالمخاذيف مقاذيف التي يقذف بها الماء لتمشي المركب، وقد أبدع في حسن هذا التشبيه في الجميع وأطنب، وله يصف فانوس الجامع العتيق بمصر.

أرى علماً للناس في الصوم ينصب على جامع ابن العاص أعلاه كوكب
وما هو في الظلماء إلاّ كأنه على رمي زنجيّ سنان مذهب

وفيها توفي الطاهر[٨] بالله محمد بن الناصر لدين الله ابن المستضيء بأمر الله، وكانت خلافته تسعة أشهر ونصفاً، وكان ديّناً خيّراً عادلاً حتى بالغ ابن الأثير فيه، وقال أظهر من العدل والاحسان ما أعاد به سنة العمرين، وقال أبو أسامة قيل لنا: ألا ينفسخ، فقال قد يبس الزرع، فقيل: تبارك الله في عمرك، فقال: من فتح بعد العصر ايش يكسب، ثم أنه أحسن إلى الناس، وفرّق الأموال وأبطل المكوس، وأزال المظالم، وقال غيره: ولي بعده ابنه المستنصر بالله.

وفيها توفي الإمام الكبير العلاّمة البارع الشهير الجامع بين العلوم والأعمال الصالحات، والزهد، والعبادات، والتصانيف المفيدات النفيسات أبو القاسم عبد الكريم بن محمّد بن عبد الكريم القزوينّي الشافعيّ صاحب الشرح الكبير المشتمل على معرفة المذهب ودقائقه الغامضات الجامع الفائق التصانيف السابقات واللاحقات.

ومن كراماته أنه أضاءت له شجرة في بيته لما انطفىء السراج الذي كان يستضيء به عند كتبه بعض مصنفاته.

---

(١) رمي: وفيات الأعيان ٥/٢١٦.
(٢) سرّاء: وفيات الأعيان ٥/٢١٦.
(٣) في وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٦: البحر.
(٤) في وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٦: الماء.
(٥) في وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٦: هذه.
(٦) في وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٦: مثل الشواهين بين السهل والجبل.
(٧) في وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٦: تسقي.
(٨) في مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٤٢: الظاهر بالله.

سنة أربع وعشرين وست مائة

فيها جاء الخبر إلى السلطان جلال الدين، وهو بتوريز أنّ التتار قد قصدوا أصفهان وبها أهله، فسار إليها وتأهب للملتقى، فلما التقى الجمعان وحد له أخوه غياث الدين وولي، فكسرت ميمنته ميسرة التتار، ثم حملت ميسرته على ميمنة التتار، فطحنتها أيضاً وتباشر الناس بالنصر، ثم كرت التتار مع كمينها، وحملوا حملة واحدة كالسيل، وقد أقبل الليل، فزلت الأقدام، وقتلت الأمراء، واشتد القتال، وتزعزع بنيان جيش جلال الدين، وثبت هو في طائفة يسيرة، وأحيط به، فانهزم وطعن طعنه لولا الأجل لتلف وتمزق جيشه إلى أنّ ميمنته سارت على ميسرة التتار حتى، ولوا فتبعت أقفيتهم، وما رجعت إلا بعد يومين، فلم يسمع بمثل ذلك في الملاحم من انهزام كلا الفريقين، وذلك في رمضان.

وقيل ذلك بأيام مات طاغية التتار وسلطانهم الأعظم الذي خرّب البلاد وأفنى البرايا، وأباد، وهو الذي جيّش الجيوش، وخرج بهم من بادية الصين، ودانت له المغل، وعقدوا له عليهم، وأطاعوه، ولا طاعة الأبرار للملك الجبار، واسمه قيل الملك تمرجين بالمثناة من فوق والراء والجيم والمثناة من تحت والنون، ومات على الكفر، وكان من دهاة العالم، وأفراد الدهر، وعقلاء الترك وهو أحد ابني العم بركة وهولاكو.

وفيها توفي قاضي القضاة ابن السكري عماد الدين عبد الرحمن بن عليّ المصري الشافعي، تفقه على شهاب الطوسي، وبرع في المذهب، ودرس وأفتى وليّ قضاء القاهرة وخطابتها.

وفيها توفي الملك المعظّم سلطان الشام شرف الدين عيسى ابن الملك العادل الفقيه الأديب، ولد بالقاهرة، وحفظ القرآن، وبرع في الفقه وشرح الجامع الكبير في عدة مجلدات باعانة غيره، ولازم الاشتغال زماناً، وسمع المسند كله من مسند أحمد بن حنبل مراراً، ثم تلاحق مماليكه بعد، وكان حنفيّ المذهب، قال ابن خلكان: كان متعصباً لمذهبِهِ ولهُ فيه مشاركة حسنة، ولم يكن في بني أيوب حنفيّ سواه، وتبعه أولاده، وكان قد حج، ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين، فأحسنوا في مدحه، وكانت له رغبة في فنّ الأدب، وقيل: إنه قد شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشريّ مائة دينار، وخلعة، فحفظه لهذا السبب جماعة. قال: ورأيت بعضهم بدمشق، والناس يقولون إنّ سبب حفظهم له كان هذا قال: ولم أسمع بمثل هذه المنقبة لغيره، وكانت مملكته متسعة يعني في بلاد الشام توفي[1] يوم

(١) توفي في ثالث ساعة من نهار يوم الجمعة أول يوم من ذي الحجة، مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٤٨.
توفي يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة أربع وعشرين وستمائة بدمشق. =

الجمعة سلخ ذي القعدة بدمشق، ودفن في قلعتها، ثم نقل إلى جبل الصالحية، ودفن في مدرسة هناك تعرف بالمعظمة فيها قبور جماعة من اخوانه وأهل بيته، وكان من النجباء الأذكياء، ذكرت عنه أمور تدل على حسن ادراكه واصابة المقصد منها أنه كان ابن عنين قد مرض، فكتب إليه:

انظر إليَّ بعين مولى لم يزل مولى[1] الندى وتلاف قبل تلاف[2]
فأنا الذي أحتاج ما تحتاجه فاغنم ثوابي وثناء[3] الوافي

فجاء إليه بنفسه يعوده، ومعه صرة فيها ثلاث مائة دينار، فقال: هذ الصلة وأنا العائد وأشياء كثيرة يطول شرحها.

سنة خمس وعشرين وست مائة

فيها توفي العلاّمة الحسن بن إسحاق المعروف بابن الجواليقي المحدث الرحّال أحمد بن تميم بن هشام الأندلسيّ.

وفيها توفي أبو المعالي أحمد بن الخضر الصوفيّ المعروف بابن طاووس رحمه الله.

سنة ست وعشرين وست مائة

فيها أخذ الكامل بيت المقدس، وسلمه إلى ملك الفرنج[4] أعوذ بالله من سخط الله، ومن انتهاك شعائر الله، وموالاة أعداء الله، فكم بين من طهره من نجاسات الشرك، وبين من ساق إليه نجاسات الشرك، ومن أعز دين الله ونصره، وبين من أذله وحقره، ثم اتبع فعله ذلك بحصار دمشق وايذاء الرعيّة، وجرت بين عسكره وعسكر الناصر وقعات حربية، وقتل جماعة في غير سبيل الله، ووقع النهب في الغوطة والحواضر، وأحرقت الجبانات[5] والخوانق[6]، ودام الحصار أشهراً، ثم وقع الصلح في شعبان، ورضي الناصر بالكرك ونابلس فقط، ثم دخل الكامل، وبعث جيشه يحاصرون حماة، ثم تسلّم دمشق بعد شهر إلى

= وقال غيره: توفي يوم الجمعة ثامن ساعة من نهار سلخ ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة بدمشق. وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٥.

(١) في وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٦: يولي.

(٢) في وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٦: تلافي.

(٣) في وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٦: والثناء.

(٤) انظر البداية والنهاية ج ٩ ص ٤.

(٥) الجبانات: الجبّان والجبانة: المقبرة والصحراء.

(٦) الخوانق: كلمة فارسية معناها «بيت» وأصلها «خونقاه» أي الموضع الذي يأكل فيه الملك صبح الأعشى ٣/ ٣٥٥.

أخيه الأشرف، فأعطاه الأشرف حران والرقة والرهاء وغير ذلك، فتوجه إلى الشرق ليتسلم ذلك، ثم حاصر الأشرف بعلبك، فأخذها من الأمجد.

وفيها توفي مسند الشام أبو القاسم شمس الدين الحسين بن هبة الله بن محفوظ الثعلبي الدمشقي.

وفيها توفيت أمة الله بنت أحمد بن عبدالله الآبنوسي، روت الكثير عن أبيها، وتفردت عنه، وتوفيت في الحرم، وتلقبت شرف النساء كانت صالحة خيرة.

وفيها توفي ياقوت الرومي الحموي، ثم البغدادي التاجر شهاب الدين الأديب الإخباري صاحب التصانيف الأدبية في التاريخ والأنساب والبلدان وغير ذلك، أسر من بلاده صغيراً فابتاعه ببغداد رجل تاجر، ولما كبر ياقوت المذكور، قرأ شيئاً من النحو واللغة، وشغله مولاه بالأسفار في متاجرة، ثم جرت بينه وبين مولاه قضية[١] أوجبت عتقه، فأبعده عنه فاشتغل بالنسخ، وحصلت له بالمطالعة فوائد. وصنف كتاباً سمّاه إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء في أربع مجلدات، وكتاباً في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء، وكتباً أخرى عديدة، وكانت له همة عالية في تحصيل المعارف.

وذكر القاضي الأكرم أبو الحسن عليّ بن يوسف الشيبانيّ وزير صاحب حلب ياقوت المذكور، كتب إليه رسالة من الموصل عند وصوله إليها يصف فيها حاله وما جرى له، فأحجم عن عرضها على مولاه الشريف اعظاماً وتهيباً، وفراراً من قصورها عن طوله وتجنباً، إلى أن وقف عليها جماعة من منتحلي صناعة النظم والنثر فوجدهم مسارعين، إلى كتبها، متهافتين على نقلها؛ وما يشك أن محاسن مالك الرق حلتها، وفي أعلى درج الاحسان أحلّتها، فشجعه ذلك على عرضها على مولاه، وللآراء علوها في تصفحها، والصفح عن زللها، فليس كل من لمس درهماً صيرفياً. ولا كل من اقتنى دراً جوهرياً.

قلت: وهذه الألفاظ اليسيرة من أولها رأيت كتابتها ليتعجب من بلاغتها من وقف عليها: بسم الله الرحمن الرحيم، أدام الله على العلم وأهليه، والإسلام وبنيه، ما سوغهم وحباهم، ومنحهم وأعطاهم، من سبوغ ظل المولى الوزير، أعزّ الله أنصاره، وضاعف مجده واقتداره، ونصر ألويته وأعلامه، وأجرى باجراء الأرزاق في الآفاق أقلامه، وأطال بقاءه، ورفع إلى أعلى عليين علاه، في نعمة لا يبلى جديدها، ولا يُحصى عدّها ولا عديدها، ولا ينتهي إلى غاية مديدها، ولا يقلّ[٢] حديدها ولا جديدها، ولا يقل وادها ولا وديدها، وأدام

(١) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٢٧: نبْوة.
(٢) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٠: ولا يُغل.

الله ولته، للدنيا والدين إلى يوم يبعثه[١] ويهزم كرثه يعني كربه، ويرفع مناره، ويحسن بحسن أثره آثاره، ويفتق نوره وأزهاره، وينير نواره، ويضاعف أنواره، وأسبغ ظله للعلوم وأهلها، والآداب ومنتحليها، والفضائل وحامليها، ويشيد بمشيد فضله بنيانها، ويرصع بناصع مجده تيجانها ويروض ببالغ علائه زمانها، ويعظم لعلو همّته الشريفة من البرية شأنها، ويمكن في أعلى درج الاستحقاق امكانها ومكانها، ورفع[٢] بنفاذ الأمر قدره للدول الإسلامية والقواعد الدينية: ليسوس قواعدها، ويعز مساعدها، ويهين معاندها، ويعضد بحسن الانابة[٣] معاضدها، وينهج بجميل المقاصد مقاصدها، حتى يعود بحسن تدبيره غرّةً في جبهة الزمان، وسنة يقتدي بها من طبع على العدل والإحسان. يكون لها[٤] أجرها ما دار الملوان، وكر الجديدان، ما أشرقت من الشرق شمس، وارتاحت إلى مناجاة الحضرة الزاهرة[٥] نفس.

وبعد، فإن المملوك ينهي إلى المقرّ العالي المولوي، والمحلّ الأكرم العليّ أدام الله سعادته مشرقة النور مبلغة السؤل، واضحة الغرر بادية الحجول، ما هو مكيف[٦] بالأريجية المولوية عن تبيانها، مستغن بما منحتها من صفاء الآراء عن افضاء[٧] قلمه لايضاحه وبيانه، قد أحسنه[٨] ما وصفه به عليه الصلاة والسلام للمؤمنين، وإن من أمتي لمكلمين، وهو شرح ما يعتقده من الولاء، ويفتخر به من البعيد[٩] للحضرة الشريفة الغراء[١٠]. قد كفته تلك الألمعية عن اظهار المشتبه بالملق مما تجنه الطوية، لأن دلائل غلوّ المملوك في دين ولاية الآفاق، واضحة، وطبعه بسكة اخلاص الوداد باسمه الكريم على صفحات الدهر لائحة، وإيمانه بشرائع الفضل الذي طبق الآفاق، حتى أصبح بها نبيّ[١١] المكارم مبين[١٢]، وتلاوته لأحاديث المجد بالمشاهدة متين، ودعاء أهل الآفاق إلى المغالاة في الإيمان بإمامة فضله

---

(١) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٠ : يلم شعثه.
(٢) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : ويرفع.
(٣) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : الإيالة.
(٤) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : له.
(٥) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : الباهرة.
(٦) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : مكتف.
(٧) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : امضاء.
(٨) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : أحسبه.
(٩) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : التعبد.
(١٠) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : والاعتزاء.
(١١) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : بناء.
(١٢) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١ : متين.

الذي تلقاه باليمن[١] معروف، وتصديقه بملة سؤدده الذي تفرد بالوحي[٢] لنظم شارده وقسم متبدّده بعرق الجبين مألوف، حتى لقد أصبح للفضل كعبة لم يفترض حجتها على من استطاع إليها السبيل، ويقتصر بقصدها على ذي القدرة دون المعتر وابن السبيل، فإنّ لكل منهم حظاً يستمده، ونصيباً يستفيد به ويستعده[٣] فللعظماء الشرف الضخم من معينه، وللعلماء اقتناء الفضل من فطينه، وللفقراء توقيع الأمان من نوائب الدهر وغض جفونه، وفرضوا من مناسكه للنهجة الشريعة[٤] السلام والتبجيل، وللكف البسيطة الإستلام والتقبيل.

ثم قال بعد كلام مشتمل على ألفاظ فضيلة ومعان جميلة: وقد كان المملوك فارق ذلك الجناب الشريف، وانفصل عن مقر العزّ اللباب، والفضل المنيف، أراد استعتاب الدهر الكالح، واستدبار صلف[٥] الزمن الغشوم والجامح، اعتذار أبان في الحركة بركة، والاغتراب داعية الاكتساب، والمقام على الاقتراب[٦] ذلك واستقام وحبس[٧] البيت، في المحافل سُكيت:

فودّعتُ من أهلي وفي القلبِ ما به وسرتُ عن الأوطانِ في طلب اليسرِ
سأكسبُ مالاً أو أموت ببلدةٍ يقلّ بها فيضُ الدموع على قبري

فامتطأ غارب الأمل إلى الغربة، وركب ركب التطواف مع كل صحبه، قاطع الأغوار والأنجاد، حتى بلغ السدّ، أو كاد، فلم يرفق به زمان حزون[٨] ولا مكان حرون، فلكأنه في جفن الدهر قذىً، وفي حلقه شجىً، تدافعه آمال[٩] الأمنية حتى أسلمته إلى ربقة المنية.

لا يستقر بأرض أو يسير إلى أخرى لشخص[١٠] قريب عزمه نأى[١١]
يوماً يخروى ويوماً بالعقيق ويوماً بالعذيب ويوماً بالخليصاء
وتارة يتنحى نخلاً وأودية[١٢] شعب الحزون وحيناً قصر تيمناء

(١) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١: باليمين.
(٢) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١: بالتوخي.
(٣) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣١: يستعد به ويعتده.
(٤) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٢: للجبهة الشريفة.
(٥) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٢: خِلْف.
(٦) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٢: الإقتار.
(٧) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٢: وحلس.
(٨) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٣: فلم يُصحب له دهره الحرون.
(٩) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٣: نيل.
(١٠) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٣: بشخصٍ.
(١١) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٣: نائي.
(١٢) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٣: وتارة ينتحي نجداً وآونة.

والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويزخيها، ويعلل المعيشة ويرجيها متلفعاً[١] بالقناعة والعفاف، مشتملاً بالنزاهة والكفاف، غير راضٍ بذلك الشّمَل، ولكن مادة أقول لا يطل[٢]، قد ألزم[٣] نفسه أن يستعمل طرفاً طماحاً، وأن يركب طرفاً جماحاً، وأن يلحف بيض طمع جناحاً، وأن يستقدح زهداً وارياً وشاحاً[٤].

وأدّبني الزمان فلا أبالي ... هجرت فلا أزار ولا أزورُ
ولست بسائل[٥] ما عشتُ يوماً ... أسار الجندامُ ركب الأميرُ

ولقد ندب المملوك أيام الشباب بهذه الأبيات، وما أقل عنّا الباكي عد في الرفات[٦].

تنكّر لي مذ شبت دهري وأصبحت ... معارفه عندي من النكرات
إذا ذكرتها النفس حنت صبابةً ... وجاد شؤونُ العين بالعبرات
إلى أن أتى دهرٌ يحسّن ما مضى ... ويوسعني تذكارُه حسرات

قلت: وهذا البيت الأخير يُشفي من منهل القائل الذي بهذا المعنى يشير.

ربّ دهر بكيت منه ... فلما صرت في غيره بكيت عليه

وهذا ما اقتصرت عليه من رسالته الطويلة الجليلة الفائقة الجميلة المؤذنة له بتمام البلاغة والفضيلة، وهو نحو من ربعها، وهو لعمري فيما يستحقه من النعوت. من نفيس الجواهر كاسمه ياقوت، توفي رحمه الله تعالى في شهر رمضان بظاهر مدينة حلب، وكان قد وقف كتبه، ولما تميز سمى نفسه يعقوب.

وفيها توفي الملك المسعود ابن الملك الكامل بمكة المشرفة، وكان قد سيّره جده الملك العادل إلى اليمن، فملكها وبلاد الحجاز مضافة إليها، ولما حضرته الوفاة وصّى أنه إذا مات لا يجهز بشيء من ماله، يسلم إلى الشيخ الصديق يجهزه عنده بما يرى، وكان من كبار الصالحين من أكراد بلد إربل مجاوراً بمكة، ولما مات الملك المسعود تولّى تجهيزه، وكفّنه في إزار[٧]، كان قد أحرم فيه بالحج والعمرة سنين عديدة، وجهزه تجهيز الفقراء،

(١) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٣ : متقنعاً.
(٢) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٣ : لكن مكره أخاك لا بطل.
(٣) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٣ : زمَّ.
(٤) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٤ : وأن يستقدح زنداً وارياً أو شحاماً.
(٥) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٤ : بقائل.
(٦) في وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٨ : وما أقلّ غناء الباكي على من عد في الرفات.
(٧) إزار: كساء يغطي النصف الأسفل من البدن (ج) أُزر.

وكان قد أوصى أن لا يبنى على قبره. بل يُدفن بين القبور، ويكتب على قبره: هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى يوسف بن محمّد بن أبي بكر بن أيوب، ففعل ذلك، ثم إنّ عتيقه الصارم المسعودي الذي تولّى القاهرة بنى عليه قبّة، ولما بلغ الملك الكامل فعل الشيخ صديق، كتب إليه يشكره ويسأله أن يذكر له حوائجه ليقضيها، فلم يرد عليه جواباً، وقال: ما أستحق شكراً إنما جهزت فقيراً.

سنة سبع وعشرين وست مائة

وفيها حاصر جلال الدين والخوارزمية خلاط، وكان قد حاصرها من قبل أربع مرّات هذه خامسها، ففتح له بعض الأمراء بشدة القحط على أهلها، وحلف لهم جلال الدين وغدر، وعمل أصحابه بها كما يعمل التتار من القتل، ثم رفعوا السيف، وشرعوا في المصادرة والتعذيب، وخاف أهل الشام وغيره من الخوارزمية، وعرفوا أنهم إن ملكوا أهلكوا أو لكل قبح فتكوا، فاصطلح الأشرف وصاحب الروم علاء الدين، واتفقوا على حرب جلال الدين، وساروا والتقوه في رمضان، فكسروه والحمد لله، واستباحوا عسكره، وهرب جلال الدين بأسوأ حال، فوصل إلى خلاط في سبعة أنفس، وقد تمزق جيشه، وقتلت أبطاله، فأخذ حرمه، وما خفّ حمله وهرب إلى آذربيجان، ثم أرسل إلى الملك الأشرف في الصلح وذل وأمنت خلاط وشرعوا في اصلاحها.

وفي السنة المذكورة توفي زين الأمناء أبو البركات الحسن بن محمّد الدمشقي الشافعي المعروف بابن عساكر[1]، وكان صالحاً خيّراً، حسن السمت. روي عن أبي العشائر وطائفة، وتفقه على جمال الأئمة عليّ بن الناسخ، وولي نظر الخزانة والأوقاف، ثم تزهد.

وفيها توفي عبد السلام بن عبد الرحمن الصوفيّ البغداديّ، سمع أبا الوقت وجماعة كثيرة.

وفيها توفي أبو محمّد عبد السلام بن عبد الرحمن ابن الشيخ العارف بالله معدن الحكم والمعارف أبي الحكم بن برجان اللخميّ المغربي، ثم الإشبيليّ حامل لواء اللغة بالأندلس.

سنة ثمان وعشرين وست مائة

لما علمت التتار بضعف جلال الدين خوارزم شاه، بادروا لقتاله، فلم يقدم على لقائهم، فملكوا مراغه، وعاثوا ويدعوا وفرهوا إلى آمد، وتفرق جنده، فبيته التتار ليلة، فنجا بنفسه، وطمع الأكراد والفلاحون وكل واحد في جنده وتخطفوهم، وانتقم الله منهم،

---

(١) انظر البداية والنهاية ٨/٩.

وسارت التتار إلى ديار بكر في طلب جلال الدين، ووصلوا إلى ماردين[١] يسبّون ويقتلون.

وفيها توفي الملك الأمجد مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه صاحب بعلبك، تملكها بعد والده خمسين سنة، وكان جواداً كريماً شاعراً محسناً قتله، مملوك له بدمشق.

وفيها توفي المهذّب شيخ الطب عبد الرحيم بن عليّ بن حامد الدمشقيّ واقف المدرسة التي بالصاغة العتيقة على الأطباء، أخذ عن الموفق بن المطزان والرضيّ الرحبيّ، وأخذ الأدب عن الكنديّ، وانتهت إليه معرفة الطب، وصنف فيه التصانيف، وحظي عند الملوك، وفي آخر عمره عرض عليه طرف خرس حتى لا يكاد يفهم كلامه، واجتهد في علاج نفسه، فما أفاد بل ولّد له أمراضاً، وما زال يسعل إلى أن مات.

وفيها توفي الإمام النحويّ أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواويّ[٢] الفقيه الحنفيّ صاحب الألفية، أقرأ العربية مدة بدمشق ثم بمصر.

وروى عن القاسم ابن عساكر، وتوفي بمصر، وكان أحد أئمة عصره في النحو واللغة، واشتغل عليه خلق كثير، وانتفعوا به، وصنف تصانيف مفيدة، وكان انتقاله من دمشق إلى مصر بسبب أن الملك الكامل رغبه في ذلك، وقرر له على التصدر بجامع العتيق لإقراء الأدب رزقاً، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي بها، فدفن على شفير الخندق، قرب تربة الإمام الشافعي، وقبره هنالك ظاهر.

والزواويّ نسبة إلى زواوة، وهي قبيلة كبيرة بظاهر بجاية من أعمال افريقية ذات بطون وأفخاذ.

وفيها توفي الشيخ الجليل العارف الواعظ المنطق بالحكم، ومحاسن المواعظ أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي[٣] أحد شيوخ «الرسالة» المشهورة، وأرباب المحاسن المشكورة، مدحه الأستاذ أبو القاسم القشيريّ، وقال: نسيج وحده في وقته له لسان في الرجا خصوصاً، وكلام في المعرفة، خرج إلى بلخ وأقام بها مدة، ورجع إلى نيسابور، ومات بها.

ومن كلامه كيف يكون زاهداً من لا ورع له؟ تورع عما ليس لك، ثم أزهد فيما لك،

---

(١) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دُنيسر ودار ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدّامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس ورُبط وخانقاهات وعيون ماء. معجم البلدان ٥/٤٦.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/١٠.

(٣) توفي سنة ثمان وخمسين ومائتين بنيسابور. وفيات الأعيان ٦/١٦٧.

وكان يقول: الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهّاد سياسة، وللعارفين مكرمة، والوحدة جليس الصدّيقين، والفوت[١] أشد من الموت، لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق. والزهد ثلاثة أشياء القلة، والخلوة والجوع، وذكره الخطيب في «تاريخ بغداد» فقال: «قَدِم بغداد واجتمع إليه بها مشائخ الصوفية والنساك، ونصبوا منصبه، وأقعدوه عليها، وقعدوا بين يديه يتحاورون، وكان له اشارات وعبارات حسنة.

ومن كلامه أحسن الأشياء الكلام الحسن حسن، وأحسن من الكلام معناه، وأحسن من معناه استعماله، وأحسن من استعماله ثوابه، وأحسن من ثوابه رضا من يُعمل له.

ودخل على علويّ ببلخ زائراً له ومسلّماً عليه، فقال له العلويّ: أيّده الله الأستاذ ما تقول فينا أهل البيت؟ قال: ما أقول في طين عجن بماء الوحي، وغرس بماء الرسالة، فهل يفوح منهما إلا مسك الهدى وعنبر التقى؟ فحشا العلويّ فاه بالدر.

ومن كلامه ما بعد طريق إلى صديق، ولا استوحش من سلك فيه إلى حبيب في طريق وقال: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء، وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه، فلا تضره، وإن لم تمدحه، فلا تذمه، وإن لم تسره، فلا تغمه، وقال: عمل كالسراب؛ وقلب من التقوى خراب، وذنوب بعدد الرمال والتراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب، هيهات! أنت سكران بغير شراب، ما أكملك لو بادرت أملك، ما أجلك، ولو بادرت أجلك، وله في هذا الباب كلام مليح النظام.

سنة تسع وعشرين وست مائة

فيها توفي السلطان جلال الدين خوارزم شاه ابن السلطان علاء الدين، كان يضرب به المثل في الشجاعة والإقدام، كثير الجولان في البلاد ما بين الهند إلى ما وراء النهر، إلى العراق، إلى فارس، إلى كرمان، إلى أرمينية، وأذربيجان وغير ذلك، وافتتح المدن، وسفك الدماء، وظلم وعسف وغدر، قالوا: ومع ذلك كان صحيح الإسلام، وكان ربما قرأ في المصحف، ويبكي وآل أمره إلى أن تفرق عنه جيشه، حتى يقال: إنه سار في نفر يسير فبيته كرديّ في منزله، وطعنه بحربة وقتله بها.

وفيها توفي الحافظ أبو موسى عبدالله ابن الحافظ عبد الغنيّ المقدسيّ رحمه الله.

وفيها توفي العلاّمة المتقن الموفّق عبد اللطيف بن يوسف البغداديّ الشافعيّ النحوي اللغويّ الطبيب الفيلسوف، وصاحب التصانيف الكثيرة، كان أحد الأذكياء البارعين في اللغة

---

(١) الفوت: الهروب والنجاة. والفوات: موت الفوات: موت الفجأة.

والأدب والطب.

وفيها توفي الشيخ الجليل ذو العطاء الجزيل، والأحوال السنيات، والجد والمجاهدات عمر بن عبد الملك الدينوريّ نزيل قاسيون.

وفيها توفي الحافظ الرحّال محمد بن عبد الغنيّ، المعروف بابن نقطة الحنبليّ[١]، كان من أهل الحديث المكثرين من سماعه وكتابته، والراحلين في تحصيله. لقي المشايخ وأخذ عنهم، واستفاد منهم، وكتب الكثير، وعلق التعاليق النافعة، وذيّل على «الإكمال» كتاب الأمير ابن مأكولا ما أقصر فيه، وجاء في مجلدين. وله كتاب آخر لطيف في الأنساب وكتاب التقييد المعروفة رواة السنن والمسانيد، وذكره أبو البركاتِ ابن المستوفي في تاريخه، فأثنى عليه، وقال: أنشد لأبي عليّ محمّد بن الحسين بن أبي الشبل أحد شعراء العراق المجيدين.

لا تظهرنَّ لعادل ولغادر[٢] حاليك في الضرّاء والسرّاء
فلرحمة المتوجعين مرارةٌ في القلب مثل شماتةِ الأعداء

سنة ثلاثين وست مائة

وفيها حاصر الملك الكامل آمد وأخذ من صاحبها المسعود بن المودود ابن الملك الصالح الأتابكيّ، وكان ممدود فاسقاً يأخذ الحرام غصباً، وسلم الملك الكامل آمد إلى ولده الصالح نجم الدين أيوب.

وفيها جاء صاحب الروم، وحاصر حران والرقة، واستولى على الجزيرة، وفعل الروم مع إسلاملهم ما يفعلون مع كفرهم.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين إبراهيم بن شاكر التنوخيّ الشافعيّ الكاتب البليغ، والد تقيّ الدين إسماعيل روى بالإجازة عن شهدة، وولي قضاء المعرة في صباه خمس سنين، فقال:

وليت الحكم خمساً هنّ خمس لعمري، والصبا في عنفوانِ
فلم تضع الأعادي قدر شأني ولا قالوا فلان قد رشاني

قلت: وقد أحسن في صنعة هذين البيتين، وقوله: هن خمس هو بضم الخاء أي

(١) ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة وتوفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من صفر من هذه السنة البداية والنهاية ٩/ ١٤.

(٢) لا تظهرنّ لعاذلٍ أو عاذرٍ. وفيات الأعيان ٤/ ٣٩٣.

خمس عشر مشير إلى أن عمره في ذلك الوقت خمس وعشرون سنة، وقوله: قد رشاني في الأول منهما أضاف قدر إلى شأني، وهو منصوب بتضع، والثاني مركب من قد مع رشاني من الرشوة، والكل مفهوم وإنما أوضحته لمن لا يفهم وعنفوان الشيء أوّله.

وفيها توفي ادريس ابن السلطان يعقوب بن يوسف، بايعوه بالأندلس، ثم جاء إلى مراكش وملكها، وعظّم سلطانه، وكان بطلاً شجاعاً ذا هيبة شديدة، وسفك للدماء، قطع ذكر ابن تومرت بالخطبة.

وفيها توفي الملك العزيز عثمان ابن العادل أخو المعظّم لأبويه، اتفق موته بالناعمة، وهو بستان له في عاشر شهر رمضان.

وفيها توفي الإمام الحافظ ابن الأثير أبو الحسن عليّ بن محمّد الجزريّ صاحب التاريخ، ومعرفة الصحابة، وغير ذلك، كان صدراً معظماً، كثير الفضائل، كان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل، وحافظاً للتواريخ، وخبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، صنّف في التاريخ كتاباً كبيراً، واختصر كتاب الأنساب لابن السمعانيّ، واستدرك عليه في مواضع ونبه على أغلاط، وزاد شيئاً أهملها، وهو مفيد جيداً في ثلاث مجلدات، والأصل في ثمان.

قال ابن خلكان: والموجود اليوم في أيدي الناس هو هذا المختصر وله كتاب أخبار الصحابة في ست مجلدات كبار، وكان قد تنقّل في بلدان كثيرة سمع بها من الشيوخ منها الموصل، وبغداد، والشام، والقدس، والجزريّ نسبة إلى جزيرة ابن عمر رجل من أهل برقعيد من أعمال موصل، وهو عبد العزيز بن عمر.

وفيها توفي الحافظ الرّحال ابن الحاجب عمر بن محمّد الدمشقي رحمه الله، خرج لنفسه معجماً في بضع وستين جزءاً. وفيها توفي مظفر الدين صاحب إربل أبو سعيد التركمانيّ.

وفيها توفي أبو المحاسن محمد بن نصر الشاعر الملّقب بشرف الدين المعروف بابن عنين، قال ابن خلكان: كان خاتمة الشعراء: لم يأت بعده مثله، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به، ولم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب، بل تفنن فيه، وكان غزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب، قال: وبلغني أنه كان يستحضر كتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد، وكان مولعاً بالهجاء، وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من رؤساء دمشق، سمّاها «مقراض الإعراض». وكان السلطان صلاح الدين، قد نفاه من دمشق بسبب وقوعه في الناس، فلما خرج منها قال:

فعـلامَ أبْعـدْتُـم أخـا ثِقَـةٍ … لـم يحتـرم[1] ذنبـاً ولا سَـرَقـا؟
أنفُـوا المـؤذِّنَ مـن بـلادِكُـمْ … إن كـان يُنْفـى كُـلُّ مـن صَـدَقـا

وطاف البلاد من الشام ـ والعراق ـ والجزيرة ـ وآذربيجان ـ وخراسان ـ وغزنة ـ وخوارزم ـ وما وراء النهر، ثم دخل الهند ـ واليمن ـ وملكها يومئذٍ سيف الإسلام أخو صلاح الدين، وأقام بها مدة، ثم رجع إلى طريق الحجاز والديار المصرية، وعاد إلى دمشق، وكان يتردد منها إلى البلاد، ويعود إليها، قال: ولقد رأيته بمدينة إربل، وقد وصل إليها رسولاً عن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك صاحب دمشق، وأقام بها قليلاً، ثم سافر وكتب من بلاد الهند إلى أخيه بدمشق هذين البيتين، والثاني منهما لأبي العلاء المعريّ، استعمله مضمناً، وكان أحق به، وهما:

سـامحـت كُتبَـكَ فـي العطيفـة[2] عـالمـاً … إن الصحيفـة لـم تجـدْ مـن حـامـل
وعَـذَرْتُ طيفـك فـي الخفـاء[3] لأنـه … يسـري ويصبـح[4] دوننـا بمـراحـل

قال ابن خلكان: لله دره، فما أحسن من وقع له هذا التضمين، ولما مات السلطان صلاح الدين وملك الملك العادل دمشق كان غائباً منفياً عنها، فسار متوجهاً إليها، وكتب إلى الملك قصيدة يصفه فيها ويستأذنه في الدخول، ويذكر ما قاساه في الغربة، وأحسن فيها كل الاحسان في المعاني اللطائف، واستعطفه أبلغ الاستعطاف أوّلها.

مـاذا علـى طيـف الأحبـة لـو سـرى … وعليهـم لـو سـاعـدونـي[5] بـالكـرى

ولما فرغ من وصفها قال مشيراً إلى نفيه منها:

فـارقْتُهـا لا عـن رضـاً وهجـرتُهـا … لا عـن قِلـىً، ورحلـت لا متحيـرا[6]
أسعـى لـرزقٍ فـي البـلاد مشتّـتٍ … ومـن العجـائـب أن يكـون مُقتَّـرا
وأصـون وَجْـهَ مـدائحـي متقنعـاً … وأكـفّ ذيـل مطـامعـي مقتـرا[7]

---

(١) يقترف. البداية والنهاية ٩/١٩.
(٢) القطيعة. وفيات الأعيان ٥/١٥.
(٣) الجفاء. وفيات الأعيان ٥/١٥.
(٤) فيصبح. وفيات الأعيان ٥/١٥.
(٥) سامحوني. وفيات الأعيان ٥/١٦.
(٦) متخيراً. وفيات الأعيان ٥/١٦.
(٧) لا عيشتي تصفو. وفيات الأعيان ٥/١٧.

ومنها يشكو الغربة، وما قاساه فيها:

أشكـو إليـك نـوىً تمـادى عُمْـرُهـا ... حتـى حسبـتُ اليـومَ منهـا أشهـرا
إلا عيشتـي يصفـو[1] ولا رَسْمُ الهـوى ... يعفـو، ولا جفنـي يصـافحـه الكـري
أضحـي عـن الأخـرى المرتـع ممحـلاً[2] ... وأبيـت عـن ورد النميـر منفَّـرا
ومـن العجـائـب أن يُقبِّـل ظلكـم ... كـل الـورى، ونبـذت وحـدي بـالعَـرا

قوله: النمير قال في ديوان الأدب: هو الماء الجاري الزاكي في الماشية عذباً كان أو غير عذب، وهو بفتح النون وكسر الميم وسكون المثناة من تحت في آخره راء.

قال ابن خلكان: هذه القصيدة من أحسن الشعر. قال: فهي عندي خير من قصيدة ابن عمّار الأندلسي، وهي على وزنها التي أولها أدب الزجاجة، فالنسيم قد انبرى، فلما وقف عليها الملك الأعدل أذن في الدخول إلى دمشق، فلما دخلها، قال:

هجـوتُ الأكـابـر فـي جِلَّـقٍ ... ورُعْـتُ الـوضيـعَ بسـبِّ الـرفيـعِ
وأخـرجـتُ منهـا، ولكننـي ... رَجْعـتُ علـى رغـم أنـف الجميـعِ

ويعني بحلق بكسر الجيم واللام وتشديدها وبعدها قاف اسم مكان في الشام، وربما قيل: إنه لقب لدمشق، والله أعلم، قال: وكان له في عمل الألغاز وحلها اليد الطولى، ولم يكن له غرض في جمع شعره وتدوينه، وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً لا يبلغ عشر نظمه، وفيه أشياء ليست له، وكان من أطرف الناس، وله بيت عجيب من قصيدة يذكر فيها أسفاره وتوجهه إلى جهة الشرق وهو:

أشقِّـقُ قلـب الشـرق حتـى كـأننـي ... أفتِّـش عـن سَـوْدائـه عـن سَنـا الفجـر

قال: وقد رأيته في المنام ينشد أبياتاً. وأعجبني منها بيت، فرددته في النوم واستيقظت، وقد علق بخاطري وهو:

والبيـت لا يَحْسُـن إنشـاده ... إلا إذا أحسَـنَ مـن شـادَهُ

وهذا البيت غير موجود في شعره، وكان وافر الحرمة عند الملوك، وتولى الوزارة بدمشق في آخر دولة الملك المعظم، وانفصل منها لما تملكها الملك الأشرف وأقام في بيته، ولم يباشر بعدها خدمة.

وكانت ولادته بدمشق يوم الاثنين، ووفاته فيها يوم الأثنين، وعاش نحواً من ثمانين سنة.

---

(١) لا عيشتي تصفو. وفيات الاعيان ٥/ ١٧.

(٢) أضحى عن الأحوى المريع محلاً. وفيات الاعيان ٥/ ١٧.

سنة إحدى وثلاثين وست مائة

فيها سار الملك الكامل. بجيوش عظيمة ليأخذ الروم ـ وقدم بين يديه جيشاً فهزمهم صاحب الروم، وأسر صاحب حماة، ومقدم الجيش صواب الخادم فرد الكامل. وفيها تسلطن بدر الدين لؤلؤ بالموصل.

وفيها تكامل بناء المستنصرية ببغداد على المذاهب الأربعة. قال بعضهم ولا نظير لها في الدنيا فيما أعلم قلت لو تمت بعد نيف وسبع مائة وستين مدرسة السلطان حسن ابن السلطان ملك الناصر محمد بن قلاوان في الديار المصرية ما كان مثلها من الدنيا لا المستنصرية، ولا غيرها، فيما شاع عن الجم الغفير، والعلم عند الله العليم الخبير.

وفيها توفي الإمام العلاّمة الفقيه الأصولي أبو الحسن عليّ بن أبي عليّ بن محمّد الملقب سيف الدين الأسديّ الثعلبيّ الحنبلي، ثم الشافعيّ صاحب التصانيف البديعة النازلة في المنزلة الرفيعة المفيدة النافعة الصادرة عن القريحة البارعة، كان في أول اشتغاله حنبليّ المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الإمام الشافعي، وصحب الشيخ أبا القاسم بن فَضْلان، واشتغل عليه في الخلاف وتميز فيه، وحفظ طريقة الخلاف الشريف، وزوائد طريقة أسعد الميهنّي، ثم انتقل إلى الشام، واشتغل بفنون المعقول، وحفظ منه الكثير ومهر فيه، ولم يكن في زمانه أحفظ منه لهذه العلوم العقلية، ثم انتقل إلى الديار المصرية، وتولّى الإعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعيّ في القرافة الصغرى، وتصدر الجامع الظافريّ بالقاهرة مدة، واشتهر بها فضله، واشتغل عليه الناس وانتفعوا به.

قال ابن خلكان: ثم حسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصّبوا عليه ونسبوه في العقيدة إلى الفساد، وانخلال الطوية، والتعطيل ومذهب الفلاسفة والحكماء، أولى الكفر والتضليل، وكتبوا محضراً يتضمن ذلك، ووضعوا فيه خطوطهم بما يُستباح به الدم، قال: وبلغني عن رجل منهم فيه عقل ومعرفة أنه لما رأى التحامل عليه وإفراط التعصب كتب في المحضر، وقد حمل إليه ليكتب فيه مثل ما كتبوا، فكتب:

حَسَدُوا الفتى إذ لم ينالوا فضله[1] فالقومُ[2] أعداءٌ له وخُصومُ

والله أعلم، وكتبه فلان ابن فلان، ولما رأى سيف الدين تعليهم عليه، وما اعتقدوه[3] في حقه ترك البلاد وخرج منها مستخفياً، وتوصل إلى الشام، واستوطن مدينة حماة.

(١) سعيه: وفيات الأعيان ٣/ ٢٩٤ وفي البداية والنهاية ٩/ ٢٢.
(٢) مالناس. البداية والنهاية ٩/ ٢٢.
(٣) تألبهم عليه وما اعتمدوه في حقه. وفيات الأعيان ٣/ ٢٩٤.

وصنف في أصول الفقه، والدين والمنطق، والحكمة، والخلاف، فكل تصانيفه مفيدة، فمن ذلك كتاب أبكار الأفكار في علم الكلام، واختصره في كتاب مناهج القرائح[١] ورموز الكنوز، وله دقائق الحقائق، وكتاب الألباب، ومنتهى السؤل في علم الأصول، وله طريقة في الخلاف، ومختصر في الخلاف أيضاً، وشرح جدل الشريف، وغير ذلك وجملة تصانيفه مقدار عشرين تصنيفاً، وانتقل إلى دمشق، ودرس بالمدينة العزيزية، وأقام بها زماناً، ثم عزل عنها بسبب، وأقام بطالاً في بيته، وتوفي على تلك الحال، ودفن بسفح جبل قاسيون، وعمره ثمانون سنة، والآمدي بالهمزة الممدودة والميم المكسورة وبعدها دال مهملة، نسبة إلى آمد وهي مدينة كبيرة في بلاد بكر مجاورة لبلاد الروم.

وفيها توفي الإمام أبو عبدالله القرطبيّ محمد بن عمر المقري المالكي، كان متفنناً في عدة علوم كالفقه والقراءات والعربية والتفسير زاهداً صالحاً، سمع من عبد المنعم بن الفراويّ، وطائفة، وقرأ القراءات على الإمام الشاطبيّ وتوفي بالمدينة.

وفيها توفي الشيخ القدوة عبدالله بن يونس الأرموني[٢] صاحب الزاوية بجبل قاسيون، كان صالحاً متواضعاً مطرحاً للتكليف يمشي وحده، ويشتري الحاجة، وله أحوال ومجاهدات، وقدم في الفقر.

وفيها توفي قاضي القضاة ابن فضلان أبو عبدالله محمد بن يحيى البغداديّ الشافعيّ، ودرس المستنصرية تفقه على والده العلاّمة أبي القاسم، وبرع في المذهب والأصول والخلاف والنظر، ولاّه الناصر، وعزله الظاهر بعد شهرين من خلافته.

سنة اثنتين وثلاثين وست مائة

فيها ضربت ببغداد دراهم، وفرقت في البلد، وتعاملوا بها وإنما كانوا يتعاملون بقراضة الذهب والقيراط والحبة، ونحو ذلك.

وفيها توفي الملك الزاهد داود بن صلاح الدين وصواب الخادم شمس الدين العادلي مقدم جيش الكامل، وكان يُضرب به المثل في الشجاعة، وكان له من جملة المماليك مائة خادم فيهم جماعة أمراء.

وفيها توفي الشيخ العارف عمر بن عليّ، الحمويّ الأصل، المصريّ المولد، والدار والوفاة، شرف الدين المعروف بابن الفارض صاحب الديوان المشتمل على اللطائف،

---

(١) منائح القرائح. وفيات الأعيان٣/ ٢٩٤.
(٢) الأرمني. البداية والنهاية ٩ / ٢٣.

والسلوك، والمحبة، والمعارف، والشوق، والوصل، وغير ذلك من الاصطلاحات في العلوم الحقيقة المعروفة في كتب المشائخ الصوفية، بلغني أنه دخل في أيام بدايته مدرسة في ديار مصر، فوجد فيها شيخاً بقّالاً يتوضأ من بركة فيها بغير ترتيب، فقال له: يا شيخ أنت فيْ هذا السن وفي هذا البلد، وما تعرف تتوضأ؟ فقال له: يا عمر أنت ما يفتح عليك بمصر، فجاء إليه وجلس بين يديه وقال له: يا سيدي، ففي أيّ مكان يفتح علي؟ فقال: في مكة، فقال يا سيدي، وابن مكة مني، فقال: هذه مكة، وأشار بيده نحوها، وكشف له عنها، فأمره الشيخ الذهاب إليها في ذلك الوقت، فوصل إليها في الحال، وأقام بها اثنتي عشرة سنة، ففتح عليه، ونظم فيها ديوانه المشهور، ثم بعد المدة المذكورة سمع الشيخ المذكور ويقول له: يا عمر تعال أحضر موتي، فجاء إليه، فقال له الشيخ: خذ هذا الدينار، فجهز لي به ثم احملني، فضعني في هذا المكان، وانتظر ما يكون من أمري، وأشار إلى مكان في القرافة تحت الفارض، وهو الموضع الذي دُفن فيه ابن الفارض، قال: فكشف لي عن ذلك المكان، فحملته ووضعت فيه، فنزل رجل من الهوى، فصلينا عليه، ثم وقفنا ننتظر ما يكون من أمره، فإذا الجوّ قد امتلأ بطيور خضر، فجاء طائر كبير، فابتلعه، ثم طار، قال: فتعجبت من ذلك، فقال لي ذلك الرجل: لا تعجب من هذا فإن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر ترعى في الجنة، كما جاء في الحديث أولئك شهداء السيوف، وأما شهداء المحبّة، فأجسادهم أرواح رضي الله عن الجميع.

قلت: وإلى هذا المعنى أشرت في هذه الأبيات من قصيدتي الموسومة بلباب اللب في مدح شهيد الحبّ حيث قلت:

قتيل الهوى في مذهب الحبّ والفقر ... بلا عوض حاشاه من طلب الأجر
سوى روية المحبوب في حالة اللقا ... إذا ما قتيل السيف عوض في الحشر
فشتّان ما بين المقامين في العُلى ... وبين شهيد الحبّ والسيف في القدر
فما طالب المولى له طال شوقه ... وفي حبّه قد مات خال عن الصبر
كطالب مطعوم الجنان وشربها ... وملبوسها والخيل والحور والقصر
إذا كنت حظّي والأيام حظوظهم ... أياديك ما نالوا نعيمي، ولا فخر
كفى شرفاً موت المحبّ صبابة ... لمولى وفضلاً جلّ قدراً عن الحصر
ويكفيك خمس من فضائله بها ... بلوغ المنى عيشاً ومجداً على الدهر
قتيل جمال قد ودوه بروية ... ووصل وقرب والتنادم والسرر
تميز عن غير بهذي وغيرها ... وشاركه فيما له نال من أجر
لئن كان روح من شهيد سيوفهم ... بجنات خلد جوف طير بها خضر

فـروح شهيـد الحـبّ أيضـاً وجسمـه بـاجـوافهـا قـد نعمـا ليـس فـي القبـر
كـذاك روينـا عـن رجـال لـه رأوا بـأبصـارهـم جـوف القـرافـة مـن مصـر
وممـن رأى ذاك الإمـام الـذي جـلا لنـا مـن مليحـات المعـارف مـن بكـر
ونحـو أخمـاراً كـاشفـاً عـن محـاسـن بهـا هـام كـم صـبّ وكـم حـام مـن فكـر
بحـور معـانيهـا جـلاذر نظمـه سقى مشرباً بالشعر لم يسق في شعر
غـريـم الهـوى حلف الغـرام ابـن فـارض لدي عارض قد شاهد السابق الذكر

ومن المشهور أنه وقع للشيخ شهاب الدين السهروورديّ رضي الله عنه قبض في بعض حجابة، فخطر بقلبه. ترى هل ذكرت في هذا الموسم؟ فسمع قائلاً يقول له من فوره في سوق الغزل، فأتى إليه الشيخ ابن الفارض المذكور، فأنشده قبل أن الشيخ شهاب الدين استنشده من قريضه، فأنشده قصيدة مفتتحها:

مـا بيـن معتـرك الأحـداق والمهـج أنـا القتيـل بـلا ذنـب ولا حـرج

ثم استمر في إنشادها إلى أن قال:

أهـلاً بمـا لـم أكُـنْ أهـلاً لمـوقعـه قـولُ المبشـر بعـد اليـأس بـالفـرجِ
لـكَ البشـارة فـاخلَـعْ مـا عليـك فقـد ذُكِـرْتَ ثـم علـى مـا فيـك مـن عِـوَجِ

فقام الشيخ شهاب الدين، فتواجدوا من عنده من شيوخ الوقت الحاضرين، وكان المجلس عامراً بشيوخ أجلّاء، وسادة أولياء، فخلع عليه هو والحاضرون قيل: أربع مائة خلعة، ومن نظمه الفائق المعريّ كل عاشق:

فـإن شئـت أن تحيـي سعيـداً فمـت بـه شهيـداً وإلا، فـالغـرام لـه أهـل
فمـن لـم يمـت فـي حبّـه لـم يعـش بـه ودون اجتنـاء النخـل مـا جنـت النخـل

وما أحسن قوله:

نصحتـك علمـاً بـالهـوى والـذي أرى مخـالفتـي، فـاختـر لنفسـك مـا يحلـو

بعد قوله:

هـو الحـبّ فـاسلـم بـالحشـا مـا الهـوى سهـل

وأما قول ابن خلكان في ترجمته[1]: وله ديوان شعر لطيف، وأسلوبه فيه ظريف ينحو منحى طريقة الفقراء، فلم يوفّه بعض ما يليق بمشربه وذوقه وارتياحه وشوقه لكنه قد أحسن

(١) انظر وفيات الأعيان ٣٠/ ٤٥٥.

في مخالفته للطاعنين فيه، وإن لم ينزله في المنزلة اللائقة به في قوله وسمعت أنه كان رجلاً صالحاً كثير الخير، على قدم التجرد حسن الصحة، محمود العشيرة، وأنه ترنم يوماً في خلوته بقول الحريريّ صاحب «المقامات»:

مـن ذا الـذي مـا سـاءَ قـط ومَـنْ لـه الحسنـى فقـطْ

فسمع قائلاً يقول لا يرى شخصه:

محمـد الهـادي الـذي عليـه جبـريـل هبـطْ

وكان يقول: علمت في النوم بيتين، وهما:

وحيـاة أشـواقـي إليـك وحُـرمـة الصبـر الجميـلِ
لا أبصـرتْ عينـي وسـواكَ ولا صَبـوتُ إلـى خليـلِ

قلت: ولقد أحسن في وصفه راح المحبة في ديوانه المذكور، ومن ذلك وصفه لها في هذا البيت المشهور:

هنيئاً لأهـل الـدهـر كـم سكـروا بهـا ومـا شـربـوا منهـا، ولكنهـم همـوا
علـى نفسـه، فليبـك مـن ضـاع عمـره وليـس لـه منهـا نصيـب ولا سهـم

توفي رحمه الله تعالى في جمادى الأولى، ودفن في العارض بسفح جبل المعظم، والفارض بالفاء والراء وبين الألف والضاد المعجمة راء، وهو الذي يكتب الفروض للنساء على الرجال.

وفيها توفي الشيخ الجليل، السيد الحفيل، أستاذ زمانة، وفريد أوانه، مطلع الأنوار، ومنبع الأسرار، دليل الطريقة، وترجمان الحقيقة، أستاذ الشيوخ الأكابر، الجامع بين علميّ الباطن والظاهر، قدوة العارفين، وعمدة السالكين، العالم الربّاني شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمّد التيميّ البكريّ الصوفيّ السهرورديّ[1] مصنف كتاب العوارف، المشتمل على مكنونات المعارف، ومصؤنات المحاسن، واللطائف، وغير ذلك من التصانيف الحسنة الجامعة، من بلاغة الملاحة، وبراعة الفصاحة، وحلاوة العبارة، المشتملة على درر المعارف، ويواقيت الحكم، وطلاوة الإشارة، المحتوية على حياة القلوب وشفائها من السقم وعقيدته معروفة مشهورة، موصوفة مشكورة، رويتها عن غير واحد من شيوخنا بسندهم العالي الذي بينهم وبين مصنفه، وأخذ صنفها مكّة المشرفة، وكان إذا أشكل عليه شيء منها يرجع فيه إلى الله سبحانه وتعالى، ويستخيره حول بيته، ويتضرع إليه في التوفيق

(١) توفي سنة ثلاثين وستماية. والبداية والنهاية ٩/ ٢٠.

لإصابة الحق والتحقيق، وقد ذكرت بعض عقيدته في كتاب المحاسن، والمرهم، وكان فقيهاً شافعيّ المذهب، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة، وتخرّج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره مثله، صحب عمه الشيخ الإمام أبا النجيب، وعنه أخذ التصوف والوعظ.

وذكر بعضهم أنه صحب أيضاً قطب الأولياء، وقدوة الأصفياء الشيخ عبد القادر الجبيليّ رضي الله عنهما، ثم انحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد بن عبد، ورأى غيره من الشيوخ، وحصل طرفاً صالحاً من الفقه والخلاف، وقرأ الأدب، وعقد مجلس الوعظ سنين، وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ، عليه قبول كثير وله نفس مبارك.

وذكر بعضهم أنه أنشد يوماً على الكرسيّ.

لا تَسقِنـي وحْـدي فما عـوَّدْتَنـي ... أنّـي أشـحُّ بهـا علـى جُـلاَّسـي

أنـت الكـريـمُ وهـل يليـق[1] تكـرُّمـاً ... أن تمنـع النـدمـاءَ دون[2] الكـاسِ

فتواجد الناس لذلك، وقطعت شعور كثيرة، وتاب جمع كثير.

قال ابن خلكان: ورأيت جماعة ممن حضروا مجلسه وقعدوا في خلوته، وكانوا يحكون غرائب مما يطرأ عليهم فيها من الأحوال الخارقة، قال: وكان قد وصل إلى إربل رسولاً من جهة الديوان العزيز، وعقد بها مجلس الوعظ، ولم يتفق لي رؤيته لصغر السن.

وكان كثير الحج، وكان أرباب الطريق من مشائخ عصره يكتبون إليه من البلاد صورة فتاوى يسألونه عن شيء من أحوالهم.

سمعت أنّ بعضهم كتب إليه «يا سيدي إن تركت العمل أخلدت إلى البطالة، وإن عملت داخلني العجب، فأيتهما أولى؟ فكتب جوابه: «اعمل واستغفر الله من العجب».

وقال ابن نقطة: كان شيخ العراق في وقته صاحب مجاهدة وإيثار وطريقة حميدة، ومروة تامة، وأوراد على كبر سنه.

وقال ابن النجار: كان شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعا الخلق إلى الله تعالى، قرأ الفقه والخلاف والعربية، وسمع الحديث، ثم انقطع ولازم بيته، ودوام الصوم والذكر والعبادة إلى أن ظهر وعلا شأنه، وتكلم على الناس، وعقد مجلس الوعظ في مدرسة عمّه على دجلة، فحضر عنده خلق عظيم، وظهر له قبول

---

(١) ولا يليق: وفيات الأعيان ٣/ ٤٤٦.

(٢) دور: وفيات الأعيان ٣/ ٤٤٦.

من الخاص والعام، واشتهر اسمه، وقصد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه في توبة العصاة، ورأى من الجاه والحرمة عند الملوك ما لم يره أحد.

وقال غيره: نشأ في حجر عمّه أبي النجيب عبد القاهر، وأخذ عنه التصوف، والوعظ، وعلم الحديث، والفقه، وصحب أيضاً الشيخ عبد القادر، والشيخ أبا محمّد بن عبد البصريّ كما تقدم، وسمع الحديث أيضاً من أبي زرعة وآخرين، وسماهم، وروى عنه جماعة ذكر منهم الحافظ ابن النجار وغيره، وبعث رسولاً إلى عدة جهات، يعني نفده الخليفة في عصره، ولم يخلف بعده مثله على ما نقل غير واحد.

قلت: ويؤيّد ذلك ما ذكرت في مناقب الشيخ عبد القادر أنه قال له: أنت آخر المشهورين بالعراق، ففتح عليه بعلوم المعارف والأنوار الزاهرة، ووردت عليه الأحوال، وحصلت له المواهب الوافرة، وفاق الأقران بعلوّ شأنه، وصار شيخ زمانه بلا منازع.

قلت: وإليه يرجع بعض شيوخنا في لبس الخرقة، وبعضهم يرجع إلى الشيخ عبد القادر، وبيني وبينه اثنتان في كتابه العوارف كما تقدمت الاشارة في سند شيوخنا، وكذا في لبس الخرقة، ورأيته في المنام كأنه أعطاني سجادة في ليلة كنت فيها قريباً من قبر سيّدنا حمزة عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسفل جبل أحد المبارك المعظم، وله كلام نفيس فاخر مسطور عنه في الدفاتر ذكرت شيئاً منه في الشاش المعلم، قدّس الله روحه.

وفيها توفي الشيخ الجليل غانم بن عليّ المقدسي النابلسي أحد عباد الله الأصفياء، والسادة الأولياء.

وفيها توفي قاضي القضاة ابن شدّاد أبو العز يوسف بن رافع الأسدي، الحلبيّ الشافعيّ[1]، قرأ القراءات والعربية، وسمع الحديث، وبرع في الفقه والعلوم ساد أهل زمانه، ونال رياسة الدين والدنيا، وصنف التصانيف منها كتاب سماه ملجأ الحكام عن التباس الأحكام، ومنها دلائل الأحكام، وكتاب الموجز الباهر في الفروع، وكتاب سيرة صلاح الدين، ودخل دمشق بعد رجوعه من الحج، فاستدعى به السلطان صلاح الدين، وقابله بالإكرام التام، وسأله عن مشائخ العلم والعمل، وقرأ عليه جزءاً من الإذكار، كان قد جمعه، ثم ولاّه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف، وعرض عليه الملك الظاهر الحكم بحلب، فامتنع، ثم قبل بعد ذلك.

قال ابن خلكان[2]: كان بين والدي، رحمة الله عليه، وبين القاضي أبي المحاسن

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ٢٥.
(٢) انظر وفيات الأعيان ٧/ ٩٠.

المذكور ومؤانسة كثيرة، وصحبة صحيح المودة، فجئت إليه أنا وأخي، وكتب إلى سلطان بلدنا الملك المعّظم كتاباً بليغاً في حقّنا. يقول فيه: «أنت تعلم ما يلزم من أمر هذين الولدين، فإنهما ولدا أخي، وولدا أخيك، ولا حاجة مع هذا إلى تأكيد وصية»، وأطال القول في ذلك، فتفضل القاضي أبو المحاسن، وتلقانا بالقبول والإكرام، وعمل ما يليق لمثله، وأنزلنا في منزلة، ورتب لنا على الوظائف وألحقنا بالكبار مع صغر السن، والابتداء في الاشتغال، وكان أبو المحاسن المذكور بيده حلّ الأمور وعقدها، ليس لأحد معه كلام في الدولة، وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة.

ومما حكي عنه أنه قال: كان في المدرسة النظامية ببغداد أربعة أو خمسة من الفقهاء المشتغلين، فاتفقوا على استعمال حب البلاذر لأجل سرعة الحفظ والفهم، فاجتمعوا ببعض الأطباء، وسألوه عن مقدار ما يستعمل الإنسان منه، وكيف يستعمله، ثم اشتروا المقدار الذي قال لهم الطبيب الجاهل، فشربوه في موضع خارج المدينة، فحصل لهم الجنون، فتفرقوا وتشتتوا، ولم يعلم ما جرى عليهم، وبعد أيام جاء إلى المدرسة، وأحد منهم، وهو عريان ليس عليه شيء يستر عورته، وعلى رأسه عمامة[1] كبيرة لها عذبة[2] طويلة قد ألقاها وراءه، فوصلت إلى كعبه، وكان طويلاً، وهو ساكت عليه السكينة والوقار لا يتكلم بشيء، ولا يعبث بشيء، فقام إليه بعض الفقهاء، وسأله عن الحال، فأخبره باستعمال حبّ البلاذُر، وقال: فأما أصحابي، فإنهم جنّوا، وما سلم منهم إلاّ أنا وحدي، فصار يظهر العقل العظيم والسكون، والحاضرون يضحكون منه، وهو لا يشعر بهم، ويعتقد أنه سالم مما أصاب أصحابه، وهو على تلك الحال لا يفكر فيهم ولا يلتفت إليهم.

وفيها توفي أبو سليمان داود الملّقب بالملك الزاهر ابن الملك العادل صلاح الدين يوسف بن أيوب[3]، كان صاحب قلعة البيرة التي على شاطىء الفرات، وكان يحب العلماء وأهل الفضل، ويقصدونه من البلاد، وكان الثاني عشر من أولاد صلاح الدين، وكانت ولادته سنة ثلاث وسبعين وخمس مائة، فلما توفي توجه ابن أخيه الملك العزيز ابن الملك الظاهر إلى القلعة المذكورة وملكها والبيرة بكسر الموحدة وسكون المثناة من تحت وفتح الراء، وفي آخرها هاء، وهي قلعة من ثغور الروم على الفرات بقرب سميساط.

سنة ثلاث وثلاثين وست مائة

فيها أخذت الفرنج قرطبة واستباحوها، وجاءت فرقة من التتار، فكسرهم عسكر

(١) بقيار: وفيات الأعيان ٧/ ٩٤.
(٢) عَذَبَة: طرف الشيء، كعذبة العمامة وعذبة اللسان (ج) عَذَبٌ.
(٣) انظر وفيات الأعيان ٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

إربل، فما بالوا وساقوا إلى بلاد الموصل، فقتلوا أو سبوا، فاهتم المستنصر بالله وأنفق الأموال، فرجعوا.

وفيها غزا الكامل الفرات، واستعاد حرّان[١]، وخرب قلعة الرّها، وهرب منه نواب صاحب الروم، ثم كرّ إلى الشام خوفاً من التتار، فإنهم وصلوا إلى سنجار، ثم حسده صاحب الروم، ونازل حرّان، وتعب أهلها بين الملكين.

وفيها توفي الحافظ العلامة اللغويّ أبو الخطّاب عمر بن الحسن الكلبيّ الدانيّ الأندلسيّ المعروف بابن دحية[٢]، سمع الحديث، وجال في مدن الأندلس، وحج ودخل العراق، وسمع مسند أحمد، وبأصبهان معجم الطبرانيّ، وبنيسابور صحيح مسلم بعلو بعد أن كان قد حدث به في المغرب بالإسناد الأندلسيّ النازل، وكان يقول: إنه حفظه كله، وضعفه جماعة، وله تصانيف غرائب.

قلت: وتنقصه الذهبيّ، فقال: وقد أنفق على الملك الكامل، وجعله شيخ دار الحديث بالقاهرة، وقاضي القضاة بالقاهرة.

ومدحه ابن خلكان فقال[٣]: كان من أعيان العلماء، ومشاهير الفضلاء مُتقناً لعلم الحديث وما يتعلق به، عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها، فانظر ما بين هذين الوصفين من المضادة ممن يذم السامع عقيدته، وممن يحمد اعتقاده مع كمال فضيلة المادح في العلوم، وتصويب العارف بانتقاده.

وفيها توفي نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجبليّ، سمع من شهدة وطبقتها، ودرس وأفتى وناظر، وولّي القضاء سنة ثلاث وعشرين، ثم عزل بعد أشهر، وكان لطيفاً ظريفاً، متين الديانة، كثير التواضع، متجرباً في القضاء، قويّ النفس في الحق مع عدم التكلف والمحابات.

وفيها توفيت الشيخة الصالحة الصوفية زهرة بنت محمّد بن أحمد بن حاضر، روت عن يحيى بن ثابت وغيره.

---

(١) حرّان: هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مُضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم. معجم البلدان ٢/ ٢٧١

(٢) قال ابن خلكان: وكان مولده في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقيل ست أو تسع وأربعين وخمسمائة. وتوفي في هذه السنة. البداية والنهاية ٩/ ٦.

(٣) أنظر وفيات الأعيان. ٣/ ٤٤٩.

سنة أربع وثلاثين وست مائة

وفيها نزلت التتار على إربل وحاصروها، وأخذوها بالسيف حتى حافت المدينة بالقتلى، وغصب القلعة بعد أن لم يبق بعد أخذها شيء من الموانع، وترحلت الملاعين.

وفيها توفي الملك المُحسن أحمد ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، سمع الحديث، وكتب الكثير، وكان متواضعاً متزهداً كثير الإفضال على المحدثين، قال الذهبي وفيه تشييع قليل.

وفيها توفي الحافظ أبو الربيع الكلاعي سليمان بن موسى البلبيسي صاحب التصانيف، وبقية أعلام الأثر، توفي بالأندلس قال الأبار: وكان قد فاق أهل زمانه، وتقدم على أقرانه، عارفاً بالجرح والتعديل، ذاكراً للمواليد والوفيات، لا نظير له في الاتقان والضبط مع الأدب والبلاغة، وكان فرداً في إنشاء الرسائل، مجيداً في النظم، خطيباً مفوّهاً مدركاً حسن السرد والمساق مع الاشارة اللائقة، متكلماً عن الملوك في مجالسهم مبيناً لما يريدونه على المنابر والمحافل، ولي الخطابة، وله تصانيف في عدة فنون استشهد مقبلاً غير مدبر في ذي الحجة.

وفيها توفي الناصح بن نجم بن عبد الوهّاب الشيرازيّ الأنصاري[1] الواعظ المفتي، انتهت إليه رياسة المذهب بعد الشيخ الموفق، وله خطب ومقامات وتاريخ الوعّاظ.

وفيها توفي صاحب الروم السلطان علاء الدين السلجوقيّ، كان ملكاً جليلاً شهماً شجاعاً، وافر العقل، متسع الممالك، تزوج بابنة الملك الكامل وامتدت أيامه.

وفيها توفي الملك العزيز غيّاث الدين محمّد ابن الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين صاحب حلب، وسبط الملك العادل، ولّوه السلطنة بعد أبيه وعمره أربع سنين لأجل والدته، وهي كانت من الأتابك، فنسوس الأمور.

وفيها توفي أبو الحسن محمد بن أحمد البغداديّ المحدث المؤرخ سمع من ابن الزاغونيّ وطائفة، وأخذ الوعظ من ابن الجوزيّ، وهو أول شيخ ولد مشيخة المستنصرية، وآخر من حدث بالبخاريّ سماعاً من أبي الوقت وضعفه ابن النجار.

سنة خمس وثلاثين وست مائة

وفيها غرمت طائفة كثيرة من الخوارزمية، وكانوا قد خدموا مع الصالح أيوب ابن

---

(١) ولد الناصح سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وقرأ القران وسمع الحديث وهو أول من درس بالصالحية وكانت وفاته بالصالحية ودفن هناك. البداية والنهاية ٩/ ٢٧.

الملك الكامل على القبض عليه، فهرب إلى سنجار، فنهبوا خزائنه، فسار أليه لؤلؤ صاحب الموصل وحاصره، فحلق الصالح لحية وزيره، وقاضي بلده بدر الدين السنجاريّ طوعاً، ودلاّه من السور ليلاً ، فذهب واجتمع بالخوارزمية، وشرط بهم كلما أرادوا، فساقوا من حران، وبيّتوا لؤلؤاً، فنجا بنفسه على فرس النوبة، وانتهبوا عسكره واستغنوا.

وفيها توفي الملك الأشرف صاحب دمشق موسى ابن الملك العادل، ، وتسلطن بعده أخوه الصالح إسماعيل فسار الملك، وقدم دمشق فأخذها بعد محاصرة وشدة، وذهب الصالح إسماعيل إلى بعلبك.

ولما دخل الملك الكامل دمشق، ونزل في قلعتها المعروفة بقن القلندرية والحيدرية، وتمرض ومات بعد شهرين، فتملك بعده بدمشق ابن أخيه الملك الجواد وبمصر ابنه العادل، وملك ملك الأشرف نصيبين وسنجار، ومعظم بلاد الجزيرة وغيرها، وأول شيء تملك من البلاد مدينة الرحا، ثم حران.

ولما توفي أخوه الملك الأوحد صاحب خلاط ونواحيها، أخذ الملك الأشرف مملكته مضافاً إلى مملكته، فاتسع ملكه، وبسط العدل على الناس، وأحسن إليه احساناً لم يعهدوه ممن قبله، وعظم وقعته في قلوب الناس، وبعد صيته، وكان قد ملك نصيبين، وأخذ سنجار، ومعظم بلاد الجزيرة.

ولما أخذت الفرنج دمياط في سنة عشر وست مائة، وتوجهت جماعة من ملوك الشام إلى الديار المصرية لاتحاد الملك الكامل، وتأخّر عنه الملك الأشرف لمنافرة كانت بينهما، فجاءه أخوه الملك المعظّم وأرضاه، ولم يزل يلاطفه حتى استصحبه معه، فانتصر المسلمون على الفرنج، وانتزعوا دمياط من أيديهم عقب وصوله إليها، وكانوا يرون ذلك بسبب يمن عزته.

ولما مات الملك المعظّم، وتولى ولده الملك الناصر، قصده عمه الملك الكامل من الديار المصرية ليأخذ دمشق، فاستنجد عمه الملك الأشرف ، فحصل الاتفاق على تسليم دمشق إلى الملك الأشرف، ويكون للملك الكامل الناصر الكرك والشويك ونابلس ونيسان، وتلك النواحي، وينزل الملك الأشرف عن حران، والرحا، وسروج[1] والرقة، ورأس عين، وتسلمها إلى الملك الكامل، فأقام الملك الأشرف بدمشق.

ثم جرت أمور يطول ذكرها، ووقعت وحشة بين الكامل والأشرف، ووافقت الملوك بأسرها الملك الأشرف، وتعاهد هو، وصاحب الروم، وصاحب حلب، وصاحب حماة،

(١) سَرُوج: وهي بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر. معجم البلدان ٣/ ٢٤٤.

وصاحب حمص وأصحاب المشرق على الخروج على الملك الكامل، ولم يبق مع الملك الكامل سوى ابن أخيه الملك الناصر صاحب الكرك، فإنه توجه إلى خدمته بالديار المصرية، فلما اتفقوا وعزموا على الخروج على الملك الكامل مرض الملك الأشرف مرضاً شديداً، وتوفي بدمشق، ودُفن بقلعتها، ثم نُقل إلى القرية التي أنشئت له بالكلاسة في الجانب الشمالي من جامع دمشق، وكانت ولادته سنة ثمان وسبعين وخمس مائة، وكان سلطاناً كريماً حليماً، واسع الصدر، كريم الأخلاق كثير العطاء لا يوجد في خزانته شيء من المال مع اتساع مملكته، ولا يزال عليه الديون للتجار وغيرهم، وطرب ليلة في مجلس أنسه على بعض الملاهي، فقال لصاحب الملاهي، تمنّ علي، فقال: تمنيت مدينة خلاط، فأعطاه إياها، فتوجه لقبضها من النائب، فعوضه عنها النائب جملة كثيرة من المال، وله غرائب كثيرة، وكان يميل إلى أهل الخير والصلاح، ويحسن الاعتقاد فيهم، وبنى بدمشق دار حديث، وفوض تدريسها إلى الشيخ أبي عمرو بن صلاح، وله مآثر حسنة كثيرة وقد مدحه أعيان شعراء عصره، وخلدوا مدائحه في دواوينهم، وكان محبوباً إلى الناس، مسعوداً مؤيداً في الحروب، لقي ارسلان شاه صاحب الموصل، وكان من الملوك المشاهير، وتواقعا، فكسره الملك الأشرف، واتسعت مملكته حين توفي أخوه الملك الأوحد، فأخذ مملكته، وبسط العدل على الناس، وأحسن إليهم احساناً لم يعهده ممن كان قبله، وعظّم وقعته في قلوب الناس، وبعد صيته وجرت له مع صاحب الروم وابن عمه الملك الأفضل وقائع مشهورة.

وفيها توفي أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل المعروف بالشفا[1]، كان أديباً فاضلاً متفنناً بعلم العروض والقوافي شاعراً، يقع له في النظم معان بديعة في البيتين والثلاثة، وله ديوان شعر كبير يدخل في أربع مجلدات.

قال ابن خلكان: وكان حسن المحاورة مليح الإيراد مع السكون جميل التأني.

وأنشدته يوماً في أثناء مناشدته لي قول شرف الدين أبي المحاسن المعروب بابن عنين:

مالُ ابن سارة[2] دونه لُعفَاته ... خَرْطُ القتادةِ أو مشال[3] الفرقدِ
كان لزومُ الجمع يمنعُ صرفَهُ ... في راحةٍ مثلِ المنادى المفردِ

(١) المعروف بالشواء: وفيات الأعيان ٧/ ٢٣١.
(٢) مازة: وفيات الأعيان ٧/ ٢٣١.
(٣) منال: وفيات الأعيان ٦/ ٢٣٣.

فقال: هذا ليس بجيد، فقلت: ولم؟ قال: ليس من شرط المنادى المفرد أن يكون مضموماً، فقد يكون المنادى مفرداً ولا يكون مضموماً بأن يكون نكرة غير معين كما تقول: يا رجلاً، ولكن أنا أعمل شيئاً في هذا. قال: ثم اجتمعنا بعد ذلك في الجامع، فقال: قد عملت في ذلك المعنى بيتاً فاسمعه، ثم أنشأ يقول:

لنـــا خليـــل لـــه خـــلال تُغْـــرِبُ عـــن أصلـــه الأخَـــسِّ
أضحـــتْ لـــه مثـــل حيـــث كـــفّ وددت لـــو أنهـــا كـــأمـــسِ

قلت: يعني أنّ كفّه مضمومة مثل حيث مضمومة بالبناء لأجل بخله فليتها مكسورة العظم كأمس المكسورة بالبناء، والنظم الأول قد بالغ في وصفه بالبخل لتشبيهه وصول العفاة إلى ماله بخرط القتاد في الصعوبة، وكمثال الفرقد في البعد، والعفاة الطلاب جمع عاف، وشبه ماله في البيت الثاني في عدم صرفه إلى غيره بصيغة منتهى الجموع في عدم صرفه في الاعراب كمساجد ودراهم، وشبه راحته في كونها مضمومة لا يبسطها للبذل بالمنادى المفرد المبني على الضم مثل يا زيد ويا رجل لرجل بعينه.

واعترض عليه صاحب النظم الثاني بكون المفرد قد لا يكون مضموماً مثل قول الأعمى: يا رجلاً خذ بيدي لرجل لا بعينه، ثم اعترض ابن خلّكان على المعترض بما سيأتي ذكره،

قال ابن خلكان: فقلت له وهذا أيضاً فيه كلام، فقال: وما هو؟ فقلت: حيث فيها لغات أخر، فمن العرب من بناها على الضم، ومنهم من بناها على الفتح، ومنهم من بناها على الكسر، وفيها لغات أخر غير هذه وأما أمس فمنهم من بناها على الكسر، ومنهم من يقول: إنها اسم معرب لكنه لا ينصرف، وأنشدوا على هذه اللغة:

لقـــد رأيـــت عجبـــاً مـــذ أمســـا عجـــائـــزاً مثـــل السعـــالـــى خمســـا

قلت: هذا إذا كانت أمس نكرة[1]، فإن كانت معرفة[2] أعربت قولاً واحداً قال: فسكت.

وفيها توفي الملك الكامل أبو المعالي محمد ابن الملك العادل[3]، كان سلطاناً معظماً، جليل القدر، محترماً، جميل الذكر، مكرماً للعلماء، متمسكاً بالسنة، حسن

(١) هذا إذا كان معرفة: وفيات الأعيان ٧/ ٢٣٤.
(٢) إذا كانت نكرة: وفيات الأعيان ٧/ ٢٣٤.
(٣) انظر وفيات الأعيان ٥/ ٧٩.

الاعتقاد، معاشر الأرباب الفضائل، حازماً في أموره لا يضع الشيء إلاّ في محلّه من غير إسراف ولا اقتار، وكان يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثات، ويسألهم عن المواضع المشكلات من كل فن، وهو معهم كواحد منهم وبنى بالقاهرة دار حديث، ورتب لها وقفاً جيداً، وكان قد بنى على ضريح الإمام الشافعيّ رحمه الله تعالى قبّة عظيمة، ودفن أمّه عنده، وأجرى إليها من ماء النيل، ومدده بعيد، وغرم على ذلك جملة عظيمة.

ولما مات أخوه الملك المعظم عيسى الملّقب بشرف الدين صاحب الشام وأقام ولده الملك الناصر صلاح الدين داود مقامه، خرج الملك الكامل من الديار المصرية قاصداً أخذ دمشق منه، وجاء أخوه الملك الأشرف مظفر الدين موسى، فاجتمعا على أخذ دمشق وقد تقدم ذكر ذلك وأنه دفعها إلى أخيه الملك الأشرف، وأخذ عوضها من بلد المشرق عدة بلدان تقدم ذكرها وتقدم أيضاً أنه لما مات الملك الأشرف جعل ولي عهده أخاه الملك الصالح إسماعيل فقصده الملك الكامل، وانتزع منه دمشق بعد مصالحة جرت بينهما.

ولما ملك الملك الكامل البلاد الشرقية، واستخلف بها ولده الملك الصالح أبا المظفر أيوب، واستخلف ولده الأصغر الملك العادل بالديار المصرية، وكان قد سير الملك العادل الملك المسعود إلى اليمن، وكان أكبر أولاد الملك الكامل، وقد تقدم ذلك وأنه ملك الحجاز مضافة إلى اليمن.

ولما وصل الخطيب إلى ذكر الكامل قال: صاحب مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العامتين، وخادم الحرمين الشريفين، أبو المعالي محمد الملك الكامل ناصر الدين خليل أمير المؤمنين.

قال ابن خلكان: ولد رأيته بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وست مائة عند رجوعه من بلاد الشرق، وفي خدمته يومئذٍ بضعة عشر ملكاً منهم أخوه الملك الأشرف. ولم يزل في علوّ شأنه وعظم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذ دمشق، ولم يزل مريضاً إلى أن توفي يوم الأربعاء بعد العصر، ودفن في القلعة بمدينة دمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب السنة المذكورة.

قال: وكانوا قد أخفوا موته إلى وقت صلاة الجمعة، فلما دنت الصلاة قام بعض الدعاة على العرش الذي بين يدي المنبر، فترحم على الملك الكامل، ودعا لولده الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر، فضج الناس ضجة واحدة، وكانوا قد أحسوا

وترتب ابن أخيه الملك الجواد مظفر الدين يونس في ثياب السلطنة[1] بدمشق عن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر، باتفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك، ثم بنى له تربة مجاورة للجامع، ولها شباك إلى الجامع، ونقل إليها، وكان عمره نحواً من أربعين سنة وأقام ولده الملك العادل في المملكة إلى سنة سبع وثلاثين، ثم قبض عليه أمراء دولته، وطلبوا أخاه الملك الصالح أيوب، فجاءهم ومعه الملك الناصر صاحب الكرك، ودخلا القاهرة، وأدخل الملك العادل في محفة، وحوله جماعة كثيرة من الأجناد يحفظونه، وحمله إلى القلعة، واعتقله بها وسط العدل في الرعية، وأحسن إلى الناس، وأخرج الصدقات، وأصلح ما تهدم من المساجد، وأقام في المملكة إلى أن توفي في سنة سبع وأربعين وست مائة. وكان قد أخذ دمشق من عمه الملك الصالح، وأبقى عليه بعلبك، فلما توفي أخفي موته مقدار ثلاثة أشهر، والخطبة باسمه إلى أن وصل ولده الملك المعظم من بلاد الشام، فعند ذلك أظهروا موته، وخطب لولده المذكور، وبنى له تربة بالقاهرة إلى جنب مدرسته، ونقل إليها سنة ثمان وأربعين وأمّه جارية مولدة سمراء اسمها ورد الندى، وتوفي العادل في الاعتقال سنة خمس وأربعين وست مائة، وكان له ولد يقال له: الملك المغيث نقله الملك المعظم إلى الشويك، ثم بعد الملك المعظم استولى على الكرك والشويك وتلك النواحي، ولم يزل مالكها إلى زمن الملك الظاهر، فراسله وبذل له عن تسليم البلد أعواضاً كثيرة، وحلف له حتى إذا نزل إليه إلى منزله في الغور قبض عليه، وجهزه إلى قلعة الجبل بمصر، واعتقله بها، وكان آخر العهد به، وكان للمغيث ولد يلقب بالقرين[2] صغير السن، فنصبه الملك الظاهر أميراً، ولم يزل في خدمته إلى أن فتح انطاكية، ثم قبض عليه، واعتقله في القلعة المذكورة، وكان الملك الظاهر يبالغ في تحصيل قلعة الكرك، ويملؤها بالذخائر والأموال، ولما جرى على ولده السعيد ما جرى، وتوجه إلى الكرك نفعته تلك الذخائر، وكانت عوناً له على زمانه، ولما توفي الملك السعيد ابن الملك الظاهر ملكها بعده أخوه الملك المسعود باتفاق من كان بها من مماليك أبيه ومن أمرائه، وقال ابن خلكان: وهو الآن متملكها ومقيم بها.

سنة ست وثلاثين وست مائة

وفيها ضعفت سلطنة الملك الجواد بدمشق بعد أن محق الخزائن، وكاتب الملك الصالح أيوب بن الكامل، وقايضه فأعطاه دمشق بسنجار، وأعانه، وكانت صفقة خاسرة، فبادر الصالح، وتسلم دمشق من الجواد لأنّ المصريين ألحّوا على الجواد في أن ينزل عن

(١) نيابة السلطنة. وفيات الأعيان ٥/ ٨٣.

(٢) وكان للمغيث ولد ينعت بالعزيز فخر الدين عثمان. وفيات الأعيان ٥/ ٨٧.

دمشق ويعطي الاسكندرية، ثم ركب الملك الصالح في المدرسة، وحمل الجواد الغاشية بين يديه، ثم أكل يديه ندماً وسافر وتوجه الصالح نحو الغور، وطلب عمه إسماعيل من بعلبك ليتفقا، فدبر إسماعيل أمره، واستعان بالمجاهد صاحب حمص، وهجم دمشق فأخذها، فسمعت الأمراء، فتوجهت إليه، وبقي الصالح في طائفة، فأخذه عسكر الناصر صاحب الكرك، واعتقله عنده.

وفيها توفي الشيخ العارف الصالح أبو العبّاس أحمد بن عليّ القسطلاني الفقيه المالكيّ الملقب بزاهد مصر، تلميذ الشيخ الكبير العارف بالله الشيهر أبي عبدالله القرشيّ، سمع الحديث، وتفقه ودرس بمصر، وأفتى وصحب الشيخ المذكور، وكان القاري في مواعيده، وتزوج بعد موته زوجته السيدة الجليلة الصالحة أمّ ولده الشيخ قطب الدين الإمام المحدّث، ثم جاور أبو العباس المذكور بمكة وتوفي بها وقبره معروف يزار في الشعب الأيسر.

قلت: وبلغني أنهم احتاجوا في المدينة الشريفة إلى الاستسقاء، وهو بها مجاور، فاتفق رأيهم أن يستسقي أهل المدينة يوماً المجاورون يوماً، وبدأ أهل المدينة بالاستسقاء، فلم يسقوا، فعمل هو طعاماً كثيراً للضعفاء والمساكين، واستسقى مع المجاورين، فسقوا، وله مؤلف جمع فيه كلام شيخه أبي عبدالله القرشيّ، وكلام بعض شيوخه، وبعض كراماته.

وفيها توفي الحافظ الجوال محدّث الشام ومفيده أبو عبدالله محمد بن يوسف الإشبيلي، الملقب بالزكي، سمع بالحجاز ومصر والشام والعراق وأصبهان وخراسان والجزيرة، فأكثر وتوفي في رمضان بحماة رحمه الله.

سنة سبع وثلاثين وست مائة

قد تقدم أن إسماعيل هجم دمشق فملكها، وتسلم القلعة من الغد، واعتقل الصالح أيوب بالكرك أشهراً وطلبه أخوه العادل من الناصر داؤد، وبذل فيه مائة ألف دينار، وكذا طلبه الصالح إسماعيل، فامتنع الناصر، ثم اتفق معه وحلفه، وسار به إلى الديار المصرية، فمالت إليه الكاملية، وقبضوا على العادل، وتملك الصالح أيوب ورجع الناصر.

وفيها توفي الحافظ المقرىء الحاذق أبو عبدالله محمّد بن سعيد المعروف بابن الدّبيثي الواسطيّ الشافعي، سمع الحديث، وقرأ القراءات، وكان إماماً متفنناً واسع العلم، غريز الحفظ.

وفيها توفي الحافظ المقرىء الحاذق أبو عبدالله محمد بن أبي المعالي سعيد[1] الفقيه

(١) انظر وفيات الأعيان ٤٠/ ٣٩٤.

الشافعيّ المؤرخ الواسطيّ، المعروف بابن الدُّبيثي بضم الدال المهملة، وفتح الموحدة، وسكون المثناة من تحت، وبعدها مثلثة نسبة إلى دبيثا قرية من نواحي واسط، سمع الحديث كثيراً، وعلق تعاليق مفيدة، وكانت له محفوظات حسنة، يوردها ويستعملها في محاوراته، وكان في الحديث وأسماء رجاله والتاريخ من الحفاظ المشهورين والنبلاء المذكورين، وصنّف كتاباً جعله ذيلاً على كتاب تاريخ الحافظ أبي سعيد ابن السمعانيّ المذيل على «تاريخ بغداد» للخطيب، وذكر فيه ما أغفله السمعانيّ في ثلاث مجلدات وما أقصر فيه، وصنف تاريخاً للواسط، وغير ذلك وأنشد لنفسه:

خَبَرْت بني الأيام طراً، فلم أجد — صديقاً صدوقاً مُسعداً في النوائبِ
وأصفيتهم منّي الوداد، فقابلوا — صفاء ودادي بالفدا[1] والشوائبِ
وما اخترتُ منهم صاحباً وارتضيته — فأحمدته في فعله والعواقبِ

قلت: وهذه الأبيات أُخذت من أبيات الإمام الشافعيّ المذكورة في ترجمته وفيها توفي أبو البركات المبارك بن أبي الفتح أحمد بن المبارك، الملقب بابن المستوفي اللخميّ الإربليّ، كان رئيساً جليل القدر كثير التواضع واسع الكرم، لم يصل إلى إربل أحد من الفضلاء إلاّ وبادر إلى زيارته وحمل إليه ما يليق بحاله، وتقرب إلى قلبه بكل طريق، وخصوصاً أرباب الأدب، فقد كانت سوقهم لديه نافقة وكان جم الفضائل عارفاً بعدة فنون، منها الحديث وعلومه وأسماء رجاله، وجميع ما يتعلق به، وكان إماماً فيه، وكان ماهراً في فنون الأدب من النحو واللغة والعروض والقوافي وعلم المعاني وأشعار العرب وأخبارها وأيامها ووقائعها وأمثالها، وكان بارعاً في علم الديوان وضبطه وحسابه، وضبط قوانينه على الأوضاع المعتبرة عندهم، وجمع لإربل تاريخاً في أربع مجلدات، وله كتاب النظام في «شرح شعر المتنبي» وأبي تمام في عشر مجلدات، وكتاب «إثبات المحصل في نسبة أبيات المفصل» في مجلدين تكلم فيه على الأبيات التي استشهد بها الزمخشريّ في «المفصل» وله كتاب «سر الصنعة» وكتاب سماه «أبا حماش»[2] جمع فيه أدباً كثيراً ونوادر وغيرها. وديوان شعر أجاد فيه، ومن شعره بيتان فضل فيهما البياض على السمرة، وهما:

لا تخدَعنّكَ سُمْرة غَزاره — ما الحسنُ إلاّ للبياض وجنِسهِ
فالرمحُ يقتل بعضهُ من غيره — والسيفُ يقتل كله من نفسهِ

قلت: ولي أبيات في تفضيل لون البياض على غيره منها قولي:

---

(١) بالقذى. وفيات الاعيان ٤/ ٣٩٤.
(٢) «أبا قماش». وفيات الأعيان ٤/ ١٤٧.

إذا الغانيات البيض يوماً تفاخرت ... بألوانها، فاحكم فأنت خبير
فأبيضها سلطانها، ثم أصفر ... لسلطانها يتلو علاه وزير
وإن رام تقليد الإمارة أهلها ... فأسمرها الميمون ذاك أمير
وأحمرها جندلها قل وسايس ... لها أسود دون الجميع حقير
فإن قيل: لم فضلت للبيض رافعاً ... ولم قلت ما للبيض قط نظير؟
فقل ذا لأنّ الحور بيض لها كسا ... بأحسن ألوان الجمال قدير
وأيضاً فلون البيض باهج حسنة ... يحاكيه بدر في السماء منير

رجعنا إلى ذكر ابن المستوفي، وأرسل إلى شاعر وصل إلى إربل ديناراً مثلوماً مع إنسان يقال له: الكمال، فتوهم الشاعر أن الملك قد فرض قطعة من الدينار، فقصد استعلام الحال من أبي البركات المذكور، فكتب إليه:

يا أيها المولى الوزير ومن به ... في الجود حقاً يُضرَبُ الأمثال
أرسلت بدر التم عند كماله ... حسناً فوافى العبد، وهو هلال
ما غاله النقصان إلا أنه ... بلغ الكمال، كذلك الآجال

فأعجبه هذا المعنى وحسن الاتفاق، فأجاز الشاعر، وأحسن إليه. وكان مستوفي الديوان، وهي منزلة عليه في تلك البلاد تتلو الوزارة، ثم تولّى الوزارة بعد ذلك، وشكرت سيرته فيها، ولم يزل عليها إلى أن مات السلطان مظفر الدين، فقعد في بيته في تلك البلاد والناس يلازمون خدمته، وكان عنده من الكتب النفيسة شيء كثير، ثم توفي بالموصل[1].

قال ابن خلكان: وهو من بيت كبير، وأبوه تولّى الاستيفاء بإربل، وعمه أبو الحسن، كان فاضلاً، وهو الذي نقل «نصيحة الملوك» تصنيف الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزاليّ من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، فإنّ الغزالي لم يضعها إلا بالفارسية، وذلك مشهور بين الناس، ولما توفي رثاه يوسف بن القيس الإربلي بقوله:

أبو البركات لو دَرَتِ المنايا ... بأنك فرد عصرك لم تصبكا
كفى الإسلام رزأ فقد شخص ... عليه بأعين الثقلين يُبكى

وفيها توفي أبو الفتح نصير الله بن أبي الكرم، الملقّب ضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزريّ، العلاّمة الكاتب البليغ صاحب المثل السائر، انتهت إليه رياسة الإنشاء والترسل، وكان مولده بجزيرة ابن عمر، ونشأ بها، وانتقل

---

(١) انظر وفيات الأعيان ٥/٣٩٢.

مع والده إلى الموصل، وبها اشتغل، وحصل العلوم، وحفظ كتاب الله الكريم، وكثيراً من الأحاديث النبوية، وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان، وشيئاً كثيراً من الأشعار، وكان من جملة محفوظاته شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي، قال: «حفظت هذه الدواوين الثلاثة، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين، حتى تمكنت من صَوْغ المعاني، وصار الإدمان لي خلقاً وطبعاً» وقد كنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصي، ثم اقتصرت عليه على أشعار الثلاثة المذكورين.

قال ابن خلّكان: ولما كملت له الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين، وكان يومئذٍ شاباً، فاستوزره ولده الملك الأفضل، وحسنت حاله عنده.

ولما توفي السلطان صلاح الدين، واستقل ولده المذكور بمملكة دمشق، اشتغل ابن الأثير بالوزارة وردت إليه أمور الناس، وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه، ولما أُخذت دمشق من الملك الأفضل، وكان ابن الأثير قد أساء العشيرة مع أهلها، فهمّوا بقتله، فأخرجه الحاجب محاسن مستخفياً في صندوق مقفل عليه، ثم صار إليه، وصحبه إلى مصر لما استدعي لنيابة أخيه الملك المنصور.

ولما أخذ الملك العادل الديار المصرية، خرج ابن الأثير منها مستتراً وله في كيفية خروجه رسالة طويلة، شرح فيها حاله، ولما استقر الملك الأفضل غاب عن مخدومه الملك الأفضل، ثم بعد ذلك اتصل بخدمة أخيه الملك الظاهر صاحب حلب، فلم يطل مقامه عنده، وخرج مغاضباً، وعاد إلى الموصل، فلم يستقم حاله، فورد إربل، فلم يستقم حاله، فسافر إلى سنجار، ثم عاد إلى الموصل، واتخذها دار إقامته إلى أن توفي، وله من التصانيف الدالة على غزارة فضله، كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، وهو في مجلدين، جمع فيه فأوعب، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلاّ ذكره، وكتاب الوشي المرقوم في حلّ المنظوم، وهو مع وجازته في غاية الحسن والإفادة وكتاب المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء، وهو أيضاً نهاية في بابه، وله مجموع أخبار فيه شعر أبي تمام والبحتريّ وديك الجن والمتنبي في مجلد واحد كبير، وحفظه مفيد.

قال ابن المستوفي: نقلت من خطه، في آخر هذا الكتاب ما مثاله:.

تمتّع به علقاً نفيساً فإنه ... اختيار بصير بالأمور حكيمِ
أطاعته أنواع البلاغة فاعتدى[1] ... إلى الشعر من نَهْجٍ إليه قويمِ

وله ديوان شعر ترسل في عدة مجلدات، والمختار منه في مجلد واحد.

(١) فاهتدى. وفيات الأعيان. ٥/ ٣٩٢.

قال: وذكر ابن خلكان له رسالة كتبها إلى محذومة بليغة البلاغة إلاّ أنّ في بعض ألفاظها ما بالغ فيه بما لا ينبغي أنْ يقال: وكم من قول أدى إلى تكفير صاحب المقال، ومن جلة ألفاظه، ما يملأ الوادي بمائة، وما يملأ النادي بنعمائه، فإنه وإن أراد المطر الذي نزل، فقد احتقر فيض الله عز وجل، وقد نظمت أبياتاً ردوا تبكيتا لقائل من قال هذا القول الآتي أو ما يجري مجراه نعوذ بالله من الخروج إلى ما لا يرضاه، وهو هذا:

فنـــوال كفّـــك بـــدرة درّ ونـــوال الغمـــام قطـــرة مـــاء

وكذا قول بديع الزمان:

وكـاد يحكيـك صـوب الغيـث منسكبـاً لـو كـان طلـق المحيـا يمطـر الـذهبـا
والدهر لو لم يخن، والشمس لو نطقت والليثُ لو لم يصد والبحر لو عذبا

قال ابن خلكان: ولابن الأثير المذكور، كل معنى مليح في الترسل، وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله، فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها، وكانت بينهما مكاتبات، ومجاوبات، ولم يكن له في النظم شيء حسن، ومن رسائله قوله في صفة نيل مصر وعذُب رضائه يضاهي حتى النحل[1] واحمر صفيحة فعلمت أنه قُتل المحل، وهو معنى بديع غريب نهاية في الحسن، لم أقف لغيره على أسلوبه ثم إني وجدت هذا المعنى لبعض العرب، وقد أخذه ضياء الدين منه، وهو قوله:

لله قلـــب مـــا يـــزول[2] يَـــرُوعُـــهُ بـــرق الغمـــامـــة منجـــداً ومغـــورا
مـــا احمـــرَّ فـــي الليـــل البهيـــم صفيحـــةُ متجـــرداً إلاّ وقـــد قتـــل الكـــرى

وقتل بالقاف، والمثناة من فوق قال: وكان هو، وأخوه مجد الدين أبو السعادات المبارك، وأبو الحسن علي الملقب عز الدين، كلهم نجباء رؤساء لكل واحد منهم تصانيف نافعة.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي المرسي، كان متفنناً عارفاً بالنحو، والعلوم، والكلام، والمنطق سكن حماة قال الذهبي: وله تفسير عجيب.

سنة ثمان وثلاثين وست مائة

فيها سلم الملك الصالح إسماعيل قلعة السقيف[3] للفرنج، لغرض في نفسه، فمقته

---

(١) (وعذب رضا به فتضاهى جنى النحل). وفيات الأعيان ٥/ ٣٩٥.
(٢) ما يزال. وفيات الأعيان ٥/ ٣٩٥.
(٣) حصن شقيف أرنون. البداية والنهاية ٩/ ٣٧.

المسلمون، وأنكر عليه الإمام عزّ الدين بن عبد السّلام، وأبو عمر ابن الحاجب، فسجنهما، وعزل ابن عبد السّلام من خطابة دمشق، وفيها ولّي القضاء الرفيع الجيليّ.

وفيها توفي محيي الدين ابن العربي أبو بكر محمد بن عليّ الطائي الحاتميّ المرسيّ الصوفي[١] نزيل دمشق صاحب التصانيف قلت: هذه ترجمة الذهبي، ثم زاد قال: قدوة القائلين بوحدة الوجود ولد سنة ستين وخمس مائة، روى عن ابن بشكوال وطائفة، وتنقل إلى البلاد، وسكن الروم مدة ثم قال: وقد اتهم بأمر عظيم.

قلت: فترجمته هذه وكلامه فيها اشارة إلى ما يعتقد فيه كثير من الفقهاء من الطعن العظيم والقدح ويضد ذلك مدح طائفة من الصوفية له، وقليل من الفقهاء، فحموه تفخيماً عظيماً، ومدحوا كلامه مدحاً كريماً، ووصفوه بعلوّ المقامات، وأخبروا عنه ما يطول ذكره من الكرامات، وله أشعار لطيفة غريبة، وأخبار ونوادر طريفة عجيبة، وأعظم ما يطعن الطاعنون فيه بسبب كتابه الموسوم بفصوص الحكم ويلغني أن الإمام العلاّمة ابن الزملكانيّ شرح كتابه المذكور، ووجهه توجيهاً نفى عنه ما يظن من المحظور، ويخشى من الوقوع في المحذور.

وأخبرني بعض العلماء الصالحين ممن له ذوق، وفهم حميدان كلام ابن العربيّ المذكور له تأويل بيعد، وقد قيل: إنه اجتمع هو والإمام شهاب الدين السهرورديّ، ونظر كل واحد إلى صاحبه، وافترقا من غير كلام، فسُئل عن الشيخ شهاب الدين، فقال: مملوسنة[٢] من قرنه إلى قدمه، وسُئل عنه شهاب الدين فقال: بحر الحقائق قلت: وقد ذكرت له في بعض كتبي أنّ كل من اختلف في تكفيره، فمذهبي فيه التوقف، ووكول أمره إلى الله تعالى.

سنة تسع وثلاثين وست مائة

وفيها توفي الإمام النحوي أحمد بن الحسين المعروف بابن الخبّاز الإربلي[٣]، ثم الموصليّ الضرير صاحب التصانيف الأدبية.

وفيها توفي القاضي العلاّمة الملّقب عماد الدين المكنى أبو المعالي عبد الرحمن بن مقبل الواسطيّ الشافعيّ.

وفيها توفي الإمام العلاّمة أبو الفتح الملّقب بالكمال موسى بن

---

(١) انظر البداية والنهاية. ٣٨/٩.

(٢) مملوسنة: ملس ملساً: لان ونعم ملمسه.

(٣) كان شافعي المذهب كثير النوادر والملح، وله أشعار جيدة، وكانت وفاته عشار رجب وله من العمر خمسون سنة البداية والنهاية. ٣٩/٩.

يونس[1] الموصليّ الشافعيّ أحد الأعلام، ولد سنة احدى وخمسين بالموصل، وتفقّه على والده، وببغداد على معيد النظامية السديد السلماسيّ وبرع عليه في علم الأصول والخلاف، وقرأ النحو على ابن سَعْدُون القرطبيّ، والكمال الأنباري، وأكبّ على الاشتغال بالعقليات، حتى بلغ فيها الغايات، وكان يتوقد ذكاء، ويموج بالعلوم حتى قيل: إنه كان يتفنن في العلوم فنوناً كثيرة اشتهر ذكره، وطار خبره ودخلت الطلبة إليه من الأقطار، وتفرّد باتقان علم الرياضي، قيل: ولم يكن له في وقته نظير هذا ما ذكره الذهبي.

وقال غيره: كان الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح يبالغ في الثناء عليه، ويعظمه، فقيل له يوماً: من شيخه؟ فقال: هذا الرجل خلفه الله عالماً لا يقال على من اشتغل، وهو أكبر من هذا، وله عدة تصانيف.

وقال ابن خلكان: وكان الفقهاء يقولون: إنه يدري أربعة وعشرين فنّاً دراية متقنة، فمن ذلك علم المذهب، وكان فيه أوحد زمانه، وكان جماعة من الحنفية يشتغلون عليه في مذهبهم، ويحلّ لهم مسائل الجامع الكبير أحسن حلّ مع ما هو عليه من الاشكال المشهور؛ وكان يتقن فنّي الخلاف العراقي والبخاري، وأصول الفقه وأصول الدين.

ولما وصلت كتب الإمام فخر الدين الرازي إلى الموصل، وكان بها إذ ذاك جماعة من الفضلاء لم يفهم أحد منهم اصطلاحه فيها سواه، وكان يدري فنّ الحكمة والمنطق، والطبيعي، والإلهي وكذلك الطب، ويعرف فنون الرياضة من اقليدس، والهيئة، والمخروطات والمتوسطات، والمجسطي، وأنواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة والارثماطيقي بالمثناة من فوق قبل الألف، ومن تحت قبل القاف، وطريق الخطائين، والموسيقى بكسر القاف والمساحة، معرفة لا يشاركه فيها أحد إلاّ في ظواهرها دون دقائقها والوقوف على حقائقها، واستخرج في علم الأوفاق طرفاً لم يهتد إليها أحد؛ وكان يبحث في العربية، والتصريف بحثاً تاماً حتى إنه كان يقرىء مستوفي كتاب سيبويه، والإيضاح وتكملته للفارسيّ، ومفصل الزمخشريّ، وكان له في التفسير، والحديث، وأسماء الرجال وما يتعلق به يدٌ جيدة، وكان يحفظ من التواريخ وأيام العرب ووقائعهم، والأشعار والمحاضرات شيئاً كثيراً. وكان أهل الذمّة يقرؤون عليه التوراة والإنجيل، ويشرح هذين الكتابين لهم شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله.

قلت: هكذا ذكر عنه ومثل هذا معلوم أنه حرام وباطل، وذلك لوجوه أحدها اقراء كتب منسوخة ومبدلة باطل حكمها لا تصح، العمل بها والثاني مؤانسة لأعداء الله، ومجانسة

(١) انظر وفيات الأعيان ٣١١/٥ ـ ٣١٧ والبداية والنهاية. ٣٩/٩ ـ ٤٠.

لهم مع وجوب مقاطعتهم، والبغض لهم، والثالث إغراؤه لهم على الاشتغال، والعمل بما فيها، وقد نص أئمتنا على أنها تتلف قال: وكان في كلّ فنّ من الفنون المذكورات كأنه لا يعرف سواه لقوته فيه. قال: وبالجملة فإن مجموع ما كان يعلمه من العلوم لم يسمع من أحد ممن تقدمه أنه كان قد جمعه حتى حكي عن أثير الدين ابن الأبهريّ صاحب التعليقة في الخلاف والزيج والتصانيف المشهورة أنه قال: ما دخل إلى بغداد مثله.

قال ابن خلكان: وكان قد اشتغل عليه حينئذٍ بشيء من الخلاف، فقلت له: يا سيدي كيف تقول كذا؟ قال: يا ولدي ما دخل إلى بغداد مثل أبي حامد الغزالي، وما بينه وبينه نسبة وأقسم على ذلك. قال: وكان الأثير على جلالة قدره في العلوم يأخذ الكتاب، ويجلس بين يديه، ويقرأ عليه والناس إذ ذاك يشتغلون في تصانيف الأثير، قال: ولقد شاهدت هذا بعيني انتهى.

قلت: هيهات أن يلحق بحجة الإسلام، وعلم العلماء الأعلام، والذي باهى به نبينا موسى وعيسى عليه وعليهما أفضل الصلاة والسلام، والذي إقحام القرق عنده أيسر من شرب الماء من الموحدين والملحدين والحكماء.

إمام الهدى المنبني على الفضل منشدا سبوقاً على المهر الأغرّ المحجّلِ
غزلت لهم غزلاً دقيقاً، فلم أجد لغزلي نساجاً، فكسرت مغزلي

سنة أربعين وست مائة

فيها توفي صاحب المغرب الرشيد أبو محمّد ابن المأمون صاحب مراكش والمستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله محمد العباسي، كان محمود السيرة، فلما توفي بويع ولده المعتصم بالله.

وفيها توفيت جمال النساء بنت أحمد بن أبي سعيد الغراف بالغين المعجمة والراء والفاء البغدادية، سمعت من غير واحد من الشيوخ.

سنة احدى وأربعين وست مائة

فيها حكمت التتار على بلد الروم، وألزم صاحبها ابن أخيه علاء الدين بأن يحمل لهم كل يوم ألف دينار، ومملوكاً وجاريةً وفرساً، وكلب صيد.

وفيها توفي السلطان ابن محمود البعلبكي صاحب الأحوال والكرامات، أحد أصحاب الشيخ عبدالله اليونيني بالمثناة من تحت مكررة قبل الواو، وبين النونين وياء للنسبة.

وفيها توفيت أمّ الفضل كريمة بنت عبد الوهاب القرشية الزبيرية مسندة الشام، روت

كثيراً عن جماعة، وأجاز لها خلق كثير منهم أبو الوقت السجزي وغيره.

وفيها توفيت أمة الحكيم عائشة بنت محمد الواعظة البغدادية، كانت صالحة تعظ النساء.

وفيها توفي الجواد الذي تسلطن بدمشق بعد الملك الكامل، وكان جواداً من أمرائه.

سنة اثنتين وأربعين وست مائة

فيها طلب الملك الصالح أيوب الخوارزمية، وطلبهم من الجزيرة فعدوا الفرات، وندبهم لمحاصرة عمه إسماعيل بدمشق، واستنجد إسماعيل بالفرنج، وبصاحب حمص، فساقت الخوارزمية، واجتمعت بعسكر مصرفي غرة، وجاءتهم الخلع والنفقات والثياب، وبعث الناصر داؤد عسكره من الكرك نجدة لإسماعيل، ثم وقع المصاف بقرب عسقلان، فانتصر المصريون والخورزمية على الشاميين والفرنج، واستحر القتل في الفرنج، وأسرت ملوكهم، وخاف إسماعيل، وحصن دمشق واستعد.

وفيها توفي أبو البركات محمد بن الحسن الأنصاريّ الحمويّ، المعروف بالنفيس، سمع بمكة من عبد المنعم الغورانيّ.

وفيها توفي شيخ الشيوخ عبدالله، ويقال له: أيضاً عبد السلام الجويني الصوفي، المعروف بتاج الدين ابن حمويه، سمع من شهدة رضي الله عنها، والحافظ أبي القاسم ابن عساكر.

وفيها توفي حاطب بن عبد الكريم الحارثي، عاش خمساً وتسعين سنة وروى عن الحافظ ابن عساكر المذكور.

سنة ثلاث وأربعين وست مائة

فيها وقيل: قبلها حاصرت الخوارزمية دمشق، وعليهم الصاحب معين الدين، واشتد الخطب، وأحرقت الحواصل، ورمى بالمجانيق من الفريقين، وبعث الدمشقيون بالصالح إسماعيل في ولايته، وضاقوا من القحط والخوف والوباء ما لا يعبر عنه، وأدام الحصار خمسة أشهر إلى أن أضعف إسماعيل وفارق دمشق، وتسلّمها الصاحب معين الدين، فغضب الخوارزمية من الصالح ونهبوا داريّا[١]، وترحلوا أو أرسلوا الصالح إلى بعلبك، وصاروا معه، وردوا، فحاصروا دمشق، وتلك الأيام كان الغلاء المفرط، حتى بلغت

(١) داريّا: قرية مشهورة من قرى دمشق بالغوطة. معجم البلدان ٢/٤٩١.

الغرارة[١] بدمشق بألف وست مائة درهم، وأكلت الجيف، وتفاقم الأمر مع الخمور والفواحش.

وفيها توفي أبو البقاء موفّق الدين بن يعيش بن عليّ الموصلي الأصل الحلبي المولد والمنشأ النحوي قرأ النحو على أبي السخاء الحلبيّ، وأبي العبّاس المغربيّ التبريزي[٢] وسمع الحديث على أبي الفضل عبدالله بن أحمد الخطيب الطوسيّ بالموصل، وعلي بن السويد التكريتي، ويحلب على أبي الفرج يحيى بن محمود الثقفي، والقاضي أبي الحسين الطوسي وغيرهم، وكان فاضلاً ماهراً في النحو والتصريف، واجتمع في دمشق بالشيخ تاج الدين أبي اليُمن زيد بن الحسن الكنديّ الإمام المشهور، وسأله عن مواضع مشكلة في العربية وعن اعراب ما ذكره الحريريّ في المقامات العاشرة المعروفة بالرحبية، وهو قوله في آخرها: وحتى إذ لألأ الأفق ذنبُ السرحان وآن ابتلاج[٣] الفجر وحان فأستبهم جواب هذا المكان على الكنديّ: هل الأفق وذنب السرحان مرفوعان أو منصوبان، أو الأفق مرفوع وذنب السرحان منصوب، أو على العكس؟ وقال له: قد علمتُ قصدك، وأنك أردت اعلامي بمكانك من هذا العلم، وكتب له بخطه بمدحه والثناء عليه، ووصف تقدمه في الفنّ الأدبي.

قال ابن خلكان: وهذه المسألة يجوز الأمور الأربعة فيها، والمختار منها نصب الأفق ورفع ذنب السرحان، قلت: يعني ابن خلكان أن الأفق مفعول، وفعله لألأ، وفاعله ذنب، وأما السرحان مخفوض بالاضافة إليه، والمراد بذنب السرحان الفجر الأول الكاذب، فإنه مشبه به في طوله في السماء بخلاف الفجر الصادق، فإنه مشبه بجناحيّ الطائر لانتشاره يميناً وشمالاً، وهو الذي أشار إليه من الإعراب من كونه المختار، هو الذي ظهر لي وبادر إليه فهمي أول وقوفي على هذه المسألة قبل الوقوف على السؤال، وما يحتمله من الأقوال.

قال ابن خلكان: ولما دخلت إلى حلب لأجل الاشتغال بالعلم الشريف، كان الشيخ موفق الدين شيخ الجماعة، وذلك في سنة ست وعشرين وست مائة، وهي مشحونة بالعلماء والمشتغلين، ولم يكن فيهم مثل الشيخ موفق الدين المذكور، فشرعت عليه في قراءة اللمع لابن جنّي مع سماعي اقراءه الجماعة كانوا قد تنبهوا وتميزوا، وكان حسن التفهيم لطيف الكلام طويل الروح على المبتدىء والمنتهي، وكان خفيف الروح لطيف الشمائل كثير المجون، مع سكينة ووقار. ولقد سأله يوماً وأنا حاضر بعض الفقهاء عن قول ذي الرمة:

---

(١) الغَرارة: كيل كانوا يتعاملون به إلى عهد قريب ويُعادل ثمانين مدّاً.
(٢) النيروزي: وفيات الأعيان ٧/ ٤٧.
(٣) انبلاج: وفيات الأعيان ٧/ ٤٧.

أيا ظبيةُ الوعساء بين جُلاجلٍ(١) وبين النقاء أنتِ أم أمّ سالمِ

وكان السائل يقرأ عليه في باب النداء، فقال: أي شيء في المرأة الحسناء يشبه الظبية؟ بعد أن كان قد شرح الشيخ موفق الدين ذلك، وأوضح وجه التشبيه مع شدة محبة الشاعر وولهه لأمّ سالم المذكورة، وعظم وجده بها على عادة الشعراء في تشبيههم بالظباء، والمهاء المستحسنات من النساء، وأوضح ذلك ايضاحاً يفهمه البليد، فلما لم يستحسن السائل المذكور الجواب، ولم يتلقه بالقبول، ولم يضعه في مركز الصواب بل قال: أي شيء في المرأة الحسناء يشبه الظبي؟ قال له الشيخ على وجه الإنبساط: لشبهها في ذنبها أو قرونها، فضحك الحاضرون، فحجل السائل ولم يعد إلى مجلسه قلت: وقد شرح مجنون ليلى وجه الشبه في قوله.

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك دقيق

مخاطباً للظبية لها ولها كثير من الشواهد وفي ذلك قلت في بعض القصائد:

لها جيد ريم شبه ابريق فضة وعين المهاترمي بها داني الردى
إذا مارست لم تخط قط مقاتلاً ولا قوداً يعطي ولا قتلها يدا

وفيها توفي الحافظ القدوة أبو العباس أحمد بن عيسى بن الموفق المقدسيّ الصالحيّ.

وفيها توفي العلاّمة المفتي أبو العبّاس أحمد بن محمّد ابن الحافظ عبد الغني المقدسيّ.

وفيها توفي القاضي الأشرف أبو العبّاس أحمد ابن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، ثم المصري.

وفيها توفيت الصاحبة ربيعة خاتون(٢) أخت صلاح الدين والعادل، ودفنت بمدرستها بالجبل.

وفيها توفي المنتجب ابن أبي العزّ ابن رشيد الهمداني نزيل دمشق، قرأ القراءات على غير واحد من الشيوخ، وصنف شرحاً كبيراً للشاطبيّة وشرحاً لمفصل الزمخشري وتصدر للإقراء.

وفيها توفي شيخ الإسلام تقيّ الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الكردي

---

(١) جُلاجل: وفيات الأعيان ٤٨/٧.
(٢) انظر مرآة الزمان. ٧٥٦/٨.

الشهرَزُوريُّ المعروف بابن الصلاح؛ كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه، وأسماء الرجال، وما يتعلق بعلم الحديث، ونقل اللغة، وكانت له مشاركة في فنون عديدة. قال ابن خلّكان: وهو أحد أشياخي الذين انتفعت بهم. قال: كانت فتاواه مسددة قال: بلغني أنه درس جميع كتاب «المهذب» قبل أن يطلع شاربه، قرأ على والده الصلاح، وكان من جلة مشائخ الأكراد المشار إليهم، ثم نقل والده إلى الموصل واشتغل بها مدة، وتولّى فيها الاعادة عند الشيخ العلاّمة عماد الدين أبي حامد بن يونس، وأقام قليلاً، ثم سافر إلى خُراسان وأقام بها زماناً وحصّل علم الحديث هناك، ثم رجع إلى الشام، وتولى بالتدريس المدرسة الناصرية المنسوبة إلى صلاح الدين بالقدس، وأقام بها مدة، واشتغل الناس عليه وانتفعوا به، ثم انتقل إلى دمشق وتولّى تدريس الرواحية التي أنشأها الزكي أبو القاسم هبة الله ابن عبد الواحد بن رواحة الحمويّ، ولما بنى الملك الأشرف ابن الملك العادل دار الحديث بدمشق فوّض تدريسها إليه. اشتغل الناس عليه بالحديث فيها ثلاث عشر سنة، وتولّى تدريس مدرسة ست الشام زُمرُّد خاتون ابنة أيوب، وهي شقيقة شمس الدولة، وهي التي بنت المدرسة الأخرى ظاهر دمشق، وبها قبرها وقبر أخيها المذكور، وزوجها ناصر الدين صاحب حمص، وكان ابن الصلاح يقوم بوظائف الجهات الثلاث من غير اخلال بشيء منها إلا لعذر ضروريّ لا بد منه، وكان من العلم والدين على قدم حسن.

قال ابن خلكان: وأقمت عنده بدمشق ملازم الاشتغال مدة سنة وصنّف في علوم الحديث كتاباً نافعاً مبسوطاً، وكذلك في مناسك الحج جمع فيه أشياء حسنة يحتاج إليها، وله اشكالات على كتاب «الوسيط» في الفقه، وله طبقات الشافعية اختصره الشيخ محيي الدين النواويّ، واستدرك عليه جماعة، ومن مشاهير شيوخه الفخر ابن عساكر، وزين الأمناء، ومؤيد الطوسيّ، وابن سكينة وطبرزد وزينب الشعرية وغيرهم، وممن تفقّه عليه، وروى عنه الشيخ شهاب الدين أبو أسامة، والإمام تقيّ الدين ابن رزين قاضي الديار المصرية، والعلاّمة شمس الدين ابن خلّكان قاضي البلاد الشامية، والكمال ارسلان، والكمال إسحاق الشيرازيّ شيخ النواويّ وآخرون إلى أن توفي، فشهد جنازته جمّ غفير، وعدد كثير في الجامع، وحمل على الرؤوس المتهى، وجمع بعض أصحابه فتاواه في مجلد، فلم يزل أمره جارياً على سداد وصلاح حال واجتهاد في الاشتغال بما ذكرنا وبالنحو إلى أن توفي بدمشق في ربيع الآخر من السنة المذكور، ودُفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر، ومولده سنة سبع وسبعين وخمس مائة[1].

وذكر غيره أنه بعد اقامته بالموصل دخل بغداد وطاف البلاد، وسمع من خلق كثير،

---

(١) انظر وفيات الأعيان ٣/ ٢٤٤.

وجم غفير ببغداد، وهمدان، ونيسابور، ومرو، وحرّان، وغير ذلك، ودخل الشام مرّتين، قال: وكان إماماً بارعاً حجة متبجراً في العلوم الدينية بصيراً بالمذهب وأصوله وفروعه، له يد طولى في العربية والحديث، والتفسير مع عبادة، وتهجد، وورع، ونسك، وتعبّد، وملازمة للخير على طريقة السلف في الاعتقاد، وله آراء رشيدة، وفتاوى سديدة، ما عدا فتياه الثانية في استحباب صلاة الرغائب، وله اشكالات على الوسيط ومؤاخذات حسنة، وفوائد جمّة، وتعاليق حسنة، وعلوم الحديث الذي اقتنصه من علوم الحديث للحاكم وزاد عليه.

وفيها توفي الإمام العلاّمة علم الدين أبو الحسن عليّ بن محمّد السخاوي الهمداني المقرىء، أتقن علم القراءات على الإمام المقرىء المحقّق أبي محمّد القاسم الشاطبيّ المشهور بمصر، ثم انتقل إلى دمشق، وتقدم بها على علماء فنونه، وكان للناس فيه اعتقاد عظيم، وشرح المفصل للزمخشريّ في أربع مجلدات، وشرح الشاطبية للإمام المذكور، وكان قد قرأها عليه، وله خطب وأشعار، وكان متعيناً في وقته.

قال ابن خلّكان: ورأيته بدمشق والناس يزدحمون عليه في الجامع لأجل القراءة، ولا يصحّ لواحد منهم نَوبة إلاّ بعد زمان، ورأيته مراراً ما يركب بهيمة وهو يصعد إلى جبل الصالحين، وحوله اثنان أو ثلاثة، وكل واحد يقرأ وظيفته في موضع غير موضع الآخر، والكلّ في دفعة واحدة، وهو يردّ على الجميع. ولم يزل مواظباً على وظيفته إلى أن توفي بدمشق في السنة المذكورة، وقد نيّف على التسعين ولما حضرته الوفاة أنشد لنفسه:

قالوا: غداً يأتي ديار الحمى ... وينزلُ الرَّكْبُ بمغناهُمُ
وكلُّ من كان مُطيعاً لَهُمْ ... أصبح مسروراً بلقياهُمُ
قلت: فلي ذنبي[1] فما حيلتي ... بأيِّ وجهٍ أتَلَقَّاهُمُ
قالوا: أليس العفوُ من شأنِهِمْ ... لا سيّما ممن يرجاهم[2]

وفيها توفي الحافظ الكبير محبّ الدين أبو عبدالله محمّد بن محمود بن الحسن البغداديّ المعروف بابن النجّار صاحب «تاريخ بغداد» ولد سنة ثمان وسبعين وخمس مائة، ورحل إلى أصفهان، وخرسان، والشام، ومصر، وسمع من جماعة، وكتب شيئاً كثيراً، وكان ثقة متقناً واسع الحفظ تام المعرفة.

وفيها توفي المنتجب بن أبي العزّ بن رشيد الهمدانيّ المقرىء نزيل دمشق، قرأ

---

(١) ذنبٌ: وفيات الأعيان ٣/ ٣٤١ البداية والنهاية ٩/ ٥٢.
(٢) لا سيما عمن ترجاهُم: وفيات الأعيان ٣/ ٣٤١ البداية والنهاية ٩/ ٥٢.

القراءات، وصنّف شرحاً كبيراً للشاطبية، وشرحاً لمفصل الزمخشريّ.

سنة أربع وأربعين وست مائة

لما اتفق الصالح إسماعيل مع الخوارزمية استمال الصالح أيّوب صاحب حمص وأفسده على إسماعيل، ثم كتب إلى عسكر حلب يحثّهم على حرب الخوارزمية، وأنهم قد خرّبوا الشام، فبادر نائب حلب شمس الدين لؤلؤ، واجتمع معه صاحب حمص بالغرب والتركمان بعسكر دمشق، وأقبل الملك الصالح إسماعيل معه الخوارزمية وعسكر الكرك، وصاحب صرخد[1]، فالتقى الجمعان على بحيرة حمص، فتقل مقدم الخوارزمية، وانهزم الصالح ثم تسارت الخوارزمية إلى التلقي، واتفق معهم الناصر داؤد، فجهز الصالح صاحب مصر جيشاً، فكسروا الخوارزمية، وساقوا فنازلوا الكرك، وتسلموا بعلبك، وبصري وأخذوا أولاد إسماعيل إلى القاهرة، والتجأ إلى حلب، وانقضت دولته، وصفت الشام لنجم الدين أيوب، فقدمها ودخل دمشق ثم مرّ إلى بعلبك، ومرّ إلى صرخد وأخذها وأخذ الصينية من الملك السعيد بن العزيز،وهو ابن عمه، ثم مرّ ببصرى وبالقدس فأمر بعمارة سورها، وبصرف مغلها[2] في سورها.

وفيها توفي الملك المنصور ابن المجاهد أسد الدين صاحب حمص وأنّ صاحبها واحد الموصوفين بالشجاعة والاقدام، مرض ببستان الملك الأشرف بدمشق ومات، فنقل إلى حمص، ودفن عند أبيه، وكان عازماً على أخذ دمشق، ففجأه الموت، وقام بعده بحمص ابنه الملك الأشرف موسى.

وفيها توفي إسماعيل بن عليّ الكورانيّ، وكان زاهداً عابداً قانتاً صادقاً أمّاراً بالمعروف نهّاءاً عن المنكر ذا غلظة على الملوك ونصيحة لهم.

سنة خمس وأربعين وست مائة

فيها أخذ المسلمون عسقلان[3]، وأخذوا طبرية قبلها بأيام، وفيها أخذ الملك الصالح نجم الدين الصينية من الملك السعيد، وعوّضه أموالاً، وجهّز مائة فارس بمصر، وفيها نازل عسكر حلب مدينة حمص، وأخذوها بعد أشهر .

---

(١) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة معجم البلدان ٣/ ٤٥٥ .

(٢) مغلها: اللبن الذي تُرضعه المرأة ولدها وهي حامل.

(٣) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبين جبرين. معجم البلدان ١٣٧/٤ .

وفيها توفي الكاشغريّ إبراهيم بن عثمان الزركشيّ ببغداد، سمع من جماعة ورحل إليه الطلبة من الآفاق والجهات، وكان آخر من بقي بينه وبين الإمام مالك خمسة أنفس ثقات، وتولّى مشيخة المستنصرية.

وفيها توفي الشيخ أبو محمّد بن أبي الحسن بن منصور الدمشقيّ الصوفيّ ولد بقرية تستر[1] من حوران، ونشأ بدمشق، وتعلم بها نسج العتابي، ثم تصرف وعظم أمره، وكثر اتباعه، وأقبل على سماعات الصوفية، وبالغ فيما يتعاطونهُ من ذلك، فمن يحسن به الظن يقول: هو صادق صاحب حال. أو تمكين ووصال ومن يسيء به الظن يرميه بالزندقة والضلال.

قلت: هذا معنى ما أشار إليه الذهبيّ، وميله فيه إلى ما ذكرت من الوصف الأخير كما هو مذهب أكثر الفقهاء الطعن في كثير من المشائخ، فإنه قال: ومن خير أمره نسبه إلى الفضل والكمال، ومن قبح أمره رماه بالكفر والضلال، ثم قال: وهو أحد من لا يقطع عليه بجنة ولا نار، فإنا لا نعلم بما ختم له. لكنه توفي في يوم شريف يوم الجمعة قبل العصر السادس والعشرين من شهر رمضان، وقد نيّف على التسعين. مات فجأة انتهى كلامه، وفيه من التشكك ما فيه من تغليب التكفير، وأما عدم القطع المذكور، فليس يخرج منه أحد سوى الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ومن شهد له بذلك، ولم يزل الفقراء يذكرون عن الشيخ المذكور عجائب من الكرامات والتجريبات.

وفيها توفي أبو عليّ عمر بن محمد الأزديّ[2] الأندلسي الاشبيليّ النحويّ أحد من انتهت إليه معرفة العربية في زمانه، وكان بحراً لا يجارى وحبراً لا يُبارى تصدّر لإقراء النحو نحواً من ستّين عاماً، وصنف التصانيف سمع من جماعة من الشيوخ وأجاز له السلفي، وأخذ النحو عن غير واحد من النحاة.

قال ابن خلكان: ولقد رأيت جماعة من أصحابه كلُّهم فضلاء، وكلهم يقول: ما تقاصر الشيخ أبو عليّ المذكور عن الشيخ أبي عليّ الفارسي، قالوا: وفيه مع هذه الفضيلة غفلة وصورة بَلَه في الصورة الظاهرة، حتى قالوا: إنه كان يوماً على جانب نهر وبيده كراريس، فوقعت منه كراسة في الماء وبعدت عنه، فلم يصل يده إليها فأخذ كراسة أخرى وجذبها فتلفت أخرى بالماء؛ وكان له مثل هذه الأشياء.

---

(١) تستر: أعظم مدينة بخوزستان اليوم. وهي مختطة على شكل فرس، وهي على مكان مرتفع. معجم البلدان ٢/ ٣٥.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/ ٥٥.

وشرح المقدمة الجُزُولية شرحين كبيراً وصغيراً. وله كتاب في النحو سمّاه التوطئة بالجملة على ما يقال: كان خاتمة أئمة النحو.

وفيها توفي الملك المظفر غازي ابن الملك العادل صاحب فارقين وخلاط وغير ذلك، وكان فارساً شجاعاً شهماً مهيباً، وملكاً جواداً تملك بعده ابنه الشهيد الملك الكامل ناصر الدين.

سنة ستّ وأربعين وستّ مائة

فيها توفي الإمام العلّامة الفقيه المالكي الأصوليّ النحويّ المقرىء المعروف بابن الحاجب أبو عمرو عثمان بن عمرو الكرديّ الأسناويّ بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وقبل الألف نون، ثم المصريّ صاحب التصانيف المجادة المشتملة على التحقيق والإفادة. كان والده حاجباً للأمير عزّ الدين الصلاحيّ، واشتغل هو في صغره بالقرآن الكريم، ثم بالفقه على مذهب الإمام مالك، ثم بالعربية والقراءات وبرع في علومه، وأتقنها غاية الاتقان، ثم انتقل إلى دمشق، ودرس بجامعها في زاوية المالكية، واكب الخلق على الاشتغال عليه وتبحر في العلوم. قيل: وكان الغالب عليه علم العربية، وصنّف مختصراً في مذهبه، ومقدمة وجيزة في النحو، وأخرى مثلها في التصريف وشرح المقدمتين، وصنّف في أصول الفقه.

قال ابن خلكان: وكل تصانيفه في نهاية الحسن والإفادة، وخالف النحاة في مواضع، وأورد عليهم اشكالات والزامات يبعد الاجابة عنها، قال: وكان من أحسن خلق الله ذهناً، ثم عاد إلى القاهرة، وأقام بها والناس ملازمون للاشتغال عليه، قال: وجاءني مراراً بسبب أداء شهادات، وسألته عن مواضع في العربية مشكلة، فأجاب عنها أبلغ اجابة بسكون كثير وتثبت تام، ومن جملة ما سألته عنه مسألة اعتراض الشرط على الشرط في قولهم: «إن أكلت إن شربت» لم يتعين تقديم الشرب على الأكل بسبب وقوع الطلاق حتى لو أكلت ثم شربت لم تطلق؟ وسألته عن بيت المتنبي عن قوله:

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم

ما السبب الموجب لخفض مصطبر ومقتحم، ولات ليست من أدوات الجر؟ فأطال الكلام فيهما، وأحسن الجواب عنهما، قال: ولولا التطويل لذكرت ما قاله، ثم انتقل إلى الاسكندرية للإقامة، فلم تطل مدته هناك، وتوفي بها ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ

الصالح ابن أبي شامة؛ وكان مولده[١] في سنة تسعين وخمس مائة بأسنا[٢] رحمه الله انتهى كلام ابن خلكان.

قلت: وبلغني أنه كان محباً للإمام شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السّلام ومصاحباً له، وأنه لما حبسه السلطان كما تقدم بسبب إنكاره عليه. دخل ابن الحاجب المذكور معه الحبس لموافقته ومراعاة صحبته، ولعلّ انتقاله إلى مصر كان بسبب انتقال الإمام عزّ الدين المذكور، والله أعلم، ولكن قد تقدم أنّ الملك الصالح حبس هذين الإمامين المذكورين معاً لإنكارهما عليه.

وفيها توفي أن البيطار الطبيب البارع عبدالله بن أحمد المالقيّ صاحب كتاب الأدوية المفردة انتهت إليه المعرفة بتحيق النبات وصفاته ومنافعه وأماكنه، وله خدمة عند الكامل، ثم ابنه الصالح توفي بدمشق.

وفيها توفي ابن صاحب المغرب المعتضد، ويقال أيضاً: السعيد أبو الحسن عليّ بن المأمون ادريس وليّ الأمر بعد أخيه عبد الواحد، وقُتل على ظهر جواده، وهو محاصر حصناً بتلمسان، وولّي بعده المرتضى، فامتدت دولته عشرين عاماً.

وفيها توفي الوزير أبو الحسين عليّ بن يوسف الشيبانيّ وزير حلب، وصاحب التصانيف والتواريخ جمع من الكتب على اختلاف أنواعها ما لا يوصف، وكانت تساوي نحواً من أربعين ألف دينار.

سنة سبع وأربعين وست مائة

فيها عمل الأمجد حصناً على أبيه، وراح إلى مصر، وسلّم الكرخ أبي الصالح، ونازلت الفرنج دمياط براً وبحراً، وكان بها فخر الدين ابن الشيخ وعسكره، فهربوا وملكها الفرنج بلا ضربة ولا طعنة، وكان السلطان على المنصورة، فغضب على أهلها كيف سيبوها، حتى أنه شنق ستّين نفساً من أعيان أهلها، وقامت قيامته على العسكر بحيث أنهم خافوا منه، وهموا به، فقال فخر الدين: أمهلوه. فهو على شفا، فمات ليلة نصف من شعبان بالمنصورة، وكتم موته أياماً ثم أنّ مملوكه قطايا بالقاف والطاء المهملة وبين الألفين مثناة من تحت ساق على البريد إلى أن عبر الفرات، وساق إلى أن بلغ إلى الملك المعظم. ولد الصالح، فجاء معه حتى قدم به دمشق، فدخلها في دست[٣] السلطنة وجرت للمصريين

(١) كان مولده في آخر سنة سبعين وخمسمائة بأسنا.
(٢) أسنا: هي بليدة صغيرة من الأعمال القوصيّة بالصعيد الأعلى من مصر.
(٣) دست: صدر المجلس. و ـ: اللباس. ودست الوزارة: منصبها.

مع الفرنج فصول وحروب إلى أن اتفقت وقعة المنصورة وذلك أنّ الفرنج حملوا ووصلوا إلى دهليز السلطان، فركب مقدم الجيش فخر الدين ابن الشيخ، وقاتلها إلى أن قتل، وانهزم المسلمون، ثم كرّوا على الفرنج، ونزل النصر ولله الحمد، فقتل من الفرنج مقتلة عظيمة، ثم قدم الملك المعظم بعد أيام.

وفيها توفي الملك الصالح ابن الملك الكامل ابن الملك العادل[1]، كما تقدم، وكان وافر الحرمة، عظيم الهيبة، طاهر الذيل، حليفاً للملك ظاهر الجبروت.

وفيها توفي الأمير نائب السلطنة.

وفيها توفي فخر الدين كما تقدم.

وفيها توفي أبو الفضل يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين محمّد بن عمر الجوينيّ، ولد بدمشق، وسمع من غير واحد طعن يوم المنصورة، ووقع ضربتان في وجهه، فسقط، وكان رئيساً محتشماً سيداً معظماً ذا عقل ورأي ودهاء وشجاعة وكرّم سجنه السلطان سنة أربعين، وقاسى شديداً، وبقي في الحبس ثلاث سنين ثم أخرجه، وأنعم عليه، وقدمه على الجيش.

سنة ثمان وأربعين وست مائة

استهلت والفرنج على المنصورة والمسلمون بإزائهم مستظهرين لانقطاع الميرة عن الفرنج، ووقوع المرض في خيلهم، وعزم ملكهم على السير في الليل إلى دمياط، ففهم المسلمون ذلك، وكان الفرنج قد عملوا جسراً من صنوبر على النيل، ونسوا قطعه، فعبر عليه المسلمون وأحدقوا بهم، فتحصنوا بقربة يمينة أبي عبدالله، وأخذ اسطول المسلمين اسطولهم أجمع، وقتل منهم خلق، وطلب ملكهم الطواسيّ رشيد سيف الدين الضمريّ فأتوه وكلمهم في الأمان على نفسه وعلى من معه، فعقدا له الأمان، وانهزم جلّ الفرنج، فحمل عليهم المسلمون، ووضعوا فيهم السيف، وغنم الناس مالاً لا ينحصر، وركب ملك الفرنج في حراقة والمراكب الإسلامية محدقة به تخفق بالكووسات والطبول، وفي البرّ الشرقيّ الجيش سائر تحت ألوية النصر، وفي البرّ الغربيّ العربان والعوام، وكانت ساعة عجيبة، واعتقل ملك الفرنج بالمنصورة، وكانت الأسرى نيّفاً وعشرين ألفاً فيهم ملوك وكبار الدولة، وكانت القتلى سبعة آلاف، واستشهد من المسلمين نحو مائة أنفس، وخلع الملك المعظّم على الكبار من الفرنج خمسين خلعة، فامتنع الكلب ملكهم من لبسها، وقال: أنا مملكتي بقدر مملكة صاحب مصر. كيف ألبس خلعته؟ ثم بدت من الملك المعظّم خفّة وطيش،

---

(١) انظر مرآة الزمان ٨/ ٧٧٥.

وأمور خرج عليه بسببها مماليك أبيه، فقتلوه وقدموا على عسكر عزّ الدين التركمانيّ الصالحيّ ، وساقوا إلى القاهرة بعد أن استردوا دمياط، وذلك أنّ حسام الدين بن أبي عليّ أطلق ملك الفرنج على أن يسلم دمياط وعلى بذل خمس مائة ألف دينار للمسلمين، فركب بغلة، وساق معه الجيش إلى دمياط، فما وصلوا إلاّ وأوابل المسلمين قد ركبوا أسوارها، فاصفر لون ملك الفرنج، فقال حسام الدين: هذه دمياط قد ملكناها، والرأي أن لا يطلق هذا لأنه قد اطلع على عوزتنا، فقال عزّ الدين التركمانيّ: لا أرى الغدر فأطلقه .

وأما دمشق، فقصدها الملك الناصر صاحب حلب، واستولى عليها ثم بعد أشهر قصد الديار المصرية ليتملكها، فالتقى هو والمصريون بالعباسية، فانهزم المصريون، ودخل أوائل الشاميين القاهرة، وخطب بها الناصر فالتف على عزّ الدين والفارس قطايا نحو ثلاث مائة من الصالحية، وهربوا نحو الشام، فصادفوا فرقة من الشاميين، فحملوه عليهم وهزموهم وأسروا نائب الملك الناصر، وهو شمس الدين لؤلؤ، فذبحوه وحملوا على طبل الناصر، وكسروه ونهبوا خزائنه، وساقوا إلى غرة، ودخلت الناصرية الصالحية بأعلام الناصر منكّسة، وبالأسارى، وهم ولد السلطان الكبير صلاح الدّين ولذلك الأشرف موسى ابن صاحب حمص، والملك الصالح إسماعيل ابن العادل وطائفة، وقتل عدة أمراء.

وفيها توفي الملك الصالح عماد الدّين أبو الحسن إسماعيل ابن العادل، كان من جملة أسارى الصالحية المذكورين، فأخذوه في الليل وأعدموه.

وفيها توفي الملك المعظّم غيّاث الدّين ابن الصالح، وتوفي أبوه، فحلف له الأمراء وتعدّوا وراءه، وجرى من كسر الفرنج ما جرى، ثم صدرت منه أمور ضربه بسببها مملوك بسيف فتلقاه بيده، ثم هرب إلى برج خشب، فرموه بالسفط، فرمى بنفسه وهرب إلى النيل فأتلفوه، وبقي ملقىً على الأرض ثلاثة أيام حتى انتفخ، ثم واروه، وخطب بعده على منابر الإسلام ليتخبر الدرام خليل خطبة والده وزوجته وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكرها.

سنة تسع وأربعين وست مائة

أقامت عساكر الشام على غزّة نحواً من سنتين خوفاً من المصريين، وترددت الرسل بين الناصر والمعز.

وفيها تملّك المغيث ابن الملك العادل ابن الكامل الكرك والشويك سلمها إليه متوليها الطواشي صواب.

وفيها توفي العلاّمة أبو الحسن عليّ بن هبة الله اللخميّ المصريّ الشافعيّ المقرىء

الخطيب، المعروف بابن الحميريّ[1] سمع بدمشق من الحافظ ابن عساكر، وببغداد من شهدة وجماعة، وقرأ القراءات على أبي الحسن البطايحي، وقرأ كتاب المهذب على القاضي أبي سعد بن أبي عصرون، والقاضي أبو سعد علي القاضي أبي علي الفارقيّ عن مؤلفه الشيخ الإمام أبي إسحاق، وسمع بالاسكندرية من السلفي، وتفرّد من زمانه، ورحل إليه الطلبة، ودرس وأفتى، وانتهت إليه مشيخة العلم بالديار المصرية والأمير الصاحب جمال الدين ابن مطروح أبو الحسن يحيى بن عيسى المقرىء اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح ابن الملك الكامل ابن الملك العادل ابن أيوب، فلما اتسع ملكه ولاّه نائباً عنه، ولم يزل يقرب منه ويحظى عنده إلى أن ملك دمشق، فرتّب لها نوّاباً، وصار ابن مطروح في صورة وزيرها، ثم سيره مع عسكر وجهه إلى حمص لاستنقادها من ثواب الملك الناصر الملك العزيز، ثم بلغه أنّ الفرنج اجتمعوا بجزيرة قبرص على عزم الديار المصرية، فسير إلى العسكر المذكور يعودون لحفظ الديار المصرية، فعادوا وابن مطروح في خدمة الملك الصالح، والملك الصالح متغير عليه الأمور نقمها عليه؛ فواظب على الخدمة مع الإعراض عنه، ولما مات الملك الصالح وصل ابن مطروح إلى مصر، وأقام بها في داره، ولم يزل ابن مطروح مطروحاً من الولايات إلى أن مات، هذه نبذة مختصرة من أحواله على الإجمال وكانت أوقاته جميلة، وحالاته حميدة[2]، جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية، وله ديوان شعر من جملته قوله في بعض قصائده:

يا صاحبيَّ ولي بجرعاء الحمى ... قلبٌ أسيرٌ ماله من فادي
سلبته مني يوم باتوا مقلةٌ ... مكحولةٌ أجفانها بسوادِ

وله بيتان ضمنهما بيت المتنبي، وأحسن فيهما، وهما:

إذا ما سقاني ريقه، وهو باسم ... «تذكرت ما بين العذيب وبارق»
ويذكرني من قده ومدامعي ... «مجرى عوالينا ومجرى السوابق»

وهذا البيت للمتنبي في قصيدة له بديعة، وهو:

تذكرت ما بين العذيب وبارق ... مجرى عوالينا ومجرى السوابق

قال ابن خلكان: وبلغني أنه كتب رقعة يتضمن شفاعته في قضاء شغل بعض أصحابه إلى بعض الرؤساء، وكتب فيهم «لولا المشقة» فلما وقف عليها ذلك الرئيس قضى شغله وفهم قصده، وهو قول المتنبي:

(١) ابن الجميزي مرآة الزمان ٨/ ٧٨٦.
(٢) كانت أدواته جميلة وخلاله حميدة وفيات الأعيان ٦/ ٢٦٠.

لــولا المشقــة ســاد النــاسُ كلهــم الجــودُ يفقــر والإقــدام قتــال

هذا من لطيف الإشارات.

سنة خمسين وست مائة

فيها توفي الكمال إسحاق بن أحمد المعريّ الشافعيّ المفتي تلميذ ابن الصلاح، كان إماماً بارعاً زاهداً عابداً توفي بالروحانية.

وفيها توفي العلاّمة أبو الفضائل رضي الدين الحسن بن محمّد الصغاني العدوي العمريّ الهنديّ اللغويّ نزيل بغداد، كان إليه المنتهى في معرفة اللغة، له مصنفات كبار في ذلك، وله تبصرة في الفقه والحديث مع الدين والأمانة.

وفيها توفي سعد الدين بن حمويه محمّد بن المؤيد الجوينيّ الصوفي[١]، كان صاحب أحوال ورياضات، وله أصحاب ومريدون وكلام، سكن سفح قاسيون مدة، ثم رجع إلى خراسان، فتوفي هناك.

سنة احدي وخمسين وست مائة

وفيها توفي شيخ الشيوخ السيد الجليل العارف بالله أبو الغيث ابن جميل اليمني ذو المقامات العليّة والأحوال السنية، والأنفاس الصادقة، والكرامات الخارقة، والفتح العظيم، والفضل الجسيم منبع الأسرار، ومطلع الأنوار شيخ الزمان والمشار إليه من بين الأقران صاحب المظهر الباهر العظيم الشأن الذي أشرت إليه فيما تضمنه هذان البيتان.

أيــا سيــدكــم ســاد بــالفضــل سيــداً بكــل زمــان ثــم كــل مكــان
إذا أهــل أرض، فــاخــروا بشيــوخهــم أبــو الغيــث فينــا فخــر كــل يمــان

كان قدّس الله روحه عبداً يقطع الطريق فبينا هو كامن للقافلة، فسمع هاتفاً يقول: يا صاحب العين عليك أعين، فوقع منه ذلك موقعاً أزعجه عما كان عليه، وأقبل به إلى الإقبال على الله والإنابة إليه، وصحب في بدايته الشيخ الكبير الوليّ الشهير المعروف بابن أفلح اليمنيّ حتى زكت نفسه، وتنور قلبه، وظهر عليه صدق الإرادة وسيماء السعادة، وبدت منه بعض الكرامات في الأوقات. من ذلك أنه خرج يحتطب في وقت، ومعه حمار يحمل عليه الحطب، فبينا هو يجمع الحطب في بعض البراري وثب الأسد على حماره، فافترسه، فلما جاء بالحطب ليحمله وجده قد مات، وقال للأسد: تقتل حماري على أي شيء أحمل

(١) توفي السنة الحادي والخمسون وستمائة مرآة الزمان ٨/ ٧٩٠.

حطبي، وعزة المعبود ما أحمله إلاّ على ظهرك، فجمع الحطب، وحمله عليه، وهو هين لين مطيع، وساقه إلى أن وصل به إلى طرف البلد، ثم حطّ عنه الحطب، وقال له: اذهب ومن ذلك أيضاً أنّ زوجة شيخه المذكور طلبت شري عطر من السوق، فذهب ليشتري لها، فكلّم بعض العطّارين في ذلك، فقال العطار: ما عندي شيء فقال له أبو الغيث: ما عندك شيء؟ فانعدم في الحال جميع ما في دكان العطّار، فجاء إلى الشيخ يشكو إليه ما جرى على حوائجه من أبي الغيث، فاستدعى به الشيخ وخاصمه بسبب اظهار ما ظهر له من الكرامة، وقال له: سيفان لا يصلحان في غمد واحد، اذهب عنّي، فدار له أبو الغيث وتضرع والتزم به فأبى أن يصحبه، فذهب يلتمس من يصحب من الشيوخ لينتفع به، فكلّ من التمس منه يقول: اكتفيت ما تحتاج إلى شيخ حتى جاء إلى الشيخ الكبير العارف بالله الخبير السيد المبجّل المعروف بعليّ الأهدل، فالتمس منه الصحبة، فأنعم له بذلك.

قال أبو الغيث فلما صحبته كأني قطرة وقعت في بحر، وقال أيضاً: كنت عند ابن أفلح لؤلؤة بهما، فثقبها الأهدل، وعلقها في عنقي قلت: كأنه يشير إلى أنّ محاسن أحواله المشكورة كانت عند ابن أفلح مستورة، فلما صحب الأهدل أظهر محاسنه التي يجليها عليه لكل من يجتليها.

ومن كراماته أيضاً أنّ الفقراء قالوا له: نشتهي اللحم، فقال: في اليوم الفلاني إن شاء الله تعالى تأكلون اللحم، وكان يوم سوق يجتمع فيه القوافل، فلما جاء ذلك اليوم جاء الخبر أنّ قطّاع الطريق الحرامية نهبوا القافلة، فلما كان بعد ساعة جاء واحد من القطّاع يثور إلى الشيخ، فقال الشيخ للفقراء: اذبحوه واطبخوه وخلّوا رأسه على حاله، ثم جاء آخر أيضاً منهم يحمل حبّ، فقال لهم الشيخ: اطحنوه واخبزوه، ففعلوا جميع ذلك، ثم فتوا العيش وأدموه، فقال الشيخ للفقراء: كلوا، فدعا الفقراء الفقهاء إلى الأكل معهم، فامتنعوا، فقال الشيخ للفقراء: كلوا الفقهاء ما يأكلون الحرام، فأكلوا حتى فرغوا، وإذا بإنسان قد جاء إلى الشيخ وقال: يا سيدي نذرت للفقراء بثور، فأخذه الحرامية، فقال له الشيخ: تعرف رأس ثورك إذا رأيته؟ قال: نعم أعرفه، فأمر الشيخ باحضار ذلك الرأس، فأحضروه فلما رآه ذلك الإنسان قال: هذا رأس ثوري بعينه، ثم جاء إنسان آخر، وقال: يا سيدي نذرت للفقراء حمل حبّ، فنهب مني، فقال له الشيخ: قد وصل إلى الفقراء متاعهم، فلما رأى الفقهاء ذلك ندموا على ترك موافقة الفقراء، وبقوا يضربون يداً على يد وله أيضاً رضي الله تعالى عنه ما يطول ذكره بل لا يستطاع حصره من الكرامات الظاهرات والآيات الباهرات.

وله كلام عظيم في الحقيقة والتربية في سلوك الطريقة جمع بعضه في كتاب مستقل، من ذلك قوله: يجب على من نزلت به أخلاط أول ما يبدأ استخراج القيء بريشه خوف

الفوت، ويغتسل بعد ذلك من ماء عين الندامة بقصد العزلة في كهف جبل الانقطاع أيساً من الأنس بما دون الله تعالى، ويشرب من ماء شحوم حنظل الصبر، ويستنشق بدهن أشجار الحزن، ويطعم من صحيح غذاء التوكل، ثم يكتحل بقشر عود الغرام، ولا ينام بعد ذلك حتى ينظر أنوار أثمار أشجار التوفيق، ثم يجلس على بساط قدم الصدق والتصديق منتظراً لما يرد من عجائب إبريز التحقيق، وصحيح حلول الفقر والعجز والافتقار الذي أنعم به تعالى به النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ونعم الرقيق، فحينئذٍ يبرأ العليل، ويرجع إلى ما كان عليه خلقه أول مرة، فيكون حياته لله، وموته لله لا لنفسه بذلك جرى قلم الحكيم القديم المتفضل بالتأبيد في محل الحضرة على المنهج العبديّ، والقانون الفقريّ الذي وجب أن لا يكون الفقر أزلاً وأبداً لنفسه، وجرى الآن لسان الفقر لوجوب ترك التدبير لصحة الإرادة، وتلقي ما يرد لصحة الرضاء، والتزام ما لا يلزم حباً لله وشوقاً إليه كما قد وجب على من يعيده فإذا التزم ما لا يلزم صفات الحق للحق وأوصله إلى علم أنه يصل به، فيكون الحق أوصله لا هو وصل، وبعد وجود ما يجب أيضاً على المريد اتيانه علماً ورسماً يظهر علوم أزلية يتعلق بصفة القديم المتفضل القدوس لا يعرف العالم بها إنّ الله تعالى يعصى أو يتعدى أحد مراده، والله بكل شيء عليم.

قلت وآخر كلامه هذا يشبه قوله أيضاً: كل خيال نقاب لوجه الأمر العزيزي، والأمر العزيزي نقاب لجلال الله، وجمال سبحات وجه الله الكريم فرضاً لأن لا يبرز من ذلك الجلال ذرة، فلا يبقى أحد من الثقلين، ولا من سواهما يعرف لله تعالى طاعة ولا عصياناً قلت: وقد أشرت إلى ما يظهر من معناه، والله أعلم في ترجمة الشيخ عبد القادر في سنة اثنتين وستين وخمس مائة.

وقال أيضاً: أنّ الحسّ والمحسوس حجاب عن الله تعالى فإذا ظهر سلطان حبّ الله تعالى بنور حياة القلب بالله أحرق حراريق الهوى بنار سلطانه الذي لا يقدر أحد أنْ ينفيه.

وقال أيضاً: إذا طلعت شمس من أفق قبلة الغيب إلى الأفق الأعلى أخذ كلّ من في الأفق الأدنى نصيبه من شعاعها، وليس كل مدرك بالحسن هو هي، فأما إذا طلعت من كلّ مكان، وانتفت روية التعاقب عنّا يقيناً لم يبق ليل ولا نهار، ولم يبق كفر، ولم يبق اسلام، ووجب حينئذٍ ظهور الشيء الذي حالت بيننا وبين الأحوال، وكثرت المقالات، والأفعال كما يحول السحاب يقيناً، فإذا لم يبق حائل ظهر الشيء الذي لا يشبه شيئاً وغبنا عنّا، وصرنا كالنجوم عند طلوع الشمس لا غياب بشرط الفناء ولا حضور شرط البقاء، فإنْ كنت هاهنا رأيت ما رأينا وإنْ لم تر شيئاً فكن حجراً صمّا يدق بك النوى.

وقال أيضاً: إذا اختلط ماء الأمطار بماء البحر، كان منه الدر واللؤلؤ والياقوت الأحمر

قطعاً قلت: ويحتمل أنه يعني إذا اختلط ماء أمطار غيث الفضل المنهمل من سحاب الجود عند مشاهدة الجمال، وشرب كؤوس الوصل بماء بحر توحيد القلوب المنورة الطيبة الزكية المطهرة، يكون من ذلك المطر درّ المعارف ولؤلؤ العلوم، وياقوت الحكم الأحمر، ويحتمل إذا اختلط ماء أمطار العلوم الباطنة بماء بحر العلوم الظاهرة في ظروف القلوب الطاهرة.

وقال: إنّ عبيد الهوى حلالاً وحراماً عبيد لمن تملك الهوى يقيناً في صحيح الفقر قطعاً.

قلت: ومما يناسب قوله لجماعة من الفقهاء، أتوا إلى زيارته: مرحباً بعبيد عبدي، فرجعوا عنه منكرين ذلك أشدّ الإنكار، فصادفوا شيخ الطريقين وإمام الفريقين إسماعيل بن محمّد الحضرميّ المشهور، فذكروا له ذلك، فضحك وقال: صدق أنتم عبيد الهوى والهوى عبده.

وقال أيضاً: أيّ وقت لا يحكم الهوى على المريد وصل إلى الله تعالى بالله تعالى، وأيّ وقت يحكم الهوى على المريد يقيناً فصل عن الله تعالى بعلة، والعياذ بالله العظيم، ولا شكّ أنّ الله تعالى خلق كل دابة ماء مهين معلول بعلة وأمّا ما خلق الله تعالى مما ليس منّا أحد يعرفه أوّل مرة، فهو من نور جلال جمال وجه الله الكبير بلا علة.

وقال: إنّ لهيب نار قلوب المخلصين بالحق تحرق الشياطين وأتباعهم يقيناً كمثل ما تحرق النار الحطب قولاً واحداً.

وقال: أما بعد، فإنا نظرنا فيما يفسد عقول المريدين، فإذا هو من روية ثواب العمل، وفساد القلوب من حبّ الدنيا البتة والحرص والطمع واتباع الهوى وفساد الأرواح، من حبّ البقاء وطول الأمل، فلهذا يجب على المريد الزهد في نفسه لأنها هي محلّ العلل، ومنزل الغفلة عن الله تعالى، فإذا أراد المُريد صلاح قلبه، وصفاء لبّه قتل نفسه بسيف الصدق، وطرحها في قبر الانقطاع، ودفنها بترك التدبير، وتلقى ما يرد عليه من القضاء بالرضاء والتسليم والأنس بخيرة الله، والسكون إلى حكمة الله وبالله التوفيق.

وقال أيضاً لما كاتبه الملك المنصور سلطان اليمن في وصفه الكيمياء متهماً له بمعرفتها ومطالباً له بتعليمها إذا طرح الإيمان والتوحيد واليقين والتوكل والرضاء في بوطة[1] حبّ الله تعالى، وسخن بنار الشوق والتوحيد صار منه أكسير يستحيل الكون بطبعه ربوبية صرفاً بلا عبودية والسلام.

(١) بوطة: بوتقة.

وقال أيضاً في جواب كتاب أتاه من الشريف الإمام أحمد بن الحسين أيّام خرج، وقد دعاه إلى البيعة له: ورد كتاب السيد ففهمنا مضمونه، ولعمري إن هذا لسبيل سلكه الأوّلون، وأقبل عليه الأكثرون غير أنّا نفر مذ سمعنا قوله تعالى له دعوة الحق لم يبق لإجابة الخلق فينا متسع، وليس لأحد منّا أن يشهر سيفه على غير نفسه، ولا أن يفرط في يومه بعد أمسه، فليعلم السيد فراغنا لما رام فيعذر المولى والسلام قلت: وله من الكلام في الحقائق الغامضات الدقائق ما لا يفهمه إلاّ الخواص من الخلائق من العطايا، ومن المواهب الجسيم ما لا ينال إلاّ من فيض فضل الله العظيم، وكنت قد رأيته في المنام هو والسيد المشكور إسماعيل بن محمد الحضرميّ المشهور في ليلة واحدة، وقال لي أحدهما وأظنه الشيخ أبا الغيث: إنا ما فتح عليّ إلاّ بعد الخمسين فقلت له: يا سيدي هذه بداية الفتح أم نهايته؟ فقال لي: يا ولدي إذا جاء فضل الله جاء دفعة واحدة، ففهمت أنه يعني بذلك الجذبة من جذبات الحق يفنى العبد عن نفسه وعن الخلق، وإليه وإلى شيخه المذكورين أشرت في غزل هذين البيتين من قصيدة في مدح شيوخ اليمن:

يبيت عطاء عيطبول خريدة ... غياثية في سابقات المحامل[1]
سقت تلك نهلاً حورة أفلحية ... وعلا حرّود من ملاح إلاّ هادل
خليلي في حبّ الملاح تغزلاً ... بسلمى، ومن في ربعها من حلائل
وزور أملاح الحي من كل حورة ... يمانية يمناً وحسناً كوامل
وعوجاً على أحبانا بعواجه ... وبلا رباها بالدموع الهواطل

وقلت: فيها بالتصريح بعد كناية الغزل والتلويح:

ملوك البرايا ليس يشقى جليسهم ... لهم بيض رايات العلى في المحافل
كساداتنا منهم شموس عواجة ... إلى الحكمي السامي انتساب الأفاضل
ومثل أبي الغيث المقدم في العلى ... كبحر بعيد الغور نأي السواحل
وشيخه ذي المجد النجيب ابن أفلح ... وأهد لهم صدر الكبار الأماثل

قلت: وقد أنخت رواحل الأخبار عنه بساحة الاختصار في منازل هذا المقدار.

وفي السنة المذكورة توفي الملك الصالح صلاح الدّين ابن الملك الطاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وفيها توفي الإمام العلاّمة كمال الدّين عبد الواحد ابن خطيب زملكان عبد الكريم بن

---

(١) عيطبول: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق.

خلف الأنصاري السماكيّ الشافعيّ، المعروف بابن الزملكانيّ صاحب علم المعاني والبيان، كان ذكياً سرياً ذا فنون، ولّي قضاء صرخد، ودرس ببعلبك، وتوفي بدمشق وله نظم رائق.

وفيها توفي الشيخ محمد ابن الشيخ الكبير عبدالله الجوينيّ.

وفيها توفي صاحب الشيخ عبدالله المذكور الشيخ عثمان البعلبكيّ صاحب أحوال وكرامات ورياضات ومجاهدات.

سنة اثنتين وخمسين وست مائة

فيها تسلطن الملك المعزّ عزّ الدين.

وفيها توفي الأمير فارس الدّين الزكي الصالحيّ أقطاي، كان موصوفاً بالشجاعة والكرم اشتراه الصالح بألف دينار، فلما اتصلت السلطنة إلى الملك المعزّ بالغ أقطايا في الإدلال والتبختر، وبقي يركب ركبة ملك، وتزوج بابنة صاحب الحماة، وقال للمعزّ: أريد أن أعمل العرس في قلعة الجبل، فادخلها إلي، وكان يدخل الخزائن ويتصرف في الأموال، وأنفق المعزّ وزوجته شجر الدر عليه ورتبا من قتله، وغلقت أبواب القلعة، فركب مماليكه، وكانوا سبع مائة، وأحاطوا بالقلعة فألقى إليهم رأسه، فهربوا وتفرقوا.

وفيها توفي مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبدالله الحرانيّ الحنبلي.

وفيها توفي الكمال محمّد بن طلحة النصيبي المفتي الشافعي، وكان رئيساً محتشماً بارعاً في الفقه والخلاف، ولّي الوزارة، ثم زهد وجمع نفسه، توفي بحلب في شهر رجب، وقد جاوز السبعين، وله دائرة الحروف، قلت: وابن طلحة المذكور لعله الذي روى عن السيد الجليل المقدار الشيخ المذكور، عبد الغفار صاحب الزاوية في مدينة قوص[١] قال: أخبرني الرضيّ ابن الأصمع، قال: طلعت جبل لبنان فوجدت فقيراً، فقال لي: رأيت البارحة في المنام قائلاً يقول.

لله دّرك يـــابـــن طلحـــة مـــا جـــدا	تـــرك الـــوزارة عـــامـــداً فتسلطنـــا
لا تعجبـــوا مـــن زاهـــد فـــي زهـــده	فـــي درهـــم لمـــا أصـــاب المعـــدنـــا

قال: فلما أصبحت ذهبت إلى الشيخ ابن طلحة، فوجدت السلطان الملك الأشرف على بابه،وهو يطلب الأذن عليه، فقعدت حتى خرج السلطان، فدخلت عليه، فعرفته بما قال الفقير، فقال: إن صدقت رؤياه فأنا أموت إلى أحد عشر يوماً وكان كذلك. قلت: وقد

(١) قوص: وهي مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر. وأهلها أرباب ثروة واسعة وهي محطّ التجار القادمين من عدن معجم البلدان ٤/ ٤٦٩.

يتعجب من تعبيره ذلك لموته، وتأجيله بالأيام المذكورة والظاهر، والله أعلم. أنه أخذ ذلك من حروف بعض كلمات النظم المذكور، وأظنها، والله أعلم، قوله: أصاب المعدن فإنها أحد عشر حرفاً، وذلك مناسب من جهة المعنى، فإنّ المعدن الذي هو الغني المطلق والملك المحقق ما تلقونه من السعادة الكبرى، والنعمة العظمى بعد الموت.

وفي السنة المذكورة توفي السديد المكّي الدمشقيّ العدل آخر أصحاب الحافظ أبي القاسم بن عساكر.

سنة ثلاث وخمسين وست مائة

وفيها توفي الشّهاب القوصيّ أبو المحامد إسماعيل بن حامد الأنصاريّ الشافعي[١]. روى عن جماعة، وخرج لنفسه معجماً في أربع مجلدات كبار.

قال الذهبي: وفيه غلط كثير، وكان أديباً إخبارياً فصيحاً مفوهاً بصيراً بالفقه.

وفيها توفي الإمام المفتي المعمّر ضياء الدّين الكلبيّ الشافعيّ وفيها توفي، النظام البلخيّ محمّد بن محمّد الحنفيّ نزيل حلب، كان فقيهاً مفسراً بصيراً بالمذهب.

وفيها توفي أبو الحجّاج يوسف بن محمّد الأنصاري[٢] أحد فضلاء الأندلس وحفاظها المتقنين؛ كان أديباً عارفاً فاضلاً، مطّلعاً على أقسام كلام العالم من النظم والنثر، وراوياً لوقائعها وحروبها وأيامها.

قال ابن خلكان: بلغني أنه كان يحفظ كتاب الحماسة تأليف أبي تمام الطائيّ، والأشعار السّتة وديوان أبي تمّام المذكور، وديوان المتنبي وديوان أبي العلاء المعريّ ، وسقط الزند إلى غير ذلك من أشعار الجاهلية والإسلام، وجمع للأمير أبي زكريّا يحيى بن عبد الواحد صاحب افريقية، كتاباً سمّاه كتاب الأعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام، وابتدأ فيه بمقتل أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه، وختمه بخروج الوليد بن طريف على هارون الرشيد ببلاد الجزيرة الفراتية، وقد تقدم ذكر تلك الواقعة، ومقتل الوليد فيها.

قال ابن خلكان: ورأيت هذا الكتاب المجموع، فطالعته، وهو في مجلدين، أجاد في تصنيفه وكلامه فيه كلام عارف بهذا الفن، قال: ورأيت له أيضاً كتاب الحماسة في مجلدين، وقد قرأت النسخة عليه وعليها خطه، وذكر فيه ولوعه الأدب، ومحبته لكلام العرب، وحملها له على جمع استحسنه من أشعارهم جاهليها ومخضرميها وإسلاميها

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ٦٩.

(٢) انظر وفيات الأعيان ٧/ ٢٣٨ ـ ٢٤٣.

ومولدها، فلم أجد أقرب تبويبٍ، ولا أحسن ترتيب، مما بويه، ورتبه أبو تمام حبيب بن أوس في كتابه المعروف بكتاب الحماسة، وحسن الإقتداء به والتوخّي لمذهبه، لتقدمه في هذه الصناعة، وانقراده منها في أوفر حّظ، وأنفس بضاعة، فاتبعت في ذلك مذهبه، ونزعت منزعه، وقرنت الشعر بما يجانسه، ووصلته بما يناسبه، ونقحت ذلك، واخترته على قدر استطاعتي، وبلوغ جهدي وطاقتي.

ومما نقل في كتابه المذكور قول العباس بن الأحنف المشهور:

تحمّـلْ عظيـمَ الـذنـب ممـن تحبـه ... وإن كنـت مظلـومـاً فقـل: أنـا ظـالـمُ
فـإنـك إن لـم تغفـر الـذنـب فـي الهـوى ... يفـارقْـكَ مـن تهـوى وأنفـك راغـمُ

وقول الوافر الدمشقي[1] هكذا. وقال ابن خلكان: وظني أنها لأبي فراس ابن حمدان:

بـالله ربكمـا عـوجـا علـى سكنـي ... وعـاتبـاه لعـلّ العتـبَ يعطفُـهُ
وعـرّضـا لـي وقـولا فـي حـديثكمـا ... مـا بـال عبـدك بـالهجـران تتلفـهُ
فـإن تبسـم قـولاً فـي مـلاطفـةٍ ... مـا ضـرّ لـو بـوصـال منـك تسعفـهُ
وإن بـدا لكمـا مـن سيـدي غضـبٌ ... فغـالطـاه، وقـولا: ليـس نعـرفـهُ

وقول المجنون:

تعلّقـتُ ليلـى وهـي عني[2] صغيـرة ... ولـم يبـدُ لـلأتـراب مـن ثـديهـا عجـم[3]
صغيرين ندعى[4] البَهْمَ بالبيت[5] أننا ... إلـى اليـوم لـم نكبَـر ولـم تكبـرِ البهـمُ

البهم الصغار من أولاد الضأن، الواحد بهمة، بفتح الموحدة وسكون الهاء. وما تقدم في ترجمة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ومما ينسب إليه أنه قال حين كفّ بصره:

إن يـأخـذِ الله مـن عينـيّ نـورهمـا ... ففـي لسـانـي وقلبـي منهمـا نـورُ
قلبـي ذكـي وذهنـي غيـر ذي دَخَـلٍ ... وفـي فمـي صـارمٌ كـالسيـف مطـرور

سنة أربع وخمسين وست مائة

فيها كان ظهور النار بظاهر المدينة النبويّة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وكانت

---

(١) وقول الوأواء الدمشقي وفيات الأعيان ٧/ ٢٤٠.
(٢) بكرٌ وفيات الأعيان ٧/ ٢٤٠.
(٣) حجمٌ وفيات الأعيان ٧/ ٢٤٠.
(٤) نرعى وفيات الأعيان ٧/ ٢٤٠.
(٥) يا ليت وفيات الأعيان ٧/ ٢٤٠.

من آيات الله العظام قيل: ولم يكن لها حرّ على عظمها وشدة ضوئها وهي التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى، فظهرت بظهورها معجزة والآية العظمى التي أخبر بها صلّى الله عليه وآله وسلم، بقوله في الحديث الصحيح: «**لا تقومُ الساعةُ حتّى يظهر نارٌ بالحجاز**[1] **تضيءُ لها أعناق الإبلِ ببُصْرَى**» وكان نساء المدينة يغزلن على ضوءها بالليل على سطح البيوت، وبقيت أياماً، وظن أهل المدينة أنها القيامة، وضجّوا إلى الله، وتواتر أمر هذه الآية، وكان ظهورها في جمادى الآخرة من وادٍ يقال له: وادي أحيليين[2] بالحاء المهملة والياء المثناة من تحت المكررة ثلاث مرات، وضم الهمزة في أوله في الحرة الشرقية تدب دبيب النمل إلى جهة الشمال، وتأكل ما أتت عليه من أحجار أو جبال، ولا تأكل الشجر حتى أنّ بعض غلمان الشريف منيف بن سبحة صاحب المدينة الشريفة يومئذٍ أرسله الشريف المذكور مع آخر ليختبرا هل يقدر أحد على القرب منها لكون الناس هابوها لعظمها؟ فذهبا إليها وقرّبا منها، فلم يجد لها حراً فأدخل الغلام المذكور سهماً له فيها، فأكلت النصل دون العود، ثم قلبه فيها وأدخله من جهة الريش، فأكلت الريش حسب.

وذكر بعض الناس أنّ علة عدم أكلها للشجر هي كونه صلّى الله عليه وآله وسلم حرّم شجر المدينة، وهذا الذي ذكره إنّما يصحّ لو كان السهم المذكور متخذاً من شجر حرم المدينة الشريفة، ولكن ما عهد أنّ السهام تتخذ من الحرم المذكور.

قلت: والذي ظهر، والله أعلم، أنّ هذه النار لما كانت آية في آيات الله العظام جاءت خارقة للعادة، مخالفة في تأثيرها للنار المعتادة، فإنّ النار المعهود منها أكل الخشب دون الحجر، فجاءت هذه العكس من تلك تأكل الحجر دون الخشب، وهذا أبلغ في الغزو أقوى في الأثر، والله أعلم، فكانت تثير كل ما مرت عليه حتى يصير سدّاً لا مسلك فيه لإنسان، ولا عابة حتى أنها سدت وادي الشطاه مسدّ عظيم بالحجر المبسوك بالنار، حتى قال بعض المؤرخين في معرض التعظيم له: ولا كسد ذي القرنين طولاً وعرضاً وارتفاعاً.

قلت: وهذا تساهل منه في مبالغة لا ينبغي أن يتساهل بمثلها، فإنّ الله تعالى قد أخبر أنّ ياجوج. وماجوج مع كثرتهم. وقوتهم ما استطاعوا له صعوداً ولا نقبا، وانقطع بسبب ذلك سيل وادي الشطاه، وانحبس عون السدّ المذكور، وكان يجتمع الماء خلفه حتى يصير بحراً له مدّ البصر عرضاً وطولاً، كأنه نيل مصر عند زيادته، ثم انخرق هذا السدّ من تحته في سنة تسعين وست مائة لتكاثر الماء خلفه، فجرى في الوادي المذكور سنة كاملة يملأ ما بين جنبي الوادي، وهذا الخرق المذكور ينقص ما ذكروا من تشبيهه بسدّ ذي القرنين، ثم انخرق

---

(١) حتى تخرج نار من أرض الحجاز البداية والنهاية ٩/ ٧٠.

(٢) وادي أجيلين البداية والنهاية ٩/ ٧١.

مرة أخرى في العشر الأول بعد السبع مائة، فجرى سنة كاملة، وأزيد، ثم انخرق في سنة أربع وثلاثين وسبع مائة، وكان ذلك بعد توتر أمطار عظيمة في الحجاز في تلك السنة، وكثر الماء وعلا من جانبي السدّ، ومن دونه مما يلي الجبل وغيره، فجاء سيل طام لا يوصف ومجراه ملاصق لقبة حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، وقيل: جبل عنيين بفتح العين المهملة وكسر النون بين المثناة من تحت الساكنين، وفي آخره نون.

قلت: ولعله الجبل الذي أمر صلى الله عليه وآله وسلم الرماة أن يقفوا عليه، وحفر السيل المذكور الدور، وأخر قتلى الجبل المذكور، وبقيت القبة والجبل المذكور أنّ في وسط السيل وتمادت مدة جريه قريباً من سنة.

قلت: وهذا السيل المذكور قد شاهدته، وأقمت عنده أياماً وليالي، وكشف عن عين قديمة قبل الوادي، فجددها الأمروديّ صاحب المدينة الشريفة.

وفي السنة المذكورة أوّل ليلة من رمضان ليلة الجمعة احترق المسجد الشريف النبويّ[1] بعد صلاة التراويح على يد فراش في الحرم الشريف عرف بأبي بكر المراغيّ لسقوط ذبالة[2] يده في المساق عن غير اختيار منه، حتى احترق هو أيضاً، واحترق جميع سقف المسجد الشريف، حتى لم يبق إلاّ السواري قائمة، وحيطان المسجد الشريف، والحائط الذي بناه عمر بن عبد العزيز حول حائط الحجرة الشريفة المجعول على خمسة أركان لئلا يصل إلى الضريح الطاهر الشريف، ووقع ما ذكرنا من الحريق بعد أن عجز عن إطفائه كل فريق.

ثم سقف المستعصم في سنة خمس من ذلك الحجرة الشريفة، وما حولها إلى الحائط القبلي، وإلى الحائط الشرقي إلى بابْ جبرائيل عليه السّلام المعروف قديماً بباب عثمان، ومن جهة المغرب إلى المنبر الشريف، ثم قتل الخليفة المستعصم في أول السنة السادسة، فوصلت الآلات من مصر من صاحبها يومئذٍ الملك المنصور على ابن الملك المعزّ الصالحيّ، ووصل أيضاً من صاحب اليمن يومئذٍ الملك المظفر يوسف بن عمر بن عليّ بن رسول الآت وأخشاب، فعملوا إلى باب السلام المعروف قديماً بباب مروان، ثم عزل صاحب مصر، وتولى مكانه مملوك أبيه الملك المظفر سيف الدين قطر سنة ثمان وخمسين، فكان العمل في تلك السنة من باب السّلام إلى باب الرحمة المعروف قديماً بباب عاتكة ابنة عبدالله بن زيد بن حارثة، كانت لها دار مقابل الباب، فنسب إليها ومن باب جبرائيل إلى باب النساء المعروف قديماً بباب ريطة ابنة أبي العبّاس السفّاح، وتولّى مصر آخرتلك السنة

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ٧٦.
(٢) ذبالة: الفتيلة (ج) ذُبال.

الملك الظاهر ركن الدين الصالحيّ، فعمل في أيامه باقي المسجد الشريف، ولما احترق المنبر المذكور أرسل الملك المظفر صاحب اليمن في سنة ست وخمسين بمنبر عمله، فوضع موضع منبر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يزل إلى سنة ستّ وستّين وستّ مائة يخطب عليه وزبنتاه من الصندل، فأرسل الملك الظاهر هذا المنبر الموجود اليوم، فقلع منبر صاحب اليمن، وحمل إلى حامل الحرم، وهو باقٍ إلى اليوم، ونصب هذا مكانه وطوله أربعة أذرع، ومن رأسه إلى عينيه سبعة أذرع يزيد قليلاً، وعدد درجاته سبع بالمقعد، وبين المنبر ومصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أربع عشرة ذراعاً وشبر، وبين القبر الشريف المحفوف بالنور، وبين المنبر المشرف المذكور ثلاثة وخمسون ذراعاً، وبين المصلّى المبارك المذكور، وبين آخر مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القديم المشكور على ما ذكره الحافظ أبو الحسن رزين بن معاوية بن عمران العبدريّ الأندلسيّ في كتابه في ذكر دار الهجرة، فإنه ذكر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زاد في مسجده زيادتين، الزيادة الأخيرة بلغت فيها مساحته منها مائة ذراع، وجعل عرضه كطوله في الإتساع قلت: هذا ما اقتصرت عليه تنبيهاً على ما يحتاج إليه.

وفي سنة أربع وخمسين التي وقع في الحريق المذكور، وظهور النار المذكورة، وكان غرق بغداد بزيادة دجلة زيادة ما سمع بمثلها، وغرق خلق كثير، ووقع شيء كثير من الدور على أهلها، وأشرف الناس على الهلاك، وغرقت المراكب في أزقة بغداد، وركب الخليفة في مركب، وابتهل الخلق إلى الله تعالى بالدعاء.

وفيها ملكت التتار سائر الروم بالسيف.

وفيها توفي شيخ الطريق العارف بالله ذو التحقيق عبدالله بن محمد الرازي الصوفيّ، سمع الكثير من جماعة، وصحب الشيخ نجم الدين الكبريّ، وهو من شيوخ الدمياطيّ.

وفيها توفي الشيخ الكبير الشأن أو الجدّ والاجتهاد والأحوال عيسى بن أحمد الجوينيّ صاحب الشيخ عبد الله بن أحمد، المتقدم ذكره، كان صوّاماً قوّاماً متبتلاً قانتاً، منقطع القرين، حسن العيش في مطعمه وملبسه يقال له: سلاب الأحوال بجدة فيه مع ذلك.

وفيها توفي الكمال أبو البركات المبارك بن حمدان الموصلي مؤلف عقود الجمان في شعراء الزمان.

وفيها توفي العلاّمة الواعظ المؤرخ شمس الدين أبو المظفر يوسف التركيّ ثم البغداديّ المعروف بابن الجوزيّ[1] سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزيّ، أسمعه جده منه

(١) انظر وفيات الأعيان ٣/١٤٢.

ومن جماعة، وقدم دمشق سنة بضع وست مائة، فوعظ بها وحصل له القبول العظيم للطف شمائله وعذوبة وعظه، وله تفسير في تسعة وعشرين مجلداً، وشرح الجامع الكبير، وجمع مجلداً في مناقب أبي حنيفة رضي الله عنه، ودرس وأفتى، وكان في شبيبته حنبلياً، ولم يزل وافر الحرمة عند الملوك.

سنة خمس وخمسين وست مائة

وفيها قتل صاحب مصر الملك المعزّ التركمانيّ، وكان ذا عقل ودين، ثم أقاموا بعده ابنه الملك المنصور سلطاناً، وكان قتل الملك المعزّ في الحمّام. قتله أمّ خليل الآتي ذكرها غيرة لما خطب ابنة صاحب الموصل فقتلوها.

وفيها توفيت أمّ خليل المذكورة شجرة الدرّ[1] كانت بارعة الحسن ذات عقل ودهاء، وأحبّها الملك الصالح، ولما توفي أخفت موته، وكانت تعلم بخطها علامته، ونالت من سعادة الدنيا أعلى الرتب بحيث أنّه خطب لها على المنابر، وملكوها عليهم أياماً، فلم يتمّ ذلك، وتملك المعزّ المذكور، فتزوج بها، وكانت ربما تحكم، وكانت تركية ذات شهامة واقدام وجرأة، وآل أمرها إلى أن قتلت تحت قلعة مصر مصلوبة، ثم دُفنت بتربتها.

وفيها توفي العلاّمة القدوة نجم الدين أبو عبدالله محمّد بن عبدالله بن محمّد بن أبي الشافعيّ الفرضي سمع من جماعة، وبرع في المذهب، ودرس بالنظامية، ثم ترسل عن الخلافة غير مرّة، وبنى بدمشق مدرسة كبيرة، وولّي في آخر عمره قضاء العراق خمسة عشر يوماً، ثم مات، وكان متواضعاً دمث الأخلاق سرياً محتشماً.

وفيها توفي الإمام العلاّمة شرف الدّين أبو عبدالله محمّد بن عبدالله بن محمّد بن أبي الفضل السلميّ الأندلسيّ المحدث المفسر النحويّ، رحل إلى أقصى خراسان، وسمع الكثير، ورأى الكبار، وكان جماعة لفنون العلم ذكياً ثاقب الذهن صاحب تصانيف كثيرة مع زهد وورع وفقر وتعفف.

سنة ست وخمسين وست مائة

فيها دخلت التتار بغداد، ووضعوا السيف، واستمر القتل والسبي نيّفاً وثلاثين يوماً فقلّ من نجا، فيقال: إن القتلى بلغوا ألف ألف وثمان مائة وكسراً، وسبب دخولهم أنّ الملك المؤيد ابن العلقميّ كاتبهم وحرضهم على قصد بغداد لأجل ما جرى على اخوانه الرافضة من النهب والخزي، وظن النفيس أنّ الأمر يتمّ وأنه يبقى خليفة علوياً، وكان

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ٧٨ ـ ٧٩.

يكاتبهم سرّاً، ولا يسهل لهم الأمر، ولا يدع المكاتبات تصل إلى الخليفة ممن يرفع إليه الأعلام، فخاف فأشار الوزير ابن العلقميّ على المعتصم بالله أني أخرج إليهم في تقرير الصلح، فخرج الخبيث، وتوثق لنفسه بالأمان، ورجع، فقال للخليفة: إنّ الملك قد رغب في أن يزوّج ابنته بابنك الأمير أبي بكر، وأن يكون الطاعة له كما كان أجدادك مع الملوك السلجوقية، ثم ترحل، فخرج إليه المعتصم في أعيان الدولة، ثم استدعى الوزير العلماء والرؤساء ليحضروا العقد بزعمه وكيده، فخرجوا، فضربت رقاب الجميع، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة، فتضرب أعناقهم حتى بقيت الرعية بلا راعٍ، وقتل من أهل الدولة وغيرهم ما قتل من العدد المذكور.

وفيها توفي أبو الفضل زُهَير بن محمّد المهلبيّ[١] الكاتب، كان من فضلاء عصره، وأحسنهم نظماً ونثراً وخطّاً، ومن أكثرهم مروءة، وكان قد اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح ابن أيّوب ابن الملك الكامل في خدمته إلى البلاد الشرقية، وأقام بها إلى ملك الملوك الصالح دمشق، فانتقل إليها في خدمته. قال ابن خلكان: وكنت أسمع به، حتى اجتمعت به قرابته فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق وكثرة الرياضة ودماثة السجايا، وكان الاجتماع في القاهرة لما رجع الملك الصالح إلى الديار المصرية، وكان لا يتوسط عنده إلاّ بخير، فنفع خلقاً كثيراً بحسن وساطته، وجميل سفارته. وله شعر.

قال ابن خلكان: وكل شعره لطيف، وذكر شيئاً منه في تاريخه، ولكن للاختصار والتخفيف لم أكتب شيئاً منه، ولا أعجبني ولا قوي عزمي الضعيف.

وفيها توفي أبو العبّاس القرطبي أحمد بن عمر الأنصاري المالكيّ المحدّث نزيل اسكندرية، كان من كبار الأئمة، سمع بالعرب من جماعة، واختصر للصحيحين وصنّف كتاب المفهم في شرح مختصر صحيح مسلم.

وفيها توفي الحافظ أبو عليّ الحسن بن محمّد بن محمّد بن محمّد بن محمد ببغداد هذا الاسم الشريف خمس مرات ابن عمروك التيميّ البكريّ النيسابوري، ثم الدمشقيّ الصوفيّ، سمع بمكة، ودمشق، وخراسان، وأصفهان، وكتب الكثير، وجمع، وصنف، وشرع في مسودة ذيل على تاريخ ابن عساكر، وولّي مشيخة الشيوخ، وحسبة دمشق، وعظم شأنه في دولة المعظّم، ثم تضعضع شأنه وابتلى بالفالج في آخر عمره، ثم تحوّل إلى مصر، فتوفي بها.

وفيها توفي الشرف الإربل العلاّمة الحسين بن إبراهيم الهمدانيّ الشافعيّ اللغويّ سمع

(١) انظر وفيات الأعيان ٢/ ٣٣٢ ـ ٣٣٨. والبداية والنهاية ٩/ ٩٧.

من طائفة، وحفظ خطب ابن نباتة، وديوان المتنبي ومقامات الحريري.

وفيها توفي الملك الناصر داود ابن المعظم ابن العادل[1] صاحب الكرك صلاح الدين، أجاز له المؤيد الطوسيّ، وسمع ببغداد، وكان حنفياً فاضلاً مناظراً ذكياً بصيراً بالأدب بديع النظم ملك دمشق بعد أبيه، ثم أخذها منه عمّه الأشرف فتحول إلى مدينة الكرك[2]، فملكها احدى وشعرين سنة، ثم عمل عليه ابنه وسلمها إلى صاحب مصر الملك الصالح، وزالت مملكته، وكان جواداً ممدحاً.

وفيها توفي المعتصم بالله عبد الملك بن المستنصر بالله العبّاسي أخو الخلفاء العراقيين، وكانت دولتهم خمس مائة سنة، وأربعاً وعشرين سنة، وكان حليماً كريماً سليم الباطن، قليل الرأي، حسن الديانة، مبغضاً للبدعة، سمع وأجيز له، ثم رزق الشهادة في دخول التتار بغداد على ما تقدم. لما ظفر به ملكهم أمر به وبولده أبي بكر، فرفسا حتى ماتا، وبقي الوقت بلا خليفة ثلاث سنين.

وفيها توفي الحافظ الكبير زكيّ الدين عبد العظيم بن عبد القويّ المنذريّ الشاميّ ثم المصريّ الشافعيّ صاحب التصانيف، وله معجم كبير مروي، ولّي مشيخة الكاملية مدة، وانقطع بها مدة نحواً من عشرين سنة مكبّاً على العلم والإفادة، وكان ثبتاً حجة، متبرعاً متبحراً في فنون الحديث، عارفاً بالفقه والنحو مع الزهد والورع والصفات الحميدة.

وفيها توفي الشيخ الكبير العارف بالله الخبير الفقيه الإمام، علم العلماء بالله الأعلام، معدن الأسرار وبحر العلوم الجمّة المودع دُرر المعارف. وجواهر الحكمة الممنوع رفيع المقامات والأحوال السنية، المشهور بعظيم الكرامات والمناقب العلية. المعترف له بكثرة العلوم. المشهود له بالقطبية جامع الفضائل والمفاخر والمحاسن، وعلوم الشريعة والحقيقة الظواهر والبواطن، الذي نافت علومه على مائة علم وعشرة، ولم يدخل في الطريقة حتى كان بعد للمناظرة الناشر على الكون جلة كمال محاسن الطريقة، والناثر على الوجود يواقيت معارف أسرار الحقيقة المشرقات شموس معارفه غياهب الظلم الناطق لسان حاله بالعبر، ولسان مقاله بالحكم. صاحب الفتح الجليل، والمنهج الجزيل والمنصب العالي، أستاذ العارفين، ودليل السالكين أبو الحسن الشاذلي عليّ بن عبدالله بن عبد الجبّار الشريف الحسيب النُسيب الحسني قدّس الله تعالى روحه، وسقي بماء الرحمة ضريحه، وما نسبة القطرة من ماء البحر الزاخر، عند تعداد ما جرى من الفضائل والمفاخر.

---

(١) انظر وفيات الأعيان ٣/٤٩٦.

(٢) الكرك: اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. معجم البلدان ٤/ ٥١٤.

وقال الشيخ الإمام العارف بالله تاج الدين بن عطاء الله: قيل للشيخ أبي الحسن من هو شيخك يا سيدي؟ فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السّلام بن مشيش. بالشين المعجمة المكررة وبينهما مثناة من تحت، وفتح الميم في أوله، ثم قال: وأنا الآن لا أنتسب لأحد بل أعوم في عشرة أبحر. خمسة من الأدميين النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأبي بكر، وعُمر، وعثمان، وعليّ، وخمسة من الروحانيين جبرائيل وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل، والروح وقال تلميذه الشيخ الكبير إمام العارفين، ودليل السالكين مظهر الأنوار ومقرّ الأسرار السامي إلى الجناب القدسّي عالي المقامات، وعالي الكرامات أبو العبّاس المرسي رضي الله تعالى عنه: جلت في ملكوت الله، فرأيت أبا مدين متعلقاً بساق العرش، وهو رجل أشقر أزرق العينين، فقلت له: ما علومك وما مقامك؟ فقال: أما علومي، فأحد وسبعون علماً، وأما مقامي، فرابع الخلفاء، ورأس السبعة الأبدال قلت: فما تقول في شيخي أبي الحسن الشاذلي؟ فقال: زاد عليّ بأربعين علماً، وهو الذي لا يُحاط به.

وقال الشيخ أبو الحسن المذكور: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يقول: «**يا علي طهّر ثيابك من الدنس تحظ بمدد الله في كل نفس**» قلت: يا رسول الله، وما ثيابي؟ فقال: اعلم أن الله تعالى قد خلع عليك خمس خلع، خلعة المحبة، وخلعة المعرفة وخلعة التوحيد، وخلعة الإيمان، وخلعة الإسلام، ومن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن عرف الله صغر في عينه كل شيء، ومن وحّد الله لم يشرك به شيئاً، ومن آمن بالله آمن من كل شيء، ومن أسلم لله لم يعصه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره، ففهمت عند ذلك معنى قوله عز وجل: وثيابك فطهر. انتهى كل هذا مما رواه الشيخ تاج الدين بن عطاء الله المذكور في مناقبه.

وذكره الشيخ المشكور العارف المشهور صفيّ الدين بن أبي منصور في رسالته، وأثنى عليه الثناء العظيم، وذكره الشيخ الإمام السيّد الجليل شيخ الحديث في زمانه قطب الدّين ابن الشيخ الإمام العارف بالله أبي العبّاس القسطلاني في مشيخته.

وذكره الشيخ الإمام الكبير الشأن أبو عبدالله النّعمان، وشهد له بالقطبية.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله المذكور: أخبرني الشيخ العارف مكين الدّين الأسمر، قال: حضرت المنصورة في خيمة فيها الشيخ الإمام مفتي الأنام عزّ الدّين بن عبد السّلام، والشيخ مجدد الدّين عليّ بن وهب القشيريّ المدرّس، والشيخ محيي الدّين بن سراقة، والشيخ مجد الدين الأخميميّ، والشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنهم أجمعين، ورسالة القشيريّ تقرأ عليهم، وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن

فرغ كلامهم، فقالوا: يا سيدي نريد أن نسمع منك، فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه، وقد تكلمتم، فقالوا: لا بد أن نسمع منك. قال: فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلّم بالأسرار العجيبة، والعلوم الجليلة، فقال الشيخ عز الدين وقد خرج من صدر الخيمة، وفارق موضعه: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله تعالى. انتهى.

قلت: اسمع أنت أيها الواقف على هذا الكتاب كلام هذا الإمام الهمام علم العلماء الأعلام، العارف بالله رفيع المقام عزّ الدّين بن عبد السّلام، وكلام السادة المذكورين الأولياء المشكورين، والعلماء المشهورين في تعظيمهم الشيخ أبا الحسن، ومدحهم له، وثنائهم عليه، واشاراتهم إليه، وكلام الحشوية في إنكارهم عليه وطعنهم فيه.

وقول بعض أهل الشام في تاريخه: الشيخ أبو الحسن الشاذلي عليّ بن عبدالله بن عبد الجبّار المغربيّ الزاهد، شيخ الطائفة الشاذلية، سكن الاسكندرية، وصحبه بها جماعة، وله عبارات في التصوف مشكّلة يوهم ويتكلف له في الاعتذار عنها فهل ترجمته هذه مدح له؟ كلاّ، بل هي في الحقيقة قدح فيه، وغض من جميل صفاته، وخفض لعلوّ منزلته، ورفيع درجاته، وانتقاص لعظم شرف جلالة قدره، وانزال ما على الثريا من علا معالي فخره في تخوم ثرى أرض سماء عليا فضله. كم هي عادته في وضع أوصاف الأكابر مثله في الشيوخ الصوفية العارفين بالله أولي النور الزاهر؟ واجلال العلماء الأعلام من الأئمة الأشعرية المحققين أهل الحقّ الظاهر، ورفع أوصاف الأئمة الحشوية الحامدين على الظواهر، ولا يصح الاعتذار عنه يكون كتابه الذي ذكر في ترجمة الشيخ المذكور مختصر الوجهين.

أحدهما أنه قد أطنب فيه بمدح كثيرين، ورفع أوصافهم ممن ذكرت والثاني أنه يمكن مع اختصار الكلام التفخيم في الوصف بذكر بعض المناقب العظام ألا ترى إلى وصفه الشيخ المذكور بقوله: الزاهد وكذلك يفعل في غيره من أكابر الصديقين والمقربين والأئمة الهداة العارفين ينابيع الأسرار ومطالع الأنوار كسيدي أحمد بن الرفاعي وغيره من أئمة العارفين السادة يقتصر في مدح الواحد منهم على الزهد الذي هو مبادىء سلوك أهل الإرادة فهلا أبدل لفظ الزاهد بالعارف، أو الإمام، أو المرشد، أو المربّي، أو الربّاني أو المقرب، أو الصفوة وما أشبه ذلك، وما المانع من زيادة ألفاظ يسيرة؟ مثل الشيخ العارف بحر المعارف، أو إمام الطريقة ولسان الحقيقة وأستاذ الأكابر الجامع بين علمي الباطن والظاهر، أو نحو ذلك من الألفاظ اليسيرة المتضمنة لقطرة من بحر فضائلهم الشهيرة.

وكذلك قوله في عباراته: إنها توهم وإنه يتكلف له في الاعتذار عنها أين قوله هذا من قول الإمام المتفق على الإجلال له، والاعظام وجلالة مناقبه العظام عزّ الدين بن عبد السّلام المتقدم ذكره لما تكلم الشيخ أبو الحسن، وكشف الخمار عن محاسن المعارف والأسرار؟

وكذلك أين قوله المذكور، وترجمته المذكورة عنه من قول الشيخ العارف الفقيه الإمام المشكور المشهور صاحب السرّ المودع، والفتح والمعارف والنوراني سليمان داود الاسكندراني تلميذ الشيخ الكبير الإمام الشهير العارف بالله الخبير تاج الدّين بن عطاء الله المتقدم ذكره في ترجمته عنه؟ حيث قال في ذكر بعض أوصافه: هو السيد الأجلّ، الكبير القطب، العارف الوارث، المحقق الربّاني، صاحب الاشارات العلية، والعبارات السنية، والحقائق القدسية، والأنوار المحمدية والأسرار الربّانية، والهمم العرشية، والمنازلات الحقيقية. الحامل في زمانه لواء العارفين، والمقيم فيه دولة علوم المحققين كهف قلوب السالكين، وقبلة همم المُريدين، وزمزم أسرار الواصلين، وجلاء قلوب الغافلين، منشىء معالم الطريقة بعد خفاء آثارها، ومبدىء علوم الحقيقة بعد خبوء أنوارها، ومظهر عوارف المعارف بعد خفائها واستتارها الدال على الله تعالى، وعلى سبيل جنته والداعي على علم وبصيرة إلى جنابه وحضرته. أوحد أهل زمانه علماً وحالاً ومعرفةً ومقالاً، الشريف الحبيب النسيب المحمديّ العلويّ الحسنّي الفاطميّ الصحيح النسبين، والكريم الطرفين، فحل الفحول، إمام السالكين علي الشاذلي الذي يغنيك سمعته عن مديح ممتدح، أو قول منتحل جاء في طريق الله بالأسلوب العجيب، والمنهج الغريب، والمسلك العزيز القريب. قلت: هذا بعض وصفه الذي ذكرت فيه شيئاً من أوصافه اقتصرت عليه رغبة في الاختصار، وفي بعضه كفاية ذوي الاستبصار.

ومن كلامه رضي الله تعالى عنه قوله: إذا جالست العلماء، فجالسهم بالعلوم المنقولات، والروايات الصحيحة. إمّا أن تفيدهم، أو تستفيد منهم، وذلك غاية الربح معهم، وإذا جالست العباد والزهّاد، فاجلس معهم على بساط الزهد والعبادة، وحلّ لهم ما استمرروه، وسهّل عليهم ما استوعروه، وذوقّهم من المعرفة ما لم يذوقوه. وإذا جالست الصديقين، ففارق ما تعلم ولا تنتسب بما تعلم تظفر بالعلم المكنون، وبصائر أجرها غير ممنون.

وقوله: والمحبة أخذة من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلة إلى طاعته، والعقل متحصناً بمعرفته، والروح مأخوذاً في حضرته، والسرّ معموراً في مشاهدته والعبد يستزيد فيزاد ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته، فيكسي حلل التقريب على بساط القربة، ويمسّ أبكار الحقائق وثيبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا: أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس المجرمون.

وقال: له قائل: قد علمت الحبّ، فما شراب الحبّ؟ وما كأس الحبّ؟ ومن الساقي؟ وما الذوق؟ وما الشرب؟ وما الريّ وما السكر وما الصحو؟ قال رضي الله تعالى عنه:

الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب، والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب، والساقي هو المتولّي الخصوص الأكبر والصالحين من عباده، وهو الله العالم بالمقادير ومصالح أحبائه، فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظي بشيء منه نفساً أو نفسين. ثم أرخى عليه الحجاب، فهو الذائق المشتاق ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين، فهو الشارب حقاً، ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة، فذلك هو الريّ، وربّما غاب عن المحسوس والمعقول، فلا يدري ما يقال ولا ما يقول فذلك هو السُكر، وقد يدور عليهم الكاسات، وتختلف لديهم الحالات، ويردون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون عن الصفات، مع تزاحم المقدورات، فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم ومزيد علمهم، فهو نجوم العلم، وقمر التوحيد يهتدون في ليلهم، وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم، ﴿أولئك حزب الله إلاّ أنّ حزب الله هم المفلحون﴾.

وله من الكرامات من المكاشفات وغيرها ما لا يحتمل ذكره هذا الكتاب من ذلك ما ذكره تلميذ الشيخ أبو العباس المرسي المتقدم ذكره، قال: خرجتُ من المدينة الشريفة لزيارة قبر عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حمزة رضي الله عنه، فلما كنت في أثناء الطريق تبعني إنسان، فلما وصلنا لقينا باب القبّة مغلقاً، ثم انفتح لنا ببركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فدخلنا فلقينا عنده رجل يدعو، فقلت لرفيقي، هذا من الإبدال، والدعاء في هذه الساعة مستجاب، فدعا إلى الله تعالى أن يرزقه ديناراً وسألت الله أن يعافيني من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة، فلما رجعنا وقربنا بالمدينة لقينا إنساناً، فأعطى رفيقي ديناراً، فلما دخلنا المدينة. وقع نظر الشيخ أبي الحسن علينا، فقال لرفيقي: يا خسيس الهمّة صادفت ساعة اجابة، ثم صرفتها إلى دينار هلا كنت مثل أبي العباس سأل الله تعالى أن يعافيه من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة وقد فعل له ذلك؟ قلت: هذا معنى ما روي عنه، وإن لم تكن جميع ألفاظها بعينها.

ومن ذلك ما اشتهر أنه لما دفن بحميراً عذب ماؤها بعد أن كان ملحاً، وهي صحراء عيذاب، وتوفي فيها متوجهاً إلى بيت الله الحرام، وقبره هناك مشهور مزور على ممر الأيام، والشيخ أبو الحسن الشاذلي المذكور مبدأ ظهوره بشاذلة على القرب من تونس.

قال الشيخ تاج الدّين بن عطاء الله: لم يدخل في طريق القوم، حتى كان يعد للمناظرة، وكان متضلعاً بالعلوم الظاهرة، جامعاً لفنونها عن تفسير وحديث ونحو وأصول وآداب، وكانت له السياحات الكثيرة، ثم جاءه بعد ذلك العطاء الكثير والفضل الغريز، واعترف بعلوّ منزلته من عاصره من أكابر العلماء والأولياء العارفين بالله تعالى، وهذا ما

اقتصرت عليه من ترجمته.

وفي السنة المذكورة توفي الشيخ الجليل صاحب الأحوال والكرامات الشيخ عليّ المعروف بالخبّاز أحد مشايخ العراق قُتل شهيداً.

وفيها توفي المقرىء العلاّمة محمّد بن أحمد الموصليّ الحنبليّ الذي اختصر الشاطبية، كان شاباً فاضلاً صالحاً محققاً، توفي بالموصل وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

وفيها توفي الإمام أبو عبدالله محمّد بن الحسن المغربيّ المقرىء صنّف شرح شاطبية، قرأ على رجلين قرأ على الشاطبي، وكان فقيهاً بارعاً عارفاً متفنناً متين الديانة جليل القدر تصدّر للإقراء بحلب مدة.

وفيها توفي الوزير الرافضيّ ابن العلقمي المتقدم ذكره محمّد بن محمد الملقب مؤيد الدين[1]، ولّي وزارة العراق أربع عشرة سنة، وكان ذا حقد وغل على أهل السنّة، قرر مع التتاز أموراً كانت سبب دخولهم بغداد، ثم انعكس حاله وأكل يده ندماً، وبقي بعد تلك الرتبة الرفيعة في حالة وضيعة، وصاحت امرأة به وهو مارّيا ابن العلقمي أهكذا كنت في أيام أمير المؤمنين؟ وولّي مع غيره وزارة التتار على بغداد بطريق الشركة، ثم مرض بعد قليل، ومات غماً وتعباً.

وفيها توفي الشيخ الصالح القدوة أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصريّ، الأصل البغداديّ الضرير، وكان إليه المنتهى في معرفة اللغة وحسن الشعر، وديوانه مشهور ومدائحه سائرة قيل، إنه قتل بعض التتار بعكازة، ثم استشهد.

وفيها توفي سفير الخلافة محيي الدّين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج عبد الرحمن[2] المعروف بابن الجوزيّ، كان أستاذ دار المعتصم، كثير المحافظة، قوي المشاركة في العلوم، وافر الحشمة ضربت عنقه هو وأولاده.

سنة سبع وخمسين وست مائة

فيها قبض غلمان المعز على ابن أستاذه الملك المنصور، وتسلطن ولقّب بالملك المظفر لحاجة الوقت إلى ملك كاف.

وفيها توفي المُحدث المعمّر أبو العبّاس أحمد بن محمّد الفارسيّ نزيل القاهرة، وكان صالحاً عالماً خيّراً، روى بالإجازة العامة عن أبي الوقت.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/٩٦.

(٢) توفي في وقعة التتر قتيلاً سنة ثلاث وخمسين وستمائة وفيات الأعيان ٣/ ١٤٢.

وفيها توفي صاحب الموصل الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ[١] الأرمني مملوك نور الدين أرسلان شاه، كان مدير دولة أستاذه، ثم آل أمره إلى أن استقل بالسلطنة، وكان حازماً شجاعاً مدبراً خبيراً.

سنة ثمان وخمسين وست مائة

في ثاني صفر منها نزل ملك التتار على حلب[٢]، فلم يصبح عليهم الصباح إلاّ وقد حفروا عليهم خندقاً عمق قامة، وعرض أربعة أذرع، وبنوا حائطاً ارتفاع خمسة أذرع، ونصبوا عشرين منجنيقاً، وألحوا بالرمي، وشرعوا في نقب السور، وفي تاسع صفر ركبّوا الأسوار، ووضعوا السيف يومهم، ومن الغدّ، فقتل أمم وأسر خلق، وبقي القتل والسبي خمسة أيام، ثم نودي برفع السيف، وأذّن مؤذّن يوم الجمعة بالجامع، وأقيمت الجمعة بأناس، ثم حاطوا بالقلعة فحاصروها، ووصل الخبر يوم السبت إلى دمشق، فهرب أناس، ثم حملت مفاتيح الحماة إلى الطاغية المذكورة، واسمه هولا، وحاصرت التتار دمشق، ورموا برج الطارمه بعشرين منجنيقاً، فتشقق، وطلب أهلها الأمان فلبّوهم، وسكنها النائب كنيعاً، وتسلموا بعلبك وقلعتها، وأخذوا نابلس ونواحيها بالسيف، ثم ظفروا بالملك، فأخذوه بالأمان، وصاروا به إلى ملكهم فرعى له محبته وبقي في خدمته أشهراً، ثم قطع العزلة راجعاً، وترك بالشام فرقة من التتار، وتأهّب المصريون وشرعوا في المسير، وثارت النصارى بدمشق، ورفعت رؤوسها، ورفعوا الصليب ومرّوا به، وألزموا الناس القيام له من حوانيتهم، ووصل جيش الإسلام للملك المظفر، فالتقى الجمعان على عين جالوت غربي بيسان[٣]، ونصر الله دينه الظاهر على سائر الأديان، والحمد لله للطيف المنّان، وقتل في المصاف مقدم التتار كنيعاً، وطائفة من أمراء المغل، ووقع بدمشق النهب والقتل في النصارى، وأحرقت كنيسة مريم، وذلك في أواخر رمضان، وعيّدَ المسلمون على خير عظيم، فلما رجع الملك المظفر بعد شهر إلى مصر أضمر شراً لبعض أهل الدولة وآل الأمر إلى أن رماه بهادر المغربي بسهم قضى عليه بقرب قطبة، وتسلطن ركن الدين الملك الظاهر، وكان قد ساق وراء التتار إلى حلب، وطمع في أخذ حلب، وقال: وقد وعده بها ملك المظفر، فلما رجع أضمر له الشرّ، وخلف الأمراء بدمشق لنائبها علم الدين الحلبيّ،

---

(١) كانت وفاته في شعبان سنة ست وخمسين وستمائة. عن مائة سنة البداية والنهاية ٩/ ٩٧. كذلك انظر وفيات الأعيان ١/ ١٨٤.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/ ١٠١.

(٣) بَيْسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، ويقال هي لسان الأرض، وهي بين حوران وفلسطين معجم البلدان ١/ ٦٢٥.

ولقّب الملك المجاهد، وخطب له بدمشق مع الملك الظاهر، وفي آخر السنة كرّت التتار على حلب فأخذوها.

وفيها توفي قاضي القضاة صدر الدّين أحمد بن يحيى بن هبة الله الدمشقيّ الشافعيّ، والملك المعظم ابن السلطان الكبير صلاح الدين، والملك السعيد حسن بن عبد العزيز، وعثمان ابن العادل صاحب صينية[1] وبانياس تملك بعد أخيه الملك الظاهر، فأخذ الصينية منه الملك الصالح، وأعطاه أمرة مصر، فلما قتل المعظم بن الصالح ساق إلى غزة، وأخذ ما فيها وأتى الصينية فتملكها، وكان بطلاً شجاعاً قاتل يوم عين جالوت، فلما انهزمت التتار جاء إليه الملك المظفر، فضرب عنقه، والملك المظفر سيف الدين قطر. بالقاف والطاء المهملة والزاي فالمربى، كان بطلاً شجاعاً دّيناً مجاهداً انكسرت التتار على يده، واستعاد منهم الشام، وكان أتابك الملك المنصور على ولد أستاذه، فلما رآه لا يغني شيئاً عزله، وقام في السلطنة.

وفيها توفي الشيخ الفقيه الإمام الحافظ محمّد بن أحمد الجويني، لبس الخرقة من الشيخ عبدالله البطائحيّ، عن الشيخ عبد القادر، ورثاه الشيخ عبدالله الجويني، وكان عالماً زاهداً خاشعاً قانتاً، عظيم الهيبة، مليح الصورة، حسن السمت والوقار.

وفيها توفي الحافظ العلاّمة أبو عبدالله محمّد بن عبدالله القضاعيّ الكاتب الأديب، أحد أئمة الحديث، قرأ القراءات، واطلع على الأثر، وبرع في البلاغة والنظم والنثر، وكان ذا جلالة ورياسة. قتله صاحب تونس ظلماً.

وفيها توفي الملك الكامل ناصر الدين محمّد ابن الملك المظفر غازي ابن الملك العادل؛ كان عالماً فاضلاً شجاعاً عادلاً محسناً إلى الرعيّة ذا عبادة وورع، لم يكن في بيته من يضاهيه حاصرته التتار عشرين شهراً حتى فني أهل البلد بالوباء والقحط، ثم دخلوا وأسروه، فضرب ملكهم عنقه، وطيف برأسه، ثم علق على باب الفراديس بعد أخذ حلب، ثم دفنه المسلمون بمسجد الرأس داخل الباب.

وفيها توفي ابن قوام الشيخ الكبير أبو بكر ابن قوام البالسيّ، كان زاهداً عابداً قدوة صاحب حال، وكشف وكرامات، وله رواية.

سنة تسع وخمسين وست مائة

في أولها اجتمع خلق من التتار، فأغاروا على حلب، ثم ساقوا إلى حمص لما بلغهم

---

(١) صبيبة البداية والنهاية ١٠٨/٩.

مصرع الملك المظفر، فصادفوا على حمص الأشرف صاحب حمص والمنصور صاحب حماة، وحسام الدين في ألف وأربع مائة والتتار في ستة آلاف، فالتقوهم، وحمل المسلمون حملة صادقة، وكان النصر والحمد لله، ووضعوا السيف في الكفار قتلاً حتى أبادوا أكثرهم، وهرب مقدمهم بأسوأ حال، ولم يقتل من المسلمين سوى رجل واحد، ودخل علم الدين الحلبي الملقب بالملك المجاهد قلعة دمشق ، فنازله عسكر مصر، فبرز إليهم وقاتلهم، ثم ردّ فلما كان في الليل هرب، وقصد قلعة بعلبك، فقضى بها فقبض عليه علاء الدين الوزيري، وقيده، ثم حبسه الملك الظاهر مدة طويلة.

وفي رجب منها بويع بمصر المستنصر بالله أحمد بن الظاهر محمّد بن الناصر لدين الله العباسيّ الأسود، وفوض الأمور إلى الملك الظاهر، ثم قدما دمشق، فعزل عن القضاء نجم الدين بن سني الدولة، وولّي مكانه الإمام العلاّمة أبو العبّاس ابن خلّكان، ثم سار المستنصر ليأخذ بغداد ويقيم بها ، فوقعت بينه وبين التتار الذين في العراق مصاف، فعدم المستنصر في الوقعة.

وفيها توفي الإمام القدوة الحافظ العارف سيف الدين أبو المعالي سعيد بن المظفر الباخرزي صاحب الشيخ نجم الدين الكبريّ، وكان إماماً في السنة رأساً في التصوف.

وفيها توفي الملك الظاهر غازي شقيق السلطان الملك الناصر، يوسف وأمهما تركية، كان شجاعاً جواداً، قتل مع أخيه بين يدي الطاغية الكافر ملك التتار.

وفيها توفي ابن سيّد الناس الخطيب الحافظ محمد بن أحمد الإشبيليّ، وعني بالحديث، فأكثر وحصل الأصول النفيسة، وختم به معرفة الحديث بالمغرب. توفي بتونس في رجب.

وفيها توفي الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز بن الظاهر[1] ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب سلطنوه بعد أبيه، وهو ابن سبع سنين، ودبر المملكة شمس الدين لؤلؤ، والأمر كله راجع إلى جدته الصاحبة صفية ابنة العادل أخت الملك الكامل لأجل هذا سكت عنها، فلما ماتت استقل واشتغل عنه بعمه الملك الصالح، وعمره إذ ذاك نحو أربع عشرة سنة، ثم أخذ عسكره له حمص، ثم سار هو، وتملك دمشق، ودخل بابنة السلطان علاء الدين صاحب الروم، وكان حكيماً جواداً مؤطأ الأكناف، حسن الأخلاق فيه بعض عدل مع ملابسة الفواحش على ما قيل، وكان للشعراء دولة في أيامه لأنه كان يقول

(١) قتل في الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين وستمائة بالقرب من المراغة وفيات الأعيان ١٠/٤.

بالشعر، ويجيز عليه، ثم عمل عليه حتى وقع في قبضة التتار، وذهبوا به إلى ملكهم هولا فأكره، فلما بلغه كسر جيشه على عين جالوت غضب، وتنمّر وأمر بقتله فتذلل له، فأمسك عن قتله، فلما بلغه كسر جيشه مرة أخرى استشاط عدو الله، وأمر بقتله، وقتل أخيه الظاهر، وكان شاباً حسن الشكل، مليح الخلق.

سنة ستين وست مائة

فيها أخذت التتار الموصل بخديعة بعد حصار أشهر، وضعوا السيف في المسلمين تسعة أيام، وأسروا صاحبها الملك الصالح إسماعيل، ثم قتلوه بعد أيام، وقتلوا ولده علاء الملك.

وفيها عدم المستنصر بالله أحمد بن الظاهر بأمر الله العباسي الأسود قدم مصر، وعقدوا له مجلس فائد يؤانسه، ثم بدأ الملك الظاهر بمبايعته، ثم الأعيان على مراتبهم، فلقب بلقب أخيه صاحب بغداد، ثم صلّى بالناس يوم الجمعة، وخطب، ثم ألبسه السلطان خلعة بيده وطوقه، وأمر له بكتابة تقليد الأمر، وركب السلطان بتلك الخلعة، وزيّنت القاهرة، وهو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العبّاس، وكان جسيماً شجاعاً عالي الهمّة، ورتب له السلطان أتابك أستاذ دار وحاجباً، وكاتب انشاء، وجعل له خزانة ومائة فرس، وثلاثين بغلاً، وستين جملاً، وعدة مماليك فلما قدم دمشق وسار إلى العراق استماله الحاكم بأمر الله العباسيّ، وأنزله معه في دهليزه، ثم دخل المستنصر هيت[1]، ثم التقى المسلمون التتار، فانهزم التركمان والعرب، وأحاطت التتار بعسكر المستنصر، فحرقوا وساقوا، فنجا طائفة منهم الحاكم، وقتل المستنصر، وقيل: عدم ولم يعلم ما جرى له، وقيل: قتل ثلاثة من التتار، ثم تكاثروا عليه، واستشهدوا رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الشيخ الفقيه العلّامة الإمام المفتي المدرّس القاضي الخطيب سلطان العلماء، وفحل النجباء المقدم في عصره على سائر الأقران، بحر العلوم والمعارف والمعظم في البلدان، ذو التحقيق والاتقان والعرفان والإيقان. المشهود له بمصاحبة العلم والصلاح والجلالة والوجاهة والاحترام، الذي أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم إليه مع الوليّ الشاذليّ بالسّلام، مفتي الأنام وشيخ الإسلام، عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السّلام أبي القاسم السلمي الدمشقيّ الشافعي[2] قال أهل الطبقات: سمع من عبد اللطيف بن أبي سعد، والقاسم ابن عساكر وجماعة، وتفقه على الإمام العلّامة فخر الدين ابن عساكر، وبرع في

(١) هيت: وهي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبريّة معجم البلدان ٥/ ٤٨٣.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/ ١١٩.

الفقه والأصول والعربية، ودرّس وأفتى وصنف المصنفات المفيدة، وأفتى الفتاوى السديدة، وجمع من فنون العلم العجب العجاب من التفسير والحديث، والفقه، والعربية، والأصول، واختلاف المذاهب والعلماء، وأقوال الناس ومأخذهم، حتى قيل: بلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وعنه أخذ الشيخ الإمام شرف الدّين الدمياطيّ، والقاضي الإمام المفيد تقيّ الدين بن دقيق العيد وخلق كثير، وبلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه معرفة المذهب مع الزهد والورع، وقمعة للضلالات والبدع، وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك مما عنه اشتهر، قالوا: وكان مع صلابته في الدين، وشدته فيه حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار يحضر السماع ويرقص.

قلت: وهذا مما شاع عنه، وكثر شهوده، وبلغ في الاستفاضة والشهرة مبلغاً لا يمكن جحوده، وذلك من أقوى الحجج على من ينكر ذلك من الفقهاء على أهل السماع من الفقراء والمشائخ أهل المقامات الرفاع أعني صدور وذلك عن مثل الإمام الكبير الذي سبق أئمة زمانه بدمشق بل سبق كثيراً من السابقين المتقدمين على أوانه وأرى نسبة فعله هذا مع انكار الفقهاء غالباً في سائر البلاد كنسبة ذهاب الإمام الكبير المحدث الحافظ أبي القاسم ابن العساكر إلى مذهب الأشعرية في الاعتقاد مع مخالفة طائفة من المحدثين اعتقدوا على الظواهر، وحادوا عن منهج الحق الباهج الظاهر، فكل واحد منهما مع غزير علمه وجلالته وتقدمه على أقرانه في فنه وإمامته حجة على المشار إليهم من أهل ذلك الفن المخالفين من خلائق منهم لا يحصون على ذلك موافقين من الأئمة الكبار السابقين واللاحقين، كالفقيه الإمام الجليل المحدث أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبيّ، والفقيه الإمام الجليل المحدّث محيي الدين النواويّ، والفقيه الإمام الجليل المحدث أبي العباس أحمد بن أبي الخير اليمنيّ وغيرهم من المحدثين أولى المناقب الحميدة الموافقين في العقيدة، وكالفقيه الإمام الكبير المتفنن الأستاذ أبي سهل الصعلوكي، والفقيه الإمام السعيد السيد الشهير العارف بالله الخبير الأستاذ أبي القاسم الجنيد، والفقيه الإمام المشكور العارف بالله المشهور محمّد بن حسين البجليّ اليمنيّ وغيرهم من الفقهاء أولى النفع والانتفاع الواجدين الداخلين في السماع، ولكن ذلك بشروط عند علماء الباطن ذكرتها في كتاب الموسوم بنشر المحاسن مع موافقتهم أيضاً في العقيدة المذكورة الصحيحة المشهورة.

قلت: وكان عزّ الدين المذكور رضي الله تعالى عنه، يصدع بالحق، ويعمل به متشدداً في الدين لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يخاف سطوة ملك ولا سلطان، بل يعمل بما أمر الله ورسوله، وما يقتضيه الشرع المطهر، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كأنه رضي الله تعالى عنه جبل إيمان. يصادم السلطان، كائناً ما كان، بمشافهة الإنكار، تحت عظام

الأخطار، فقيل له: في ذلك في وقت فقال: استحضرت عظمة الله، وكان السلطان في عيني أصغر أو قال: أحقر من كذا وكذا وأنكر رضي الله تعالى عنه صلاة الرغائب، والنصف من شعبان.

قلت: وقع بينه وبين شيخ دار الحديث الإمام أبي عمرو بن الصّلاح رحمه الله في ذلك منازعات ومحاربات شديدات، وصنّف كل واحد منهما في الردّ على الآخر، واستصوب المتشرعون المحققون مذهب الإمام ابن عبد السّلام في ذلك، وشهدوا له بالبروز بالحق والصواب في تلك الحروب والضراب، وكأن ظهور ثوابه في ذلك جديراً بما أنشده في عقيدته في الاستشهاد على ظهور الحق:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلاّ على أكمه لا يعرف القمر

إذ لم يرو في ذلك عن جهة السنّة ما يقتضي فعل ذلك، وإن كان قد ظهر لهما شعار في الأمصار، وصلاهما العلماء الأحبار والأولياء الأخيار، وأدركت ذلك في الحرمين الشريفين حتى تكرر الإنكار في ذلك، واشتهر بين الناس مقال الإمام المؤيد الموفّق للذب عن السنة، وتحرير الصواب، الحبر المحدث الخاشع الأواب محيي الدين النواوي رحمة الله عليه في صلاة الرغائب قاتل الله واضعهما مع أنهما إلى هذا الزمن يصليهما أهل اليمن، ولعمري إنهما لو فعلا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لاستفاض ذلك، واشتهر كما اشتهر ما هو أخفى من ذلك في الخبر، وإذ لم يرد فعل ذلك، وما تضمنه من الشعار كان ذلك بدعة ينبغي فيها الإنكار، وليس الحسن الظن مدخل في احداث شعار لم يكن في الإسلام مع قوله عليه أفضل الصلاة والسلام: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد**» وقوله: «**كل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة نعم لو صلاهما إنسان وحده مع اعتقاده أنهما ليستا بسنة لم أر بذلك بأساً**» والله أعلم.

وأمّا ما احتج به بعض الناس من قوله تعالى: ﴿**أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى**﴾ [سورة العلق: ١٠] فهو احتجاج باطل فإنّ الآية الكريمة نزلت في قضية أبي جهل، ونهيه للنبيّ عليه السلام، عن الصلاة ومنعه له بزعمه منها، فمنعه الله عن ذلك المرام بما أراه ما يهول من الآيات العظام.

ولما سلم الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل صفد[1] قلعة في بلاد الشام. ساء ذلك المسلمين، ونال منه الشيخ الإمام عزّ الدّين على المنبر، ولم يدع له في الخطبة،

(١) صفد: وهي كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل: هما صفدان. صفد سمرقند وصفد بخارى. وهي قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى قريب من بخارى معجم البلدان ٣/ ٤٦٥.

وكان خطيباً بدمشق، فغضب الملك المذكور، وعزله وسجنه، ثم أطلقه، فتوجه إلى الديار المصريّة هو والإمام ذو الفهم الثاقب المعروف بابن الحاجب، بعد أن كان معه في الحبس، فتلقاه الملك الصالح نجم الدين أيّوب صاحب مصر، وأكرمه وأجله واحترمه، وفوّض إليه قضاء مصر، وخطابة الجامع، فقام بذلك أتمّ قيام، وتمكّن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى اتفق أنّ بعض الأمراء بنى مكاناً على سطح مسجد، فأنكر ذلك، وقيل: هدمه، ثم علم أنّ ذلك شقّ على الوزير، فحكم بفسق الوزير وعزل نفسه عن القضاء، فلما بلغ ذلك حاشية الملك شقّ عليهم، وأشاروا على الملك أنْ يعزله من الخطابة لئلا يتعرض لسبّ الملك على المنبر، فعزله، فلزم بيته يشغل الناس ويدرس.

وذكروا أنه لما مرض مرض الموت بعث إليه الملك الظاهر يقول مَن أولادك يصلح لوظائفك؟ فأرسل إليه، ليس فيهم من يصلح لشيء منها، فأعجب ذلك السلطان منه، ولما مات حضر جنازته بنفسه، والعالم من الخاص والعام.

ومن مصنفاته الجليلة كتاب التفسير الكبير، وكتاب القواعد الكبرى ومختصر النهاية، وكتاب العقيدة، وكتاب شجرة الأخلاق الرضية والأفعال المرضية، ومختصر الرعاية، وكتاب الإمام في أدلّة الأحكام وغير ذلك، وكانت له مشاركة يقوم به أحسن قيام، وكانت له يد طولى في تعبير الرؤيا وغير ذلك. دخل بغداد في سنة تسع وتسعين وخمس مائة، واتفق يوم دخوله موت الإمام أبي الفرج ابن الجوزيّ، فأقام بها أشهراً، ثم عاد إلى دمشق، وولاّه الملك الصالح ابن الملك العادل خطابة الجامع الأموي بعد ولايته التدريس بزاوية الغزالي، وهو من الذين قيل فيهم علمهم أكثر من تصانيفهم لا من الذين عبارتهم دون درايتهم، ومرتبته في العلوم الظاهرة مع السابقين في الرعيل الأول، وأما في علوم المعارف، والعلم بالله وحضور هيبته، واستيلاء جلالته وعظمته على قلوب أهل ولايته، ومعرفته وغير ذلك مما هو معروف عند أهله.

وقد قسّم الناس في المعرفة أقساماً وعد نفسه رضي الله تعالى عنه من القسم الثالث بعد أن ذكر أنّ القسم الأول هم الذين تحضرهم المعارف من غير استحضار وتفكر واعتبار، ولا تغيب عنهم في سائر الأحوال، والقسم الثاني هم الذين تحضرهم بغير استحضار أيضاً، لكن تغيب عنهم في بعض الأحيان. والقسم الثالث هم الذين تحضرهم باستحضار من غير دوام واستمرار، ثم قال: كأمثالنا. هذا معنى كلامه في الأقسام المذكورة، وإن اختلفت العبارات في بعض الألفاظ.

وقد ذكرت في غير هذا الكتاب قضية وقعت له مما يؤيد عظيم فضله وعلوّ محله، وهو ما أخبرني به بعض أهل العلم أنّ الإمام عزّ الدين المذكور احتلم في ليلة باردة فأتى إلى

الماء، فوجده جامداً، فكسره واغتسل، فغشي عليه فسمع يقال له: لأعوضنّك بها عزّ الدنيا والآخرة، وكان مع هذه الجلالة التي حازها، والعلوم التي حواها ينظم الأشعار السهلة.

قال الشيخ تاج الدين ابن المحبّ: أنشدني صديقنا سديد الدين أبو محمّد الحسن بن الوليد الطبيّ الفقيه الشافعيّ قال: أنشدني قاضي القُضاة عزّ الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السّلام لنفسه في قصيدة قوله:

أوجّـه وجهـي نحـوهـم مستشفعـاً إليهـم بهـم منهـم إذا الخطـب أعيـانـي
فهـم كـاشفـو ضـري وكـربـي وشـدتـي وهـم فـارجـو همّـي وغمّـي وأحـزانـي
وهـم واهبـو الأبصـار والسمـع والنهـي وهـم عـالمـو سـرّي وجهـري واعـلانـي
وإن مـذنـب يـومـاً أتـى متنضـلاً ومعتـذراً حنـواً عليـه بغفـرانِ
وإن سـائـل يـومـاً أتـاهـم بفـاقـة ومسكنـة جـادوا عليـه بـاحسـانِ
بـروح رجـائـي فيـك يبقـى حشـاشتـي وخـوف معـادي منـك قـد هـد أركـانـي
فـأصبحـت مـا إن لـي إليـك وسيلـة سـوى فـاقتـي والـذل منّـي وإذعـانـي

توفي رحمه الله تعالى بمصر سنة ستين وست مائة، وشيّعه الملك الظاهر، وكان قد ولّي قضاء القضاة، وعزل نفسه رضي الله تعالى عنه، وعمره اثنتان وثمانون سنة.

وفيها توفي ابن العديم الصاحب العلاّمة المعروف بكمال الدين عمر بن أحمد العقيلي الحلبيّ من بيت القضاء والحشمة. سمع بدمشق وبغداد والقدس والنواحي، وأجاز له المؤيد وخلق، وكان قليل المثل عديم النظر فضلاً ونبلاً ورأياً وحزماً وذكاءً وبهاءً وكتابةً وبلاغةً، ودرس وأفتى، وصنّف وجمع تاريخاً لحلب نحو ثلاثين مجلداً، وولّي خمسة من آبائه على نسق القضاء، وقد ناب في سلطنة دمشق، وعمل من الناصر وتوفي بمصر.

سنة احدى وستين وست مائة

عقد في أوّلها مجلس عظيم للبيعة، وجلس الحاكم بأمر الله أبو العبّاس أحمد ابن الأمير ابن أبي عليّ حفيد المسترشد بالله العباسي، فأقبل عليه الملك الظاهر ومد يده إليه وبايعه بالخلافة، ثم بايعه الأعيان، وقلّد حينئذٍ السلطنة للملك الظاهر.

فلما كان من الغدّ خطب للناس خطبة حسنة أوّلها: الحمد لله الذي أقام لآل العبّاس ركناً وظهيراً، ثم كتب بدعوته وإمامته إلى الأقطار، وبقي في الخلافة أربعين سنة وأشهراً.

وفيها خرج الظاهر إلى الشام، وتحيل على صاحب الكرك الملك المغيث حتى نزل إليه، وكان آخر العهد به، وأعطى ولده بمصر مائة فارس، ثم قبض على ثلاثة أنكروا عليه

علامة المغيث، وكانوا له نظراء في الجلالة والرتبة، وهم الرشيدي وأقوس التركيّ والدمياطيّ.

وفيها وصل مقدم التتار في طائفة كثيرة قد أسلموا، وأنعم عليهم الملك الظاهر.

وفيها توفي الفقيه الإمام الجليل سليمان بن خليل العسقلانيّ الشافعيّ خطيب الحرم، سبط عمر بن عبد العزيز الميانشيّ قلت: وهو الذي جمع المنسك الكبير المفيد المعروف بين فقهاء مكة بمناسك الفقيه سليمان.

وفيها توفي المقرىء النحويّ المتكلّم شيخ القراء بالشام أبو محمّد القاسم بن أحمد المرسي[١] شيخ القرّاء صاحب الشاطبيّ، وتزوج ابنته أبو الحسن بن عليّ بن شُجاع الهاشمي العباسيّ المصريّ الشافعيّ.

سنة اثنتين وستين وست مائة

فيها توفي شيخ الشيوخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد الأنصاريّ الدمشقيّ، ثم الحمويّ الشافعيّ، الأديب، كان أبوه قاضي حماة، ويُعرف بابن الرفا له محفوظات كثيرة، وفضائل شهيرة، وحرمة وجلالة.

وفيها توفي الملك المغيث عمر بن عبد العزيز بن الكامل ابن العادل، حبس بعد موت عمّه الصّالح بالكرك، فلما قتلوا ابن عمّه المعظّم أخرجه معتمد الكرك الطواشيّ، وسلطنه بالكرك كان كريماً مبذراً للأموال، فقلّ ما عنده حتى سلّم الكرك إلى صاحب مصر، ونزل إليه، فخنقه ولذلك خنق عمّه وأباه العادل.

وفيها توفي ابن سُراقة الإمام محيي الدّين أبو بكر محمد الأنصاري الشاطبيّ شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة، سمع من جماعة، وله مؤلفات.

وفيها توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن المنصور ابن المجاهد صاحب حمص، والرحبة.

وفيها توفي القارىء أبو القاسم بن المنصور الاسكندرانيّ[٢]، كان صالحاً قانتاً مخلصاً

---

(١) كان ذا فنون عديدة حسن الشكل مليح الوجه له هيئة حسنة وبزة وجمال، وقد سمع الكندي وغيره البداية والنهاية ٩/ ١٢٥.

(٢) كانت وفاته في سادس شعبان من هذه السنة بالاسكندرية، وله خمس وسبعون سنة، وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. البداية والنهاية ٩/١٢٨.

مع الزهد والورع البالغ، كان له بستان يعمله ويتبلغ منه، وله ترجمة منفردة جمعها ناصر الدين بن المنير.

وفيها أو في التي بعدها توفي ناظم الوترية، الفقيه الشافعيّ، الواعظ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن الرشيد البغداديّ، كان فقيهاً واعظاً عارفاً بالفقه والخلاف. أعاد بنظامية بغداد، وقدم مصر والاسكندرية، ووعظ بها، وسمع منه جماعة منهم الإمام العلّامة شرف الدّين أبو العباس أحمد بن عثمان السخاويّ الشافعيّ إمام الأزهر، والإمام العلّامة قاضي القُضاة بدر الدين محمّد بن إبراهيم بن جماعة، سمع منه قصائده الوتريات، ورافقه في الحجّ، ودخل الافريقية، وجال في بلاد المغرب، وكان ظاهر التدين والصلاح.

سنة ثلاث وستين وست مائة

فيها كانت ملحمة عظيمة بالأندلس التقى فيها ملك الفرنج، وأبو عبدالله بن الأحمر سلطان المسلمين، ثم انهزم الملاعين، وأسر ملكهم، ثم أفلت، وحشد وجيّش ونازل غرناطة، فخرج إليهم ابن الأحمر، وكسرهم أيضاً، وأسر منهم عشرة آلاف، وقتل المسلمون منهم فوق الأربعين ألفاً، وجمعوا كوماً هائلاً من رؤوس الفرنج، وأذن عليه المسلمون، واستعادوا عدة مداين من الفرنج.

وفيها قَدِم السلطان، فحاصر قيسارية، وافتتحها عنوة، وغصب القلعة أياماً ثم أُخذت مع غيرها بالسيف، ثم رجع فسلطن ولده الملك السعيد المغفور.

وفيها جدّد بديار مصر أربعة حكّام من المذاهب لأجل توقف تاج الدين ابن بنت الأغرّ عن تنفيذ كثير من القضايا فتعطلت الأمور، فأشار بهذا جمال الدّين أيد غدي العزيزيّ، فأعجب السلطان، وفعله في آخر السنة، ثم فعل ذلك بدمشق.

وفيها ابتدىء لعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ففرغ في أربع سنين.

وفيها حجب الخليفة الحاكم بقلعة الجبل.

وفيها توفي المعين المقرىء القرشيّ المحدّث المتقن أبو إسحاق إبراهيم بن عمر، كتب فأكثر، وتوفي فجاءة.

وفيها توفي الحافظ ابن السيد محمّد بن يوسف الأزدي الغرناطيّ سمع من جماعة كثيرة وجمع وصنّف.

وفيها توفي بمكة بدر الدين السنجاريّ الشافعيّ[١] قاضي القُضاة أبو المحاسن يوسف بن الحسن الزراديّ، كان صدراً معظماً جواداً ممدحاً، ولّي قضاء بعلبك وغيرها، ثم ولاّه الملك الصالح نجم الدين أيوب مصر، والوجه القبلي، ثم ولّي قضاء القضاة بعد شرف الدين ابن عين الدولة، وباشر الوزارة، وكان له من الخيل والمماليك ما ليس لوزير مثله، ولم يزل في الارتفاع إلى أوائل الدولة الظاهرية، فعزل ولزم بيته.

سنة أربع وستين وست مائة

فيها توفي عزّ الدين الملك الظاهر، ورتّب جيوشه بالسواحل، فأغاروا على بلاد عكا، وصور، وطرابلس، وحصن الأكراد، ثم نزلوا على صفد، فأخذت في أربعين يوماً خديعة، ثم ضُربت رقاب مائتين عن فرسانهم، وقد استشهد عليها خلق كثير، وفيها استباح المسلمون داره، وسبي منها ألف نفس، وجعلت كنيستها جامعاً.

وفيها توفي الإمام جمال الدين أحمد بن عبدالله بن شعيب اليمني الصقليّ ثم الدمشقيّ المقرىء الأديب وأيد غدي العزيزي الأمير الكبير جمال الدين. كان جليل القدر شجاعاً مقداماً عاقلاً محتشماً كثير الصدقات، حسن الديانة من جلّة الأمراء ومتميزيهم حبسه المعزّ مدة، ثم أخرجه يوم عين جالوت، وكان الملك الظاهر يحترمه، ويتأدب معه. جهزه في هذه السنة، فأغار على بلادسيس، ثم خرج على صفد، فمرض وتوفي ليلة عرفة بدمشق.

وفيها توفي الشيخ أحمد بن سالم المصريّ النحويّ نزيل دمشق، كان فقيراً زاهداً مترحّلاً محققاً للعربية.

وفيها توفي ابن صصريّ بهاء الدين الحسن بن سالم الثعلبيّ الدمشقيّ وأخوه شرف الدين عبد الرحمن بن سالم. أولى مناصبهم الكبار، ونظر الديوان وهولاو ابن قاان المغل مقدم التتار، وقائد الكفار إلى عذاب النار الذي أباد البلاد والعباد. بعثه ابن عمه القاان الكبير على جيش المغل، فطوى الممالك، وأخذ حصون الإسماعيلية وأذربيجان والروم والعراق والجزيرة، والشام، وكان ذا سطوة ومهابة، وعقل وغور وحزم ودهاء وخبرة بالحروب، وشجاعة ظاهرة، وكرم مفرط، ومحبّة لعلوم الأوائل من غير فهمه لها، وكان يصرع في اليوم مرة ومرتين منذ قتل الشهيد الملك الكامل محمد بن غازي، ومات على كفره في السنة المذكورة، وقيل: في التي قبلها، وخلف تسعة عشر ابناً تملك عليهم ابنه أبغا، وكان القاان قد استناب بهولاو على خراسان ما يفتتحه.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ١٣١.

سنة خمس وستين وست مائة

في أوّلها كبا الفرس بالملك الظاهر، فانكسرت فخذه، وحدث له منها عرج.

وفيها توفي خطيب القدس كمال الدّين أحمد بن نعمة النابلسيّ، كان صالحاً متعبداً متزهداً.

وفيها توفي الشيخ القدوة الكبير إسماعيل الكورانيّ صاحب صدق وتحقيق وورع دقيق. ملتفت إليه بالإشارة، والقصد بالزيارة.

وفيها توفي الفاضل العلاّمة المعروف بأبي شامة لشامة كبيرة فوق حاجبه. عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي[1]، ثم الدمشقيّ الشافعيّ المقرىء النحويّ المؤرخ، قرأ القراءات، وأتقنها على السخاوي، وسمع الحديث من جماعة، وأتقن الفقه وبرع فيه وفي النحو، وصنّف كتباً جمّة، فمن ذلك كتاب «البسملة» في مجلد كبير نصر فيه المذهب وكتاب «الروضتين في الدولتين النورية والصلاحية» واختصر تاريخ دمشق ابن عساكر في خمسة عشر مجلداً ضخاماً، ثم اختصره في خمس مجلدات، وكتاب «شرح الشاطبية»، وهو في غاية الجودة، ونظم مفصل الزمخشريّ، وكتب عديدة أخرى، وولّي مشيخة دار الحديث الأشرفية، وكان متواضعاً خيراً رحمه الله تعالى.

وفيها توفي ابن بنت الأعز قاضي القضاة تاج الدّين عبد الوهاب بن خلف المصريّ الشافعيّ. صدر الديار المصرية ورئيسها، كان ذا ذهن ثاقب، وحدس صائب، ونزاهة متثبت في الأحكام، روى عن جعفر الهمداني، وتوفي في السابع والعشرين من رجب.

وفيها توفي ابن القسطلانيّ الشيخ تاج الدين عليّ ابن الشيخ الزاهد القدوة أبي العباس أحمد بن علي القيسيّ المصريّ المالكيّ المفتي، سمع بمكة من طائفة كثيرة، ودرس بمصر، وولّي مشيخة الكاملية إلى أن توفي في سابع شوال، وله سبع وسبعون سنة قلت: هذا الملقب بتاج الدين كما ترى، وليس هو قطب الدين بن القسطلانيّ، وقد يشتبه ذلك على من ليس عنده علم، فإنهما مشتركان في أوصاف متعددة، وكلاهما ابن القسطلاني، وكلا أبويهما اسمه أحمد وأبو العباس كنيته، وكلاهما زاهد وعالم ومصريّ ومالكيّ، وكلا الوالدين عالم ومدرّس ومفتي وشيخ الحديث في الكاملية، ولكن قطب الدين متأخر يأتي في سنة ست وثمانين، فهو أجل الرجلين قدراً وأشهرهما ذكراً.

---

(١) ولد ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة البداية والنهاية ١٣٥/٩.

وفيها توفي أبو الحسن الدهّان علي بن موسى السعديّ المصريّ المقرىء الزاهد، قرأ القراءات، وتصدر بالفاضلية، وكان ذا علم وعمل.

وفيها توفي صاحب المغرب المرتضى أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم القيسيّ المومني، ولّي الملك بعد ابن عمّه المعتضد، وامتدت أيّامه، وكان مستضعفاً دخل ابن عمّه أبو دبوس الملقّب بالوراث بالله إدريس مراكش، فهرب المرتضى، فظفر به عامل الواثق، وقتله بأمره، وأقام بالواثق ثلاثة أعوام، ثم قامت دولة بني مريق وزالت دولة آل عبد المؤمن.

سنة ست وستين وست مائة

فيها افتتح السلطان بلداناً كثيرةً في بلاد الشام، منها حصن الأكراد وأعمال طرابلس وأنطاكية، وأخذها في أربعة أيام وحصر أعني انطاكية، وحصر من قتل بها، وكانوا أكثر من أربعين ألفاً. وفيها كانت الصعقة العظمى على غوطة يوم ثالث نيسان إثر حفظة السلطان عليها، ثم صالح أهلها على ستّ مائة ألف درهم فأضرّ بالناس، وباعوا بساتينهم بالهوان.

وفيها توفي خطيب الجبل إبراهيم ابن الخطيب شرف الدّين عبدالله المقدسيّ، كان فقيهاً إماماً بصيراً بالمذهب صالحاً عابداً مخلصاً منيباً صاحب أحوال وكرامات، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وقول بالحق، سمع من جماعة، وقد جمع ابن الخبّاز سيرته في مجلد.

وفيها توفي الحنش النصرانيّ الكاتب، ثم الراهب أقام بمفازة[1] بجبل حلوان بقرب القاهرة، فقيل: إنه وقع بكنز للحاكم صاحب مصر، فواسى منه الفقراء والمستورين من كل ملّة، واشتهر أمره، وشاع ذكره، وأنفق في ثلاث سنين أموالاً عظيمة، فأحضره السلطان، وتلطف به، فأبى عليه أن يعرفه حقيقة أمره، وأخذ يراوغه ويغالطه، فلما أعياه سلط عليه العذاب، فمات وقيل: إنّ مبلغ ما وصل إلى بيت المال من جهته في المصادرة في مدة سنتين ستّ مائة ألف دينار ضبط ذلك بقلم الصيارفة الدّين كان يصبغ عندهم الذهب، وقد أفتى غير واحد بقتله خوفاً على ضعفاء الإيمان من المسلمين أن يضلهم ويغويهم.

وفيها توفي صاحب الروم السلطان ركن الدّين ابن السلطان غيّاث الدّين السلجوقيّ، كان هو وأبوه مقهورين مع التتار له الاسم، ولهم التصرف، فقتلوه بسبب أنه وشى به، ونمّ عليه بأنه يكاتب الملك الظاهر، فقتلوه خنقاً، وأظهروا أنه رماه فرسه، ثم أجلسوا في الملك

(١) مفازة: الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها.

غياث الدين، وعمره عشر سنين.

وفيها توفي الضياء الطوسيّ الإمام العلاّمة شارح الحاوي الصغير، والمختصر في الأصول الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن محمّد الطوسيّ، وكان فاضلاً درّس في دمشق في التجيبية، ثم توفي بها رحمه الله تعالى.

سنة سبع وستين وست مائة

فيها نزل السلطان على حربة اللصوص، ثم ركب وساق في البريد سرّاً إلى مصر، فأشرف على ولده السعيد، وكان قد استنابه بمصر، ثم رد إلى الحربة، وكانت الغيبة أحد عشر يوماً أوهم فيها أنه متمرض في المخيّم.

وفيها توفي الإمام العلاّمة مجد الدّين علي بن وهب القشيريّ المالكيّ شيخ أهل الصعيد ونزيل قوص والد الإمام المشهور المشكور، تقي الدين ابن دقيق العيد، وكان جامعاً لفنون من العلم، موصوفاً بالصلاح والتألّه معظماً في النفوس روى عن غير واحد.

سنة ثمان وستين وست مائة

فيها تسلّم الملك الظاهر حصون الإسماعيلية، وقرر على زعيمهم حسن بن الشعرانيّ أن يحمل كل سنة مائة ألف وعشرين ألفاً، وولاّه على الإسماعيلية وفيها بطلت الخمور بدمشق، وقام في تبطيلها الشيخ خضر شيخ السلطان قياماً كلياً، وكبس دور النصارى واليهود، حتى كتبوا على أنفسهم بعد القسامة أنه لم يبق عندهم منها شيء.

وفيها توفي وقيل: في سنة خمس وستّين الفقيه الإمام العلاّمة البارع المجيد الذي ألين له الفقه كما ألين لداود الحديد الشيخ نجم الدين عبد الغفار القزويني الشافعي أحد الأئمة الأعلام، وفقهاء الإسلام، مصنّف الحاوي المشتمل على الأسلوب الغريب، والنظم العجيب المطرب في صنعته كل لبيب الذي قلت فيه القصيدة الموسومة بالحلاب الحالي في مدح الحاوي، وهي:

لله ماذا حوى الحاوي مع الصغر ... من الملاح العوالي الخرد الغرر
ألفاظه ومعانيه جلت وعلت ... أحلى وأغلى من الحلاب والدرر
كم من صغير كبير القدر مشتهر ... وكم كبير صغير غير مشتهر
هو الصغير الكبير القدر كم كتب ... قد فاق من كل مبسوط ومختصر
ما طاعن فيه يقوي أن يعارضه ... لو عاش ما عاش نوح فيه من عمر
ما ينقم الخصم إلاّ أنه عسر ... وكل عالي المعاني شاع بالعسر

هـل يستطيـع الـذي يخفـي فضيلتـه ... يخفـي ظهـور ضيـاء الشمـس والقمـر
حـوى نفـائـس علـم الشـرع مشتمـلاً ... لمـذهـب الشـافعـي النيـر الـزهـر
صـدر المـذاهـب مقـدامـاً وأعـدلهـا ... حكمـاً وأشهـرهـا فـي البـدو والحضـر
تـاج الهـدى معلمـاً بـالنـور مبتسمـاً ... درّ الأحـاديـث والاجمـاع والسـور
بدر الدُجى منهج الحق المضيء ضياً ... شمس الضُحى مذهبي فخري ومفتخري
وقـد نهضـت لحـاوي الـدرّ منتصـراً ... فـي ذمّ مـن ذمّـه مـن سـائـر البشـر
قـدرت ضـرب مثـال رائـق رشـق ... لـلأخـذ بـالثـأر كـاف جـاعلـي قـدرِ
يقـال فـرد أتـى كـرمـاً بـه ثمـر ... فلـم ينـل أخـذ عنقـود مـن الثمـرِ
فـذمـه قـال: مـن يبغيـك يـاتفهـا ... يا حامض الطعم يا أدنى جنى الشجرِ
قـد قيـل لا ينفـع البـادي قـراءتـه ... والمنتهـى لا بمـا فيـه لمفتقـرِ
حتـى غـلا القـائـل المـذكـور مـدعيـاً ... أن لا يبـاع لـذي بـدر، ولا حضـرِ
هـذا غبـي، ولـو قـد شـمّ رائحـة ... للفقـه أو ذاق طعـم الفقـه بـالنظـرِ
لمـا أتـى مثـل هـذا القـول مجتـريـا ... ولا تخطـى بهـذا المسلـك الـوعـرِ
فـذاك حبـيّ ومحفـوظـي ومعتمـدي ... ومنـه أفتـى بـه سمعـي بـه بصـري
وفيـه درسـي وتـدريسـي ومـورده ... إليـه ورديّ وعنـه صـادر صـدري
كـأنـه السّحـر فـي تحسيـن صنعتـه ... والبحـر فيمـا حـوى مـن فـاخـر الـدّرر
نعـم لعمـري يسيـر مـن مسـائلـه ... مخـالـف للصحيـح الـراجـح الشهـرِ
لكنـه لا بـذا التكـديـر منفـرد ... كـل التصـانيـف لا يصفـو عـن الكـدرِ
كـذا صفـات الـورى تبـدو لعمـري فـي ... أسنـا الكمـال، ويبـدو النقـص فـي أخـرِ
سبحـان مـن بـالكمـال اختـصّ منفـرداً ... منـزّهـاً عـن جميـع النقـص والغبـرِ
حتـى إلهـي إمـامـاً ذاك صنفـه ... للعلـم والـديـن لا للهـو والنظـرِ
ذاك النجيـب الـذي شـاعـت بـراعتـهُ ... عبـد لغفـار ذنـب الخفـائـف الحـذرِ
حبـر لـه الفقـه فـي التصنيـفَ لان كمـا ... لان الحـديـد لـداؤد بـلا عكـر
وبعـد ذا فـالأئمـة كلهـم ... تبع للشافعي هم نجوم، وهو كالقمر

ولي فيه قصيدة أخرى دالية عددها كعدد هذه ثلاثون بيتاً، وقد سلك في صنعته رحمه الله تعالى مسلكاً لم يلحق شاؤه فيه أحد من الفضلاء، ولا قاربه وقد ذكر بضعهم أنه صنّف كتاب الحاوي المذكور لولده جلال الدين، وله اجازة من عفيفة الأصبهانية، وكان والده فقيهاً إماماً أيضاً رحمهما الله.

وفيها توفي قاضي القضاة أبو الفضل يحيى ابن قاضي القضاة أبيْ المعالي محمّد ابن

قاضي القضاة أبي الحسن أبي قاضي القضاة منتجب الدين القرشيّ الدمشقيّ الشافعيّ، تفقه على الفخر ابن عساكر، وولّي قضاء دمشق مرّتين، وكان صدراً معظماً معروفاً بالفضائل.

وقال الذهبي: له في ابن العربيّ عقيدة تجاوز حد الوصف، قال: وكان يفصل عليّاً على عثمان، ثم نسبه إلى التشيع، وجعل التفضيل المذكور كالعلة لتشيعه.

قلت: وهذا من الذهبي العجب العُجاب أما علم أنّ جماعة من أكابر أئمتنا المحققين ذهبوا إلى تفضيل عليّ على عثمان؟ منهم الأئمة الجلّة سفيان الثوريّ، ومحمد بن إسحاق، والحسين بن الفضل، بل هو منسوب إلى أهل الكوفة قاطبة، ولهذا قال الإمام سفيان الثوريّ لما سئل عن اعتقاده في ذلك: أنا رجل كوفي: وقد أوضحت رجحان الدليل على هذا في كتاب المرهم في الأصول، وأنّ عليّاً رضي الله عنه اجتمع فيه من الفضائل في آخر عمره ما لم يكن في أوّله، وقد قدمت قصيدة ذكرت فيها التفضيل المذكور، والاشارة إلى فضائل الكلّ منهم رضي الله تعالى عنهم في ترجمة عليّ كرّم الله وجهه، ولكن لو نسب إلى التشيع بسبب ما ذكر عنه في تاريخه من أنه هو القائل البيتين اللذين ذكرهما في كتابه ونسبهما إليه، كان أنسب إذ في ذلك التصريح أنّ عليّاً رضي الله تعالى عنه هو الوصيّ حيث قال:

أديـن بمـا دان الـوصـي ولا أرى ... سـواه، وإن كـانـت أمـيـة محتـدي
ولـو شهـدت صفّيـن خيلـي لأعـذرت ... وسـاء بنـي حـرب هنـالـك مشهـدي

وأما ما ذكر من اعتقاده ابن العربي، فليس هو مختصّاً بذلك دون غيره، فقد قدمت أنّ الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب. بعضهم اعتقده وغلا في تفضيله، وبعضهم كفره وغلا في تكفيره، وبعضهم توقّف فيه، ومن جملة الفقهاء الذين اعتقدوه الإمام الكبير الفاضل الشهير ابن الزملكانيّ، وشرح كتابه «الفصوص» الذي هو أشدّ كتبه إشكالاً، وقد تقدم أيضاً في ترجمة ابن العربيّ أنه شرحه، ثم ذكر بعد ذلك أنّ أبا الفضل المذكور سار إلى خدمة هولاو فأكرمه وولاّه قضاء الشام، وخلع عليه خلعةً سوداء مذهّبة، فلما تولّى الملك الظاهر أبعده إلى مصر، وألزمه بالمقام بها وبها توفي.

سنة تسع وستين وست مائة

فيها افتتح السلطان حصن الأكراد السيف، ثم نازل حصن عكا، وأخذه بالأمان، فبذل له صاحب طرابلس، وبذله ما أراد، وهادنه عشر سنين.

وفيها جاء سيل عرم[1]، فغلقت أبواب دمشق، وطفى الماء، وارتفع وأخذ البيوت

(١) سيل عرم: السيل الشديد الذي لا يُطاق دفعه.

والجمال والأموال، وارتفع عند باب الفرج ثمانية أذرع، حتى طلع الماء فوق أسطحة عديدة، وضجّ الخلق وابتلهوا إلى الله، وأشرف الخلق على التلف ولو ارتفع ذراعاً آخر لغرق نصف دمشق.

وفيها توفي الإمام قاضي حماة شمس الدين إبراهيم بن المسلم بن هبة الله الحمويّ الشافعيّ، كان ذا علم ودين، تفقه بالفخر ابن عساكر، وأعاد له، ودرس بالرواحية، ثم تحول إلى حماة، ودرس بها وأفتى وصنّف.

وفيها توفي إبراهيم بن يوسف الحمويّ المعروف بابن قُرْقُول[1] بضم القافين وسكون الراء بينهما، وبعد الواو لام صاحب كتاب مطالع الأنوار وصنفه على منوال كتاب «مشارق الأنوار» للقاضي عيّاض.

كان من الأفاضل، صحب جماعة من علماء الأندلس، توفي يوم الجمعة أوّل وقت العصر، وكان قد صلّى الجمعة في الجامع، فلما حضرته الوفاة تلا سورة الاخلاص، وجعل يكررها بسرعة، ثم تشهد ثلاث مرات، وسقط على وجهه ساجداً فوقع ميتاً، رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الشيخ صلاح المقرىء حسن بن عبدالله الأزديّ الصقليّ، قرأ القراءات على السخاويّ، وسمع الكثير، وأجاز له المؤيد الطوسيّ، وكان ورعاً مخلصاً متقللاً من الدنيا.

وفيها توفي ابن سبعين الشيخ الملّقب بقطب الدّين عبد الحقّ بن إبراهيم[2] المرسيّ المتصوّف. قال الذهبي: كان من زهّاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود له تصانيف وأتباع يقدمهم يوم القيامة، توفي بمكّة كهلاً. انتهى كلامه.

قلت: وكذلك سمعت كثيراً من أهل العلم ينسبونه إلى الفلسفة، وعلم السيمياء، ويحكون عن حكايات في ذلك، وأصحابه يعظمونه تعظيماً عظيماً، وكان له جاه كبير عند صاحب مكّة، وبسبب ذلك وعداوته وخوف شره ونكايته. خرج الشيخ الإمام قطب الدين القسطلانيّ من مكة، وأقام بمصر.

---

(١) توفي بمدينة فاس يوم الجمعة أول وقت العصر سادس شوال سنة تسع وستين وخمسمائة وفيات الأعيان ١/٦٢.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/١٤٦.

سنة سبعين وست مائة

فيها توفي أبو الفضائل الكمال سلار[1] بن الحسن الإربليّ الشافعيّ المفتي صاحب ابن صلاح.

وفيها توفي ابن يونس الإمام العلاّمة تاج الدّين عبد الرحيم ابن الفقيه الإمام رضيّ الدّين محمد ابن الإمام العلاّمة الكبير عماد الدّين محمّد بن يونس الموصليّ الشافعيّ مصنف التعجيز في اختصار الوجيز، كان من بيت الفقه والعلم بالموصل، وتولّى القضاء للجانب الغربي ببغداد.

وفيها توفي ابن صصريّ القاضي الرئيس، عماد الدين محمّد بن سالم ابن الحافظ أبي المواهب الثعلبيّ الدمشقيّ، سمع من جماعة، قال الذهبيّ: كان كامل السؤدد متين الديانة وافر الحرمة.

سنة احدى وسبعين وست مائة

فيها توفي الحافظ أبو المظفر يوسف بن الحسن المعروف بالشرف ابن النابلسيّ، سمع وكتب الحديث الكثير، وكان فهماً يقظاً، حسن الحفظ مليح النظم، ولّي مشيخة دار الحديث النورية.

وفيها توفي ابن الهامل المحدّث العامل محمّد بن عبد المنعم أحد من له اعتناء بالحديث.

وفيها توفي عبد الهادي بن عبد الكريم القيسيّ المصريّ المقرىء الشافعيّ، قرأ القراءات السبعة، وسمع من جماعة؛ كان صالحاً كثير التلاوة.

سنة اثنتين وسبعين وست مائة

فيها توفي المؤيد ابن القلانسيّ أبو المعالي أسعد بن المظفر بن أسعد التميميّ[2]، حدث بمصر ودمشق.

وفيها توفي الأتابك الأمير الكبير فارس الدين أقطايا الصالحي أمره أستاذ الملك الصالح، ولّي نيابة السلطنة للمظفر قطر، فلما قتل قطر قام مع الملك الظاهر وسلطنه في الوقت، وكان من رجال العالم حزماً وعقلاً ورأيا ومهابةً، وناب مدة للملك الظاهر.

---

(١) رسلان البداية والنهاية ٩/١٤٧.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/ ١٥٢.

وفيها توفي ابن مالك إمام العربية العلاّمة. ترجمان الأدب، وحجة لسان العرب أبو عبدالله محمّد بن عبدالله الطائيّ الجياني الشافعيّ النحويّ اللغويّ، صاحب التصانيف، وواحد الزمان في علم اللسان، روى عن السخاوي وغيره، وأخذ النحو عن غير واحد، وتقدم وساد في علم النحو والقراءات، وربا على كثير ممن تقدمه في هذا الشأن مع الدين والصدق، وحسن السمت، وكثرة النوافل، وكمال العقل والوقار، والتودد وانتفع به الطلبة، وله من التصانيف تسهيل الفوايد والكافية الشافية وشرحها والألفية وأشياء كثيرة، وممن روى عنه ولده الإمام الملقّب ببدر الدّين محمّد، والشيخ علاء الدّين ابن العطّار وجماعة، وتوفي بدمشق في عشر الثمانين.

وفيها توفي النجيب عبد اللطيف بن عبد المنعم أبو الفرج الحرانيّ مسند الديار المصرية.

سنة ثلاث وسبعين وست مائة

فيها توفي الحافظ المحدّث وجيه الدين منصور بن سليم الهمدانيّ الاسكندراني، سمع الكثير، وخرج تاريخاً للاسكندرية، وأربعين حديثاً بلدية، ودرّس وولّي حسبة بلده:

وفيها توفي قاضي القضاة شمس الدّين عبدالله بن محمد الأوزاعي الحنفيّ المشار إليه في مذهبه مع الدين والتواضع والصيانة والتعفف.

سنة أربع وسبعين وست مائة

فيها توفي شيخ الأدب محمود بن عايذ[1] التميميّ الشاعر المجيد، كان قانعاً زاهداً معمّراً وفيها توفي شيخ الشيوخ سعد الدين الخضر ابن شيخ الشيوخ تاج الدين عبدالله ابن شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن عليّ ابن القدوة الزاهد محمد بن حموية الحمويّ، ثم الدمشقيّ.

وفيها توفي ظهير الدين أبو البّنا محمود بن عبدالله الريحانيّ الشافعيّ المفتي أحد مشايخ الصوفية، صحب الشيخ شهاب الدين السهروورديّ، وروى عنه، وعن غيره، وتوفي في رمضان، وله سبع وسبعون سنة.

سنة خمس وسبعين وست مائة

فيها كاتب أمراء الروم الملك الظاهر وقوّوا عزمه على أخذ الروم، فسار وقطع البلاد،

---

(١) محمود بن عابد البداية والنهاية ١٥٦/٩.

ثم وقع صاحب مقدمته سنقر الأشقر على ثلاثة آلاف من التتار، فهزمهم وأسر منهم، وأشرف الجيش من الجبال، فإذا بالتتار قد بعثوا أحد عشر طلباً والطلب ألف فارس، فلما التقى الجمعان حملت ميسرتهم، فصادموا صناجق السلطان يعني راياته، وعطفوا على ميمنة السلطان، فرد فيها بنفسه، وحمل بها حملة صادقة، فترحلت التتار، وقاتلوا أشدّ قتال، فأخذتهم السيوف، وأحاطت بهم العساكر المحمدية، حتى قتل أكثرهم، وقتل من أمراء المسلمين جماعة، ثم سار الملك الظاهر يحرق مملكة الروم، ونزل إليه ولاة القلاع، وقدم سنقر الأشقر لتطمئن الرعيّة، ثم وصل قيصرية الروم، فتلقاه أعيانها وترحلوا، ودخلها وجلس على سرير ملكها، وصلّى الجمعة بجامعها، ثم بلغه أنّ أعداء الله عازمون على طلبه، فرحل عنها، فجرى بعده بالروم خبطة ومحنة عظيمة، فقصدهم أبغا فقال: أنتم باغون علينا، ووضع السيف فيهم، ولم يقبل لهم عذراً، فيقال: إنه قتل من الروم ما يزيد على مائتي ألف فهم مسلمون فإنا لله وإنّا إليه راجعون.

وفيها توفي الشيخ أبو المعالي أحمد بن عبد السّلام المعروف بابن أبي عصرون التميميّ الشافعيّ صاحب تونس محمّد بن يحيى بن عبد الواحد، وكان ملكاً صاحب سياسة، وعلوّ همة، شديد الباس، جواداً ممدوحاً تُزف إليه كل ليلة جارية. تملك تونس بعد أبيه، ثم قتل عمّيه وجماعة من الخوارج عليه فتمهد له الملك.

سنة ست وسبعين وست مائة

في أوّلها قدم السلطان الملك الظاهر، فنزل نحو سفة الأبلق[١]، ثم مرض يوم نصف المحرم، وتوفي بعد ثلاثة عشر يوماً، فأخفي موته، وسار ابنه وهو يوهم أنّ السلطان مريض إلى أن دخل مصر بالجيش، فأظهر موته، وعمل العزاء، وحلفت الأمراء للملك السعيد، والملك الظاهر هو ركن الدين أبو الفتوح شوس التركيّ الصالحيّ النجميّ صاحب مصر والشام اشتراه الأمير علاء الدّين الصالحي، فقبض الملك الصالح على علاء الدين المذكور، وأخذه، وكان من جملة مماليكه، ثم طلع شجاعاً فارساً إلى أن بهر أمره وبعد صيته، وشهد وقعة المنصورة بدمياط، ثم صار أميراً في الدولة المعزية، وتقلبت به الأحوال إلى أنْ ولّي السلطنة في سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وست مائة، وكان ملكاً سرياً غازياً مجاهداً مؤيداً عظيم الهيبة خليقاً للملك، يضرب بشجاعته المثل له أيام بيض في الإسلام، وفتوحات مشهورة، ومواقف مشهورة، ولولا ظلمه وجبروته في بعض الأحيان لعدّ من الملوك العادلين، والسلاطين الممدوحين بحسن السيرة المشكورين. انتقل إلى عفو

---

(١) نزل بالجوسق المعروف بالقصر الأبلق جوار الميدان الأخضر ذيل مرآة الزمان ٣/ ٢٣٣.

الله ورحمته في الثامن والعشرين من المحرم بقصره بدمشق، وخلف من الأولاد الملك السعيد محمد، والخضر وسلامس، وسبع بنات، ودفن بتربة أنشأها ابنه.

وفي سنة ست وسبعين المذكورة توفي إمام اليمن، وبركة الزمن قدوة الفريقين، وشيخ الطريقين الفقيه الكبير الوليّ الشهير صاحب الكرامات الباهرة، والبركات الظاهرة، والأنفاس الصالحة، والمواهب المانحة، والهداية والصفا، والعناية والاصطفا أبو الذبيح إسماعيل ابن السيد الجليل الولي الحفيل الحافظ المحدث إمام عصره وبركة دهره محمّد بن إسماعيل المشهور بالحضرميّ، كان من أعلى الفقهاء مرتبة في العلم والصلاح والزهد والكرامات. اشتغل بعلم الفقه على والده المذكور، وتبحّر فيه وبرع في معرفة المذهب، وشرح كتاب المهذب، وله كلام في الفقه والتصوف، وفتاوى مجموعة، وبعض تواليف أخرى، منها مختصر صحيح مسلم، وكتاب نفائس العرائس، وسمع الحديث والتفسير وما يدل على ذلك اجازته بخطّه الذي وقفت عليه وهو ما صورته.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على النبيّ وآله وأصحابه وسلّم، ثم قال: في أثناء كلامه حصل على المولى الفقيه والولد المحبوب في الله تعالى إبراهيم بن محمد بن سعيد جميع كتاب التنبيه في الفقه بقراءته، وقراءة غيره، وقد أجزت له روايته بروايتي عن والدي رحمه الله بروايته عن الإمام العالم العابد محمّد بن كبانة. بضم الكاف وفتح الموحدة قبل الألف، والنون بعدها بروايته عن الإمام العالم يحيى بن عطيّة بروايته عن الإمام محمّد بن عبدويه، عن المصنف، وقد أجزت له روايته عنّي، وأن يروى عنّي جميع ما يجوز لي روايته من كتب الحديث والتفسير والفقه، وجميع ما جمعته ولأولاده واخوته، ولجميع قراباته نفع الله الجميع بذلك، وغفر للجميع، وتاب على الجميع، وكتب إسماعيل بن محمّد بن إسماعيل الحضرميّ، وكان ذلك في شهر شوال سنة سبع وستين وست مائة، وصلّى الله تعالى على النبيّ وآله وسلّم انتهى.

وتفقه به جماعة كبار منهم الفقيه القدوة النجيب الوليّ العارف بالله وافر الحظّ والنصيب ذو المحاسن والكرامات العديدة، والفضائل والسيرة الحميدة عبدالله بن أبي بكر الخطيب اليمنيّ المدفون في مَوزَع[1] بفتح الميم والزاي قدّس الله روحه، وهو أولّ من اشتغل عليه، وأخص أصحابه، ومنهم العلاّمة المفيد الكبير المحصول الماهر في الفقه

(١) مَوزَع: موضع باليمن وهو المنزل السادس لحاجّ عدن ودونها تُرن. معجم البلدان ٥/ ٢٥٦.

البارع أحمد المعروف بابن الزنبول. اشتغل عليه مدة طويلة في الفقه، ثم حصل بينهما بعض شيء نفر منه، قلت: ابن الزنبول فانقطع عنه، وكان في خلقه بقور فجاءه الفقيه إسماعيل مع جلالته، وفضله المشهور واسترضاه، فقال له ابن الزنبول: أتحسب أني لا أجد مثلك؟ فبكى إسماعيل، ولبس حلّة المحاسن والانصاف والتواضع والاعتراف والتنزل إلى منزلة الانصاف، وقال له: بلى يا أحمد تجد مثلي، ولا أجد مثلك، ومنهم الإمام العلاّمة القاضي جمال الدين أحمد بن عليّ العامريّ شارح التنبيه وقاضي المهجم ومنهم الفقيه عليّ بن أحمد بن سليمان العبسيّ الجحفيّ وغيرهم.

قلت: وبلغني أنّ رجلاً سأله عن مسألة في أفتيا جاء بها إليه بعد أنْ جاء بها السائل إلى الفقيه الإمام الحفيل الوليّ الشهير الجليل أحمد بن موسى بن عجيل رضي الله تعالى عنه وعن الجميع، فأجابه الفقيه إسماعيل بجواب مخالف لجواب الفقيه أحمد، فبقي الرجل متحيراً بأي الجوابين يأخذ، فقال إسماعيل، خذ بجوابنا، فدباغنا[١] في الفقه أقوى من دباغهم. قلت: لقد أحسن في هذا المقال باستعارته الدباغ للاشتغال، وبلغني أيضاً أنّ الفقيهين المذكورين المشهورين كان أحدهما أفقه من الآخر، والآخر أكثر نقلاً منه، وقد جمع عنهما كلام في الفقه في جزء لطيف، وكلاهما كان يحضر مجلس شيخ الشيوخ الأكابر بحر الحقائق الموّاج الزاخر. صاحب السيف الماضي الصيقل شيخ زمانه أبي الغيث بن جميل قدّس الله روحه، ولكن الفقيه إسماعيل أكثر حضوراً وملازمةً للشيخ المذكور، وإليه كان ينسب في التصوف حتى بلغني عنه أنه قيل له كلام معناه ما نقول عنك إذا سألنا أفقيه أنت أم صوفي فقال: بل صوفيّ وشيخي في التصوف الشيخ أبو الغيث بن جميل. وله رضي الله تعالى عنه من الكرامات العظام ما يطول في ذكرها الكلام، وقد ذكرت بعضها في غير هذا الكتاب.

منها وقوف الشمس له حتى بلغ مقصده لما أشار إليها بالوقوف في آخر النهار، وهذه الكرامة مما شاع في بلاد اليمن، وكثر فيها الإنتشار.

ومنها أنه شوهدت الكعبة في الليل تطوف بسريره في حال يقظة المشاهد. ومنها أنه نادته سدرة[٢] والتمست منه أن يأكل هو وأصحابه من ثمرها، ومنها شفاعته في قوم سمعهم يعذبون في المقابر، ومنها أنّ الملك المظفر صاحب اليمن كان يقول لحجابه: لا تخلوه يدخل عليّ حتى تستأذنوني خوفاً من أن يراه ملابساً بما ينكر عليه، فما يشعر إلاّ وقد دخل

---

(١) دباغنا: دبغ الجلد ليّنه وعالجه بالدباغ ليزول ما به من رطوبة ونتن.

(٢) سدرة: السّدْر: شجر شائك من فصيلة النبقيات، مهده فلسطين، ينمو بريّاً وزراعياً، وخشبه شديد الصلابة شائع الاستعمال. وله ثمر فيه حلاوة.

عليه من حيث لا يراه البواب، ولا يشعر الحجاب، وكان الجلّة من العلماء وغيرهم يقبّلون قدمه لإشارة اشتهرت عنه في ذلك.

وقد أخبرني الفقيه الإمام القاضي نجم الدين الطبريّ رحمه الله أنه زاره هو وجده الإمام العلاّمة محبّ الدّين الطبريّ، وأنهما قبّلا قدمه.

وأخبرني القاضي نجم الدين رحمه الله المذكور أنه نعى بمكة، والسيد المشهور ابن عجيل المذكور يومئذٍ فيها، فقال: أرجو من الله أن يفديه بمائة فقيه، ثم جاء الخبر أنه حيّ لم يمت، وكان قد ولاّه الملك المظفر قاضياً على قُضاة اليمن، ولكن كان هو السلطان ما أمر به السلطان كان، وكان كتب إليه في شقف من خزف: يا يوسف فما تبه السلطان في ذلك، وقال: هب أنّك موسى، ولست بموسى وهبّ أني فرعون، ولست بفرعون، وفي رواية أخرى أرسل من هو خير منك إلى من هو شر منّي، وأمر الله تعالى باللطف به، واللين إليه فقال تعالى: ﴿فقولا له قولاً ليّناً لعلهُ يتذكّرُ أو يخشى﴾ [سورة طه: ٤٤] إمّا تكتب إليّ في ورقة بفلس، وكان إذا كشف له أنّ الحقّ في جانب من ترجحت حجّة خصمه في ظاهر الشرع يصرفها إلى حاكم آخر. قلت: وهذا حسن جداً، فإنه لا يمكنه أنْ يحكم بالحكم الباطن، وقد أمر الشرع أن يحكم بالظاهر بخلاف ما يظهر، له بالعلم الباطن، فترك الحكم بهما جميعاً احتياطاً وأدباً مع الشرع، وأرى هذا أحسن وأسلم مما كان يفعله غيره من القضاة من أكابر الأولياء من الحكم مما يكشف له من علم الباطن.

ومنهم السيّد الكبير الوليّ الشهير الشيخ عبد الرحمن النويريّ رضي الله تعالى عنه، فإنه كان يقول: ما يمكنني إذا قالت لي البقرة: أنا لفلان أحكم بها لخصمه، وكان سبب ولاية إسماعيل المذكور قضاء القضاة أنّ الملك المظفّر استدعى به، وبابن العجيل، وبابن الهرمل، فسار إليه هو وابن الهرمل، ومرّا على ابن العجيل، فقال لهما: لو قد عزمتما كان رأيي أنْ لا تذهبا إليه، ولكن إذ قد عزمتما فلي إليكما حاجة، وهي أنْ لا تذكر أني عنده، فإن ذكرني، فقولا له: هو في عشّ في البادية: فإن تركته وإلاّ سافر إلى بلاد الحبشة، وخليّ لك البلاد، فقال له إسماعيل: يا فقيه أحمد إنّ الله قد استرعانا عليه، كما استرعاه على الرعية، فنحن نأمره وننهاه، فإن قبل منّا فهو المطلوب، وإلاّ كنا قد خرجنا عن العهدة، ثم سافر إليه إلى تعز[1] فلما اجتمعا به استقضى الفقيه إسماعيل، فأقام قاضياً للقضاة مدة، ثم عزل نفسه، وكان مع كبر شأنه وزهده في الدنيا كثير التزوج جداً، حتى قال لبعض ذريته: لا تتزوجوا من نساء زبيد، فإني أخشى أن تقعوا في بعض المحارم لكم.

---

(١) تعزّ: قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات. معجم البلدان ٢/ ٤٠.

وروي عنه أنه قال: كل شيء قدرت على الزهد فيه إلاّ المرأة الحسناء، والدابة النفيسة.

وقال: رضي الله تعالى عنه: حصل لي اجتماع بجماعة من المشائخ المتقدمين في حال اليقظة، وكل واحد منهم أفادني فائدة، ومجموع ذلك من لم يفارق تعب ومن نظر إلى نفسه بعين المراءاة عطب، إن وجدت في الدنيا ما يبقى لك وتبقى له، فاعكف عليه من وقف مع العوائق لحظة أو ثقته ما تبقى من السمّ قاتل وإلاّ فممرض إنك ميت وإنهم ميتون، فلا يتعلق بهم من لم يكفه لفظه لم ينتفع بالقناطير المقنطرة. والجماعة المذكورون أصحاب سبع الوصايا هم هؤلاء السبعة أبو يزيد، وذو النون، وبشر الحافي، والجنيد، والسري، والشبلي، وأبو أيوب رضي الله تعالى عنهم، ونفع بهم كل واحد منهم جاء بكلمة من الكلمات المذكورات.

ومما وجد بخطّه رضي الله تعالى عنه من الخطاب الذي سمعه، فارق الناس أحسن ما كانوا عليه، وتتبع خلوات الفلاح في زاوية الجوع والعطش تجدني عند ذلك، وأبغض خراب الاهتمام، وسمعني أطيط[١] رحال المفارقة في بيداء الثقة بي، والتوكل عليّ وحنين الشوق، وأنين الخوف أفلت أكوانك كلها، ونحن عندك بالفضا وقوف، وانقطع الكلام.

ومما وقع له أيضاً من الخطابات المشهورة عنه: يا إسماعيل إنا مشتاقون إليك فهل أنت مشتاق إلينا؟ أو فما هذا التخلف؟ فقال: يا رب عوقتني الذنوب، فقال: قد غفرنا لك ولأهل تهامة من أجلك.

وكان رضي الله تعالى عنه في بدايته معتزلاً عن الناس، مختلياً بنفسه، قيل: وكان يقتات من النبق[٢] أوقات البداية، وكان ابن عجيل مع جلالة قدره يتأدب معه، ويقول: نحن محبون، وهو محبوب، وتلقاه في وقت وسار معه ماشياً وهو راكب، وحجّا معاً في سنة واحدة، ومعهما ركب اليمن، فلما قربوا من مكة تلقاهم الشريف أبو تمي، وكان ابن عجيل معروفاً يعرفه الشريف وغيره لكثرة تردده إلى مكة والمدينة، وكان أبو تمي عليه ثياب حرير، فانقض عليه الفقيه إسماعيل كانقضاض البازي[٣] على الفريسة، وأخذ بطوقه، وقال: أتلبس هذا الذي لا يلبسه إلاّ من لا خلاق له في الآخرة؟ أو قال: عند الله فبقي الشريف المذكور مبهوتاً ينظر إلى ابن عجيل، وكان إذ ذاك مستقلاً بولاية مكة، وسلطنتها. فقال له: يا

---

(١) أطيط: أطّ ـ أطّاً، وأطيطاً: صوّت، وأطّت الإبل أطيطاً: أنّت من تعب أو ثقل حملٍ أو حنين.

(٢) النّبق: ثمر شجر السِّدر.

(٣) البازي: هو من جوارح الطير يُصاد به (ج) أبْؤز، وبؤوز، وبئزان.

شريف أتدري من هذا؟ هذا الفقيه إسماعيل الأرعن على ربّه لو تغير علينا هلكنا جميعاً كلنا.

قلت: وله من الفضائل والمحاسن والمفاخر ما يطول ذكره بل يتعذر حصره، ولا تحتمل بعضه العقول القواصر، وإليه ينتسب بعض شيوخنا رضي الله تعالى عنهم، وإلى ذلك أشرت بقولي في بعض قصائدي.

وذا قول إسماعيل شمس الهدى الولي:

مقرّ الهدى المشهور شيخ شيوخنا　　إمام الفريقين الحبيب المدلل
هو الحضرميّ المشهور من وقفت له　　يقول: قفي شمس لأبلغ منزلي

إليه الاشارة أيضاً بقولي في أخرى في أثناء التغزل بشيوخ اليمن.

وجود الضحى شمس الضحى حضرمية　　مدللة تزهو بعالي المنازل

وقولي: وجود الضحى هو بفتح الضاد المعجمة، وكسر الحاء المهملة اسم القرية الساكن فيها، وقولي: أيضاً في الغزل: بأخرى في الشيخ أبي الغيث وفيه وفي ابن عجيل:

يبيتُ ذو عطاء عيطبول　　حرّود بحبه جود الزمانِ
وجنود في الضحى أضحت بحسن　　زهاً تختال فاقت للغواني
كجود للمغاربة اغتراها　　حصان في حيا حسن رزانِ

وإليه أشرت أيضاً في أخرى بقولي:

هو الحضرمي نجل الوليّ محمّد　　إمام الهدى نجل الإمام الممجدِ
له كمّ خطّت كمّ ذللت، ثم عللت　　عنايات فضل ليس تدرك باليدِ
مدل ومحبوب، وفي كلفة العنا　　عظيم كرامات بجاه وسؤددِ
ومن جاهه أومي إلى الشمس أن قفي　　فلم تمش حتى أنزلوه بمقصدِ

توفي رحمه الله تعالى في قريته المعروفة بالضحى من أعمال تهامة المهجم.

وفي السنة المذكورة توفي الفقيه الإمام شيخ الإسلام مفتي الأنام المحدّث المتقن المحقّق المدقّق النجيب الحبر المفيد القرب البعيد، محرر المذهب، ومهذبه وضابطه، ومرتبه أحد العباد الزرعين الزهّاد العالم العامل المحقق الفاضل الوليّ الكبير السيد الشهير المحاسن العديدة، والسيرة الحميدة، والتصانيف المفيدة الذي فاق جميع الأقران، وسارت بمحاسنه الركبان، واشتهرت فضائله في سائر البلدان، وشوهدت منه الكرامات، وارتقى في

على المقامات ناصر السنة، ومعتمد الفتاوى الشيخ محيي الدين النواويّ[1] يحيى بن شرف بن مري بن حسن الشافعيّ مؤلف الروضة والمنهاج والمناسك، وتهذيب الأسماء واللغات، وشرح صحيح مسلم، وشرح المهذب، وكتاب التبيان، وكتاب الارشاد، وكتاب التيسير والتقريب، وكتاب رياض الصالحين، وكتاب الاذكار كتاب الأربعين، وكتاب طبقات الفقهاء الشافعية، اختصره من كتاب ابن صلاح، وزاد عليه أسماء نبّه عليها، وغير ذلك مما اشتهر في سائر الجهات، وظهر به النفع والبركات.

قال بعض المؤرخين وأهل الطبقات: ولد سنة احدى وثلاثين وست مائة، في العشر الأوسط من المحرم، وقدم دمشق في سنة تسع وأربعين، وقرأ التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وحفظ ربع المهذّب في بقية السنة، ومكث قريباً من سنتين لا يضع جنبه على الأرض، وكان يقرأ في اليوم اثني عشر درساً على المشائخ شرحاً وتصحيحاً في المهذب، والوسيط والجمع بين الصحيحين، وصحيح مسلم وأسماء الرجال، «واللمع» لأبي اسحاق في أصول الفقه، «واللمع» لابن جني في النحو واصلاح المنطق لابن السكيت في التصريف، والمنتخب في أصول الفقه وكتاب آخر في الأصول لم يسموه، وكان له في الوسيط درسان.

حكوا عنه أنه قال: عزمت مرّة على الاشتغال بالطب، فاشتريت القانون، فأظلم على قلبي، وبقيت أياماً لا أشتغل بشيء فتفكرت، فإذا هو من القانون، فبعته في الحال. قالوا: وكان لا يدخل الحمّام، ولا يأكل من فواكه دمشق، ولا يأكل في اليوم والليلة سوى أكلة بعد العشاء، ولا يشرب شربة إلاّ في وقت السحر، وكان كثير السهر في العبادة والتلاوة والتصنيف. صابراً على خشونة العيش والورع الذي لم يبلغنا عن أحد في زمانه ولا قبله، وكان نزوله في المدرسة الرواحية.

قلت: وسمعت من غير واحد أنه إنما اختار النزول بها على غيرها لحلها إذا هي من بناء بعض التجّار. قالوا: وحفظ التنبيه في سنة خمسين وست مائة، وحج مع أبيه سنة احدى وخمسين، وذكر والده أنه حمّ من حين خروجه من بلده إلى يوم عرفة، فما تأوه ولا تفجر، ولزم الاشتغال ليلاً ونهاراً حتى فاق الأقران، وتقدم على جميع الطلبة، وحاز قصب السبق في العلم والعمل، ثم أخذ في التصنيف من حدود الستين وست مائة إلى أن مات.

وسمع الكثير من القاضي الرضي بن برهان الدين ابن خالد، وشيخ الشيوخ عبد العزيز الحموي، وجماعة منهم شيخه الكمال، وإسحاق بن أحمد المغربيّ، وسمع صحيحي

---

(١) النووي البداية والنهاية ٩/ ١٦٤.

البخاري ومسلم، وسنن أبي داؤد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والدارقطني، وشرح السنة ومسند الإمام الشافعيّ، والإمام أحمد وأشياء كثيرة، وأخذ علم الحديث عن عزّالدين بن خالد، وروى عنه جماعة من أئمة الفقهاء والحفّاظ. منهم الإمام علاء الدين بن العطّار، والشيخ أبو الحجاج المزيّ والقاضي محيي الدين المزرعي، والإمام شمس الدين ابن النقيب، وهو آخر من بقي من أعيان أصحابه وخلق كثير.

قلت: ومنهم الشيخ المبارك الناسك جبرائيل الكرديّ، وعليه سمعت الأربعين قالوا: وكان الشيخ محيي الدين النواوي متبحراً في العلوم. متسعاً في معرفة الحديث والفقه واللغة، وغير ذلك مما قد سارت به الركبان رأساً في الزهد، قدوة في الورع عديم النظير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يواجه الأمراء والملوك بذلك، ويصدع بالحق، ولقد أنكر على الملك الظاهر حتى أغضبه وهم به البطش، فوقاه الله شره، ثم قبل منه وعظمه حتى كان يقول: أنا افزع منه قالوا: وكان لا يؤبه له بين الناس. قانعاً باليسير، راضياً عن الله، والله عنه راضٍ مقتصد إلى الغاية في ملبسه ومطعمه وأثاثه، ولي مشيخة دار الحديث، وكان لا يتناول من معلومها شيئاً بل يقتنع بالقليل مما يبعث به إليه أبوه.

قلت: ورأيت لابن العطّار جزءاً في مناقبه. ذكر فيه أشياء عزيزة من فضائله ومحاسنه وكراماته، واشتغاله بالعلم، واستعماله، وجميل سيرته، وشدة ورعه وزهادته، وغير ذلك مما لم يعرف لأحد من العلماء بعده

قلت لعمري إنه عديم النظير في زهده وورعه وآدابه، وجميل سيرته، وسائر محاسنه فيمن بعده من العلماء. اللهم إلاّ أنْ يكون السيّد الجليل ذو المجد الأثيل، والوصف الجميل الفقيه الإمام ذو الآيات العظام زين اليمن، وبركة الزمن من أحمد بن موسى المعروف بابن عجيل الآتي ذكره في سنة تسعين، وقلّ وعزّ أن يعرف لهما قبلهما أيضاً نظير في ما اتصفا به من سائر المحاسن مع صغر سنهما، ولا شك أنّ الإمام محيي الدّين النواويّ مباركٌ له في عمره، ولقد بلغني أنه حصلت له نظرة جمالية من نظرات الحقّ سبحانه بعد موته، فظهرت بركتها على كتبه، فحظيت بقبول العباد والنفع في سائر البلاد، وقد اختلف الناس فيما اختلف فيه هو والإمام الرافعيّ والفقهاء في بعض الجهات. يرجّحون قول الرافعيّ. وفي بعضها يرجّحون قوله، والذي أراه أنّ كلما اعتضد فيه بحديث يصح الاحتجاج به، فقوله: مقدم لا سيما، وقد صحّ عن الإمام الشافعيّ رضي الله عنه أنه قال: إذا صحّ الحديث، فهو مذهبي، وكذلك إن لم يعتضد بحديث لكن تكافأت الأدلة لكونه موافقاً مؤيداً مباركاً مسدداً. وإن ترجحه الأدلة في أحد الطرفين، فالراجح من الحكم ما رجحه دليله، والله أعلم.

وذكروا أنّ ترك أكله لفواكه دمشق إنما هو ورع لما في بساتينها من الشبه في ضمانها،

والحيلة فيه صرح هو رضي الله عنه بذلك، ومن المشهور أنه كان يقتدي ببعض المشائخ من الصوفية، وهو الشيخ الشهير العارف بالله الخبير الوليّ الكبير ياسين المزين، ويتأدب معه، ويجالسه ويقبل اشارته.

وأخبرني بعض العلماء الشاميين أنه أشار عليه قبل موته بقليل يرد ما عنده من الكتب المستعارة، وزيارة أهله في بلده، ففعل ذلك، ثم توفي عندهم في الرابع والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وست مائة، وفي لحيته شعرات بيض.

قلت: واعتقاد هذا السيد الكبير المتضلع من علوم المشائخ الصوفية، وصحبتهم ومحبتهم على العموم من أقوى الحجج الظاهرة على المنكرين عليهم من الخصوم، ومن كل طاعن فيهم محروم، وقد صرّح في كتابه الإذكار المشتمل على الفضائل الجمّة بكون الصوفية من صفوة هذه الأمة، وقد رأيت له مناماً يدل على عظم شأنه، ودوام ذكره لله، وحضوره وعمارة أوقاته، وشدة هيبته، وتعظيم وعده تعالى ووعيده، وحياته بعد موته، وكلمني ودعا لي، وغير ذلك مما لا تضبطه العبارة مما تميز به عن العلماء والعباده.

وقد أشرت إلى شيء من ذلك في كتاب الإرشاد قدّس الله روحه، ونوّر ضبريحه ودعاءه الذي دعا لي هو هذا، وفقك الله وزادك فضلاً أو قال: من فضله وثبتك بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وممن دعا لي أيضاً من الأولياء بعد وفاته شيخ شيخنا السيد الجليل المقدار الذي جمع من المحاسن ما لا يدخل تحت الإنحصار أبو الخطّاب عمر بن عليّ المعروف بابن الصفّار رحمه الله تعالى، وهذا دعاؤه: أصلحك الله صلاحاً لا فساد له، أو لا فساد معه في منام رأيته. أسأل الله الكريم أن يتقبل ذلك منهما، وأن يرزقنا بركتهما آمين آمين. رجعنا إلى ذكر الشيخ محيي الدّين، ولقد بلغني أنه كان تجري دموعه على خده في الليل ثم ينشد.

لئن كان هذا الدمع يجري صبابةً على غير ليلى، فهو لا شك ضائع

ورثاه غير واحد من الشعراء بمراثي حسنة رحمه الله تعالى، ونفعنا ببركته.

وفي السنة المذكورة توفي السلطان الملك الظاهر كما تقدم.

وفيها توفي الجريدلة الظاهريّ نائب سلطنة مولاه، وكان نبيلاً عالي الهمّة، وافر العقل محبباً إلى الناس منطوياً على دين ومروءة ومحبة للعلماء والصلحاء، ونظر في العلم والتواريخ رقاه أستاذه إلى أعلى المراتب، واعتمد عليه في مهماته.

قيل: إنّ شمس الدّين الفارقانيّ الذي ولّي نيابة السلطنة، سقاه السم باتفاق مع أمّ

الملك السعيد، فأخذه قولنج عظيم بقي به أياماً، ثم توفي بمصر.

وفيها توفي الشيخ خضرٍ بن أبي بكر المهرانيّ العدويّ[١] شيخ الملك الظاهر؛ كان له حال وكشف قيل: مع سفه فيه، ومردكه ومزاح. تغير عليه للسلطان بعد شدة خضوعه له، وانقياده لإرادته، وعقد له مجلساً، وأحضر من خافقه، ونسب إليه أموراً فظيعة، وأشاروا فيها بقتله، والله أعلم. بصحة ذلك، فقال للسلطان: إنّ بيني وبينك في الموت شيئاً يسيراً، فوجم لها السلطان، وحبسه في سنة إحدى وسبعين إلى أنْ توفي في سادس محرم السنة المذكورة، وتوفي السلطان المذكور في الثامن والعشرين من المحرم كما تقدم.

وفيها توفي الزكي بن الحسن المعروف بالبيلقاني أبو أحمد الشافعيّ الفقيه البارع المناظر؛ كان متقدماً في الأصولين، وغيرهما من المعقولات. أخذ عن الإمام فخر الدّين الرازيّ، وسمع من المؤيد الطوسي، وكان صاحب ثروة وتجارة، وعمر دهراً، وسكن اليمن، وتوفي بعدن قلت: وقد رأيت بعض ذريته بها ناظراً للسلطان، له عند أهل الدنيا صورة وكبرشان كذا قال بعض المؤرخين.

وقال بعض أهل الطبقات البيلقاني أبو المعالي الفقيه الشافعي الأصولي العلاّمة الشهير الأوحد شمس الدّين. تفقه بجماعة منهم الإمام فخر الأنام محمّد بن أبي بكر التوقانيّ. قرأ عليه كتاب الوجيز بقراءته على شيخه الإمام نور الدين محمّد بن محمّد التوقانيّ بقراءته على شيخه الإمام العلاّمة الشهيد أبي سعيد محمّد بن يحيى النيسابوريّ بقراءته له على شيخه، ومصنّفه الإمام حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي، وتفنن في العلوم بالعلاّمة قطب الدين ابراهيم بن عليّ الأندلسيّ المعروف بالمصري، وعاش خمساً وتسعين سنة، وتفقه به جماعة، وانتفعوا به ورووا عنه.

قلت: وبلغني فيما أظنّ أنّ بركة الزمن، وزين اليمن الإمام العلاّمة عالي المقامات، وعظيم الكرامات أبا الفدا إسماعيل ابن الشيخ الإمام علي المقام محمد بن إسماعيل الحضرميّ قرأ على البيلقاني المذكور، والله أعلم.

سنة سبع وسبعين وست مائة

فيها قدم الملك السعيد، وعمّرت القباب، ودخل القلعة، فأسقط ما وضعه أبوه على الأمراء، فسّر الناس ودعوا له.

---

(١) انظر ذيل مرآة الزمان ٣/ ٢٦٤.

وفيها توفي الفارقاني شمس الدين أقسنقر الظاهريّ[1] أستاذ دار الملك الظاهر. جعله الملك السعيد نائبه، فلم ترض خاصة السعيد بذلك، ووثبوا على الفارقاني واعتقلوه، ولم يقدر السعيد على مخالفتهم، فقيل: إنهم خنقوه، وكان وسيماً جسيماً شجاعاً نبيلاً ذا خبرة ورأي، ومهابة ووقار، وفيه ديانة وإيثار.

وفيها توفي الأديب البارع نجم الدين محمّد بن نوار الشيبانيّ الدمشقيّ الفقير صاحب الحريري، المعروف بابن إسرائيل، كان روح المشاهد، وريحانة المجامع فقيراً ظريفاً نظيفاً لطيفاً مليح النظم، رائق المعاني، وبعض الفقهاء ينكر عليه، ويقول: في بعض نظمه التصريح، وفي بعضه التلويح بالإلحاد.

وفيها توفي شيخ الحنفية قاضي القضاة أبو الفضل سليمان بن أبي العزّ الأذرعيّ أحد من انتهت إليه رياسة المذهب في زمانه.

وفيها توفي ابن حباء الوزير الأوحد الشهير عليّ بن محمّد المصري الكاتب الملقب بهاء الدين أحد رجال الدهر حزماً ورأياً وجلالةً ونبلاً وقياماً بأعباء الأمور مع الدين والفقه، والسيرة الحميدة، والمحاسن العديدة، والثروة الكثيرة، والفتوة الشهيرة ابتلى بفقد ولديه الصدر بن فخر الدين، ومحيي الدين، فصبر وتجلّد، وله من المناقب والمفاخر حظّ وافر كثير.

سنة ثمان وسبعين وست مائة

فيها اختلف خواص الملك السعيد عليه، وخرج بعضهم عن الطاعة، وتابعه نحو أربع مائة من الظاهرية، فعسكر بالقطيفة ينتظر الجيش الذين ساروا للإغارة على بلاد (سيس) مع الأمير سيف الدين قلاوون، فقدموا ونزل الكلّ في بعض المنازل، وراسلوا الملك السعيد، ثم اجتمع مقدم الخارجين عن الطاعة سيف الدين قلاوون، وغيره من كبار الجيش، وأفسد نياتهم، واستمروا كلهم إلى مصر، فسار وراءهم، وبعث خزاينه إلى الكرك، ثم دخل قلعة القاهرة بعد مناوشة وحروب، قتل جماعة، ثم حاصروه بالقلعة حتى ذلّ لهم، وخلع نفسه من السلطنة، وقنع بالكرك، ورتّبوا في السلطنة أخاه سلامش بالسين المهملة في أوّله والمعجمة في آخره، وعمره سبع سنين، وجعلوا أتابك سيف الدّين قلاوون، وجعل نيابة دمشق لسنقر الأشقر[2]، ثم ترتب في السلطنة الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحيّ في الحادي والعشرين من رجب من غير نزاع ولا قتال، ولا اختلف عليه اثنان، وحلف له

(١) انظر ذيل مرآة الزمان ٣/٢٩٨.

(٢) سنقور الأشقر وفيات الأعيان ٤/١٥٦.

أمراء الشام، وسئل من الوسط سلامش، وفي أواخر ذي الحجّة. ركب سنقر بعد العصر من الدار المسمّاة عندهم دار السعادة، وهجم القلعة، فملكها، وحلفوا له وأعلنوا بالبشائر والأفراح في الحال، ولقبوه بالسلطان الملك الكامل شمس الدين سنقر الصالحيّ، وقبض على نائب القلعة حسام الدّين لاجين وغيره ممن لم يحلف له من الأمراء.

وفيها توفي شيخ الشيوخ شرف الدّين عبدالله ابن شيخ الشيوخ تاج الدين عبدالله بن عمر الجوينيّ.

وفيها توفي الشيخ نجم الدين ابن الحكيم عبدالله بن محمّد الحمويّ الصوفي، كان له زاوية بحماة، وفيه أخلاق حميدة، وتواضع وخدمة للفقراء. صحب الشيخ إسماعيل الكورانيّ، وتوفي بدمشق اتفاقاً، فدُفن بمقابر الصوفية.

وفيها توفي الشيخ عبد السّلام بن أحمد ابن الشيخ القدوة غانم بن علي المرسي الواعظ أحد المبرزين في الوعظ، والنظم والنثر.

وفيها توفي السّلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد ابن الملك الظاهر[١]، وكان كريماً حسن الطباع فيه عدل ولين واحسان ومحبة للخير خلوه من الأمر كما تقدم مات بقلعة كرك، ثم نقل بعد سنة ونصف إلى تربة والده، وتملك بعد الكرك أخوه خضر.

سنة تسع وسبعين وست مائة

فيها تحارب المصريّون والشاميّون، وقاتل سنقر الأشقر بنفسه قتالاً ظهرت فيه شجاعته. لكن خامر[٢] عليه أكثر عسكره وخذلوه، وبقي في طائفة قليلة، فانصرف ولم يتبعه أحد، ونزل المصريون في خيام الشاميين، وحكم مقدم مهنا بدمشق، وسار سنقر إلى الرحبة، وجاء تقليد دمشق لحسام الدين لاجين المنصوريّ وجعل للسفح من السلطان عمن قام مع سنقر، ثم توجه هو إلى سواحل الشام، فاستولى على بلدان كثيرة، ثم بعد أيام وصلت التتار إلى حلب، فماتوا ووضعوا السيف، ورموا النار في المدارس، وأحرقوا منبر الجامع، وأقاموا يومين، ثم ساقوا المواشي والغنائم.

وفي آخر السنة سار السلطان إلى الشام غازياً فنزل قريباً من عكا، فخضع له أهلها، وراسلوه في الهدنة، وجاء إلى خدمته عيسى بن مهنّا، وصفح عنه وأكرمه.

(١) انظر وفيات الأعيان ٤/١٥٦.
(٢) خامر: خالط وقارب. و ـ استتر.

وفيها توفي محمد بن داود البعلبكيّ الحنبليّ وفيها توفي الفقيه المعمّر أبو بكر بن هلال الحنفي رحمهما الله تعالى.

وفيها توفي أبو القاسم بن الحسين الحلبي الرافضيّ، الفقيه المتكلم شيخ الشيعة، وعالمهم. سكن حلب مدة، وصفع بها لكونه سبّ الصحابة.

سنة ثمانين وست مائة

فيها قبض السّلطان على جماعة من الأمراء، فهرب السعديّ والهارونيّ إلى عند سنقر، ودخل السلطان دمشق، وبعث عسكراً حاصروا شيراز[١]، وأخذوها فرضي سنقر، وصالح السلطان، فأطلق له عدة بلدان منها أنطاكية وغيرها.

وفي رجب كانت وقعة حمص. أقبل سلطان التتار يطوي البلاد بجيوشه من ناحية حلب، وسار السلطان بجيوشه، فالتقوا شمالي تربة خالد بن وليد، وكان ملك التتار في مائة ألف، والمسلمون في خمسن ألفاً أو دونها، فحملت التتار، واستظهروا واضطربت ميمنة المسلمين، ثم انكسرت الميسرة مع طرف القلب، وثبت السلطان بحلقته، واستمرت الحرب من أوّل النهار إلى اصفرار الشمس، وحملت الأبطال بين يدي السلطان عدة حملات، وتبين يومئذٍ فوارس الإسلام الذين لم يخلفهم الوقت مثل سنقر، والوزيري السعدي، وأزدمر حسام الدين لاجين، وعلم الدويداريّ وغيرهم قال: واستغاث الخلق والأطفال، وتضرعوا إلى الله تعالى، فنزل المدد من الله تعالى والنصر وفتح الله، فانكسر أعداء الله، وأصيب ملكهم بطعنة يقال أنها من يد الشهيد أزدمر، وطلع من جهة الشرق عيسى بن مهنّا، فاستحكمت هزيمتهم، وركب المسلمون أقفيتهم والحمد لله.

وفيها توفي الشيخ المفسّر العلّامة المقرىء المحقق الزاهد القدوة موفق الدين أبو العباس يوسف بن حنين الشيبانيّ الموصليّ الكواشيّ. ولد بكواشة قلعة من نواحي الموصل، واشتغل حتى برع في القراءات والتفسير والعربية، وكان منقطع القرين ورعاً وزهداً وصلاحاً وتبتّلاً، وله كشف وكرامات.

وفيها توفي الزاهد القدوة الشافي أبو الحسين عليّ بن أحمد الجوزيّ. صاحب حال وكشفٌ وعبادة وتبتّل.

وفيها توفي ابن بنت الأعز قاضي القُضاة صدر الدّين عمر ابن قاضي القضاة تاج الدّين

---

(١) شيراز: بلد عظيم مشهور معروف، وهو قصبة بلاد فارس معجم البلدان ٣/ ٤٣١.

عبد الوهّاب العلائيّ الشافعيّ المصريّ، ولي قضاء الديار المصرية نحو سنة، ثم عزل، وتوفي يوم عاشوراء.

وفيها توفي ابن سني الدولة قاضي القُضاة أحمد ابن قاضي القُضاة يحيى الدمشقيّ الشافعيّ، وليّ القضاء، ثم عُزل بعد سنة بابن خلّكان، ثم سكن مصر وصودر، ثم وليّ قضاء حلب، وكان يُعدّ من كبار الفقهاء العارفين بالمذهب مع الهيبة والتحري.

وفيها توفي شيخ الإسلام قاضي القُضاة المعروف بابن رزين تقي الدّين أبو عبدالله محمد بن الحسين العامريّ الحمويّ الشافعيّ، ولد سنة ثلاث وست مائة، واشتغل من الصغر، وحفظ التنبيه والوسيط والمفصل والمستصفى للغزالي وغير ذلك، وبرع في الفقه والعربية والأصول، وشارك في المنطق والكلام والحديث وفنون من العلوم وأفتى، وله ثمان عشر سنة، أخذ الفقه عن ابن الصّلاح، والقراءات عن السخاويّ، وكان يفتي بدمشق في أيام ابن الصّلاح، ويؤم بدار الحديث، ثم وليّ الوكالة في أيام النّاصر مع تدريس الشامية، ثم تحول إلى مصر، واشتغل ودرس بالظاهرية، ثم وليّ قضاء القُضاة، فلم يأخذ عليه رزقاً، وتديناً وورعاً، وتفقه به عدة أئمة، وانتفعوا بعلمه وهديه وشيمه وورعه، وتوفي في ثالث رجب.

وفيها توفي الحافظ أبو حامد المعروف بابن الصابونيّ محمّد بن عليّ شيخ دار الحديث النورية حصل الأصول، وجمع وصنف.

وفيها توفي الشاعر المشهور يوسف بن لؤلؤ[1] من كبار شعراء الدولة الناصرية.

سنة احدى وثمانين وست مائة

وفيها توفي قاضي القُضاة شمس الدين أبو العبّاس أحمد بن محمّد الإربليّ الشافعيّ المعروف بابن خلّكان صاحب التاريخ، ولد سنة ثمان وست مائة، وسمع البخاريّ من ابن مكرم، وأجاز له المؤيد الطوسيّ وجماعة، وتفقه بالموصل على الكمال بن يونس، وبالشام على ابن شدّاد، ولقي كبار العلماء، وبرع في الفضائل والآداب، وسكن مصر مدة، وناب في القضاء، ثم وليّ قضاء الشام عشر سنين معزولاً به عزّالدين ابن الصائغ، وعزل بعزّالدين المذكور، فأقام سبع سنين معزولاً بمصر، ثم رُدَّ إلى قضاء الشام، وعزل به ابن الصباغ، وتلقاه يوم دخوله نائب السلطنة، وأعيان البلد، وكان يوماً مشهوداً قلّ أن رأى قاضٍ مثله، وكان عالماً بارعاً عارفاً بالمذهب وفنونه. شديد الفتاوى جيد القريحة. وقوراً رئيساً، حسن المذاكرة، حلو المحاضرة، بصيراً بالشعر، جميل الأخلاق سرياً ذكياً اخبارياً عارفاً بأيام

(١) انظر ذيل مرآة الزمان ٤/ ١٣٤.

الناس. له كتاب وفيّات الأعيان، وهو من أحسن ما صنّف في هذا الفن.

قلت: ومن طالع تاريخه المذكور، طلع على كثرة فضائل مصنفه، وما رأيته يتتبع في تاريخه إلاّ الفضلاء، ويطنب في تعديد فضائلهم من العلماء خصوصاً علماء الأدب والشعراء، وأعيان أولى الولايات، وكبراء الدولة من الملوك والوزراء والأمراء، ومن له شهرة وصيت في الورى. لكنه لم يذكر فيه أحداً من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ولا من التابعين رحمة الله عليهم، إلاّ جماعة يسيرة تدعو حاجة كثيرة من الناس إلى معرفة أحوالهم. كذا قال في خطبته قال: وكذلك الخلفاء لم أذكر أحداً منهم اكتفاء بالمصنّفات الكثيرة في هذا الباب.

قلت: كأنه يعني بالخلفاء المذكورين الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم، وما كان حاجة إلى ذكرهم، فإنه قد ذكر أنه لم يذكر أحداً من الصحابة، وكان حقّهم أن يذكرهم قبل التابعين. بل قبل الصحابة، وكلامه هذا يوهم أنه لم يذكر أحداً من الخلفاء الذين هم الملوك من بني العبّاس وغيرهم، وليس كذلك بل قد ذكرهم، فليفهم ذلك فإنه موهم.

رجعنا إلى تمام كلامه قال: لكن ذكرت جماعة من الأفاضل الذين شاهدتهم، ونقلت عنهم، أو كانوا في زمني، ولم أرهم ليطلع على حالهم من يأتي من بعدي.

قلت: وكلامه هذا أيضاً ليس بصائب، فإنه يوهم أنه لم ينقل إلاّ عن الذين عاصرهم، وليس بصحيح، فإنه لم يقتصر على ذلك بل هو كما ذكر في خطبته قبل هذا قال: ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء والملوك والأمراء والوزراء والشعراء، بل كل من كان له شهرة بين الناس، ويقع السؤال عنه قال: وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمّة، أو نادرة شعر أو رسالة ليتفقه[1] متأمله، ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد، فيملّه، والدواعي إنما تنبعث لتصفُّح الكتاب إذا كان مُفَنَّناً.

وذكر أنه كان ترتيبه لتاريخه المذكور في شهور سنة أربع وخمسين وست مائة بالقاهرة المحروسة. ثم قال في آخره: نجز الكتاب بحمد الله وعونه في يوم الاثنين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين وست مائة بالقاهرة المحروسة، ثم قال: يقول الفقير إلى الله تعالى أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلّكان مؤلّف هذا الكتاب: إنني كنت قد شرعت في هذا الكتاب في التاريخ المذكور في أوّله على الصورة التي شرحتها هناك مع استغراق الأوقات في فصل القضايا الشرعية والأحكام الدينية بالقاهرة المحروسة، فلما انتهيت فيه إلى آخر ترجمة يحيى بن خالد حصلت لي حركة إلى الشام المحروس في خدمة

(١) ليتفكّه وفيات الأعيان ١/ ٢٠.

الركاب الشريف العالي المولويّ السلطان المؤيديّ المنصوريّ الغياثيّ المالكيّ الظاهريّ بيبرس قسيم أمير المؤمنين خلّد الله تعالى سلطانه، وشيّد بدوام دولته قواعد الملك، وثبّت أركانه، فدخلنا دمشق سابع ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وست مائة، وقلّدني الأحكام بالبلاد الشامية يوم الخميس ثامن ذي الحجّة من السنة المذكورة، فتراكمت الأشغال، وكثرت الموانع الصارفة عن إتمام هذا الكتاب، فاقتصرت على ما كان قد أثبته من ذلك، وختمتُ الكتاب، واعتذرت في آخره بهذه الشواغل عن إكماله، وقلت: إن قدر الله تعالى مهلة في الأجل، وتسهيلاً في العمل استأنفت كتاباً يكون جامعاً لجميع ما تدعو ا لحاجة إليه، ثم حصل الانفصال عن الشام والرجوع إلى الديار المصرية، وكانت مدّة المقام بدمشق المحروسة عشر سنين لا تزيد ولا تنقص، فلما وصلتُ إلى القاهرة صادفتُ بها كتباً كنت أوثر الوقوف عليها، وما كنت أتفرغ لها، فلما صرت أفرغ من حجام ساباط بعد أن كنت أشغل من ذات النحيين كما يقال في هذين المثلين. طالعت تلك الكتب وأخذت منها حاجتي، ثم تصدّيت لإتمام هذا الكتاب حتى كمل على هذه الصورة، وأنا على عزم الشروع في الكتاب الذي وعدت به إن قدّر الله عزّ وجلّ ذلك، والله تعالى يُعين عليه، ويسهّل الطريق المؤدية إليه. فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم، ورأى فيه شيئاً من الخلل، فلا يعجل بالمؤاخذة، فإني توخّيت فيه الصحّة حسب ما ظهر لي مع أنه كما يقال: أبى الله أن يصحّ إلاّ كتابه. لكن هذا جهد المقلّ، وبذل الاستطاعة، ولا يكلّف الله نفساً إلا وسعها، ولا يكلف الإنسان ما لا تصل قدرته إليه، وفوق كل ذي علم عليم، فالله يستر عيوبنا بكرمه الضافي، ولا يكدر علينا ما منحنا به من مشرع اعطائه النمير الصافي. إن شاء الله تعالى.

انتهى كلامه مع حذفي لألفاظ يسيرة منه كقوله السّلطان الماجديّ المرابطيّ الشاعريّ المنعميّ المحسنيّ مما يطنب فيه من مدح أهل الدنيا من الملوك وغيرهم، وألفاظ أخرى لا تدعو الحاجة إلى استيعابها ذكراً، وغفرانك اللهم غفراً، ثم عزل القاضي شمس الدّين المذكور بابن الصبّاغ[1] ثانياً واستمر معزولاً وبيده المدرسة الأمينية والنجيبية إلى أن توفي في شهر رجب في السنة المذكورة، وشيّعه خلق كثير.

وقد روى عنه قاضي القُضاة نجم الدين ابن صصريّ وبه تخرّج الشيخ أبو الحجّاج المزّيّ، ومؤرخ الشام الحافظ علم الدين البرزاليّ وخلق، ومن شعر القاضي شمس الدين ابن خلّكان:

أيُّ ليل على المحبّ أطالهْ سائقُ الظّعْنِ يومَ زَمَّ رحالهْ[2]

(١) ابن الصائغ وفيات الأعيان ٧/١.

(٢) جماله وفيات الأعيان ١١/١.

يـزجـرُ العيسَ طـاويـاً يقطـعُ المهمـه عسفـاً سهـولَـهُ ورمـالَـهْ
يسألُ الـرَّبـعَ عـن ظبـاءِ المصلّـى مـا علـى الـرَّبـعِ لـو أجـاب سـؤالَـهْ
هـذه سُنّـةُ المحبيـن يبكـونَ علـى كـلِّ منـزل لا مَحَـالَـهْ

مع أبيات أخرى منها.

يـا عـريـب الحمـى اعـذرونـي فـإنـيّ مـا تجنبـت أرضكـم عـن مـلالـه
فصلـونـا إن شئتـم، أو فصـدّوا لا عـدمنـاكـم علـى كـلّ حـالـه

وفي السنة المذكورة توفي الشيخ عبدالله بن أبي بكر الخريبي، بقيّة شيوخ العراق. كان صاحب أحوال وكرامات، وله أصحاب وأتباع، تفقه وسمع الحديث قال الذهبيّ: كان شيخنا شمس الدّين الدباهيّ يُحكى عنه عجائب كرامات.

وفيها توفي الشيخ الإمام زين الدّين عبد السّلام بن عليّ المالكيّ[١] القاضي المقريّ شيخ المقرئين، برع في الفقه وعلوم القرآن والزهد والإخلاص، وقرأ القراءات على السخاويّ، وولي مشيخة الإقراء بتربة أمّ الصالح اثنتين وعشرين سنة، وقرأ عليه خلق كثير، ووليّ القضاء تسعة أعوام، ثم عزل نفسه يوم موت رفيقه شمس الدين بن عطار، واستمر على التدريس والإقراء، وتوفي في رجب رحمه الله تعالى.

وفيها هلك طاغية التتار والمغل؛ كان نصرانياً خرج يوم المصاف على حمص، وحصل له ألم وغمّ بالكسرة، واعتراه فيما قبل صرع متدارك كما اعترى أباه هولاكـو، وهلك في أوائل المحرم إلى لعنة الله تعالى.

سنة اثنتين وثمانين وست مائة

فيها توفي الشهاب ابن تيمية أبو حامد عبد الحليم بن عبد السّلام الحرّاني الحنبليّ، تفقّه على والده، ثم انتقل ورحل في صغره، فسمع بحلب من جماعة، وصار شيخ حرّان وحاكمها وخطيبها بعد موت والده، ثم انتقل بآله وأصحابه إلى بلاد الشام.

وفيها توفي الشيخ الإمام شمس الدين عبد الرّحمن ابن القدوة الزاهد محمد بن أحمد بن قُدامة المقدسيّ الحنبليّ[٢] تفقه على عمّه الموفق، وبحث عليه المقنع وعرضه،

---

(١) وهو أول من ولي قضاء المالكية بدمشق، وانتهت إليه رياسة الإقراء فيها، ولد بباجة وانتقل إلى مصر ثم إلى دمشق، وتوفي
بها من كتبه «عدد الآي» و «التنبيهات على معرفة ما يخفى من الوقوفات» الأعلام ٦/٤.

(٢) انظر ذيل مرآة الزمان ١٨٦/٤.

وصنّف له شرحاً في عشر مجلدات، قيل: وكان منقطع القرين عديم النظير علماً وفضلاً وجلالةً، وقد جمع المحدّث نجم الدين إسماعيل بن الخبّاز له سيرة في مائة وخمسين جزءاً لكن ثلاثة أرباعها لا تعلق له بترجمته الأعلى سبيل الاستطراد.

وفيها توفي العماد الموصليّ أبو الحسن بن يعقوب المقرىء الشافعيّ، انتهت إليه رياسة الإقراء، وكان فصيحاً مفوّهاً فقيهاً مناظراً. كرر على الوجيز للغزاليّ.

وفيها توفي الرشيد الصدر الأوحد المحيي ابن القلانسي أبو الفضل يحيى بن علي التميمي الدمشقيّ المقدسيّ.

وفيها توفي المفتي شمس الدين أحمد الشافعي، مدرّس الشامية، ولّي نيابة القضاء عن ابن الصائغ؛ وكان بارعاً في المذهب. متين الديانة خيراً ورعاً رحمه الله.

سنة ثلاث وثمانين وست مائة

في شعبان كانت الزيادة الهائلة بدمشق بالليل هكذا هو الزيادة في الأصل الذي وقفت عليه من الذهبيّ، وما يظهر لي معنى صحيح، ولعله الزلزلة، والله أعلم، فخربت البيوت وانظمت الأنهار.

وفيها توفي ابن المُنير الإمام العلاّمة ناصر الدين أحمد بن محمد الجذامي الاسكندرانيّ المالكيّ قاضي الاسكندرية وفاضلها في الفقه والأصول والعربية والبلاغة، وصنّف التصانيف.

وفيها توفي ابن البارزيّ قاضي القُضاة، وابن قاضيها، وأبو قاضيها نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم بن هبة الله الجهنيّ، الشافعيّ[1]، كان بصيراً في الفقه والأصول والكلام والأدب، وله شعر بديع، وديانة متينة، وصدق وتواضع، توفي بتبوك في ذي القعدة، فحمل إلى المدينة الشريفة.

وفيها توفي عيسى بن مهنّا[2] ملك العرب بالشام، ورئيس أهل الفضل؛ كانت له المنزلة العالية عند السلطان، وصيت شائع في البلدان قلت: ومن صيته الشهير والتفخيم له والتعظيم ما وقع له من بعض قومه في بعض الأيام، وذلك أنّي كنت يوماً ماراً إلى القرافة[3]، فلما بلغت تحت قلعة السلطان، رأيت جماعة كثيرين مجتمعين على شيء،

---

(١) ولد بحماه، وتوفي في طريقه إلى الحج بقرب المدينة فحُمل إليها ودُفن في البقيع الأعلام ٣/ ٣٤٣.

(٢) انظر ذيل مرآة الزمان ٤/ ٢٣١.

(٣) القَرَافة: خطة الفسطاط من مصر كانت لنبي غُصن بن سيف، وقرافة بطن من المعافر نزلوها فسميت بهم معجم البلدان ٤/ ٣٥٩.

فاستشرفت نفسي إلا الإطلاع على ذلك الشيء، فإذا هو رباب يسمعها عرب مهنّا من واحد منهم، فلما دنوت منهم أنكرت، فقلت له: اسكت فما سكت به صاحب الرباب، وعرفت أنه لا يلتفت إلى قولي لكوني فقيراً حقيراً لا أعرف في ذلك المكان، وهم وفد عزيز كريم على السلطان، فهولت عليه بالصياح في قولي له اسكت مع تكرير هذه الكلمة حتى أوهمته أنّ لي شوكة فرفع رأسه إليّ وسكت، فقلت له: أما علمت أنّ هذا الفعل حرام، فقال: من حرّمه، فقلت: الله عزّ وجلّ ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: إلاّ على آل عيسى، فعجبت من قوله، وشدة جهله، وعرفت أنّ ما لعلته طبّاً شافياً، ولا طبيباً مداوياً، فذهبت وخليتهم، توفي عيسى المذكور في الربيع الأول، وقام بعده ولده الأمير حسام الدين مهنّا صاحب تدمر.

وفيها توفي ابن الصائغ قاضي القُضاة أبو المفاخر محمد بن عبد القادر الأنصاريّ الدمشقيّ الشافعيّ، كان عارفاً بالمذهب بارعاً في الأصول والمناظرة، درّس بالشامية مشاركة مع شمس الدين المقدسيّ، ثم وليّ وكالة بيت المال، ثم وليّ قضاء الشام، وعزل به ابن خلكان، وظهر منه نهضة وشهامة وقيام في الحق بكل ممكن مع زعارة وفظاظة واهمال بجانب الأكابر من أهل زمانه، فقاموا عليه ناهضين لخفض شأنه، متعرضين له مقابلين بالبغضاء ساعين فيه حتى عزل عن القضاء بالذي عزل به ابن خلكان، وأنشد لسان حال الزمان: أيّها الإنسان كما تدين تُدان، وذلك في سنة سبع وسبعين، ثم أُعيد إلى منصبه في سنة ثمانين، ثم أنهم قاموا له أيضاً وعرضوه بجمر الغضا. نعوذ بالله من سوء القضا فامتحن في سنة اثنتين وثمانين، وأركبوه متن الأخطار، وأخرجوا عليه محضراً بنحو مائة ألف دينار، ولم يزل يلقى منهم شدة وبلاء إلى أن خلّصه الله تعالى، وولّوا مكانه القاضي بهاء الدين ابن الزكي، وانقطع هو بمنزله بعد ما تمت فصول على ما حكي في ربيع الآخر، وابن خلكان في سنة إحدى كما تقدم بتقدير ذي الحكمة البالغة، والحكم المحكم.

وفيها توفي الملك المنصور صاحب حماة ناصر الدّين محمّد ابن الملك المظفر تقيّ الدّين محمود بن المنصور محمد بن عمر ابن شاهنشاه بن أيوب، تملك بعد أبيه سنة اثنتين وأربعين، وعمره عشر سنين[1] رعاية لأمه الصاحبة بنت الكامل، وكان مذموماً في ديانته على ما قيل الله تعالى يسامحه.

وفيها توفي السيد الإمام الكبير الشأن، القدوة المشكور الشيخ أبو عبدالله محمد بن موسى بن النعمان التلمسانيّ قدم الاسكندرية شاباً فسمع بها من محمد بن عمّار

(١) تقلّد الملك بعد وفاة والده، وعمر عشر سنين وشهر واحد وثلاثة عشر يوماً. ذيل مرآة الزمان ٢٣٦/٤.

والصفراويّ، كان عارفاً بمذهب مالك راسخ القدم في العبادة والنسك سالكاً في محاسن المسالك، قال الذهبيّ: كان أشعرياً منحرفاً على الحنابلة، هذه عبارة فيها من الغض له ما فيها كما عرف من عادته من التنقيص من أئمة منهج الحق وسادته، وكانت وفاته في رمضان، ودفن بالقرافة، وشيّعه أمم قدّس الله روحه، قلت: وله مناقب مشهورة ومشكورة.

سنة أربع وثمانين وست مائة

فيها توفي النسفيّ الإمام العلاّمة برهان الدّين محمّد بن محمّد بن محمّد الحنفيّ المتكلّم صاحب التصانيف في الخلاف يتخرّج به خلق، وطالت حياته. كان مولده في سنة ست مائة.

وفيها توفيت ستّ الغرب أمّ الخير بنت يحيى الدمشقية الكنديّة، سمعت من مولاهم التاج الكنديّ، وحضرت سماع الغيلانيات على ابن طبرزد.

وفيها توفي الصائن مقرىء بلاد الروم المجود الضرير أبو عبدالله محمّد البصريّ، قرأ القراءة، وكان بصيراً بمذهب الشافعيّ خيّراً صالحاً.

وفيها توفي شبل الدولة الطواشيّ الأمير أبو المسك كافور[1] الصوابيّ الصالحيّ خزندار[2] قلعة دمشق، روى عن جماعة، وكان محبّاً للحديث عاقلاً ديّناً.

وفيها توفي ابن شدّاد الرئيس المنشىء البليغ محمّد بن إبراهيم الأنصاريّ، الحلبيّ، الذي جمع السيرة للملك الظاهر، وجمع تاريخاً لحلب.

وفيها توفي الحرّانيّ الأمير ناصر الدّين محمد ابن الافتخار، والي دمشق ومشيّد الأوقاف، كان من عقلاء الرجال وألبهائم مع الفضيلة والديانة والمروءة، الكاملة النافذة في الدولة استعفى من الولاية، فأعفي، ثم أكره على نيابة حمص، فلم تطل مدته بها، وتوفي فنقل إلى دمشق.

وفيها توفي الشيخ الجليل شرف الدّين محمد بن الحسن الإخميميّ، نزيل سفح قاسيون، كان صاحب توجه وتعبّد وزهد، وللناس فيه عقيدة عظيمة.

---

(١) انظر ذيل مرآة الزمان ٤/ ٢٧٠.

(٢) خزندار: ممسك الخزائن. أي أمين الخزينة صبح الأعشى ٥/٨٨.

سنة خمس وثمانين وست مائة

فيها أخذت الكرك من الملك مسعود خضر ابن الملك الظاهر، ونزل منها وسار إلى مصر[١].

وفيها توفي الشريشي العلاّمة جمال الدّين محمد بن أحمد البكريّ المواكيّ الأندلسيّ الفقيه المالكيّ الأصولي المفسّر[٢] كان بارعاً في ذلك مهذباً محققاً للعربية، عارفاً بالكلام والنظر، جيد المشاركة في العلوم، ذا زهد وتعبد وجلالة.

وفيها توفي ابن الزكيّ قاضي القُضاة محيي الدّين أبو المعالي محمّد ابن قاضي القُضاة زكي الدين عليّ ابن قاضي القضاة منتجب الدّين[٣] محمّد بن يحيى القرشيّ الدمشقيّ الشافعيّ.

سنة ست وثمانين وست مائة

فيها توفي ابن عساكر ذو المجد والمفاخر الإمام الزّاهد المحدّث الماهر أمين الدّين أبو اليمن عبد الصمد بن عبد الوهّاب بن زين الأمناء الدمشقيّ. المجاور بمكة روى عن جدّه، وعن الشيخ الموفّق وطائفة، وكان صالحاً خيّراً قويّ المشاركة في العلم بديع النظم، لطيف الشمائل، صاحب توجّه وصدق جاوز أربعين سنة، وتوفي وقد نيف على السبعين، قلت: ومن نظمه وقد دعاه الوزير ذو المحاسن والغرائب الحسناء الموصوف المعروف بابن حنّا إلى التدريس لما بلغه من فضله وجميل وصفه الأسنى قصيدة من جملتها هذه الأبيات:

يا من دعاني إلى أبوابه كرماً ... إنّي إلى باب بيت الله أدعوكا
ومن حداني إلى تدريس مدرسة ... إنّي إلى السعي والتطواف أحدوكا
أبيت لله جاراً لا ألوذ بما ... شيء سواه، وهذا القدر يكفيكا
وأنثني طائفاً من حول كعبته ... أرى ملوك الدنا عندي مماليكا

وفيها توفي قطب الدين ابن القسطلانيّ الكبير المحدث الشهير محمّد بن أحمد بن عليّ المكيّ[٤] ثم المصريّ، ولد سنة أربع عشرة وست مائة، وسمع من شيخ عصره عارف بالله

---

(١) انظر ذيل مرآة الزمان ٤/٢٨١.
(٢) محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن سمحان. أبو بكر جمال الدين الوائليّ البكريّ الشافعي الشريشي ذيل مرآة الزمان ٤/٢٩٢.
(٣) منتخب الدين ذيل مرآة الزمان ٤/٣٠٨.
(٤) انظر البداية والنهاية ٩/١٩٨.

إمام الطريقة، ولسان الحقيقة شهاب الدين السهرورديّ، ومن الإمام المحدّث أبي الحسن عليّ بن البنّا وجماعة، وتفقه وأفتى، ثم رحل سنة تسع، وسمع ببغداد ومصر والشام والجزيرة حتى بلغني أنّ له ألف شيخ، وكان ممن جمع بين العلم والعمل والورع وخوف الله عزّ وجل، وولِيَ مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة بعد قدومه إلى الديار المصرية بعد أنْ طلب من مكة المشرفة على ما ذكر بعض من له بالتواريخ معرفة، وأبوه الشيخ أبو العبّاس القسطلانيّ المتقدم ذكره، المعروف بزاهد مصر، تلميذ الشيخ الكبير الولي الشهير أبي عبدالله القرشيّ، وأمّه المرأة الولية الصالحة زوجة الشيخ القرشيّ المذكور. تزوجها أبوه بعد وفاة الشيخ بإشارة من الشيخ بعد موته، فولدت له ولداً مباركاً، كان مكاشفاً من صغره، ثم توفي فلما حضرته الوفاة حزنوا عليه، فقال لهم: لا تحزنوا، فسوف يأتي بعدي لكم ولد عالم صالح يكون من صفته كذا وكذا، فولدت أمّه بعده الشيخ الإمام قطب الدّين المذكور ذا المحاسن، والفضل المشهور.

وفيها توفي البدر بن مالك أبو عبدالله محمّد ابن العلاّمة جمال الدّين محمد بن عبدالله بن مالك الطائيّ الجيانيّ، ثم الدمشقيّ، شيخ العربية وإمام أهل اللسان، وقدوة أرباب المعاني والبيان. قال الذهبي: كان ولده الملقّب بدر الدين المذكور ذكيّاً عارفاً بالمنطق والأصول والنظر، لكنه كان لعاباً معاشراً توفي بالقولنج في ثامن المحرم، ولم يتكهّل.

قلت: هكذا ذكر الذهبيّ، وهو خلاف ما رأيت من ترجمته في شرح الألفية، فإنه مكتوب فيه شرح الخلاصة في النحو للشيخ الإمام العالم العامل الورع الزاهد حجّة العرب لسان الأدب قدوة البلغاء والفُصحاء بدر الدين محمّد ابن الإمام العالم حجّة العرب أبي عبدالله بن مالك الطائيّ، هكذا رأيت في الشرح المذكور، والله أعلم به وبجميع الأمور، وعلى الجملة فقط أخطأ أحد المترجمين إذ لا يمكن الجمع بين وصفين متناقضين، فإن كان كما ذكره القادح، فكان حق المادح أن يمدحه بما فيه من العلم دون ما ذكر من كونه عاملاً ورعاً زاهداً، وإن كان كما ذكره المادح، فالذّام الواصف له بالوصف المذكور مرتكبٌ إثماً عظيماً، فإن قدحه فيه يبقى على تعاقب الدهور، لكن الذهبيّ معروف بمعرفة علم التاريخ، وأحوال أوصاف الناس الظاهرة، ولكن كان ينبغي على تقدير صحة قوله أن يعرض بذمه، ووصفه القبيح، ولا يصرح به هذا التصريح.

سنة سبع وثمانين وست مائة

فيها توفي الإمام المحدّث الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز الرعينيّ الأندلسيّ المالكيّ، سمع من جماعة، وسكن دمشق، وقرأ الفقه، وتقدم في الحديث مع الزهد،

والعبادة والإيثار، والصفات الحميدة، والحرمة والجلالة ناب في القضاء، ثم ولي مشيخة دار الحديث الظاهرية.

وفيها توفي الشيخ إبراهيم بن معصار أبو إسحاق الجعبريّ الزاهد الواعظ المذكور، روى عن السخاويّ، وسكن القاهرة، وكان لكلامه وقع في القلوب لصدقه واخلاصه، وصدعه بالحق.

قلت: هذه ترجمة الذهبي بحروفها، وهي ناقصة في حقّه قاصرة، بل غاضة من قدره ومناقبه الفاخرة، فإنه الشيخ الكبير الوليّ الشهير العارف بالله. الخبير ذو المقامات العليّة، والأحوال السنية، والأنفاس الصادقة، والكرامات الخارقة، والآيات الباهرة، والمناقب الزاهرة، واللسان البارع، والمقال الصادع، والنور الساطع، والسيف القاطع سيرته مشكورة، وكراماته مشهورة، وله بدايات هائلة ونهايات طائلة.

ومن كراماته أنّه جاء قبل موته إلى موضع قبره، ثم قال: يا قبير قد جاءك زبير، ومكث هنالك ليس به علّة ولا مرض، ثم توفي عن قريب، ووصل إلى المنى بلقاء الله تعالى عزّ وجلّ والفرض.

وحضر يوماً ميعاده الشيخ العارف ذو المعارف واللطائف أبو محمّد المرجانيّ مستخفياً. فقال في أثناء كلامه: جاءكم المرجانيّ، وكان بعض الأمراء قد ترك ولازم مجالسته مدّه من الزمان، فقطعوا خيره من الديوان، فقال له الأمير المذكور: إيش ترى في هذا اسكت عنهم في هذا الأمر أم أتكلم؟ فقال له الشيخ: لا ما تسكت، ثم استدعى الشيخ بورقة، وكتب فيها، أيتها الكلاب الزويرية اتركن من اللحم على العظم بقيّة تأكلها الكلاب البلدية، ثم أرسل بها إلى أهل الدولة، وكان السلطان هو الملك الظاهر، فوقف عليها كبَراء الدولة، ثم أوقفوا عليها السلطان المذكور، فغضب وهمّ للسطوة، فقيل له: إنّ هذا الشيخ من صفته كيت وكيت، فسكت وأعادوا لذلك الأمير خيره هذا معنى القضية، وإن اختلف بعض الألفاظ، وكان مذهبه المحو الكليّ، واظهار الإفلاس والعدم، وهو القائل في معارضة قول الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه:

أنا بلبل الأفراح املأ دوحها طرباً وفي العلياء باز أشهب

وهذا البيت من جملة أبيات كثيرة قدمتها في ترجمة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فقال الشيخ المذكور في معارضة البيت المذكور:

أنا صرد المرحاض أملأ بيره نتناً وفي البيداء كلبٌ أجرب

ودخل عليه يوماً بعض أصحابه، فقال له: يا سيدي سمعت بيتين من منشد فأعجباني. فقال له: ما هما فقال:

وقـــائلـــة أنفقـــت عمـــرك مســـرفـــاً   علـــى مســـرف فـــي تيهـــهِ ودلالـــهِ
فقلـــت لهـــا: كفّـــي عـــن اللـــوم أننّـــي   شغلـــت بـــه عـــن هجـــرهِ ووصـــالـــهِ

فقال له الشيخ: ما هذا مقامك ولا مقام شيخك فأطرق التلميذ، ثم رفع رأسه، وقال له يا سيدي وقع لي بيتان غيرهما فقال: قلهما. فقال:

وقـــائلـــة طـــال انتســـابـــك دائمـــاً   إليـــه فهـــل يـــوم خطـــرت ببـــالـــه
فقلـــت لهـــا: مـــا كنـــت أهـــلاً لهجـــره   فمـــا تعتـــرينـــي شبهـــة فـــي وصـــالـــه

ومما روينا له ما أنشدنا عنه ولده السيد الجليل الشيخ ناصر الدين:

أحـــنّ إلـــى لمـــع الســـراب بـــأرضكـــم   فكيـــف إلـــى ربـــع بـــه مجمـــع الســـرب
فـــوا أسفـــي دون الســـراب وإننـــي   أخـــاف بـــأن يقضـــي علـــى ظمـــأي نحبـــي
ومـــذبـــان ذاك الـــركـــب عنّـــي لـــم أزل   أعفـــر مـــن الخـــدّ فـــي أثـــر التـــرب

قلت: فهذا ما اقتصرت عليه في ترجمته، وهو قدر حقير في وصف جلالته مخل، فذكر محاسنه يحتاج إلى تصنيف مستقل.

وفيها توفي السيد الجليل الوليّ المشكور المشهور بالأسرار والكرامات والإكرام الشيخ ياسين المغربي[1] الحجام، كان من أولى انفاس الصادقة والأحوال والكشوفات الخارقة، متستراً بالحجامة عن ظهور الولاية والكرامة، وكان جرّاحاً على باب الجابية، وكان السيد الجليل الشيخ الإمام محيي الدين النواويّ رحمة الله تعالى يزوره، ويتبرك به ويتلمذ له، ويقبل إشاراته، ويمثل ما أمره به.

ومن جملة اشاراته المباركة أنه أمر الشيخ محيي الدّين رحمه الله تعالى أن يردّ الكتب المستعارة إلى أهلها، وأن يعود إلى بلاده ويزور أهله، ففعل ذلك، ثم توفي عند أهله رحمه الله تعالى قلت: ومثل هذا السيد الذي كان الشيخ الإمام العالي المقام الممدوح بين الأنام محيي الدين النواويّ يتبرك به ويتلمذ له ويتأدب معه ينبغي أن يفخّم ويعظّم ويبجّل ويكرّم، وأما قول الذهبي: والحاج ياسين المغربي الحجام الأسود، كان جرّاحاً، وكان النواويّ يزور ويتلمذ له بغير لائق بقدرهما.

---

(١) المقري البداية والنهاية ٩/ ٢٠٠.

وكانت وفاة الشيخ ياسين المذكور في شهر ربيع الأول، وقد قارب الثمانين نفعنا الله به، وبجميع الصالحين آمين.

وفيها توفي ابن النفيس العلاّمة علاء الدين عليّ بن أبي الحزام[١] القرشيّ الدمشقي شيخ الطبّ بالديار المصرية، وصاحب التصانيف، وأحد من انتهت إليه معرفة الطب مع الذكاء المفرط، والذهن الخارق، والمشاركة في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق.

سنة ثمان وثمانين وست مائة

في ربيع الأول منها نزل السّلطان الملك المنصور مدينة طرابلس، ودام الحصار والقتال، ورمى بالمجانيق والكبار، وحفر النقوب ليلاً ونهاراً إلى أن افتتحها بالسيف في رابع ربيع الآخر، وغنم المسلمون أموالاً لا تحدّ ولا توصف، وكان سورها منيعاً قليل المثل، وهي من أحسن المدائن وأطيبها، فأخربها وتركها خاوية على عروشها، ثم أنشأوا مدينة على ميل من شرقيها، وجاءت ردية الهوا والمزاج على ما ذكر بعضهم.

وفيها يوم عرفة توفي الشيخ العماد أحمد بن العماد إبراهيم المقدسيّ الصالحيّ، سمع من جماعة، واشتغل وتفقه، ثم تفقر وتجرد وصار له أتباع ومريدون طعن فيهم الذهبي، والله أعلم.

وفيها توفي العلم ابن الصاحب أبو العبّاس أحمد بن يوسف المصريّ[٢] اشتغل ودرس وتميز، ثم تفقر وتجرد وغض منه الذهبي أيضاً، ثم قال: ونوادره مشهورة، وروائده حلوة، وله أولاد رؤساء.

وفيها توفيت زينب بنت مكّي الحراني ابن عليّ ابن الكامل، الشيخة المعمرة العابدة أمّ أحمد، سمعت من حنبل، وابن طبرزد، وستّ الكتبة وطائفة، وازدحم عليها الطلبة، وعاشت أربعاً وستين سنة.

وفيها توفي الفخر البعلبكي المفتي عبد الرّحمن بن يوسف[٣]، سمع من القزويني وابن الزبيدي، وجماعة، وتفقه بدمشق على النقي بن العزّ وغيره، وعرض كتاب علوم الحديث على مؤلفه الشيخ الإمام ابن الصلاح، وأخذ الأصول عن السيف الآمدي، وتخرج به

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ٢٠٠.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/ ٢٠٢.

(٣) ولد سنة احدى عشرة وستمائة، وتوفي في رجب منها. البداية والنهاية ٩/ ٢٠٣.

جماعة، وكان من العلماء الصالحين العاملين.

وفيها توفي شمس الدين الأصفهاني الأصوليّ المتكلم العلامة أبو عبدالله محمد بن محمود نزيل مصر. صاحب التصانيف، له كتاب القواعد في العلوم الأربعة الأصلين والخلاف والمنطق وكتاب غاية المطلب في المنطق، وله يد طولى، في العربية. درّس في مشهد الشافعي، ومشهد الحسين، وتخرّج والمصريون، وتوفي في رجب منيفاً على السبعين.

سنة تسع وثمانين وست مائة

فيها توفي السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي، وفيها توفي أبو الفتوح قلاوون التركيّ الصالحيّ النجميّ، كان من أكابر الأمراء زمن الظاهر، وتملّك في رجب سنة ثمان وسبعين، وكسر التتار على الحمص، وغزا الفرنج غير مرة، وتوفي في سادس ذي القعدة بالمخيم بظاهر القاهرة، وقد عزم على الغزاة، ثم دفن بتربته بين القصرين.

وفيها توفي خطيب دمشق عبد الكافي بن عبد الملك الدمشقيّ[١] الشافعيّ المفتي، سمع من ابن صباح، وابن الزبيدي وجماعة، وناب في القضاء مدة، وكان ديّناً حسن السمت للناس فيه عقيدة كبيرة.

وفيها توفي الرشيد الفارقيّ أبو حفص عمر بن إسماعيل بن مسعود الشافعيّ الأديب. سمع من الفخر، وابن الزبيدي وغيرهما، وكان أديباً بارعاً منشئاً بليغاً شاعراً مفلقاً لغوياً محققاً. درّس بالناصرية مدة، ثم بالظاهرية، وتصدر للإفادة، وخُنق في بيته بالظاهرية، وأخذ ماله ودرّس بعده علاء الدين ابن بنت الأعزّ.

سنة تسعين وست مائة

دخلت والسلطان هو الملك الأشرف ابن المنصور، وقد فوّض الوزارة إلى شمس الدين بن سعلوس، ونيابة الملك إلى بدر الدين بيدراً، فسار بالجيوش إلى الشام، ونزل على عكا في رابع ربيع الآخر، وجدّ المسلمون في حصارها، واجتمع عليها أمم لا يحصون، فلما استحكمت النقوب، وتهيأت أسباب الفتح أخذ أهلها في الهزيمة في البحر، فافتتحت بالسيف بكرة الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، وصيّر المسلمون سماءها أرضاً، وطولها عرضاً، وأخذ المسلمون بعد يومين مدينة صور بلا قتال لكون أهلها هربوا في البحر لما علموا بأخذ عكا، وسلمها الرعية بالأمان، وأخربت أيضاً، ثم افتتح الشجاعيّ صيدا في

(١) توفي بدار الخطابة ودُفن إلى جانب الشيخ يوسف الفقاعي البداية والنهاية ٩/٢٠٦.

رجب وأخربت، ثم افتتح بيروت بعد أيام وهدمها، فلما رأى أهل حصن عثليث بالمثلثة بعد العين المهملة مكررة في آخره خلو الساحل من عباد الصليب. أحرقوا حواصلهم، فهربوا في البحر، فهدمه المسلمون، وكذلك فعل بأهل طرسوس، فتسلمها الطباخيّ، ولم يبق للنصارى بأرض الشام معقل ولا متحصن.

وفيها توفي عن اثنتين وثمانين سنة الإمام الحفيل السيّد الجليل ذو المجد الأثيل بركة الزمن، وفقيه اليمن المعروف، بابن عجيل الوليّ الكبير العارف بالله الشهير ذو السيرة الحميدة، والمناقب العديدة، والبركات الظاهرة، والكرامات الباهرة أبو العبّاس أحمد بن موسى بن عليّ بن عمر الذواليّ بالذال المعجمة؛ كان أبوه عالماً بأصول الفقه وفروعه، وانتهت إليه رياسة الفقه والفتوى، حتى كان يقول شيخه الكرمانيّ في اجازته علاّمة اليمن، وأعجوبة الزمن، وكان عمّه محمد فقيهاً في الفرائض والحساب، وكان عمه وشيخه إبراهيم عالماً بالحديث والعربية والفقه وأصوله، وكان أبوه موسى المذكور يصحب الشيخ والفقيه، وكان إذا زارهما يقولان له أو أحدهما: أرحب يا أبا أحمد، ويبشرانه أنه يولد له ولد يكون له شأن عظيم.

قلت: وبلغني أنَّ الشيخ الحكميّ قال له: يكون أحمد شمس زمانه لا كشموسنا، وبلغني أيضاً أنهما أتيا يوم السابع عن ولادة الفقيه أحمد المذكور، وأسرّا إليه كلاماً في أذنه لم يدر الحاضرون ما هو، حتى سئل الفقيه أحمد عنه بعدما كبر. ما هو؟ فقال: أوصياني بذريتهما، وكان رضي الله تعالى عنه قد نشأ نشوءاً عجيباً، وظهرت فيه النجابة، ولاح عليه الفلاح، واستفاض في الناس أنه ما لعب ولا صبا، ولم يعرف له سوى الورع والزهد والعبادة، والاشتغال بالعلم، والاستفادة والإفادة. اشتغل على عمّه إبراهيم ولازمه اثنتي عشرة سنة يقرأ فيها الفنون التي قد أتقنها مع خلو البال، والاعتزال لا يبطل الاشتغال في يوم جمعة ولا غيره، فبرع في العلوم خصوصاً الفقه، وله شيوخ غير عمّه أخذ عنهم في مكّة وهم جماعة.

منهم الإمام محمّد بن يوسف بن مسدي بفتح الميم وسكون السين وكسر الدال المهملتين المهلبيّ، والإمام سليمان بن خليل العسقلاني، والإمام اسحاق بن أبي بكر الطبريّ وفي اليمن الفقيه الإمام محمد بن إبراهيم الفشليّ، كل هؤلاء المذكورين خطوطهم في كتبه مسطورة.

وأخذ عنه خلائق منهم الفقيه العلاّمة السيّد الكبير الوليّ الشهير ذو المناقب الجليلة، والمواهب الجزيلة، والكرامات الباهرة، والمحاسن الزاهرة أبو الحسن عليّ بن أبراهيم البجليّ اليمنيّ الساكن في شجينة بضم الشين المعجمة، وفتح الجيم، والنون وبينهما مثناة

من تحت ساكنة قرية من تُهامة اليمن، كان يحج بقوافل اليمن بعد شيخه ابن عجيل المذكور أدركته وحججت معه، ولعليّ المذكور كرامات يطول ذكرها، وفضائل يجلّ قدرها.

قيل خرج من تحت يده نيف وثمانون مدرّساً، وكان فقه كتاب المهذب على ذهنه، وله ولد اسمه إبراهيم أعني التلميذ المذكور، كان في العلم والصلاح والكرامات بمكان رفيع وفضل وسيع.

ومن كراماته ما بلغني أنه زار مع أبيه مساجد الفتح غربيّ المدينة الشريفة، فنبحهم كلب هناك، فالتفت إليه إبراهيم المذكور، فتفل في وجهه، فمات الكلب، فغضب عليه أبوه لإظهاره مثل هذه الكرامة العظيمة من غير ضرورة دعت إلى ذلك.

ومن كرامات والده الفقيه عليّ المذكور الداعية إليها الضرورة أنّ بعض الناس أودع امرأة وديعة، فماتت الامرأة، ولم يعلم بها أحد أين تركت لوديعة، فجاء صاحب الوديعة، فطلبها، فلم يجد من يعلمه بها، فجاؤوا إلى الفقيه عليّ المذكور، وذكروا له الحال، فقال: أروني قبرها، فذهبوا به إلى القبر، فوقف عليه ساعة واحدة، ثم سأل هل في بيتها شجرة حنّاء؟ قيل: نعم قال: احفروا تحت الشجرة، فالوديعة هناك.

وكان رضي الله عنه يحج ويزور في شبابه على رجليه سنيناً كثيرة، وقدم في بعضها المدينة الشريفة وابن عجيل فيها، فخرج للقائه بأمر النبي عليه السلام له بذلك، فوجده عند المصلّى سابع سبعة وقربته عليّ ظهره في قصة طويلة هذا مختصرها، وكانت له أيام زاهرة، وبركات ظاهرة، وإليه أشرت بقولي في ذكر شجينة قريته:

وكم شجن قد حلّ بي من شجينة بحسن مليحات حوتها فواضل

وممن أخذ عن ابن عجيل أيضاً الفقيه الإمام العالم العلّامة أبو الحسن عليّ بن أحمد، المعروف بابن الصريدح، كان فقيهاً فاضلاً صالحاً مفيداً منتفعاً به. مررت عليه عند زيارتي لقبر ابن عجيل المذكور، وكان قريباً منه، فوجدته يدرس جماعة من الطلبة، فألقيت عليهم ثلاث مسائل، فوقفوا عن جوابها، ثم استمررت في سفري إلى مكّة، ثم إلى المدينة، ثم بعد سنين كثيرة قدم حاجّاً بعض طلبته، وهو الفقيه الفاضل الصالح العالم العامل أبو بكر، المعروف بدعسين بفتح الدال والسين، وسكون العين بينهما مهملات، وسكون المثناة من تحت قيل: النون، وهو لا يعرفني ولا أعرفه، فقال: قدم علينا شاب، وسألنا عن ثلاث مسائل، فلم نعرف جوابها، وفتّشنا الكتب، فوجدنا جواب واحدة منها، وواحدة وجدنا فيها وجهين، وواحدة لم نجد لها جواباً، فضحكت عند ذلك، فعرف حينئذٍ أنّي كنت ذلك السائل، وابن الصريدح المذكور من بني الصريدح.

ومنهم الفقيه عبدالله بن أحمد الصريدح. تفقه على جدّ ابن عجيل المذكور عليّ بن عمر بن عجيل رحمهم الله تعالى.

وممن أخذ عن ابن عجيل أيضاً الفقيه الإمام العلاّمة ذو الفهم الثاقب، والعلو والمناقب الفاضل البارع النجيب، قاضي القُضاة رضي الدين الأديب اليمنيّ اللخميّ.

ومنهم الفقيه الأجلّ العالم البارع المتفنّن أبو الحسن عليّ بن عبدالله الجبرتيّ المشهور بالفرضيّ البارع في علم الفرائض، كثير من الناس يسمّونه الزيلعيّ ومنهم ولد ابن عجيل المذكور الفقيه القدوة الصالح إبراهيم بن أحمد، وقد أدركته، وزرته، ووجدته يقرىء بُنيّة له صغيرة.

وممن روى عن ابن عجيل المذكور شيخنا الرواية إمام الحديث في زمانه رضي الدين إبراهيم بن محمد الطبريّ إمام المقام الشريف بمكة يروي عنه كتاب «المصابيح» في الحديث وهو يرويه عن عمه بسنده المثبت في الطباق، وكان يشير إلى شيخنا المذكور إذا طلب منه الدعاء بعض أهل مكة، ويقول: عندكم إبراهيم، وكان كثير التردّد إلى الحجّ والزيارة.

وله كرامات عديدة، وسيرة حميدة، وزهد وورع دقيق، واتقان للعلوم، وتحقيق وقدر كبير، وصيت شهير صارت بفضله الركبان إلى شاسع البلدان، ولعله كان يزيد على الشيخ الإمام رفيع المقام محيي الدين النواويّ في ورعه وأدبه، وزهده، وتقشّفه، فمعيشته كانت من الذرة الحمراء، والقطيب والمخيض[1] من اللبن على تعاقب الدهور، وطول الزمن.

وقد قال بعضهم في مثل أحمد بن موسى: في الأولياء كيحيى بن زكرياء في الأنبياء. كأنه أشار إلى ما ورد ما منّا إلاّ من عصي أو هم بمعصية إلاّ يحيى بن زكرياء، وكان رضي الله تعالى عنه فيه من المحاسن والآداب ما يحتاج ذكره إلى تصنيف كتاب.

ونقتصر من ذكر كراماته الكثيرة على واحدة منها شهيرة، وهي أنه جاءه بعض الناس يلتمس بركته، وفي يده سلعة، فقال له: يا سيديّ هذه السلعة درُتُ بها على الصالحين ليدعوا لي في ذهابها، فلم تذهب، وأنت إنْ لم تدع لي وتذهب بدعائك وإلاّ ما بقيت أحسن ظنّي بأحد من الصالحين، فقال له: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قرأ عليها، وقال: إربط عليها بخرقة، ولا تفتحها حتى تصل إلى بلادك، ففعل ما أمر به، ثم سافر إلى أن بلغ بعض الطريق، وحضر وقت الغداء، ومعه رفقة، فقالوا: تعالوا نتغدّى في هذه القرية، فاشتروا خبزاً ولبناً، وفتّوه وعادة أهل اليمن يأكلون الخبز واللبن إذا كان مفتوتاً بالكفّ، ففتح الخرقة

(١) المخيض: مخض اللبن: حرّك به السقاء ونحوه ليستخرج زبدة. فاللبن مخيض، وممخوض؛ أي: مخض وأخذ زبدُهُ.

وأكل بكفّه ناسياً لما أوصاه به من ترك فتحها إلى بلاده، فلما فرغ من الأكل ذكر ما أوصاه به، ونظر إلى يده، فإذا السلّعة التي كانت فيها قد ذهبت، ولم يزل رضي الله تعالى عنه مع ما هو متصف به من مشاهدات الأنوار والاطلاع على الأسرار يشغل الطلبة بالعلوم بالليل والنهار، حتى بمقامات الحريريّ على ما بلغني، وأصله من عرب يقال لهم: المعازبة بالعين المهملة قبل الألف، وبعدها زاي وموحدة قبل الهاء يسكنون قريباً من زبيد، وإلى انتسابه إليهم، وحسن سيرته وأدبه أشرت بقولي في بعض قصائدي عند الغزل لشيوخ اليمن وعادتي أجمعه مع الفقيه الإمام الوليّ الكبير الرفيع المقام إسماعيل بن محمّد الحضرميّ المتقدم ذكره في سنة ست وسبعين، حيث قلت مشيراً أيضاً إلى مسكن الحضرميّ ودلاله وحلاله:

وجود في الضحى أضحت بحسن	زها تختال فاقت للغواني
كجود للمعازبة اعتراها	حصان في حيا حسن رزان
وكم من جوهر صادفته في	حقير من جناد صدف مصان

وفي أخرى تشتمل على ذكر مائة شيخ من أكابر الأولياء المشهورين الأفراد في اليمن وغيره من أقطاب البلاد. تنيف على ثلاث مائة بيت في التعداد. قلت: أيضاً مشيراً إليهما:

أنا راسماً مجد المعالم والعُلى	وصار أهدى للحائر المتردد
وليان كلّ كم له من كرامة	عليان كل في مقام مشيد
خليلان كلّ صادق في وداده	جليلان كلّ في ردا المجد مرتدِ
ذوا مجد أكرام الولاية معلما	بنور الهدى يزهو به كل مسعدِ
هما الحضرميّ نجل الوليّ محمّد	إمام الهدى نجل الإمام الممجّدِ
له خطب كم ذللت ثم عللت	عنايات فضل ليس تدرك باليدِ
مدل ومجوب وفي كلفة العنا	عظيم كرامات وجاه وسؤدد
ومن جاهه أومى إلى الشمس أن قفي	فلم تمشي حتى أنزلوه بمقصد
ونجل عجيل كم مواهب عجلت	له وسعادات، ومجد مجدد
نحلي حلا يزهو الوجود بحسنها	ويرفل في ثوب الجمال المنجد
كان حلاه حلّة الشمس معلم	بهاها على كم الزمان بعسجد
مشى سيرة محمودة لا يسيرها	سوى كل صديق بحفظ مؤيّد
عظيم كرامات عزيز وجودها	بها شهرة كانت لذكر معدد
هو القمر الثاني البهيّ ليت نظرة	إلى بدر حسن في الدُجى متهجّد

وفي أخرى أيضاً موسومة بباهية المحيّا في مدح الشيوخ الأصفياء، والرد على بعض

المنكرين الأغبياء بمعرفة الأصول والعربية، وطريق السالكين الأولياء أشرت إليهما في غزلها بقولي:

وجود الضحى شمس الضُحى حضرميّة مدلّلة تزهو بعالي المنازل
وذات إليها الحسنا عجيليه زهت بها سارت الركبان من كل راحل

وأشرت إليهما أيضاً، وإلى الشيخ الكبير اليمنيّ الأصل والبلاد أبي العبّاس أحمد المعروف بالصيّاد فيها عند ذكر أسمائهم بالتصريح بعد الكناية بالغزل والتلويح فقلت.

وأكرم بإسماعيل شيخ شيوخنا هو الحضرميّ المشهور زين المحافلِ
وزين الزمان ابن العجيل شهيرهم وصيادهم سامي العلا والفضائل

ومن محاسن أدب السيد المذكور ابن عجيل المشهور المذكور احترازه في جوابه المشكور وقد سُئل عن سماع الصوفية أنّ أبحه، فلست من أهله، وإن أنكره، فقد سمعه من هو خير منّي، وقد نقلت هذا الجواب في بعض كتبي، فلما قرىء ذلك الكتاب على ابن ابنه الفقيه العالم ذي الفضائل والمكارم أبي العبّاس أحمد بن أبي بكر في الحرم الشريف، ووقف على جواب جدّه المذكور. قال: هكذا هو عندنا مسطور، فزادني ذلك طمأنينة في العلم والتحقيق، وقد اقتصرت في ترجمته على هذه النبذة اليسيرة، وبالله التوفيق.

وفيها توفي السُّوَيْدِيّ الحكيم العلاّمة شيخ الأطباء أبو اسحاق إبراهيم بن محمّد بن طرخان الأنصاريّ الدمشقيّ، سمع من طائفة، وأخذ الأدب عن ابن معطي، والطبّ عن المهذب، وبرع فيه، وصنف وفاق على الأقران، وكتب الكثير بخطه المليح، ونظر في التعليقات، وألّف كتاب الباهر في الجواهر[1] والتذكرة في الطبّ، وعاش تسعين سنة.

وفيها توفي سلامش[2] بالمهملة في أوّله والمعجمة في آخره الملك العادل ابن الملك الظاهر بيبرس الصالحيّ الذي سلطنوه عند خلع الملك السعيد، ثم نزعوه بعد ثلاثة أشهر، فبقي خاملاً بمصر، فلما تسلطن الأشرف أخذه وأخاه الملك خضرا وأهلهم وجهّزهم إلى بلاد الأسكريّ، فمات بها.

وفيها توفي التِّلِمْسَانيّ سليمان بن علي الأديب الشاعر الملقب بعفيف الدين[3].

---

(١) كتاب «الباهر في خواص الجواهر». وقد نصّب طبيباً في البيمارستان النوري وبيمارستان باب البريد ونسبته إلى السويداء في حوران وكان أبوه من تجارها الأعلام ١/ ٦٣.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/ ٢١٤.

(٣) شاعر كوفي الأصل، تنقّل في بلاد الروم، وسكن دمشق، فباشر فيها بعض الأعمال. وكان يتصوف =

قال الذهبي: أحد زنادقة الصوفية، وقد قيل له مرة: أنت نصيري قال: النصيريّ بعض مني.

قال: وأما شعره، ففي الذروة العليا من حيث البلاغة والبيان لا من حيث الإلحاد.

قلت: وهذا أيضاً مع ما تقدم يدل على سوء عقيدة الذهبيّ في الصوفية، أما كان يكفيه إن كان كما ذكر زنديقاً أن يقول: أحد الزنادقة، ولا يضيف إلى الصوفية الصفوة أهل الصدق والتصديق، والحق والتحقيق كل فاجر زنديق؟ وهل كل من كان متصفاً بالوصف المذكور أو غيره من وصف غير مشكور ينسب إلى الصوفية أهل الصفا والنور؟ وكأنه ما يصدق متى يصادف رخصة يتخذها فرصة في الطعن في السادة الأحباب العارفين أولى الألباب، وليت هذا إذ حرّم التوفيق في حسن الظن، ومشابهة الوليّ الإمام محيي الدين النواويّ الجليل المقدار، حيث ذكر في كتابه الحفيل الموسوم بالإذكار، إن الصوفية من صفوة هذه الأمة نعوذ بالله من حرمان التوفيق والعصمة، فلم يكن لهم معتقداً أمسك عنهم، ولم يكن فيهم منتقداً لكنه سارع إلى القدح فيهم ترا، والطعن فيهم مرة بعد أخرى، كأنه قد شرب من ماء جيرانه المعروف بالوخم الطاعنين في الصوفية أولى الأحوال السنية، ومحاسن الأوصاف والشيم، والجدّ والاجتهاد وعوالي العزائم والهمم، ورفض ما سوى الله، والاقبال على الله ذي الفضل والجود والكرم، وما أحسن التوفيق للسكوت فيما لا يدريه الإنسان، كما تقدم من جواب السيّد الجليل الكبير الشأن، ابن العجيل لما سئل عن السماع حيث تورع في الجواب، ولم ينسبه إلى الزيغ والابتداع، وكيف وضع نفسه عن مشابهة من سمعه مع ما خصه الله به ورفعه، فقال: إن أبحه، فلست من أهله، وإن أنكره، فقد سمعه من هو خير منّي.

قلت: وقد نصّ الشيوخ العارفون بالله من الصوفية أولى المقامات العليّة إنّ الفرق الخارجة عن سنن الهدى ليسوا من الصوفية، وإنْ ادعوا ذلك، ولبسوا في الرسوم والزخارف، وممن نصّ على ذلك شيخ عصره الإمام شهاب الدين في العوارف.

وفيها توفي الإمام فقيه الشام، وشيخ الإسلام المشهور بالفضل والخير والاتباع أبو محمّد عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاريّ الشافعيّ المعروف ابن صباغ[1] تاج الدين الملقب بالفركاح لحنف في رجليه العلاّمة شيخ المذهب على الاطلاق في زمانه والد الشيخ الإمام

= ويتكلم على اصطلاح «القوم» وصنّف كتباً منها «شرح مواقف النفزي» و«شرح الفصوص» لابن عربي وغير ذلك. مات بدمشق الأعلام ٣/ ١٣٠.

(١) ابن سباع البداية والنهاية ٩/ ٢١٣.

العلاّمة برهان الدين، سمع من طائفة منهم ابن الزبيديّ، وتفقّه على الإمامين ابن عبد السلام، وابن الصّلاح، واشتغل وأفتى، وكان مع فرط ذكائه، وتوقد ذهنه ملازماً للاشتغال، مقدماً في المناظرة، متبحّراً في الفقه وأصوله، وانتهت إليه رياسة المذهب ـ رحمه الله تعالى ـ له عبارات حسنة جزلة فصيحة، وخطابة بليغة، له الفوائد الجمّة والفنون المهمة، والمصنّفات البديعة، محبباً إلى الناس لعفته، ودينه، وفضله، وعقله، وعلمه، ورياسته، وتواضعه، وكرمه، ونُصحه للمسلمين، ومن مصنّفاته كتاب الإقليد في درر التقليد علّقه على أبواب التنبيه من نظر فيه علم محلّ الرجل من العلم، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ لطيف الطبع يميل إلى استماع السماع، ويحضره ويرخص فيه، وله اختيارات في المذهب مشى على أكثرها ولده، وله فضائل كثيرة، ومحاسن عديدة، وشعر جيد، وخرج له الحافظ علم الدين البرزاليّ مشيخة على مائة شيخ في عشرة أجزاء، فسمعها عليه جماعة من الأعيان، منهم الشيخ العلاّمة ابنه برهان الدين، والشيخ الإمام العلاّمة تقيّ الدين ابن تيمية، والحافظ أبو الحجاج المزّيّ، وقاضي القُضاة نجم الدين ابن صصري، والشيخ علاء الدين ابن العطّار وغيرهم. وتخرج به جماعة كثيرون، وخلائق لا يحصون، وكانت فنونه في العلوم الشرعية، وتأسف الناس على فراقه.

قلت: وبلغني أنّ ولده الشيخ برهان الدين كان يرخص في السماع أيضاً بشروط كوالده، وإنّ والده ما حضره إلاّ بعد أن رأى كرامة من بعض المشائخ الصوفية.

وفيها توفي ابن الزملكانيّ الإمام المُفتي علاء الدين أبو الحسن[1] ابن العلاّمة البارع كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري الدمشقي الشافعي.

سنة احدى وتسعين وست مائة

في جمادى الأولى منها قدم السلطان الملك الأشرف في دمشق، وقد فرغ الشجاعيّ من بناء الطارمية، والرواق، وقاعة الذهب، والقبّة الزرقاء بقلعة دمشق، فرغ جميع ذلك في سبعة أشهر، قيل: وجاء في غاية الحسن، ثم سار السلطان ونازل قلعة الروم في جمادى الأخرى، فنصب عليها المجانيق، وجدّ في حصارها، وفُتحت بعد خمسة وعشرين يوماً، وأهلها نصارى من تحت طاعة التتار، فلما رأوا أنّ التتار لا ينجدونهم ذلّوا، وما أحسن ما قال الشّهاب محمود في كتاب الفتح: فسطا جيش الإسلام يوم السبت على أهل الأحد، فبارك الله للأمّة في سبتها وخميسها.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ٢١٤.

وفيها توفي أبو حفص عمر بن مكيّ بن عبد الصمد الشافعيّ[١] الأصولي المتكلم، خطيب دمشق، ووليّ بعده الخطابة الشيخ عز الدين الفاروثي.

سنة اثنتين وتسعين وست مائة

فيها أسلم صاحب شيس قلعة بهنسا للسلطان صفوا لم يلق ضرباً ولا طعناً فضربت البشائر في رجب.

وفيها توفي الإمام أعلم العلماء الأعلام ذو التصانيف المفيدة المحققة، والمباحث الحميدة المدقّقة قاضي القُضاة ناصر الدين عبدالله ابن الشيخ الإمام قاضي القُضاة إمام الدين عمر ابن العلاّمة قاضي القضاة فخر الدين محمّد ابن الإمام صدر الدين عليّ القدوة الشافعيّ البيضاويّ، تفقه بأبيه، وتفقه والده بالعلاّمة مجير الدين محمود بن أبي المبارك البغداديّ الشافعيّ، وتفقه مجير الدين بالإمام معين الدين أبي سعيد منصور بن عمر البغدادي وتفقه هو بالإمام زين الدين حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمهم الله تعالى.

قلت: ونسبة الغزاليّ في الفقه إلى الشافعيّ معروفة، وكذلك نسبته ونسبة أخيه الشيخ الإمام الغزالي في التصوف معروفتان، وقد ذكرت شيوخ الخرقة في كتاب نشر الريحان في فضل المتحابين في الله الاخوان، وللقاضي ناصر الدين المذكور مصنفات عديدة، ومؤلفات مفيدة، منها الغاية القُصوى في الفقه على مذهب الشافعيّ، وله شرح المصابيح وتفسير القرآن والمنهاج في أصول الفقه، والطوالع في أصول الدين، وكذلك المصباح، وله المطالع في المنطق وغير ذلك مما شاع في البلدان، وسارت به الركبان، وتخرّج به أئمة كبار ـ رحمه الله تعالى رحمة الأبرار ـ.

وفيها توفي القاضي جمال الدين أبو اسحاق إبراهيم بن داود بن ظافر العسقلانيّ ثم الدمشقيّ المقرىء صاحب السخاوي، ولي مشيخة الإقراء بتربة أمّ الصالح مدة، وسمع من ابن الزبيدي وجماعة، وكتب الكثير.

وفيها توفي الشيخ الجليل القدوة إبراهيم ابن الشيخ القدوة عبدالله الأرمويّ[٢] روى عن الشيخ الموفّق وغيره. توفي في المحرم، وحضره ملك الأمراء والقُضاة، وحمل على الرؤوس، وكان صالحاً قانتاً لله، منيباً عليه سيماء السعادة، متصفاً بالزّهد والعبادة، معدوداً من الأولياء السادة.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/٢١٩.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/٢٢٢.

وفيها توفي ابن الواسطيّ العلاّمة الزاهد القدوة مسند الوقت أبو اسحاق إبراهيم بن عليّ الصالحيّ، سمع وتفقه وأتقن، ودرس بالمدرسة الصالحية، وكان فقيهاً زاهداً، عابداً، مخلصاً. صاحب جد وصدق، وقول بالحق، وهيبة في النفوس.

وفيها توفي الشيخ الكبير السيد الشهير صاحب القلب المستنير، العارف بالله الخبير الذي شاع فضله واشتهر، المعروف بالمكين الأسمر عبدالله بن منصور الاسكندراني شيخ القرّاء بالاسكندرية.

قلت: وممن اثنى عليه بالنور والاطلاع شيخ زمانه أبوالحسن الشيخ الشاذليّ الذي اشتهر فضله وشاع، وكذلك الشيخ الإمام عليّ المقام تاج الدين ابن عطاء الله الشاذليّ، وقال: كنت أنا وهو معتكفين في العشر الأواخر من رمضان، فلما كانت ليلة ست وعشرين قال: أرى الملائكة في تهيئة وتعبية كما تهيأ أهل العرس قبلةُ بليلة، فلما كانت ليلة سبع وعشرين، وهي ليلة جمعة قال: رأيت الملائكة تنزل من السماء، ومعها أطباق من نور، فلما كانت ليلة ثماني وعشرين قال: رأيت هذه الليلة كالمتغيظة، وهي تقول: هبْ إنّ لليلية القدر حقاً أمالي حق يُرعى؟ أو كما قال انتهى كلامه.

قلت: لعلّ تغيظها على الناس من أجل تركهم احياءها، واهتمامهم بليلة القدر دونها كونها جارة لها، وحق الجار أنْ يُكرم بشيء مما أكرم به جاره.

وأما أطباق النور المذكور، فلعلها هدية إلى من أحيى ليلة القدر المذكورة، ومن أناله الله تعالى شيئاً من بركتها والخيرات المقسومة فيها، والله أعلم.

سنة ثلاث وتسعين وست مائة

في سابع المحرم منها قتل السلطان ببروجه[١] في الصيد، ثم قُتل نائبه بيدرا وخلفوا للسلطان الملك الناصر محمّد بن المنصور، وهو ابن تسع سنين، وجعل نائبه كتبغا، وبسط العذاب على الوزير ابن سلغوس حتى مات وأخذت أمواله ثم قُتل الشجاعيّ.

وفيها توفي الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون[٢] وليّ السلطنة بعد والده في ذي القعدة سنة تسع وثمانين، وقتله في المحرم بيدراً

---

(١) ببروجه: البُرج: الحصن. البارجة: السفينة.

(٢) لقد استفتح المُلك بالجهاد، فقصد البلاد الشامية وقاتل الإفرنج، فاسترد منهم عكة وصور وصيدا وبيروت وقلعة الروم وبيسان وجميع الساحل، وتوغل في الداخل. وكان شجاعاً مهيباً عالي الهمة جواداً، له آثار عمرانية، وللشعراء أماديح فيه، قتله بعض المماليك غيلة بمصر الأعلام ٢/٣٢١.

ولاجين وجماعة، وتسلطن بيدراً، ولقب بالملك القاهر فأقبل كتبغا والجاشكير، وحملوا على بيدراً فقتلوه.

وفيها توفي قاضي القُضاة شهاب الدّين ابن قاضي القُضاة شمس الدين أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الشافعيّ[١] روى عن ابن المقير وطائفة، وكان من أعلم أهل زمانه وأكثرهم تفنّناً، وأحسنهم تصنيفاً، وأحلاهم مجالسةً، ولي القضاء بحلب مدة، ثم وليّ قضاء الشام هكذا قال بعضهم، ولم يقل قضاء دمشق، وتوفي في العشر الأخير من شهر رمضان.

وفيها توفي الملك الحافظ غيّاث الدين محمد ابن شاهنشاه، وصاحب بعلبك الملك الأمجد، روى صحيح مسلم، ونسخ الكثير بخطه.

وفيها توفي الدمياطي شمس الدين محمد بن عبد العزيز المقرىء أخذ القراءة عن الصخاويّ، وتصدر واحتيج إلى علوّ روايته، وقرأ عليه جماعة.

وفيها توفي الوزير سلغوس[٢] المدعو بالوزير الكامل، مدبر الممالك شمس الدين محمد بن عثمان التنوخيّ الدمشقيّ التاجر الكاتب ولي حسبة دمشق، فاستصغره الناس عليها، فلم ينشب أن وليّ الوزارة، ودخل دمشق في موكب عظيم لم يُعهد مثله. مات بعد أن أنتن جسده من شدّة الضرب، وقطع منه اللحم الميت نسأل الله الكريم العافية.

سنة أربع وتسعين وست مائة

في المحرم تسلطن الملك العادل كتبغا المنصوري، وزيّنت مصر والشام، وله نحو من خمسين سنة يومئذٍ سبي يوم وقعت حمص من التتار.

وفيها توفي الفاروثي الإمام العالم الواعظ المقرىء المفسّر الخطيب عزّ الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطيّ[٣] الشافعي الصوفيّ شيخ العراق، كان إماماً متفنناً متضلّعاً من العلوم والآداب، حسن التربية للمريدين، لبس الخرقة من الشيخ العارف أستاذ زمانه شهاب الدين السهرورديّ، وسمع منه ومن جماعة، وأسمع الكثير في الحرمين والعراق ودمشق، وجاور مدة، وعليه قرأ كتاب الحاوي الصغير شيخنا الفقيه الإمام العلاّمة

---

(١) ولد عام (٦٢٦ هـ) محمد بن أحمد بن خليل بن سعادة الخويي، شهاب الدين، أبو عبدالله: كان فقيهاً شافعياً باحثاً، له تصانيف منها «أقاليم التعاليم» و «الجبر والمقابلة» و «الهيئة» وغير ذلك والخويي: نسبة إلى «خوي» من أعمال أذربيجان الأعلام ٥/ ٣٢٤.

(٢) سلعوس البداية والنهاية ٩/ ٢٢٦.

(٣) ولد سنة أربع عشر وستمائة البداية والنهاية ٩/ ٢٣١.

نجم الدين قاضي الحرم الشريف وشيخه ومدرّسه محمد بن محمد الطبري، والفاروثي يرويه عن مصنّفه الشيخ عبد الغفار القزويني، ثم قدم بعد المجاورة إلى الشام في سنة احدى وتسعين، فوليّ بها مشيخة دار الحديث الظاهرية، واعادة الناصرية، وتدريس النجيبية، ثم ولي خطابة البلد بعد زين الدين بن المرجل، وكان خطيباً بليغاً، فإذا نزل وصلّى ربما خرج بالخلعة السوداء وشيّع الجنائز، وزار بعض أصحابه من الأكابر، وهو لابسها، وكان إماماً بارعاً فاضلاً فقيهاً مقرياً، حسن الاعتقاد، جيد الديانة، ظريفاً حلو المجالسة، لطيف الشكل، صغير العمامة يرتدي برداء[1]، وكان كثير الاشتغال والعبادات، وعنده كتب كثيرة جداً نحو من ألفي مجلد أو أكثر، ذا كرم وسعة صدر ووجاهة عند الكبراء والأمراء، واتفق أنه عُزل بعد سنة بالخطيب الموفّق، فسافر مع الحجّاج، ودخل العراق، وتوفي بواسط وقد نيف على الثمانين ـ رحمه الله تعالى ـ.

وفيها توفي المحبّ الطبري[2] شيخ الحرم الإمام العلاّمة الحافظ الرواية ذو التصانيف الكثيرة، والفضائل الشهيرة أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمّد بن أبي بكر المكيّ الشافعيّ، ولد سنة خمس عشرة وست مائة، وسمع من ابن المقري، وابن الحميريّ وجماعة، وصنّف كتباً عديدة في الحديث، وله في الفقه مبسوطات ومختصرات، ومن المبسوطات كتاب في الأحكام في عدة مجلدات أجاد فيه وأفاد وأكثر وأطنب، وجمع الصحيح والحسن، ولكن ربما أورد فيه الأحاديث الضعيفة، ولم يبين ضعفها، وكان فقيهاً بارعاً محدثاً حافظاً درّس وأفتى وأسمع، وروى، وكان محدّث الحجاز في زمانه، وشيخ الشافعية هنالك.

وتوفي قبله بأيام ولده النجيب الفاضل جمال الدين محمد قاضي مكة مؤلف كتاب التشويق إلى البيت العتيق، ومن تصانيف محبّ الدين شرح كبير مبسوط للتنبيه جيد إلاّ أنه ربما يختار الوجوه الضعيفة، وله مختصرات للتنبيه وغير ذلك، وكتاب «القِرى» بكسر القاف، ومختصر السيرة وغير ذلك لكنها لم تشتهر ولم تنتشر في البلدان إلا كتاب «الأحكام» المذكور فإنه في البلدان مشهور، وكان له جاه عظيم، وحظ كريم عند الملك المظفر صاحب اليمن، وكان مشغولاً بالعلم مستفيداً ومفيداً، وعنه أخذ خلائق من الفضلاء من أكابر المحدّثين والفقهاء، وكان له صحبة من الشيخ الكبير العارف بالله الخبير ذي المناقب والكرامات السنية، والأحوال والمقامات العلية أبي العباس أحمد المورقي الغربيّ المدفون في الطائف قدّس الله روحه، وله معه حكايات عجيبة، منها أنه لما قدم الملك

---

(١) برداء: ثوب مخّطط، أو مُوشّى يُلتحف به (ج) برود وأبراد وأبْرد.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/ ٢٣٠.

المظفر صاحب اليمن طلب منه قرابته وأصحابه أن يشفع لهم عنده وطمعوا أن يحصل لهم منه نفع، وكان عادة السلطان المذكور أن يطلب محبّ الدين في كل وقت، فلما قدم مكة لم يطلبه، ولم يجتمع به سوى عند قدومه فحصل لمحبّ الدين من ذلك قبض، ولم يزل كذلك إلى أن فرغ من أعمال الحجّ، ثم لقيه الشيخ أبو العباس المذكور، فسأله عن حاله، فأخبره إنما هو غير منشرح بسبب عدم ما كان يرتجي من النفع على يديه، واشتغال السلطان عنه، فقال له الشيخ أبو العبّاس عند ذلك: أنا الذي شغلته عنك خشية أن يشغلك عن أعمال الحجّ، ولكن الآن أطلقه حتى يلتفت إليك، ويطلبك كما كان. فعند ذلك أرسل السلطان يطلبه، وقضى له ما أراد من حوائجه وحوائج من تعلّق به من الناس.

وفيها توفي ابن المقدسيّ خطيب دمشق ومفتيها، وشيخ الشافعية بها الإمام العلاّمة شرف الدين أبو العبّاس أحمد بن نعمة الشافعي، سمع من السخاوي وابن الصّلاح، وتفقه على ابن عبد السلام، وبرع في الفقه والأصول والعربية، وناب في الحكم مدة، ودرّس بالشامية والغزالية، وكتب الخطّ المنسوب الفائق، وألّف كتاباً في الأصول، وكان كيّساً متواضعاً متنسّكاً، ثاقب الذهن، مفرط الذكاء، طويل النفس في المناظرة. توفي في رمضان ـ رحمه الله تعالى ـ.

وفيها توفي صاحب اليمن الملك المظفر ابن الملك المنصور عمر. توفي في رجب، وبقي في السلطنة نيّفاً وأربعين سنة، وملك أبوه قبله نيّفاً وعشرين سنة، وكان الملك المظفر المذكور له بعض مشاركة في بعض العلوم، وكان كيّساً ظريفاً يحب مجالسة العلماء، ويعتقد الصالحين، وجاء إلى شيخ اليمن، وبركة الزمن، والبحر الزاخر الذي يغرق فيه كل ماهر السيد الجليل أبي الغيث بن جميل ـ قدّس الله روحه ـ ويغله في حلقه، فقال الشيخ: ما تطلب؟ المُلك قال: ولّيتك.

وكان أبوه قد قتل خادم الشيخ أبي الغيث، فلما بلغه قتل خادمه قال: مالي ولمحراسه أنا أنزل عن أمشباب، وأترك أمزرع، فقتل عند ذلك الملك المنصور، واستعار في ذلك استعارة حسنة، وهي أنه جعل الخلق كالزرع، وهو كالحارس له، والمشباب بكسر الميم، وسكون الشين المعجمة، وتكرير الموحدة قبل الألف وبعدها. خشباتٌ تُنصب في وسط الزرع، ويجعل عليها عريش يقعد الحارس عليه، فإذا نزل عنه ضاع الزرع يترك الحراسة، فنزل به التلف من سارق، أو آكل بهائم، أو صيد، أو وحش مبدّلاً لام التعريف بالميم كما هي لغة بعض اليمانيين، وكما هو مشهور في كتب النحويين بل في كتب المحدثين أعني قولهم: يرمي ورائي بأمسهم وأمسلمة.

وما روي من قوله عليه السلام: «ليس من أمبر مصيام في أمسفر، مجيباً لقول السائل

أمن أمير أمصيام في أمسفر»، سمع الملك المظفر المذكور على الشيخ محب الدين الطبري المذكور، وكان لمحب الدين تردد إلى اليمن، واجتماع كثير معه في اليمن،وفي مكّة لما حجّ أعني الملك المظفر، وكان في صحبته إلى الحجّ خمس مائة فارس، أخبرني بذلك من حجّ معه من أهل الخير والصلاح، وكان محبباً إلى الناس.

وله حكايات ظريفة منها: أنه كتب إليه بعض الناس كتاباً على وجه المزح والكياسة. قال فيه: قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠] وأخوك بالباب يطلب نصيبه من بيت المال، فردّ عليه الجواب، وأرسل إليه بدرْهم، فقال في جوابه: اخواني المؤمنون كثير في الدنيا، ولو قسمت عليهم بيت المال ما حصل لكل واحد منهم درهم.

ومنها أنه أرسل إليه إنسان، وهو يقول: أنا كاتب أُحسن الخطّ الظريف، والكشط[١] اللطيف، أو كما قال، فقال في جوابه: ما ذكرته من حسن كشطك يدلّ على كثرة غلطك.

ومنها أنّ جماعة من الديوان، وأهل الدولة أرادوا أن يجتمعوا في عدن على اللّعب والشراب، وملأوا أزياراً كثيرةً خمراً، فأراقها الشيخ الكبير الولي الشهير الوافر الفضل، والنصيب عبدالله بن أبي بكر الخطيب المدفون في موزع، شيخ شيوخنا. ـ قدس الله روحه ـ، فغضب أمير عدن وغيره من أهل الدولة، ولم يقدروا على الانتقام من الشيخ المذكور، فكتبوا إلى الملك المظفر بذلك، فردّ عليهم الجواب، وهو يقول فيه: هذا لا يفعله إلاّ أحد رجلين، إمّا صالح، وإمّا مجنون، وكلاهما ما لنا معه كلام.

وفيها توفي الشيخ الكبير الولي الشهير ذو البركات الشهيرة، والكرامات الكثيرة، والهمّة العالية، والمحاسن الباهية أبو الرجال بن مري. توفي يوم عاشوراء منيفاً على الثمانين، كان صاحب كشف وأحوال له موقع في النفوس واجلال.

وفيها توفي الإمام مظفر الدين أحمد بن عليّ، المعروف بابن الساعاتي شيخ الحنفية. كان ممن يُضرب به المثل في الذكاء، والفصاحة، وحسن الخط، وله مصنّفات في الفقه وأصوله، وفي الأدب مجادة مفيدة، وكان مدرّساً لطائفة الحنفية بالمستنصرية في بغداد.

سنة خمس وتسعين وست مائة

استهلت وأهل الديار المصرية في قحط شديد، ووباء مفرط، حتى أكلوا الجيف، وأمّا الموت، فيقال: أنه أخرج في يوم واحد ألف وخمس مائة جنازة، وكانوا يحفرون الحفائر الكبار، ويدفنون فيها الجماعة الكثيرة، وبلغ الخبز كل رطل، وثلث بالمصرية بدرهم، وبلغ

---

(١) الكشط: كشط الشيء كشطاً: رفع عنه شيئاً قد غطّاه.

في دمشق كل عشرة أواق بدرهم في جمادى الآخرة، وارتفع فيه الوباء والقحط عن مصر، ونزل الأردن إلى خمسة وثلاثين.

وفيها قدم الشام شيخ الشيوخ صدر الدين إبراهيم ابن الشيخ سعد الدين بن حمويه الجوينيّ، فسمع الحديث، روى عن أصحاب المؤيد الطوسيّ، وأخبر أنّ ملك التتار غازان ابن أرغون أسلم على يده بواسطة نائبه بوروز بالراء بين الواوين، والزاي في آخره، كان يوماً مشهوراً.

وفيها توفيت بنت عليّ الواسطيّ أمّ محمد الزاهدة العابدة الصالحة، روت عن الشيخ الموفّق، وقد قاربت التسعين.

وفيها توفي ابن رزين الإمام صدر الدين قاضي القُضاة.

وفيها توفي ابن بنت الأعز قاضي الديار المصرية تقي الدين عبد الرحيم ابن قاضي القُضاة تاج الدين عبد الوهاب الشافعي، وولي بعده الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد.

سنة ست وتسعين وست مائة

فيها توجه الملك العادل إلى مصر، فلما بلغ بعض الطريق، وثب حسام الدين لاجين على اثنين من أمرائه كانا جناحيه، فقتلهما، فخاف العادل، وركب سرّاً، وهرب في أربعة مماليك، وساق إلى دمشق، فلم ينفعه ذلك، وزال ملكه، وخضع المصريون لحسام الدين، ولم يختلف عليه اثنان، ولقّب بالملك المنصور، وأخذ العادل، فأسكن بقلعة صرخد، وقنع بها غير مختار.

وفيها توفي محيي الدين يحيى بن محمد بن عبد الصمد الزيدانيّ مدرس مدرسة جدة.

سنة سبع وتسعين وست مائة

فيها توفي مسند العراق عبد الرحمن بن عبد اللطيف البغداديّ المقرىء شيخ المستنصرية.

وفيها توفيت عائشة بنت المجد عيسى ابن الشيخ موفق الدين المقدسيّ، كانت مباركة صالحة عابدة، روت عن جدّها، وابن راجح.

وفيها توفي الإمام العلاّمة شمس الدين محمد بن أبي بكر الفارسيّ الشافعي الأصولي المتكلم، توفي في رمضان في مرة، وهو من أبناء السبعين، درّس مدّة بالغزالية، ثم تركها.

سنة ثمان وتسعين وست مائة

فيها قتل الملك المنصور صاحب مصر والشام حسام الدين لاجين المنصوريّ السيفي هجم عليه سبعة أنفس، وهو يلعب بعد العشاء بالشطرنج ما عنده إلاّ قاضي القضاة حسام الدين الحنفيّ، والأمير عبدالله ويزيد البدويّ، وامامة ابن العسّال، قال القاضي حسام الدين الحنفي: رفعت رأسي، فإذا سبعة أسياف تنزل عليه، ثم قبضوا على نائبه، فذبحوه من الغد، ونودي للملك الناصر، وأحضروه من الكرك، فاستناب في المملكة سلار، ثم ركب بخلعة الخليفة وتقليده، وكانت سلطنة لاجين بسنتين، وكان فيه دين وعدل.

وفيها توفي صاحب حماة الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور(١) آخر ملوك حماة.

وفيها توفي الملك الأوحد يوسف بن الناصر صاحب الكرك ابن المعظّم توفي بالقدس، وسمع وروى عنه الديماطي في معجمه.

وفيها توفي ابن النحاس العلامة حجّة العرب أبو عبدالله محمد بن إبراهيم(٢) الحلبي، شيخ العربية بالديار المصرية.

سنة تسع وتسعين وست مائة

في أوائلها قصد التتار الشام، فوصل السلطان الملك الناصر إلى دمشق، وانحفل الناس من كل وجه، وهجموا على وجوههم، وسار الجيش، وتضرع الخلق إلى الله تعالى، والتقى الجمعان بين حمص وسلمية، فاستظهر المسلمون، وقتل من التتار نحو عشرة آلاف وثبت ملكهم غازان، ثم حصل تخاذل، وولت الميمنة بعد العصر، وقاتلت الحاصكية أشدّ قتال إلى الغروب، وكان السلطان آخر من انصرف بحاشيته نحو بغلبك، وتفرق الجيش، وقد ذهبت أمتعتهم ونُهبت أموالهم، ولكن قلّ من قُتل منهم، وجاء الخبر إلى دمشق من غدٍ، فحار الناس وأبلسوا وأخذوا يتسلّون بإسلام التتار، ويرجون اللطف، فتجمع أكابر البلد، وساروا إلى خدمة غازان، فرأى لهم ذلك، وفرح بهم، وقال: نحن قد بعثنا بالأمان قبل أن تأتون.

ثم انتشرت جيوش التتار بالشام طولاً وعرضاً، وذهب للناس من الأهل والمال والمواشي ما لا يُحصى، وحمى الله دمشق من النهب والسبي والقتل، ولكن صودروا

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/٢٤٦.

(٢) أحد رؤساء الحنفية، ومدرّس الزنجابية والظاهرية. توفي ببستانه بالمزة ثالث عشر ذي الحجة البداية والنهاية ٩/٢٤٧.

مصادرة عظيمة، ونُهب ما حول القلعة لأجل حصارها، وثبت متوليها علم الدين ثباتاً كليّاً لا مزيد عليه، حتى هابه التتار، ودام الحصار أياماً عديدة، وأخذت الدواب جميعها، واشتد العذاب، في المصادرة مع الغلاء والجوع وأنواع الهم والفزع، لكنهم بالنسبة إلى ما جرى بجبل الصالحية من السبي والقتل أحسن حالاً، فقيل: إن الذي وصل إلى ديوان غازان من البلد ثلاثة آلاف ألف وست مائة سوى ما أخذ في الرسيم والبرطيل[١] ولبس المسوح[٢]، وكان إذا ألزم التاجر بألف درهم ألزمه عليها فوق المائتين ترسيماً يأخذه التتار، ثم أعان الله، فرحل غازان في ثاني عشر جمادى الأولى، وكان قدومه ومحاربته في أواخر ربيع الأول، ثم ترحل بقية التتار بعد ترحله بعشرة أيام، ودخلت جيوش المسلمين القاهرة في غاية الضعف، ففتحت بيوت المال، وأنفق عليهم نفقة لم يسمع بمثلها، ومدة انقطاع خطبة الناصر من خوف التتار مائة يوم.

وفيها توفي من شيوخ الحديث بدمشق والجبل أكثر من مائة نفس، وقتل بالجبل، ومات برداً وجوعاً نحو أربع مائة نفس، وأسر نحو أربعة آلاف منهم سبعون من ذرية الشيخ أبي عمرو.

وفيها توفي الإمام المحدث الحافظ أحمد بن فرج الإشبيلي، تفقه على الإمام عز الدين بن عبد السلام، وحدّث عن ابن عبد الدائم وطبقته، وكان ذا ورع وعبادة وصدق له حلقة اشتغال بجامع دمشق.

وفيها توفي العلامة نجم الدين أحمد بن مكي، كان أحد أذكياء الرجال وفضلائهم في الفقه، والأصول، والطب، والفلسفة، والعربية، والمناظرة.

وفيها توفيت خديجة بنت يوسف، وخديجة بنت المُفتي محمّد بن محمود أمّ محمد، روت عن ابن الزبيديّ، وتكنّى أمّة العزّ روت عن طائفة، وقرأت غير مقدمة في النحو، وجوّدت الخط على جماعة، وحجّت وتوفيت في رجب، وكانت عالمة فاضلة ـ رحمها الله تعالى ـ.

وفيها توفيت صفية بنت عبد الرحمن بن اعمرو الفرّا المنادي، روت في الخامسة عن الشيخ الموفق، وعدمت بالجبل.

وفيها توفي ابن الزكي قاضي القضاة عزّ الدين عبد العزيز ابن قاضي القضاة محيي

---

(١) الرسيم والبرطيل: الرّسم: مال تفرضه الدولة لقاء خدمة من قبلها كرسم البريد والقضايا. والبرطيل: الرشوة.

(٢) لبس المسوح: المِسْحُ: الكساء من شَعَرٍ. و ـ: ثوب الراهب.

الدين بن محمد القرشيّ درّس في العزيزية، وقد ولي نظر الجامع وغير ذلك، ومات كهلاً.

وفيها توفي إمام الدين قاضي القضاة أبو القاسم عمر بن عبد الرحمن القزوينيّ الشافعيّ[1] كان مجموع الفضائل، تام الشكل توفي بالقاهرة.

وفيها توفي ابن غانم الإمام شمس الدين محمد بن سليمان المقدسيّ الشافعيّ المواقع، سبط الشيخ غانم، وفيها حمل الأمير سيف الدين نائب السلطنة بطرابلس مرّات، وقتل جماعة، ثم قتل، وكان ذا دين وخبرة وشجاعة.

وفيها توفيت هدية بنت عبد الحميد المقدسيّة الصالحيّة، روت الصحيح عن ابن الزبيدي، وتوفيت بالجبل.

وفيها توفي أبو محمد المرجاني[2] الشيخ الكبير، الوليّ الشهير، القدوة العارف معدن الأسرار، والمعارف والمواهب واللطائف، علم الوعاظ، المعلّم المنطق بالمعارف والحكم عبدالله بن محمد المرجاني المغربي أحد مشائخ الإسلام، وأكابر الصوفية السادات الكرام. توفي بتونس كان مفتوحاً عليه في العلوم الربانية والأسرار الإلهية.

ومما بلغني عنه أنه قيل له: قال فلان: رأيت عمود نور ممتداً من السماء إلى فم الشيخ أبي محمد المرجاني في حال كلامه، فلما سكت ارتفع ذلك العمود، فتبسم الشيخ، وقال: ما عرف يعبّر بل لما ارتفع العمود سكت.

قلت يعني رضي الله تعالى عنه أنه كان يتكلم بالأسرار عن مدد من الأنوار، فلما انقطع المدد بالنور الممدود انقع النطق بالكلام المحمود.

ومما بلغني من كراماته أنه حضر مجلسه بعض المنكرين بنية الاعتراض عليه في كلامه، وكان ذلك الشخص المنكر أعور، فقال الشيخ أبو محمد المذكور في أثناء كلامه: قبل أن يضيء النهار الله أكبر، حتى العوران جاؤوا للإعتراض والإنكار، أو كما قال من الكلام الصادر عن النور في وقت الظلام، وكان من عادته أنه لا يقوم من مجلسه حتى يرتفع النهار، فبقي ذلك الأعور في حياء وخجل وحزن ووجل خوفاً من أن يقوم ويخرج، فيعلم الحاضرون أنه المراد، ويقعد فيعرف إذا طلع النهار أنه المنكر السيىء الاعتقاد، فبينا هو متحيّر بين هاتين الفضيحتين إذ أطفأ الشيخ القنديل، وانقض المجلس، ولم يعلم الأعور من صاحب العينين الصحيحتين، وكان قصر المجلس في ذلك الوقت على خلاف العادة ستراً

(١) انظر الأعلام ٥/ ٤٩. ولد بتبريز. قال ابن العماد: انجفل إلى مصر، فتألم في الطريق. له «مختصر شعب الإيمان» ولد سنة (٦٥٣).
(٢) انظر الأعلام ٤/ ١٢٥.

منه، وفتوة على جاري عادة الصفوة السادة، وإليه الإشارة في البيت العاشر من هذه الأبيات من قصيدتي المشتملة على ذكر مائة من كبار الشيوخ السادات، وعلى نيف وثلاث مائة من الأبيات، وأول العشرة المذكورات قولي في أثنائها:

وكم قد حبا حالي حباها جنيدهم فسرى السري جند الجنيد المسودِ
وكم رفعت لابن الرفاعي من علا له في نواحي الأرض كم من ممجدِ
وأعلت مقام الدين للعارف الفتى أبي مدين بدربه القوم يقتدي
وكم شمّ منها الشاذليّ ذكي شذى ففي متهم الأتباع فاح ومنجدِ
فارسي لدى المرسي مراكب سيرها فلم تمش في التصريف غير مقلدي
بها الأصبهاني صار نجم سمائها وبدر هداها سيفها غَوث مجحدِ
وحلى الفتى ياقوت ياقوت نحرها بعقد على جيد السلوك منضد
ولابن عطا أعطت لواء ولاية وترياق داء للضلالة مبعدِ
فداوى به داود حتى الفتى شفي فصار شفاء المعضل المتمردِ
ومرجانياً من حلى مرجان بحرها حلّت برد أحسن اللطائف مرتد
جنيدية موروثة عن معارف زها حسنها في الدهر يجلو لمفرد
وما نال إلاّ واحد بعد واحد حلا حسنها الغالي فطوبى لمسعدِ

وله رضي الله تعالى عنه من المواهب، والمناقب، والمحاسن الغراب، ما يحتاج في ذكره إلى تصنيف كتاب.

وأما قول الذهبيّ في ترجمته: وأبو محمد عبدالله المرجاني الواعظ المذكور أحد مشائخ الإسلام علماً وعملاً مقتصراً على هذه الألفاظ من غير زيادة، فغض من قدره كما هو عادته في مشائخ الصوفية السادة الصفوة أولى الأسرار والأنوار الذين في حقهم التفخيم والتنويه بعظم الجلالة والمقدار.

سنة سبع مائة

فيها حصلت أراجيف بالتتار، وجاء غازان بجيشه للفرات، وقصد حلب، فتشوشت الخواطر، وهج الخلق على وجوههم في الوحل والأمطار، وأكريت المحارة إلى مصر بخمس مائة درهم، وبيع اللحم بتسعة دراهم، وبقي الخوف أياماً، ثم رجع غازان لما ناله من المشاق بكثرة الثلوج والأمطار كل هذا في أوائل السنة.

وفي شعبان لبست اليهود والنصارى بمصر والشام العمائم الصفر والزرق والحمر، ومنعوا من ركوب الخيل بالسروج، وسائر الشروط العُمرية.

وفيها توفي أبو العلاء محمود بن أبي بكر البخاريّ الصوفي[1] الحافظ، كان إماماً في الفرائض، مصنّفاً فيها له حلقة اشتغال، وسمع الكثير بخراسان والعراق والشام ومصر، وكتب الكثير، ووقف أجزاءه، وراح مع التتار قيل: من خوف الغلا، فأقام بماردين أشهراً، وأدركه أجله بها.

وفيها توفي الشيخ إسماعيل بن إبراهيم الصالحي شيخ البكرية، له أصحاب وفيه خير، وله سيرة محمودة.

وفيها توفيت أمّ الخير زينب بنت قاضي القُضاة محيي الدين يحيى بن محمد الزكي القرشي الدمشقي، روت عن ابن المقير وجماعة.

سنة احدى وسبع مائة

وفيها توفي أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي[2]، ودُفن عند السيدة نفيسة رضي الله عنها، وكانت خلافته أربعين سنة وأشهراً، وعهد بالخلافة إلى ولده المستكفي بالله أمير المؤمنين، وقوي بتقليده بعد عزاء والده، وخُطب له على المنابر.

وفيها توفي المحدّث الإمام أبو الحسين عليّ بن محمد التونسيّ ببعلبك شهيداً من جروح في دماغه من مجنون وثب عليه بسكّين.

وفيها خُنق شيخ الحنفية العلامة ركن الدين عبدالله بن محمد السمرقنديّ مدّرس الظاهرية، وأُلقي في بركتها، وأخذ ماله، ثم ظهر أنّ قاتله هو قيم الظاهرية، فشنق على ظاهرها.

وفيها وقعت جراد لم يسمع بمثله إلى دمشق تركت غالب الغوطة غصناً مجردةً، وأيبست أشجاراً خارجة عن الانحصار.

سنة اثنتين وسبع مائة

فيها طرق قازان الشام، فالتقى تركه، وترك الإسلام بعرض، ونصر الله المسلمين، وقتل في التتار خلق كثير، وأسر مقدمان، وكان العدو نحو أربعة آلاف، والمسلمون في ألف وخمس مائة فارس، وتأخر جند الأطراف إلى حمص، ثم جهّز قازان جيوشه مع نائبه خطلوشاه، فساروا إلى مرج دمشق، وتأخر المسلمون، وبات أهل دمشق في بكاء، واستغاثة

(١) محمود بن أبي بكر بن أبي العلاء ابن عليّ البخاري ثم الكلاباذي، أبو العلاء، شمس الدين. من كتبه «ضوء السراج» في شرح الفرائض السراجية، ونسبته إلى «كلاباذ» محلّة في بخارى.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/ ٢٦١.

بالله، وخطب شديد، وقدم السلطان، وانضمت إليه جيوشه والحفال، وكان المصاف على سفحت، فهزم العدو الميمنة، واستشهد رأس الميمنة الحسام أستاذ دار في جماعة أمراء، وثبت السلطان كعوائده، ونزل النصر، وشرع التتار في الهزيمة، فتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً، ومزقوا كل ممزق، وتخطفهم الناس إلى الفرات، وسلم شطرهم في ضعف شديد، وجوع، وحفاء، ووقوف جبل، ثم دخل السلطان والخليفة راكبين، والحمد لله، ومن الشهداء الفقيه إبراهيم بن عبدان، والأمير صلاح الدين ابن الكامل، والأمير علاء الدين الحاكي، والأمير حسام الدين قرمان وغيرهم.

وفي ذي القعدة تزلزلت مصر، وتساقطت الدور، ومات بالاسكندرية تحت الردم نحو المائتين، وكانت آية.

وافتتحت جزيرة أرواد، وأسر من الفرنج نحو خمس مائة.

وفيها توفي عبد الحميد بن أحمد بن حولان البّنا.

ومات في القاهرة شيخها وقاضيها شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب ابن دقيق العيد القشيريّ الشافعي، صاحب كتاب «الإلمام»، وكتاب «الإمام»، و «شرح العمدة» عن سبع وسبعين سنة. يروي عن ابن الحميريّ وغيره. وكان رأساً في العلم والعمل عديم النظير أجلّ علماء وقته، وأكبرهم قدراً، وأكثرهم ديناً وعلماً وورعاً واجتهاداً في تحصيل العلم ونشره، والمداومة عليه في ليلهِ ونهارهِ مع كبر سنه، وشغله بالحكم. ولد بمدينة ينبع من أرض الحجاز في شعبان سنة خمس وعشرين وست مائة، ونشأ بديار مصر، واشتغل أولاً بمذهب مالك، ودرّس فيه بمدينة قوص، ثم اختار مذهب الإمام الشافعيّ، ومال إليه، فاشتغل به وتبحّر فيه حتى بلغ فيه الغاية داريةً وروايةً، وحفظاً، واستدلالاً، وتقليلداً، واستقلالاً حتى قيل إنه آخر المجتهدين، وبرع في علوم كثيرة لا سيما في علم الحديث. فاق فيه على أقرانه، وبرز على أهل زمانه، ورحل إليه الطلبة من الآفاق، ووقع على علمه وزهده وورعه الاتفاق ـ رحمه الله تعالى ـ، وكان له اعتقاد حسن في المشائخ، وأهل الصلاح حتى بلغني أنه كان يزور بعض المشائخ، فإذا بلغ إلى بابه نزل عن البغلة، ونزع الطيلسان[1] والعمامة، ودخل عليه بطاقية على رأسه، وإنه شكا إلى بعض الفقراء من أرباب القلوب، وسوسة يجدها في الصلاة، فقال له: أفّ لقلب يكون فيه غير الله فقال ابن دقيق: العيد، وقد ذكر هذا الفقير المذكور هو عندي خير من ألف فقيه.

ومن المشهور أنه ركبته ديون كثيرة، ولم يجد لها وفاء، فرحل إلى الشيخ الكبير ذي

(١) الطيلسان: كساء أخطر يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ، وهو من لباس العجم.

الكرامات والمجد والمفاخر، العارف بالله الشهير ابن عبد الظاهر ـ قدس الله روحه ـ فلما وصل إليه سلّم عليه، فقدم له الشيخ مأكولاً، ومن جملته سميط[1]. وكان من عادته لا يأكل السميط لأنه شوي وفيه أثر الدم، فلما وضع بين يديه قال له تلميذ له: يا سيدي هذا سميط، فقال له: ليس هذا موضع ذاك، يعني الموضع الذي ننكره ونترك أكله فيه. يريد أنّ هذا موضع موافقة الشيخ في كل ما يفعله واحترامه وإجلاله، فأكل من ذلك، فلما فرغ من الأكل إذا بالفقراء قد قدّموا آلة السماع، وكان من عادته لا يحضر السماع، فقال له تلميذه: يا سيدي أراهم قد قدّموا آلة السماع، فقال له: اسكت ما هذا موضع ذاك بل هذا موضع ما قدمنا ذكره من الاحترام والتسليم، فسمع الفقراء وهو حاضر ساكت، فلما انقضى سماعهم. قال الشيخ منشداً البيت المشهور للمتنبي:

وفي النفس حاجات، وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

فقال له الشيخ رضي الله تعالى عنه: انقضت الحاجة، فخرج من عنده، ورجع إلى القاهرة، فوجد ديونه قد قضيت، وردّت الدفاتر التي كتب فيها الدين، وذلك أنّ الوزير الكبير الشهير ذو المكارم الشهير المعروف بابن حنّاء سأل عنه، فقالوا: قصد الشيخ ابن عبد الظاهر لدين عليه، فاستدعى بأرباب الديون، فأعطاهم ديونهم، وأخذ منهم الأوراق المكتوبة بذلك.

قلت: وقد جعله بعضهم مجدد الدين الأمة على رأس المائة السابعة، وقد قدمت ذكر الأئمة المجدد بهم دين الأمة على رأس المائين الست قبله، فيما تقدم من هذا التاريخ، وفي كتاب المرهم، والشاش المعلم وغير ذلك من كتبي.

وفي السنة المذكورة أخذ من دمشق قاضيها ابن جماعة، وتولّى مكانه ابن صصري.

وفيها توفي المسند بدر الدين الحسن بن عليّ بن الجلال الدمشقيّ. حدث عن جماعة منهم مكرم، وابن الشيرازيّ، وابن المقير، وكريمة وغيرهم، وتفرد بالرواية رحمه الله تعالى.

وفيها توفي كمال الدين ابن عطار، وفيها توفي متولي حماة الملك العادل كتبغا. تسلطن بمصر عامين وخُلع.

وفيها توفي المقرىء شمس الدين محمد بن قيماز، قرأ على السخاوي بالسبع، وسمع من ابن صبّاغ، وابن الزبيدي وكان خيراً متواضعاً.

---

(١) سميط: سمط الذبيحة سمطاً: غمسها في الماء الحارّ، لإزالة ما على جلدها من شعر أو ريش قبل طبخها أو شيّها، أو دبغ جلدها فالجدي سميط ومسموط.

وفيها توفي مسند العرب الإمام الأديب أبو محمد عبدالله بن محمد بن هارون الطائيّ القرطبي عن مائة عام، سمع الموطأ وكامل المبرد في سنة عشرين، وعُمّر دهراً.

سنة ثلاث وسبع مائة

فيها توفي القدوة الزاهد العلاّمة بركة الوقت الشيخ إبراهيم بن أحمد الرقي الحنبلي[١]، كان من أولياء الله تعالى، ومن كبار المذكورين، وله تصانيف محركة إلى الله، حدّث عن عبد الصمد بن أبي الحسن، وله نظم كثير، وخبرة بالطبّ، ومشاركات في العلوم.

وفيها توفيت المعمرة أمّ أحمد ست أهل بيت علوان البعلبكية بدمشق مكثرة عن البهاء عبد الرحمن صالحة خيّرة.

وفيها توفي مفيد الطلبة نجم الدين إسماعيل بن إبراهيم المعروف بابن الخبّاز.

وفيها توفي المفتي شيخ دار الحديث، وخطيب البلد زين الدين عبدالله بن مروان الفارقيّ[٢] روى عن السخاويّ، وكريمة وابن رواحة، وابن خليل.

سنة أربع وسبع مائة

فيها تكلّم ابن النقيب وغيره في فتاوى لابن العطّار فيها تخبيط، وسموا إلى القضاة، فحار ابن العطّار، وأُرعب وبادر إلى الحاكم ابن الحريريّ، فأسلم بدعوى صورت، فحقن دمه، ثم ندم ولامه أصحابه، وبلغ النائب، فغضب من الفتن، واعتقل ابن النقيب أربع ليالٍ فأنكروا.

وفيها توفي المحدّث المشهور ومفيد دمشق أبو الحسن علي بن مسعود بن نُفيس الموصليّ، ثم الحلبيّ بدمشق.

وفيها مات بالمدينة الشريفة النبوية صاحبها حمار بن سبخة الحسينيّ.

وفيها توفي الضياء عيسى بن أبي محمّد شيخ المغارة.

---

(١) برهان الدين أبو إسحاق: واعظ، ولد بالرقة، وقرأ ببغداد. واستقر في دمشق، ودُفن في سفح قاسيون. له تصانيف منها «أحاسن المحاسن» و «تفسير القرآن» لكن لم يتمه الأعلام ١/ ٢٩.

(٢) ولد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وتوفي في دار الخطابة يوم الجمعة بعد العصر البداية والنهاية ٩/ ٢٧٥.

وفيها توفي المعمّر ركن الدين أحمد بن عبد المنعم بن أبي الغنائم الطاووسيّ، كبير الصوفية بدمشق.

وفيها توفي شيخ البطائحة تاج الدين ابن الرفاعيّ بقرية أمّ عبيدة عن سنّ كبيرة، وشهرة كثيرة.

وفيها توفي الشيخ أبو عبدالله محمّد بن يوسف الإربليّ، ثم الدمشقيّ كبير الراهبين.

وفيها توفي بالاسكندرية شيخها الإمام المحدّث تاج الدين عليّ بن أحمد الحسيني العراقي.

وفيه توفي بمصر عالمها المعلّم العراقي عبد الكريم بن علي الأنصاري المصريّ الشافعيّ المفسّر.

سنة خمس وسبع مائة

فيها وقعت فتنة شيخ الحنابلة ابن تيمية، وسؤالهم عن عقيدته، وعقدوا له ثلاث مجالس، وقُرئت عقيدته الملّقبة بالواسطية وضايقوه، وثارت غوغاء الفقهاء له وعليه، ثم إنّه طلب على البريد إلى مصر، وأُقيمت عليه دعوى عند قاضي المالكية، فاستخصمه ابن تيمية المذكور، وقاموا، فسجن هو وأخوه بضعة عشر يوماً، ثم أُخرج، ثم حُبس بحبس الحاكم، ثم أُبعد إلى الاسكندرية، فلما تمكّن السلطان سنة تسع طلبه، فاحترمه وصالح بينه وبين الحاكم، وكان الذي ادعى به عليه بمصر أنه يقول: إنّ الرحمن على العرش استوى حقيقة، وإنه يتكلم بحرف وصوت، ثم نودي بدمشق وغيرها من كان على عقيدة ابن تيميّة حلّ ماله ودمه.

وفيها جاء تقليد بالخطابة للشيخ برهان الدين بعد عمّه، وباشر وخطب، ثم ترك واختار بقاءه بالنادريّة بعد أن صلّى خمسة أيام.

وفيها مات بحلب قاضيها وخطيبها العلاّمة شمس الدين محمد بن محمّد بن بهرام الدمشقي الشافعيّ، وهو الذي عزل بزين الدين ابن قاضي الخليل من الحكم، وكان مشهوراً بدريّ المذهب.

وفيها مات بمصر المعمّر أبو عبدالله محمّد بن عبد المنعم بن شهاب.

وفيها مات بالاسكندرية الإمام المعمّر شرف الدين يحيى بن أحمد بن عبد العزيز الصوّاف الجذاميّ المالكيّ، عن ست وتسعين سنة، سمع منه قاضي القضاة السبكيّ وجماعة

يروي عن ابن العماد والصفراوي، وتلا عليه بالسبع.

وفيها توفي بدمشق خطيبها الإمام الكبير شرف الدين أحمد بن إبراهيم بن سباع الفزاريّ الشافعيّ، شهده ملك الأمراء والأعيان تلا بالسبع، وأحكم العربية، وقرأ الحديث، وكان فصيحاً، عديم اللحن، طيب الصوت، روى عن السخاويّ والعز النسابة، والتاج القرطبي، وأقرأ زماناً مع الكيس والتواضع والتصوف.

وفيها مات حافظ الوقت العلاّمة شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدِّمْيَاطيّ الشافعي[1] سمع من ابن المقير، وابن رواحة، وإبراهيم بن الخير، وابن مختار وغيرهم ممن في طبقتهم، وصنّف التصانيف المهذبة قيل: ولم يخلف في معناه مثله ـ رحمه الله تعالى ـ.

وفيها توفيت المعمّرة زينب بنت سليمان بن رحمة الأشعريّ بمصر[2]، عن بضع وثمانين سنة، سمعت ابن الزبيدي، والشيخين أحمد بن عبد الواحد البخاريّ، وعليّ بن حجاج وجماعة، وتفردت بأشياء.

وفيها توفي صاحب بلاد المغرب أبو يعقوب يوسف ابن السلطان يعقوب بن عبد الحقّ المريني[3].

سنة ست وسبع مائة

فيها قدم عن الشرق براق العجميّ في جمع نحو المائة، وفي رؤوسهم قرون لتأييده، ولحاهم دون الشوارب محلقة، وعليهم أجراس، فدخلوا في هيئة محزون بشهامة، فنزلوا بالمتسع، ثم زاروا القدس، وشيخهم من أبناء الأربعين فيه اقدام، وقوة نفس، وصولة، فما مكنوا من المضيّ إلى مصر، وكان يدق له نوبة، ونفذ إليهم الكبار غنماً ودراهم.

وفيها توفي الإمام العلاّمة ضياء الدّين أبو محمّد عبد العزيز بن محمّد الطّوسيّ[4] شارح الحاوي الصغير، والمختصر في الأصول، وكان عالماً فاضلاً. درّس وأعاد في عدة

---

(١) ولد بدمياط. وتنقل في البلاد؛ وتوفي فجأة في القاهرة. قال الذهبي: كان حسن الخلق، بسّاماً، فصيحاً لغوياً مقرئاً، جيد العبارة كبير النفس، صحيح الكتب. ومن كتبه «كشف المغطّى في تبيين الصلاة الوسطى» و «قبائل الخزرج» و «فضل الخيل» وغير ذلك الأعلام ١٦٩/٤.

(٢) زينب بنت سُليمان بن أحمد الإسعردية الأعلام ٦٦/٣.

(٣) المريني. ولد عام (٦٣٨) وتوفي عام (٧٠٦) وهو من ملوك الدولة المرينية في المغرب الأقصى بويع بعد وفاة أبيه. قال السلاوي: كان مهيباً جواداً مشفقاً على الرعية متفقداً لأحوالها شجاعاً شهماً؛ وهو أول من هذّب مُلك بني مرين، وأكسبه رونق الحضارة وبهاء الملك؛ وكان غليظ الحجاب لا يكاد يوصل إليه إلا بعد الجهد الأعلام ٢٥٨/٨ ـ ٢٥٩.

(٤) انظر الأعلام ٢٦/٤.

مدارس في دمشق، ومات بها ـ رحمه الله تعالى ـ.

وفيها مات ببغداد الإمام العلاّمة المتفنن نصير الدين عبد الله بن عمر الفاروقيّ الشيرازيّ الشافعيّ مدرّس المستنصرية. قدم دمشق، وظهرت فضائله في العقليات.

سنة سبع وسبع مائة

قال الذهبي فيها عقد مجلس بالقصر، فاستتيب النجم ابن خلّكان من العبارات القبيحة، ودعا ومبيحة الدم، وادعاء نبوة، فاختلف فيه الأمراء، ومال إلى الرفق به الشيخ برهان الدين فتاب.

وفيها مات بمكة في آخر العام الشيخ الكبير محمد بن أحمد بن أبي بكر الحرانيّ القزّاز؛ وكان كثير التلاوة، شهير الزهادة، وروى عن عبدالله ابن التّجار وجماعة، وتفرّد بالرواية، قال الذهبي: وكتبنا عنه.

وفيها مات بمصر رئيسها الصاحب تاج الدّين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد بن الوزير بهاء الدين عليّ بن محمّد بن حنّا، حدّث عن سبط السلفيّ، وكان محتشماً وسيماً شاعراً متمولاً من رجال الكمال.

وفيها مات بمكة شيخها الإمام القدوّة الكبير العارف بالله، الشهير ذو المقامات العليّة، والكرامات السنية، والأحوال الخارقة، والأنوار البارقة، والأنفاسَ الصادقة أبو عبدالله محمّد بن حجاج بن إبراهيم الحضرميّ الإشبيلي، المعروف بابن المطرف الأندلسيّ في رمضان عن نيف وتسعين سنة، وكان يطوف في اليوم والليلة خمسين أسبوعاً، وحمل نعشه صاحب مكة حميضة.

قلت: ومن كراماته العظيمة ما أخبرني به بعض أصحاب الشيخ الكبير أبي محمد اليشكري المغربيّ الذي لما مات قال الشيخ الكبير نجم الدين الأصبهانيّ: مات الفقير من الحجاز أنه لما عزم الشيخ أبو محمّد المذكور على السفر من مكة لزيارة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جاء إلى الشيخ أبي عبدالله ابن مطرف المذكور مودعاً فقيل له: عزمت، قال: نعم قال: بلغني أنّ لفقير ما فيه ماء، وستلقون شدة، ثم تغاثون، قال الراوي فسافرت مع رابع أربعة، فلما بلغنا الفقير وجدناه كما ذكر يعني فقيراً من الماء.

وذكر أنهم قدموا إلى طرف البرامين، واشتد عليهم الحرّ، ولم يكن معهم من الماء إلا شيء يسير، فذهب أحدهم ليشرب، فقال له الشيخ أبو محمد: إنْ شربته متّ، ولكن بُلّ حلقك. قال: ثم قاسينا شدة من شدّة الحرّ، وشدة العطش، ولم نجد ظلاًّ نستظلّ به، فقال

له الشيخ أبو محمد: ما قال لكم الشيخ أبو عبدالله ابن مطرف، قلنا: قال: ستلقون شدّة، فقال: وهل شدة أشدّ مما نحن فيه؟ ثم قال، وما كان آخر كلامه؟ قلنا: قال: ثم تُغاثون، فقال: أبشروا بالغوث وإذا بسحابة بدت لنا من بعض الآفاق، ولم تزل ترتفع حتى استوت فوق رؤوسنا، ثم صبّت علينا حتى سال ما حولنا، فشربنا، ثم توضأنا، واغتسلنا، واستقينا، ثم مشينا خطوات فلم نجد للمطر شيئاً من الأثر قلت: وهذه الآية من أعظم العبر هذا معنى ما ذكر، وإن لم يكن لفظه بعينه هذا المتسطر.

وفي السنة المذكورة مات ببغداد مسندها الإمام رشيد الدين محمد بن أبي القاسم المقرىء، شيخ المستنصرية، روى عن جماعة، وتفرّد وشارك في الفضائل واشتهر.

وفيها مات بتبريز عالمها شمس الدين عبد الكافي العبيديّ، شيخ الشافعية، وقد أحسن، وخلّف كتباً تساوي ستين ألفاً.

وفيها توفي بدمشق مسندها شِهاب الدّين محمّد بن عبد العزيز بن مشرف بن بيان الأنصاري شيخ الزاوية، بالدار الأشرفية عن ثمان وثمانين سنة، حدث عن ابن الزبيديّ، والناصح، وابن صبّاغ وغيرهم، وتفرّد واشتهر.

سنة ثمان وسبع مائة

فيها أطلقت حماة لنائبها فيحق، فسار السلطان إلى الكرك ليحج، فدخلها، وبعث نائبها جمال الدين إلى مصر، وزهد في ملكه لحجر عليها فيها، ولوح بعزل نفسه بيبرس الجاشنكير، وتسلطن، ولقّب بالمظفر، وأقر على نيابته الملك سلار، وحلف له أمراء النواحي، وجاء كتاب الناصر من الكرك.أنه لم يولّ أحداً، وقد اختار الانقطاع، أو العزلة بالكرك، وإنّ له عليهم بيعة بالطاعة، وقد أمرهم بالطاعة لمن يتولّى، وبشرط الاتفاق وما فيه تصريح بعزل نفسه.

وفيها توفي الشيخ الكبير القدوة عثمان الحانوني، وكان من الصعيد، وطلع النائب والقُضاة إلى جنازته، وكان ذا كشف وتوجه وجدّ برك الخبز سنين.

وفيها توفي رئيس الطبّ بمصر العلم ابن أبي خليفة، قيل: تركته ثلاث مائة ألف دينار.

وفيها ماتت المعمّرة أمّ عبدالله فاطمة بنت سُليمان بن عبد الكريم الأنصاريّ[1] عن قريب التسعين بدمشق، لها اجازة من جماعة، وسمعت المسلم المازنيّ، وكريمة، وابن

(١) انظر الأعلام ٥/ ١٣١.

رواحة، وكانت صالحة روت الكثير، ولم تتزوج.

ومات في رجب الملك المسعود نجم الدين خضر بن الطاهر في أول الكهولة وفي فجاءة.

وفيها مات بمكة شيخ الحرم ظهير الدين محمّد بن عبدالله بن منعة البغداديّ عن بضع وسبعين سنة. جاور أربعين سنة، وحدث عن الشرف المرسي توفي بناحية اليمن (بالمهجم)[1].

وفيها توفي الحافظ مُفيد مصر شمس الدين محمّد بن عبد الرحمن بن شامة الطائي.

وفيها توفي بدمشق مسند الشام أبو جعفر محمّد بن علي السلمي العباسيّ الدمشقي، كان متزهداً، حجّ مراراً وجاور، تفرّد عن أبي القاسم بن صصري، والبهاء عبد الرحمن، ورحل إليه، توفي عن أربع وتسعين سنة.

وفيها ماتت بحماة الجليلة أمّ عمر خديجة بنت عمر بن أحمد في عشر التسعين. روت عن الركن إبراهيم الحنفي.

وفيها مات بغرناطة عالمها الحافظ المقرىء النحويّ، ذو العلوم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزُبير الثقفيّ[2].

سنة تسع وسبع مائة

فيها بعث بابن تيمية مع مقدم الاسكندرية، فاعتقل ببرج، ومن أراد دخل عليه، وأبطلت الخمور والفواحش من السواحل.

وفي وسط السنة سار أمراء، وهمّوا بقتل السلطان المظفر بيبرس فتجوز، فساقوا على حمينة إلى العريش، ثم دخلوا الكرك وحرّكوا همة السلطان، وكان رأسهم ثقبة المنصوريّ، وهم فوق المائة، فسار السلطان قاصداً دمشق، وأرسل الأفرام، فتوقف، وقال: كيف هذا وقد حلفنا للمظفر؟ ثم خذل وفر إلى السقيفة، ثم دخل السلطان إلى قصر الميدان، فأتاه مُسرعاً نائب حلب قراسنقر، ونائب حماة فيحق، ونائب الساحل استعدو، والتقت إليه جميع عسكر الشام، ثم سار بهم بعد أيام في أهبه عظيمة نحو مصر، فبرز المظفر في جيوشه،

---

(١) المهجم: بلد وولاية من أعمال زبيد باليمن، بينها وبين زبيد ثلاثة أيام، ويُقال لناحيتها خزاز، وأكثر أهلها حولان من أعلاها وأسافلها وشمالها بعد السّردد معجم البلدان ٥/ ٢٦٥.

(٢) محدّث مؤرخ، من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلس. ولد في جيان، وأقام بمالقة. من كتبه «صلة الصلة» و «البرهان في ترتيب سور القرآن» الأعلام ١/ ٨٦.

فحام عليه جماعة من الأمراء، فحارت قوته، فانهزم نحو المغرب، ودخل السلطان إلى مقر ملكه يوم الفطر بلا ضربة ولا طعنة، ثم أمسك عدة أمراء عتاة، وخذل المظفر، فجاء إلى خدمة السلطان، فوبّخه، ثم خنقه، وأباد جماعة من رؤوس الشرّ، وتمكن وهرب نائبه سلار نحو تبوك، ثم خدع، فجاء برجله إلى أجله، فأميت جوعاً، وأخذ من أمواله ما يضيق عنه الوصف من الجواهر، والعين، والملابس، والزركش، والخيل المسومة ما قيمته أزيد من ثلاثة آلاف ألف دينار قُل: اللهم مالك المُلك تُؤتي المُلك من تشاء، وتنتزع المُلك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء، وتذلّ من تشاء. بيدك الخير إنّك على كل شيء قدير، وأظهر خربنده بمملكته الرفض، وغيّر الخطبة، وشمخت الشيعة، وجرت فتن كبار.

وفيها توفي الشيخ الكبير العارف بالله الخبير إمام الفريقين، وموضّح الطريقين، ودليل الطريقة، ولسان الحقيقة ركن الشريعة المطهّرة الرفيعة تاج الدين بن عطاء الله الشاذليّ الاسكندري، صاحب أبي العباس المرسيّ. كان فقيهاً عالماً ينكر على الصوفية، ثم جذبته العناية إلى اتباع طريقتهم الرضية، فصحب شيخ الشيوخ أبا العبّاس المرسيّ، وانتفع به، وفتح له على يديه بعد أن كان من المنكرين عليه، وسيرته معه، وما جرى له هجراً ووصلاً وقولاً وفعلاً مذكورة في كتابه الموسوم بالطائف المنن في مناقب أبي العبّاس المرسيّ، وشيخه أبي الحسن الشاذلي.

وله عدة تصانيف مشتملة على أسرار ومعارف وحكم ولطائف نثراً ونظماً كلها في غاية من الجودة، ومن نظمه:

وكنت قديماً أطلب الوصل منهم ... فلما أتاني الحلم، وارتفع الجهل
تبينت أنَّ العبد لا طلب له ... فإن قربوا فضل، وإنْ بعدوا عدل
وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم ... وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وله في شيخة أبي العبّاس عدة قصائد، وما أحسن قوله في بعضها:

فكم قلوب قد أميتت بالهوى ... أحيى بها من بعدما أحياها

وكان شيخه المذكور يكثر من استنشاده هذا البيت مرة بعد أخرى، ومن أراد الاطلاع على فضائله وفضائل شيخه، وشيخ شيخه، وما لهم من المناقب، فليطالع كتبه، وما اشتملت عليه من المواهب.

وقد اقتصرت من ترجمته على هذه الألفاظ تاركاً عن بحره الذاخر الذي لا يخاض، ولم أقتصر على قول الذهبي في ترجمته الخافض من رفيع مرتبته. أعني قوله: وفيها مات بمصر الشيخ العارف المذكور تاج الدين أحمد بن محمّد بن عطاء الله الاسكندرني صاحب

أبي العباس المرسي. انتهى كلامه.

وقد قدمت في ترجمة أبي الحسن الشاذليّ ما فيه كفاية من التنويه بمرتبته العلية، والردّ على من غض من جلالة قدره من الطائفة الحشوية لسوء اعتقادهم بمشائخ الصوفية.

وفي السنة المذكورة. مات بمكة مسندها المعمّر الصالح أبو العباس أحمد بن أبي طالب الحماميّ البغدادي الزاسكي، المجاور عن بضع وثمانين سنة.

وفيها ماتت بحلب المعمّرة شهدة بنت الصاحب كمال الدين عمر بن العديم العقيلي، ولدت يوم عاشوراء لها حضور واجازة من جماعة من الشيوخ، وكانت تكتب وتحفظ أشياء، وتتزهد وتتعبد، وذكر الذهبي أنه ممن سمع منها.

وفيها مات بدمشق المقرىء المعمّر أبو اسحاق إبراهيم بن أبي الحسن بن صدقة المخرمي.

سنة عشر وسبع مائة

دخلت وسلطان الوقت الملك الناصر محمد، ونائبه يكتمر أمير جندار والوزير فخر الدين عمر الخليلي، وناب بدمشق قراسنقر.

وفيها عزل ابن جماعة من القضاء نيابة جمال الدين الزرعيّ، لكونه امتنع يوم عقد المجلس لسلطنة المظفر قراها له السلطان، ثم بعد عام أعيد ابن جماعة إلى المنصب، ثم جاء كتاب بعزل ابن الوكيل.

ووليّ بدمشق الشهاب الكاشغريّ الشريف، وفي نيسان نزل مطر أحمر، وماتت ببغداد ستّ الملوك فاطمة بنت علي بن علي.

وفيها توفي قاضي القُضاة شمس الدين أحمد بن إبراهيم السَّرُوجِيّ الحنفي[1] وعزل وطلب من دمشق ابن الحريري، فولّي مكانه، وتوفي السروجي بعده بأيام في ربيع الآخر، وله ثلاث وسبعون سنة.

صنف التصانيف، واشتهر وهلك جوعاً كما استفاض نائب الممالك سيف الدين سلار المغلي، وقد بلغ من الجاه والعزّ والمال ما لا مزيد عليه تمكن أحد عشر سنة، وكان من

(١) دُفن بقرب الشافعي، بالقاهرة. كان بارعاً في علوم شتى، نسبته إلى «سروج» بنواحي حرّان. له كتب منها «شرح الهداية» فقه، و «تحفة الأصحاب ونزهة ذوي الألباب» في أوقاف بغداد. الأعلام ١/ ٨٦.

اقطاعه نحواً من أربعين طبلخاناة[1]، وكان عاقلاً ذاهيبة، قليل الظلم.

وفيها مات بحماه الأمير الكبير سيف الدين قجق المنصوري[2] أحد الشجعان الأبطال، وكان تركياً، تام الشكل، محبباً إلى الرعية، ويقال: سُقي السمّ.

ومات في رمضان المُسند العالم كمال الدين اسحاق بن أبي بكر بن إبراهيم الأسديّ الحلبيّ ابن النحاس الحنفي، عن بضع وسبعين سنة أو ثمان، سمع ابن يعيش، وابن قميرة، وابن رواحة.

وفيها مات بتبريز عالم العجم العلاّمة قطب الدين محمّد بن مسعود بن مصلح الشيرازيّ، عن ستّ وسبعين سنة، وله تصانيف، وتلامذة، وذكاء باهر، ومزاح ظاهر.

وفيها توفي الإمام العلاّمة حامل لواء الشافعية في عصره نجم الدين أحمد بن محمّد، المعروف بابن الرِّفعة[3]، أحد الأئمة الجلة علماً وفقهاً ورياسة شرح التنبيه شرحاً حفيلاً لم يسبق على التنبيه نظيره جاء فيه بالغرائب المفيدة لكل طالب بل لكل عالم ذي فهم ثاقب، وكذلك شرح الوسيط، وأودعه علوماً جمة، ونقلاً كثيراً، ومناقشات حسنة بديعة، وهو شرح بسيط جداً، ولم يكمل.

سمع الحديث من غير واحد، وحدّث بشيء يسير من تصنيفه في أمر الكنائس وتخريبها، ووليّ حسبة الديار المصرية، ودرّس بالمغربية بها، وكان مولده في سنة خمس وأربعين وست مائة، وكان في عرف بعض الفقهاء قد وقع الاصطلاح على تلقيبه بالفقيه حتى صار علماً عليه إذا أشير إليه قلت: وكذلك صار هذا اللفظ في بعض بلاد اليمن علماً على شمس الدين، والفقيه الكبير الولي الشهير أحمد بن موسى، المعروف بابن عجيل.

وفيها توفي العالم المتفنن الشيخ عليّ بن أسمح اليعقوبي، كان له عدة محفوظات منها مصابيح البغويّ، والمفصل، والمقامات، وركب البغلة، ثم تزهّد وهاجر إلى دمشق، وائتذر بدلق وميزر صغير أسود، وتردد إلى المدارس، وأقرأ العربية.

وفيها توفي الإمام العلاّمة القاضي بدر الدين، المعروف بابن رزين عبد اللطيف بن

---

(١) طبلخاناة: المقصود بها الطبول؛ ويُقال لها الدبادب، والبوقان، والزمر المعروف بالصهان الذي يُضرب به عشية كل ليلة بباب الملك وخلفه إذا ركب في المواكب ونحوها، وهي المعبّر عنها بالطبلخاناة، وهي من شعار المُلك القديم صبح الأعشى.

(٢) سيف الدين قبجق البداية والنهاية ٩/٣٠٩.

(٣) انظر الأعلام ١/٢٢٢.

محمّد الحمويّ[١]، ثم المصريّ الشافعي ابن شيخ الشافعية. قاضي القُضاة تقي الدين كان إماماً متقناً، عارفاً بالمذهب درّس وأفتى وأعاد لأبيه، وولّي قضاء العسكر، ودرّس بالظاهرية وغيرها، وخطب بجامع الأزهر، وحدّث عن جماعة.

سنة احدى عشرة وسبع مائة

فيها عزل عن دمشق نائبها قراسنقر المنصوري، وأعيد إلى القضاء ابن جماعة، وجعل الزرعي قاضي العسكر.

وفيها مات في الثغر الإمام الناظم الزاهد العابد أبو حفص عمر بن عبد البصير السهميّ القرشيّ عن ست وتسعين سنة، حدّث بدمشق عن ابن المقير، وابن الحميري، وحجّ مرات.

وفيها مات بدمشق المسند الفاضل فخر الدين بن إسماعيل بن نصرالله بن تاج الأمنا أحمد ابن عساكر، وحدّث عن جماعة، وتبعه الكبراء وشيوخه نحو التسعين، وكان مكثراً، وفيه خفّة مع تدين، وتذاكر بأشياء.

وفيها ماتت الصالحة المسندة أمّ محمد فاطمة بنت الشيخ إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي، روت الصحيح عن ابن الزبيدي مرّات، وسمعت صحيح مسلم من غيره، وكانت صالحة متعبدة.

وفيها توفي الإمام القدوة الشيخ شمس الدين محمّد بن أحمد الدماهي الصوفي الحنبلي، وكان ذا تأله، وصدق وعلم.

وفيها توفي الإمام العارف القدوة عماد الدين أحمد ابن شيخ الحراميّة إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطيّ[٢]، صاحب التواليف في التصوف عن أربع وخمسين سنة، وكان من سادات السالكين، وله مشاركة في العلوم، وعبارة عذبة، ونظم جيد.

وفيها توفي الشيخ القدوة العارف بالبركة شعبان بن أبي بكر الإربليّ، شيخ مقصورة الحلبيين عن سبع وثمانين سنة، وكانت جنازته مشهودة، وكان خيّراً متواضعاً، وافر الحرمة.

---

(١) توفي بالقاهرة. من كتبه «منحة» الطالبين لحفظ الأحاديث الأربعين» الأعلام ٤/ ٦٠.

(٢) فقيه كان شافعياً، وأقام بالقاهرة مدة خالط بها طوائف من المتصوفة فتصوف وقدم دمشق فتتلمذ لابن تيمية. وانتقل إلى مذهب ابن حنبل. صنّف كتباً منها رسالة «مفتاح طريق الأولياء وأهل الزهد من العلماء» و «شرح منازل السائرين» توفي بدمشق الأعلام ١/ ٨٧.

وفيها توفي القاضي المنشىء جمال الدين محمّد بن مكرم الأنصاريّ الرويفعيّ[١]، يروي عن مرتضى، وابن المقير، ويوسف بن المحبلي، وابن الطفيل. وحدّث بدمشق، واختصر تاريخ ابن عساكر، وله نظم ونثر قيل: وفيه شائبة تشيع.

وفيها توفي العلاّمة شيخ الأدباء رشيد الدين رشيد بن كامل الرقيّ، الشافعيّ، درّس وأفتى، وبرع في الأدب، وحدّث عن ابن مسلمة، وابن علاّن.

وفيها توفي قاضي الحنابلة بمصر سعد الدين مسعود بن أحمد الحارثيّ حدّث وكتب وصنف ودرس، وكان ديّناً هيّناً، وافر الجلالة، فصيحاً ذكياً. حكم سنين، وكان من أئمة الحديث ومفتياً.

وفيها خرّ من فوق المنبر يوم الجمعة في هذه الحدود خطيب غرناطة، العلاّمة أبو محمّد عبدالله بن أبي حمزة المرسي، ومات فجاءة عن نيّف وثمانين سنة ـ رحمه الله تعالى ـ.

سنة اثنتي عشرة وسبع مائة

فيها قطع خير الأمير مهنّا لكونه ساق إليه جماعة من النوّاب والأمراء، فأجارهم ومسك خلائق من الأمراء وحبسوا، وحدث أحداث كثيرة من عزل وتولية.

وفيها حجّ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، قلت: ورأيته يطوف بالكعبة، وعليه ثياب أحرام من صوف، وهو يعرج في مشيته، وحوله جماعة من الأمراء، وبأيدي كثير منهم الطير من أمامه، ومن خلفه وجوانبه، فلما فرغ من طوافه ركع خلف المقام، ثم دخل الحجر، فصلى فيه، ثم جاءه قاضي مكّه نجم الدّين الطبريّ، ثم جاءه شيخنا إمام الصلاة والحديث فيها رضي الدين إبراهيم بن محمّد الطبريّ، الشافعيّ، ولا أدري هل أتيا إليه باستدعاء منه أم بغير استدعاء، وكان دخوله مكة بعد دخول الركب المصريّ. ساق في أيام يسيرة، وحج وانصرف راجعاً قبل الركب.

وفي تلك السنة كان أول حجّي عقب بلوغي، ثم رجعت إلى اليمن وعدت إلى مكة سنة ثمان عشرة، ثم أقمت بها، وسمعت الحديث، وازددت من الاشتغال بأنواع من العلوم على جماعة من العلماء، وتأهلت فأولدت من بنات أكابر الحرمين وأئمتهم وقضاتهم.

---

(١) إمام لغوي من نسل رويفع بن ثابت الأنصاريّ. ولد بمصر (وقيل: بطرابلس) خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة. ثم ولي القضاء في طرابلس وعاد إلى مصر فتوفي فيها. وعُمي في آخر عمره. أشهر كتبه «لسان العرب» و «مختار الأغاني» وغير ذلك الأعلام ١٠٨/٧.

وفي السنة المذكورة مات شيخ بعلبك الإمام الفقيه الزاهد القدوة بركة الوقت أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الحنبليّ كذا ذكره الذهبيّ، ومدحه قال: وكان قليل المثل خيّراً منوّراً أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر، وذكر أنه حدّث عن جماعة سماهم.

وفيها توفي صاحب ماردين المنصور نجم الدين غازي ابن المظفر[١].

وفيها توفي الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الناصر داود بن المعظم ابن العادل[٢] حدّث عن الصبر البكريّ، وخطيب بردا، وكان عاقلاً ديّناً.

وفيها توفيت ستّ الأجناس بنت عبد الوهّاب بن عتيق المصرية عن اثنتين وثمانين سنة، روت عن جماعة، وتفردت بأشياء.

سنة ثلاث عشرة وسبع مائة

وفيها وصل السلطان إلى دمشق من الحج حادي عشر المحرم لابساً عباءة وعمامة مدوّرة، وصلى جمعتين بالمقصورة.

وفي ربيع الآخر منها مات بمكة المحدّث الحافظ فخر الدين أبو عمرو عثمان بن محمّد بن محمّد بن عثمان التوزريّ المجاور، سمع السبط، وابن الحميري وعدة، وقرأ ما لا يوصف كثرة، وكان قد تلا بالسبع، قلتُ: ورأيته في السنة التي قبلها يحدّث في المسجد الحرام، وحضرت في بعض مجالسه، وسمعت شيئاً من الأحاديث المقروءة عليه.

سنة أربع عشرة وسبع مائة

فيها توفي بمصر العلاّمة المعمّر شيخ الحنفية رشيد الدين إسماعيل بن عثمان بن المعلّم القرشي الدمشقي، عن احدى وسبعين سنة، وسمع من ابن الزبيدي والسخاوي وجماعة، وتفرّد وتلا بالسبع على السخاوي، وأفتى ودرّس، ثم انجفل إلى القاهرة سنة سبع مائة، ومات قبله ابنه المفتي تقيّ الدين قبل موته بسنة أو أكثر.

قال الذهبي: ومات بدمشق الشيخ سليمان التركمانيّ المولد[٣]، وكان يجلس بسقاية باب البريد، وعليه عباءة نجسة ووسخ ونتن، وهو ساكت قليل الحديث، له كشف وحال من

---

(١) كان شيخاً مهيباً كامل الخلقة بديناً سميناً. توفي في تاسع ربيع الآخر ودُفن بمدرسته تحت القلعة، وقد بلغ من العمر فوق السبعين البداية والنهاية ٩/ ٣١٧.

(٢) ولد سنة (٦٣٩) في الكرك، ونشأ بالقاهرة وقرأ الحديث وحدّث. ومات هو وزوجته في يوم واحد فدُفنا معاً بالقاهرة. الأعلام ٥/ ١١٢.

(٣) سليمان التركماني المولده البداية والنهاية ٩/ ٣٢١.

نوع أخبار الكهنة، هكذا قال الذهبي على عادته في اعتقاده في الفقراء المجرّبين، قال: وللناس فيه اعتقاد زائد، وكان شيخنا إبراهيم مع جلالته يخضع له، ويجلس عنده قلت: يكفي في مدحه ما ذكره عن شيخه المذكور، وذكر أنه كان يأكل في رمضان ولا يصلّي.

قلت: ومثل هذا قد شوهد من كثير من المجرّبين، ومن الجائز أنهم يصلّون في أوقات لا يشاهدون فيها، وأنه لا يدخل إلى بطونهم، ولا إلى حلوقهم ما يرى الناس، إنهم يأكلونه بل يمضغون ذلك تجريباً وتستراً، أو غير ذلك من الأحوال المحتملة لفعل الصلاة في وقتها وترك الأكل في رمضان، فللقوم أحوال يحتجبون بها.

وقد ذكرت في كتاب روض الرياحين وغيره ما يؤيّد هذا عن قضيب البان، والشيخ ريحان، وغيرهما من المجربين أولى الاصطفاء والعرفان.

وفيها ماتت العاملة الفقيهة الزاهدة القانتة سيدة نساء زمانها، الواعظة أمّ زينب فاطمة بنت عيّاش البغدادية الشيخة في ذي الحجّة بمصر. عن نيف وثمانين سنة، وشيّعها خلائق انتفع بها خلق من النساء، وكانت وافرة العلم، فائقة قانعة باليسير، حريصة على النفع والتذكير، ذات اخلاص وخشية، وأمر بالمعروف انصلح بها نساء دمشق، ثم نساء مصر، وكان لها قبول زائد، ووقع في النفوس. قال الذهبيّ: زرتها مرة.

وفيها مات بالثغر جمال الدين العدل بن عطيّة اللخمّي المتفرّد بكرامات الأولياء عن مظفر الفُوّي بضم الفاء وتشديد الواو من أبناء الثمانين، قلت: يعني أنه تفرّد برواية المذكورة عن الشيخ المذكور.

سنة خمس عشرة وسبع مائة

في أوّلها سار نائب دمشق بجيوش الشام إلى ملطية، فافتتحها، وسُبيت ذراري النساء، وعدد من المسلمات، وعمّ النهب، وأحرقوا في نواحيها، وفارقوها بعد ثلاث وقُتِلَ بملطية عدة من النصارى، ودرس بالأتابكية قاضي القضاة، ابن صصريّ، وبالظاهرية ابن الزملكانيّ، وقُتِلَ أحمد الرويس الأقناعيّ، لاستحلاله المحارم، وتعرضهِ للنبوة، وقوله: أتاني النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحدّثني.

وفيها مات سلطان الهند علاء الدين محمود، أو في السنة الماضية، وتسلطن بعده نائبهُ غياث الدين.

وفيها مات بالموصل السيد ركن الدين الحسن بن محمد العلويّ الحسيني، وكان صاحب التصانيف، وكان لا يحفظ القرآن، ولا بعضه، ومع هذا كانت

جامكيته[١]، في الشهر ألفاً وست مائة درهم.

سنة ست عشرة وسبع مائة

فيها ولّي قضاء الحنابلة بدمشق شمس الدين ابن سلّم بفتح السين واللام وتشديدها.

وفيها مات العلاّمة نجم الدّين سليمان بن عبد القويّ الحنبليّ النسفي[٢] الشاعر، صاحب شرح الروضة، كان على بدعته، كثير العلم، عاقلاً، متديناً، مات، ببلد الخليل كهلاً.

وفيها ماتت مسندة الوقت، ستّ الوزراء، بنت عمر بن أسعد التنوخية[٣]، في شعبان، فجاءةً عن اثنتين وتسعين سنة. روت عن أبيها القاضي شمس الدين وابن الزبيديّ، وحدثت بالصحيح، ومسند الشافعي بدمشق، ومصر مرّات، وكانت على خير.

وفيها مات سلطان التتار غيّاث الدين خربنده، ابن أرغون، هلك بمراغة في آخر رمضان، ولم يتكهل، وكانت دولته ثلاث عشرة سنة، وتملك ابنه بعده أبو سعيد.

وفيها توفي المعمر المقرىء السيد صدر الدين أبو الفداء إسماعيل بن يوسف بن مكتوم القيسيّ الدمشقيّ، سمع جماعة منهم مكرم، وابن الشيرازي، والسخاوي، وقرأ عليه بثلاث روايات، وكان فقيهاً مقرياً وتفرد بأجزاء.

وفيها ماتت بحماة أم أحمد فاطمة بنت النفيس محمد بن الحسين بن رواحة. رَوَتْ أجزاءاً عن عمها بطرابلس، ومصر. قال الذهبي: سمعنا منها.

وفيها توفي الشيخ العلاّمة ذو الفنون صدر الدين محمد ابن الوكيل خطيب دمشق.

وفيها توفي زين الدين عمر بن مكّي بن المرحل الشافعيّ بمصر، عن إحدى وخمسين سنة، وأشهر، ولد بدمياط، ونشأ بدمشق، وسمع من ابن غيلان والقاسم الإربليّ، وأفتى عن اثنتين وعشرين، وحفظ المقامات في خمسين يوماً، وتخرج به الأصحاب، وكان أحد الأذكياء النجاب، وله نظم رائق ومزاح عفا الله عنه.

---

(١) جامكيته: من الفارسية جامة بمعنى اللباس. والجامكية في الاصطلاح الجراية الشهرية تُعطى من غلّة الوقف، فهي من ناحية أجر ومن ناحية منحة. صبح الأعشى.

(٢) فقيه حنبلي، من العلماء. ولد بقرية طوف، ودخل بغداد، ثم رحل إلى دمشق وزار مصر، وتوفي في بلد الخليل بفلسطين. له «معراج الوصول» في أصول الفقه و «بغية السائل في أمهات المسائل» وغير ذلك الأعلام ١٢٨/٣.

(٣) انظر الأعلام ٧٨/٣.

وفيها مات بسبتة عالمها[١] النحويّ ذو العلوم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الغافقيّ، الإشبيليّ[٢]، سمع التفسير، وبحث كتاب سيبويه، وتلا بالسبع، له تصانيف وجلالة وتلامذة.

وفيها توفي الإمام العلّامة المدرّس المفتي الشافعيّ. أحمد بن أحمد بن مهدي المدلجيّ الكناني المعروف بعز الدين النسائيّ، كان من أورع أهل زمانه درّس وأفتى بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة، واشتغل للطلبة، وانتفعوا به، وتوفي بمكة ـ رحمه الله تعالى ـ في ذي القعدة، ودفن بالمعلّى.

سنة سبع عشرة وسبع مائة

فيها حدثت الزياة العظمى ببعلبك، فغرق في البلد مائة وبضع وأربعون نسمة، وجرف السيل سورها الحجارة مساحة أربعين ذراعاً، ثم تزلزل بعد مكانه مسيرة خمس مائة ذراع، وكان ذلك آية بينة، وتهدّم من البيوت والحوانيت نحو ست مائة موضع.

وفيها قدم السلطان إلى غزّة، وإلى الكرك، ثم رجع.

وفيها ظهر جبليّ، وادعى أنه المهديّ بجبلة، وثار معه خلق من النصيرية والجهلة، وبلغوا ثلاثة آلاف، فقال: أنا محمد المصطفى، ومرة قال: أنا عليّ وتارة قال: أنا محمد بن الحسن المنتظر، فزعم أنّ الناس كفرة، وأنّ دين النصيرية هو الحق. وأنّ الناصر صاحب مصر قد مات، وعاثوا في السواحل، واستباحوا جبلة، ورفعوا أصواتهم يقولون: لا إله إلاّ عليّ، ولا حجاب إلاّ محمد، ولا باب إلاّ سلمان. ولعنوا الشيخين، وخرّبوا المساجد، وكانوا يحضرون المسلم إلى طاغيتهم، ويقولون: اسجد لإلهك، فسار إليهم عسكر طرابلس، وقتل الطاغية وجماعة ومزقوا.

وفيها مات المحدّث الإمام الشيخ عليّ بن محمّد الحسينيّ الصوفيّ في المحرم عن سبع وأربعين سنة، روى عن الفخر عليّ، وتاج الدين الفزاريّ. كان تقيّاً ديّناً مؤثراً، كثير المحاسن.

وفيها مات بدمشق قاضي المالكية المعمّر جمال الدين محمّد بن سليمان

---

(١) سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على برّ البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق. وهي مدينة حصينة معجم البلدان ٣٥/٢٠٦.

(٢) ولد بإشبيلية وحُمل صغيراً إلى سبتة. وصار شيخ سبتة. قال ابن حجر: ساد أهل المغرب في العربية. له «شرح كتاب الجمل للزجاجي» في قراءة نافع. رأيته في خزانة الرباط الأعلام ٢٩/١.

الزواويّ[١] وبقي قاضيها ثلاثين سنة.

سنة ثمان عشرة وسبع مائة

فيها كان القحط المُفرط بالجزيرة، وديار بكر أكلت الميتة، وبيعت الأولاد، ومات بعض الناس من الجوع، وجرى ما لا يعبر عنه، وكان أهل بغداد في قحط أيضاً دون ذلك. وجاءت بأرض طرابلس زويعة أهلكت جماعة، وحملت الجمال في الجوّ، وأمسك السلطان جماعة أمراء.

وفيها مات بزاويته الإمام القدوة، بركة الوقت، الشيخ محمد بن عمر ابن الشيخ الكبير أبي بكر بن قوام النابلسي[٢] عن سبع وستين سنة، روى عن اسحاق ابن طبرزد، وكان محمود الطريقة، متين الديانة.

وفيها مات بدمشق الإمام الكبير أبو الوليد محمّد بن أبي القاسم القرطبيّ[٣] إمام محراب المالكية.

وفيها مات مسند الوقت الصالح أبو بكر بن المُنذر بن زين الدين أحمد بن عبد الدائم المقدسيّ.

وفيها مات العلاّمة المُفتي كمال الدين أحمد ابن الشيخ جمال الدين محمّد بن أحمد الشريشيّ.

وفيها مات شيخ القرّاء والنُحاة مجد الدين أبو بكر محمّد بن قاسم المرسي التونسي الشافعي، تخرّج به الفُضلاء، وكان ديّناً صيناً ذكيّاً، قال الذهبي: حدثنا عن الفخر عليّ.

وفيها ماتت بالصالحية زينب بنت عبدالله بن الرضي، عن نيّف وثمانين سنة. روت عن الحافظ الضياء، وتفردت بأجزاء.

وفيها مات العلاّمة قاضي المالكية بدمشق فخر الدين أحمد بن سلامة القضاعيّ. وكان حميد السيرة بصيراً بالعلم محتشماً.

سنة تسع عشرة وسبع مائة

فيها حجّ السّلطان الملك الناصر من مصر، وفيها كانت الملحمة العُظمى بالأندلس

---

(١) كان مولده تقريباً في سنة تسع وعشرين وستمائة. وتوفي بالمدرسة الصمصامية يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة. ودُفن بمقابر باب الصغير. البداية والنهاية ٩/ ٣٣٥.

(٢) بن قوام البالسي. البداية والنهاية ٩/ ٣٣٩.

(٣) انظر البداية والنهاية ٩/ ٣٤١.

بظاهر غرناطة، فقتل فيها من الفرنج أزيد من ستّين ألفاً، ولم يقتل من عرف من عسكر المسلمين سوى ثلاثة عشر نفساً، والحمد لله على نصر دين الإسلام، وعلى سائر أفضاله والأنعام.

وفيها مات مسند الوقت الشرف عيسى بن عبد الرحمن الصالحيّ المعظّم.

وفيها مات بمالقة شيخها العلاّمة أبو عبدالله محمّد بن يحيى القرطبيّ، عن ثلاث وتسعين سنة، تفرّد بالسماع عن الكبار.

سنة عشرين وسبع مائة

فيها حجّ مع السلطان الأمير عماد الدين الأتوني سلطنة السلطان بحماة، ولقّب بالملك المؤيد، وقتل بمصر إسماعيل المقرىء على الزندقة، وسبّ الأنبياء، وقتل بدمشق عبدالله الروميّ الأزرق مملوك الناجي ادعى النبوة وأصرّ وعمل عقد السلطان على أخت إزبك التي قدمت في البحر، وخلع على الكريم وابن جماعة، وكاتب السر وغيرهم، وغضب السلطان على آل فضل، وأحيط على أقطاعهم بعد أن أعطاهم قناطير من الذهب بحيث أنه أعطاهم في عام أول ألف ألف، وخمس مائة ألف درهم، وغزا الجيش بلاد سيس لكن غرق في نهر خان منهم خلق كثير، وحبس بقلعة دمشق ابن تيمية لإفتائه في الطلاق مخالفاً لجماهير أهل السنة، وأمسك نائب غزة الحاوي، وجاء بالسلطانية بردّ كبار، ووزنت منه واحدة ثمانية عشر درهماً، فاستغاث الخلق وبكوا فأبطلت الفاحشة والخمور أجمع بمهمة عليشاه الوزير، وزوج من العواهر خمسة آلاف في نهار واحد، وشقق ألوف من الظروف، وابتنى الجامع الكبير الكريمي بالضبّات، وسيق إليه مال كثير، وحجّ الرحبيون منهم القاضي فخر الدين المصري، وجماعة من العلماء، ووجوه الناس.

وفيها مات المعمّر المقرىء الرحلة أبو عليّ الحسن بن عمر بن عيسى الكرديّ.

وفيها قُتل صاحب مكة حُميضة بن أبي نُمَيّ الحسنيّ[1] وكان قد نزع عن طاعة السلطان الملك الناصر، وتولى أخوه عطيفة، فقتله جنديّ التقى به بالبرية غيلة، وهو نائم، ثم قتله السلطان لغدره.

قلت: ويقال: إنّ ذلك من تحت مكيدة السلطان جاء إليه الجنديّ في صورة هارب من السلطان.

---

(١) شريف من أمراء مكة وليها سنة ٧٠١ هـ مشتركاً هو وأخوه رميثة، ثم قامت بينهما الفتن واستمرت طويلاً إلى أن قُتل حميضة، غيلة، في وادي نخلة. وكان قاسياً فاتكاً. الأعلام ٢/ ٢٨٥.

ورأيت قبيل قتله في المنام. كان القمر في السماء قد احترق بالنار، وأظن أني رأيته سقط إلى الأرض، وكان قبل ذلك بأيام قد جاء بجيش يريد أخذ مكة وَقُتِلَ جماعةٌ فيها من الفقهاء، والمجاورين على ما قيل، وقد كان مخرجاً منها.

ومن جملة المذكورين، القاضي الجليل الإمام الحفيل نجم الدين الطبري، جاءني، وهو خائف يقول: أين أذهب، وعندي بنات؟ يعني لا أستطيع الذهاب عنهن، فرأيت في المنام، في ضحى ثاني ذلك اليوم الذي قال فيه: ذلك المقال كأني شاهدتُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقبلّت قدمَهُ الشريفة، وقلت: يا رسول الله نجم الدين، فتبسم صلّى الله عليه وآله وسلم، وقال لي: «ما يصيبهُ شر» فقلت له: أهل مكة، فانقبض عليه السلام، ولم يُجبني بجواب، فأعدتُ عليه ذلك، فلم يجبني، ثم أعدتُ عليه ثالثاً فقال: «ما عليهم إلا خير» يقول ذلك بغير بشاشةٍ منه، ثم أقبل بالجيش عقب هذا المنام إلى أن بلغ بطن مر، فخرج إليه اخوته عطيفة، وعطاف، وآخر من اخوته مع عسكر ضعيف، فنصرهم الله عليه، وكسروه، فانهزم ولم يكن قبل ذلك يكسر، بل كانت العربان تهابه هيبة عظيمة، وكانت له سطوة، وإقبال، وسعادة عاجلة، وكان يقول: كان لأبي نمي خمس فضائل، الشجاعة، والكرم، والحلم والشعر، والسعادة، قال: فورثت هذه الخمس، خمسة من أولاده، فالشجاعة لعطيفة، والكرم لأبي الغيث، والحلم لرميثة، والشعر لسليمة، والسعادة لي حتى لو قصدت جبلاً لدهكته، ثم قُتِلَ بعد كسرتِهِ المذكورة، بعد أيام يسيرة.

سنة احدى وعشرين وسبع مائة

فيها أطلق ابن تيمية بعد الحبس بخمسة أشهر، وأقبلت الحرامية في جمع كثير، فنهبوا في بغداد علانية سوق الثلاثاء، فانتدب لهم عسكر، فقتلوا فيهم مقتلة نحو المائة، وأسروا جماعة.

ووقع الحريق الكثير بالقاهرة، ودام أياماً، وذهبت الأموال، ثم ظهر فاعلوه، وهم جماعة من النصارى، يعملون قوارير ينقدح ما فيها، ويحرق، فقتل جماعة وكان أمراً مزعجاً قيل: فعلوه، لإخراب كنيسة لهم، وأخرب ببغداد مواضع الفاحشة، وارتفعت الخمور، وأخربت كنيسة اليهود وحج نائب دمشق، وفي صحبتِهِ خطيبُ البلد القاضي جلال الدين القزوينيّ، وجماعة من العلماء والأكابر.

وفيها مات شيخ الشيعة، وفاضلهم الشمس محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم

الهمذاني، ثم الدمشقيّ[1]

وفيها مات بالفيّوم خطيبها الرئيس، الأكمل، المحتشم، مجد الدين أحمد بن المعين الهمدانيّ النويريّ المالكي، صهر الوزير ابن حنّا، وكان يُضربُ به المثل في المكارم، والتودد.

وفيها توفي بمكة الشيخ الكبير العالم بالله الشهير، بحر المعارف، ومعدن الكرامات، واللطائف، ذو المواهب السنية، والمقامات العلية، وأنفاس الصادقة، والأحوال الخارقة، شيخ عصره، وعلم دهره، نجم الدين عبدالله بن محمّد بن محمد الأصبهانيّ الشافعيّ[2]، تلميذ الشيخ الكبير أبي العبّاس المرسيّ الشاذليّ عن ثمان وسبعين سنة. جاور بمكة سنين كثيرة، ومناقبه كثيرة باهرة، وآياته شهيرة ظاهرة، وأيامه منيرة زاهرة، ولو ذهبت أعدّد ما اشتهر عنه من الفضائل المشتملة، على العجب العجاب، لخرجت بذلك عن الاختصار المقصود بهذا الكتاب، ولكني أذكر شيئاً لطيفاً تلويحاً بفضله، وتعريفاً، فمن ذلك أنه رأى في صغره كأنه خلع عليه احدى عشر علماً فعرض ذلك على عمه وكان من الأكابر، أولى البصائر، فقال: يتبعك أحد عشر ولياً.

وقال له: الفقيه الإمام العارف بالله رفيع المقام عليّ بن إبراهيم اليمني البجليّ، في بعض حجاته، تركت ولدي مريضاً لعلك تراهُ في بعض أحوالك، فتخبرني كيف هو فرمق الشيخ نجم الدين في الحال قال: ها هو قد تعافى، وهو الآن لستاك على سرير، وكتبه حوله، ومن صفته وخلقته كذا وكذا، وما كان رآه قبل ذلك، وطلع يوماً في جنازة بعض الأولياء، فلما جلس الملقّن عند قبره يلقّنه. ضحك الشيخ نجم الدين، فسأله تلميذ له عن ضحكه إذ لم يكن الضحك له عادة فزجره، ثم أخبره بعد ذلك أنه سمع صاحب القبر يقول: ألا تعجبون من ميت يلقّن حيّاً؟ وكان الملقّن من كبار الفقهاء أكره أن أسميه.

ومن كراماته أيضاً أني رأيته في منامي يكلّم شيخاً من المجاورين الصالحين سرّاً مقبلاً عليه في وقت كنت مضروراً فيه لحاجة، فلما انتبهت من منامي أردت أن أبشّر ذلك الشيخ بإقباله عليه، وإذا به قد جاءني، وقضى لي تلك الحاجة التي تعسّرت عليّ، ففهمت أنه ما كان يكلّمه إلا من شأني، وكنت قد أدركته في حجتي الأولى، وهو صحيح الجسم يعتمر في الجمعة مرتين، ويطوف بالبيت أسابيع كثيرة أظنها سبعة بعد الصبح، وأسبوعاً بعد المغرب،

---

(١) ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة بالصالحية. وهو معروف بالسكاكيني: فاضل، يميل إلى مذهب المعتزلة. يناظر على القدر وينكر الجبر. احترف في صغره صناعة السكاكين. فنسب إليها. له كتاب «الطرائف في معرفة الطوائف» لكن أُتلف. الأعلام ٦/ ٥٥.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/ ٣٥١.

وأسبوعاً بعد العشاء. سمعته يقرأ فيه: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ [الإسراء : ١] سورة بني إسرائيل، وأسبوعاً قبل الفجر، وسمعت شيئاً من كلامه خلف المقام، وأحرمت بالعمرة معه في وقت، وأدركته في الحجة الثانية، وهو متخلف في بيت لوجع في رجله، وكان ذا صورة جميلة، ولحية طويلة، وهيبة عظيمة، وكان قد اشتغل بعلوم كثيرة، وحصل منها محصولاً طائلاً، وكان كتابه في الفقه الوجيز، وقيل له: هل تزوجت امرأة قط؟ فقال: ولا أكلت طعاماً طبختهُ امرأة.

وقال له شيخ في بلاد العجم: ستلقى القطب في الديار المصرية، فخرج في طلبه، فمرّ في طريقه بحرامية، فأمسكوه وكتفوه، وظنوه جاسوساً وقال بعضهم: نقتله قال: فبت مكتوفاً، فنظمت أبياتاً ضمنتها قول امرء القيس من ذلك:

وقد أوطيت نعلي كل أرض وقد أتعبت نفسي باغتراب
وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

قال: فما استتمت الإنشاد حتى انقضّ علي شيخ كانقضاض البازي على الفريسة، وحلّ أكتافي، وقال: قم يا عبدالله، فأنا مطلوبك، فذهبت حتى وصلت إلى الديار المصرية، فما عرفت من مطلوبي، ولا أين هو، فلما كان ذات يوم قيل: قدم الشيخ أبو العباس المرسيّ، فقال الفقراء: اذهبوا بنا نسلّم عليه، فلما رأيته تحققت أنه الشيخ الذي حلّ أكتافي، ثم قال: في أثناء كلام له: الحقني يا عبدالله، فما جئت إلا بسببك، ثم خرج من المجلس، والحاضرون لا يدرون من يعني، فتبعته وصحبته إلى أن توفي.

ووقع له عجائب يطول ذكرها، ثم توجه بعد وفاته للحج فمرّ في طريقه على قبر شيخ شيخه شيخ زمانه أبي الحسن الشاذلي، فكلّمه من قبره وقال له: اذهب إلى مكة، وانحبس بها.

قلت: وأخبرني بعض الشيوخ الكبار، وهو ذو الكرامات الشهيرة الخارجة عن الانحصار الذي بارشاده الضال يهتدي الشيخ محمد المرشديّ أن الشيخ نجم الدين لما سافر للحج لم يطعم شيئاً حتى بلغ قبر شيخ شيخه أبي الحسن المذكور الذي هو فيه مقبور، ولما بلغ طرف الحرم الشريف سمع هاتفاً يقول له: قدمت إلى خير بلد، وشر أهل، أو نحو ذلك من الكلام، ثم لم يزل بمكة ذا جدّ واجتهاد مواصلة بين الأوراد. مكثراً من الطواف والاعتماد. مشاراً إليه بالأنوار والأسرار، ويجتمع به من ورد من الشيوخ الكبار إلى أن توفى، فدُفن قريباً من قبر السيد الجليل الذي بجواره بلوغ الأغراض أبي علي الفضيل بن

عياض ـ قدس الله روحهما ـ ولم ير في الظاهر خارجاً من مكة إلى مكان أبعد من عرفة، وأما في الباطن، فالعلم بذلك راجع إلى علماء الباطن.

قد أخبرني بعض الأولياء، وهو الشيخ محمد البغدادي الذي كان ساكناً في بلاد مراغة، قال: لما رجعت من زيارة النبيّ عليه السلام متوجهاً إلى مكة. أفكرت في الشيخ نجم الدين المذكور، وعتبت عليه في قلبي في كونه لا يقصد المدينة الشريفة ويزور، قال: ثم رفعت رأسي، فإذا به في الهوى مارّاً إلى جهة المدينة، وناداني: يا محمد كذا وكذا، وذكر كلاماً نسيته.

وبلغني أنه قال له بعض أصحابه: يا سيدي الناس ينكرون عليك ترك زيارة النبي عليه السلام، فقال: لا ينكر ذلك إلا أحد رجلين، إمّا مشرع، وإمّا محقق. فأما المشرع. فقل له: هل يجوز للعبد أن يسافر بغير اذن سيده؟ وأمّا المحقق فقل له: من هو معك في كل حين حاضر هل لطلبه تسافر؟ وقال الشيخ عبد الملك ابن الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبو محمد المرجاني المغربي ـ قدس روحه ـ استأذنت الشيخ نجم الدين في زيارة قبر النبي عليه السلام فقال: مالك طريق إلى ذلك في هذا الوقت، قال: فخالفته وسافرت مع جماعة، فلما صرنا بين الروضة والهدة مشينا ليلتنا فغوينا، فأصبحنا حيث أوينا، ثم مشينا فغوينا كذلك ثلاثة أيام، فعرفت أنّ سبب غوايتنا مخالفتي للشيخ نجم الدين، فقلت للجماعة: سافروا فما السبب المعوق لكم إلاّ أنا، ثم رجعت إلى مكة، وسافروا فلما كان بعد مدة استأذنت الشيخ نجم الدين في السفر، فقال لي: سافر، فتسهلت لي الطريق، وارتفع التعويق. هذا يعني كلامه وإن اختلفت العبارة، فلما وصل المدينة الشريفة وجد بعض المجاورين قد توفي، وأوصى له بثياب، فلبسها.

قلت: وقد اقتصرت في ترجمة الشيخ نجم الدين الأصبهاني على هذه النبذة من فضائله، وهذه القطرة من بحر لا يوصل إلى ساحله.

وأما ترجمة الذهبي فغاضة من قدره بل طامسة لنور بدره، حيث يقول في ترجمته: بهذه الألفاظ بعينها، ومات بمكة في جمادى الآخرة العارف الكبير نجم الدين عبدالله بن محمد الأصبهاني الشافعي تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي عن ثمان وسبعين سنة. جاور بمكة مدة، وما زار النبي عليه السلام فيها، وانتقد عليه الشيخ عليّ الزاهد رحمهما الله تعالى.

هذه جميع ترجمته المقصرة في وصفه المنسوب إليه، المنكرة في ترك الزيارة عليه، وقد قدمت التنبيه على أعظم من هذا التمويه في انكاره على شيخ شيخه أبي الحسن الشاذليّ

في ترجمته، وإنزاله إلى الحضيض النازل من رفيع مرتبته، فطالع ما تقدم في ترجمته المذكورة ترى العجب العجاب، فتوفق إن شاء الله تعالى في الاعتقاد للصواب.

وفي السنة المذكورة توفي صاحب اليمن شيخ القراءات، ومعدن البركات مقرىء حرم الله تعالى، ومحقق قراءة كتاب الله عز وجل. الشيخ الكبير السيد الشهير أبو محمّد عبدالله المعروف بالدلاويّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ ونفع به. كان من ذوي الكرامات العديدات، والمناقب الحميدات.

يقال: إنه ممن سمع ردّ السلام من سيّد الأنام عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، ورأيته يطوف في ضحى كل يوم أسبوعاً بعد فراغ الطلبة من القراءة عليه، وكان قد انحنى انحناء كثيراً، فإذا جاء إلى الحجر الأسود زال ذلك الإنحناء وقبله، وكان يعدّ ذلك من كراماته.

ومنها أنه كان عنده طفل غابت أمه عنه، فبكى فدرّ ثديه باللبن، فأرضع ذلك الطفل حتى سكت، وله كرامات أخرى كثيرة شهيرة.

وفي السنة المذكورة توفي صاحب اليمن الملك المؤيد عزيز الدين داود ابن الملك المظفر يوسف بن عمر، وكانت دولته بضعاً وعشرين سنة. قال بعض المؤرخين: وكان عالماً فاضلاً سائساً شجاعاً، وعنده كتب عظيمة نحو مائة ألف مجلّد، وكان يحفظ التنبيه وغير ذلك. انتهى.

قلت: وأبوه الملك المظفر، وابنه الملك المجاهد كلاهما في العلوم أكثر من مشاركة فرعاً وأصلاً، وأذكى قريحةً، وأشهر فضلاً، وأحسن ملحاً، وأظرف وأحلى من ذلك أنه كتب بعض الناس إلى الملك المظفر، قال الله عزّ وجل: ﴿إنما المؤمنون اخوة﴾ [الحجرات : ١٠] وأنا أخوك فلان أطلب منك نصيبي من بيت مال المسلمين، فأرسل إليه الملك المظفر بدرهم، وقال للرسول قل له: إذا فرقنا بيت مال المسلمين عليهم لم يحصل لك أكثر من هذا أو قال: لعله لا يحصل لك هذا.

وله أربعون حديثاً خرجها منتقاة عوالي رويناها عن شيخنا رضيّ الدين الطبريّ بحق روايته لها عن الإمام محبّ الدين الطبريّ بروايته لها عن الملك المظفر المذكور.

وأما الملك المجاهد، فله أشياء بديعة نظماً ونثراً، وديوان شعره،ومعرفة بعلم الفلك، والنجوم، والرمل، وبعض العلوم الشرعية من الفقه وغيره.

وفيها مات بمصر المحدّث الرحّال تقيّ الدين محمّد بن عبد المجيد الهمدانيّ

المصريّ، الصوفيّ، عن نيّف وسبعين سنة، سمع من جماعة منهم المري، وابن الخير. كذا ذكره الذهبي.

وفيها مات حافظ المغرب الإمام العلاّمة أبو عبدالله بن رشيد الفهريّ بفاس.

سنة اثنتين وعشرين وسبع مائة

وفيها توفي شيخنا المحدّث الإمام العلاّمة الراوية صاحب الأسانيد العالية، بركة الوقت، فريد العصر بقية المحدثين الصالحين رضيّ الدين إبراهيم بن محمّد الطبري المالكي[١] إمام المقام في الحرم الشريف، ذو الأوصاف الرضية، والمنصب المنيف، سمع رضي الله تعالى عنه ما يطول عدّه من الكتب والأجزاء في الحديث والتفسير، والفقه، والسير، واللغة، والتصوف وغير ذلك من خلائق من الأئمة الكبار، وأجاز له أيضاً خلائق من جلّة يطول عدّهم، ويعلو مجدهم، وكل ذلك مثبت بخطه في بيت محفوظ في كتبه، وتفرد في آخر عمره خصوصاً برواية صحيح البخاري، واعترف له الجلّة بالجلالة، حتى قال له محدّث القدس المتفرّد في وقته صلاح الدين العلائي رحمه الله: لي من الشيوخ قريب من ألف ما فيهم مثل شيخك، يعني رضيّ الدين المذكور.

ويلغني أنّ إمام اليمن، وبركة الزمن، الفقيه الكبير الوليّ الشهير، السيد الجليل ذا المناقب الزاهرة، والكرامات الباهرة أحمد بن موسى بن عجيل سأله بعض أهل مكة الدعاء، فقال: عندكم إبراهيم.

وله نظم جيد، وتواليف منها كتاب (الجنة في مختصر شرح السنة) للإمام البغويّ، وغير ذلك، وكان رضي الله تعالى عنه مع اتساعه في رواية الحديث له معرفة بالفقه والعربية وغيرهما. وكانت قراءتي عليه في أول سنة احدى وعشرين إلى أن اشتد مرض موته في شهر صفر من سنة اثنتين وعشرين وقال لي: يا ولدي لقد حصلت عليّ في هذه السنة ما لم أحصله في سنين كثيرة ومن مقروءاتي عليه صحيح البخاريّ، ومسلم، وسنن أبي داوّد والترمذي، والنسائيّ، والدراميّ، وابن حبان، ومسند الإمام الشافعي، والشمائل للترمذي وعوارف المعارف للسهورورديّ، والسيرة لابن هشام، وعلوم الحديث لابن الصلاح، ومنسكه، وخلاصة السيرة، وصفة القراء، والمجالس الملكية، والعوالي من مسموعات الفراوي، والأربعين من سباعياته، والأنباء المنبئة عن فضل المدينة، والأربعون المختارة في

---

(١) الطبري المكي.. ولد سنة ست وثلاثين وستمائة وهو شيخ مكة في عصره وإمام المقام الشريف بها. من علماء الشافعية. له كتب منها «المنتخب في علم الحديث» و «فهرست» لمروياته، و «تساعيات» في الحديث وغير ذلك. قال الذهبي: حدّث أزيد من خمسين سنة الأعلام ١/ ٦٣.

صفات الحج والزيارة لابن مسدي، والسداسيات للحافظ السلفي، وخماسيات ابن النقور، وجزء من حديث ابن عرفة، ومقاصد الصوم لابن عبد السلام، والأربعون من أربعين كتاباً للهرويّ، وفضائل شهر شعبان لابن أبي الصيف، وسداسيات الميانسي، وكتاب أعلام الهدى، وعقيدة أرباب التقى للشيخ شهاب الدين السهروردي، ومسلسلات الديباجي، وتساعيات شيخنا رضي الدين المذكور، وكتاب محاسبة النفس لابن أبي الدنيا، واجازة المجهول والمعدوم للحافظ الخطيب، وثمانون للآجريّ، وأربعون للملك المظفر صاحب اليمن، والأربعون للنواويّ، والأربعون الثقفيات، وغير ذلك. وقد أفردت لمعظم ذلك، وأشياء كثيرة مثبتاً في أوراق عديدة، وأضفت ذلك مجازاتي منه ومقروءاتي على غيره، ومالي من تصنيف وتأليف نظماً ونثراً في جزء كتبته وقرأه عليّ ناس كثيرون، وكان آخر ما قرأته على شيخنا المذكور الملّخص للمغافري توفي وقراءتي في أثنائه رحمه الله تعالى ورحم سائر مشائخنا، وقد ذكرت أكثرهم في الجزء المذكور.

وجلّ اعتمادي منهم على ثلاثة شيوخ مشهورين بالعلم والصلاح بل بالولايات، والكرامات، وعوالي المناقب، والمكانات. أحدهم الشيخ رضي الدين المذكور، والثاني شيخنا وبركتنا الإمام الفريد ذو الوصف الحميد زين عدن، وبركة اليمن مفيد الطلاب، وحليف المحراب، الخاشع الأوّاب، العالم العامل، الزاهد العابد المفضال جمال الدين محمد بن أحمد المعروف بالنضال الذهبي اليمني الشافعيّ رضي الله تعالى عنه وأرضاه، ورفع في الجنان قدره وأعلاه، وهو أول من انتفعت به.

والثالث شيخنا، وبركتنا، وسيدنا، وقدوتنا الشيخ الكبير العارف بالله الشهير الخبير، ذو المقامات العلية، والكرامات السنية، والمواهب الجزيلة، والأوصاف الجميلة مطلع الأنوار، وخزانة الأسرار أبو الحسن عليّ بن عبدالله اليمني الشافعي الصوفي مذهباً المعروف بالطواشي نسباً ـ قدس الله روحه ـ ونوّر ضريحه، وقد ذكرت إلى من نسب في لبس الخرقة من الشيوخ في كتاب نشر الريحان في فضل المتحابين في الله من الاخوان، وذكرت هنالك شيئاً من كراماته العظيمة، وفضائله الكريمة، وكلا هذين الشيخين اليمنيين المذكورين توفيا في سنة ثمان وأربعين وسبع مائة، وصلّينا عليهما في يوم واحد في المدينة الشريفة، وليس هذا موضع ذكر مناقبهما ـ رحمة الله تعالى عليهما ـ وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى في السنة المذكورة.

وفيها ماتت بالقدس المعمّرة الراحلة أمّ محمد زينب بنت أحمد بن عمر بن أبي بكر بن سكر المقدسيّ في ذي الحجة عن أربع وتسعين سنة، وسمعت من غير واحد، وتفردت بالأجزاء الثقفيات.

سنة ثلاث وعشرين وسبع مائة

فيها توفي الفقيه الإمام المدرّس المفيد الشافعي، كان من أعيان الأئمة الشافعية، وخيار الفقهاء وكبارهم، درّس وأعاد في مدارس، وانتفع به خلق كثير، وصنّف في الفقه روايد التعجيز على التنبيه، وناب في الحكم عن قاضي القُضاة الزرعيّ، ثم عن قاضي القُضاة بدر الدين، وتولّى وكالة بيت المال، ولم يزل على ذلك إلى أن ليلة الجمعة رابع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها أمسك الكريم السلماني وكيل السلطان الملك الناصر، وزالت سعادته التي كانت يضرب به المثل.

وفيها مات بدمشق في ربيع الأول قاضي دمشق، ذو الفضائل ورئيسها الكامل نجم الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد المعروف بابن صصريّ، الثعلبيّ[1]، الشافعي، سمع من جماعة، وأفتى ودرّس، وله النظم والترسل والخط المنسوب، والدروس الطويلة، والفصاحة وحسن العبارة، والمكارم مع دين، وحسن سريرة ولي القضاء إحدى وعشرين سنة.

وفيها مات مسند الشام بهاء الدين القاسم ابن المظفر ابن تاج الأمناء ابن عساكر[2].

وفيها مات بالمزّة ليلة عرفة، مسند الوقت شمس الدين أبو نصر محمّد بن محمد بن محمّد بن هبة الله ابن الشيرازيّ، الدمشقي[3]، سمع من جماعة، وله مشيخة وعوال، وكان ساكناً وقوراً منقبضاً عن الناس.

سنة أربع وعشرين وسبع مائة

فيها كان الغلاء بالشام، وبلغت الغرارة أزيد من مائتي درهم أياماً، ثم جلب القمح من مصر بإلزام السلطان لأمرائه، فنزل إلى مائة وعشرين درهماً، ثم بقي أشهراً، ونزل السعر بعد شدة، وأسقط مكس الأقوات بالشام بكتاب سلطاني، وكان على الغرارة ثلاثة ونصف.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ٣٥٧.

(٢) طبيب عالم بالحديث. كان يعالج المرضى مجاناً. وكتب له «مشيخة» في سبع مجلدات، تشتمل على ٥٧٠ شيخاً. لزم بيته في أعوامه الأخيرة، منقطعاً إلى تدريس الحديث. قال الذهبي: كان كثير المحاسن، صبوراً على الطلبة، وينسب إلى تخليط في نحلته. مولده ووفاته بدمشق. الأعلام ٥/ ١٨٦.

(٣) ولد سنة تسع وعشرين وستمائة. كان شيخاً حسناً خيّراً مباركاً متواضعاً. البداية والنهاية ٩/ ٣٦٠.

قلت هذا الغلاء المذكور في الشام هو عندنا في الحجاز رخص، ولقد بلغ ثمن الغرارة الشامية في مكة وقت كتابتي لذكر هذا الغلاء المذكور في هذا التاريخ فوق ألف وثلاث مائة درهم.

وفيها قدم حاجاً ملك التكرور موسى بن أبي بكر بن أبي الأسود في ألوف من عسكره للحج، فنزل سعر الذهب درهمين، ودخل إلى السلطان، فسلم ولم يجلس، ثم أركب حصاناً. وأهدى هو إلى السلطان أربعين ألف مثقال وإلى نائبه عشرة آلاف، وهو شاب عاقل، حسن الشكل، راغب في العلم، مالكيّ المذهب.

قلت: ومن عقله أني رأيته في منزله في الشباك المُشرف على الكعبة بحي رباط الحوري، وهو يسكن أصحابه التالدة عند هيجان فتنة ثارت بينهم وبين الترك، وقد شهروا فيها السيوف في المسجد الحرام، وهو مشرف عليهم، فيشير عليهم بالرجوع عن القتال. شديد الغضب عليهم في تلك الفتنة، وذلك من رجحان عقله إذ لا ملجأ له، ولا ناصر في غير وطنه وأهله، وإن ضاق الفضاء بخيله ورجله.

وفيها مات بمصر المفتي الإمام الجليل القدر بين الأنام، الزاهد نور الدين عليّ بن يعقوب البكري الشافعي[1] كهلاً، وهو الذي أذى ابن تيميه، وأقدم على الإنكار الغليظ الباهر على السلطان الملك الناصر، وتسلّم من بطشه وفتكه القاهر، ولم يزد على الأمر بإبعاده، وإخراجه من بلاده وقيل: إنه أمر بقطع لسانه، فتلجلج وظهر النجوف في جنانه، فقال السلطان لو ثبت لكان عندي عظيم الشأن.

وفيها مات مخنوقاً، الصاحب الكبير، كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله القبطيّ السلماني[2] بأسوان، وكان قد نفي إلى الشوبك، ثم إلى القدس، ثم إلى الأسوان، ثم سبق سراً، وكان هو الكلّ وإليه الحلّ والعقد بلغ من الرتبة ما لا مزيد عليه، وجمع أموالاً عظيمة، فأعاد أكثرها إلى السلطان. وكان عاقلاً ذاهيبة وسماحة، فمرض مرة، فزينت مصر لعافيته، وكان يعظم الدينين، ولم يرو ايثاره.

وفيها مات في ذي الحجة بدمشق، المفتي الزاهد، علاء الدين عليّ بن إبراهيم بن

---

(١) ولد سنة (٦٧٣) فقيه من أهل القاهرة. توفي في دهروط «بالصعيد الأدنى» ودُفن بالقاهرة. الأعلام ٥/٣٣.

(٢) مدبّر دولة الناصر القلاووني. قبطي الأصل، كان اسمه «أكرم» وأسلم كهلاً فتسمى "عبد الكريم" وقرره في نظر شؤونه الخاصة وهو أول من سمي «ناظر الخاصّ» وأطلقت يده في جميع أعمال الدولة فتجاوز حدّه. ونُفي ثم شُنق وقد قارب السبعين الأعلام ٤٠/٥٧.

العطار[1] الشافعيّ، يلقّب بمختصر النوويّ، سمع من غير واحد، وأصابه فالج أزيد من عشرين سنة، وله فضائل وتأله واتباع، وكان شيخ النورية.

قلت: هكذا ذكر الذهبي، ولم يذكر ما قد عرف واشتهر وشاع، وتقرر عنه أنه من أصحاب الشيخ معتمد الفتاوى محمّد محيي الدين النووي، وروى عنه بعض كتبه جامع جزء من مناقبه.

وفيها توفي الشيخ صفي الدين محمد بن عبد الرحيم[2]، الفقيه الإمام العلاّمة الأصوليّ الشافعيّ نزيل دمشق، درّس بالظاهرية، وتفقه بجده لأمه، وأخذ عن سراج الدين الأرمويّ العقليات، وسمع من الفخر عليّ، وصنف وأفتى ودرّس، وكان فيه دين وتعبد، ودرّس في الجامع، وتخرج به أئمة وفضلاء.

سنة خمس وعشرين وسبع مائة

في جمادى الأولى كاد غرق بغداد المهول حتى بقيت كالسفينة، وساوى الماء الأسود، وغرق الأمم من الفلاحين، وعظمت الاستغاثة بالله، ودام خمس ليال، وعملت سكور فوق الأسوار، ولولا ذلك لغرق جميع البلد، وليس الخبر كالعيان، وقيل: تهدّم بالجانب الغربي نحو خمس آلاف بيت.

ومن الآيات أنّ مقبرة الإمام أحمد بن حنبل غرقت سوى البيت الذي فيه ضريحه، فإن الماء دخل في الدهليز علوّ ذراع، ووقف باذن الله، وبقيت البواري عليها غبار حول القبر، صح هذا، وجرّ السيل أخشاباً كباراً وحيات غريبة الشكل صعد بعضها في النخل، ولما نضب الماء نبت على الأرض شكل بطيخ كعظيم القثاء[3].

وفيها سار من مصر نحو ألفي فارس نجدة للمجاهد صاحب اليمن على من كان قد استولى على الملك من قرابته، وممن خالف عليه ابن عمه الملك الظاهر، وهو محصور في حسن تعز برمي بالمنجنيق، فيصيب ما حوله من الجدران، ورجع العسكر المذكور، وقد موتت خيلهم، ولم يقضوا حاجة لعسر جبال اليمن، وتحصن أهلها في الحصون العالية، ولكن لما أراد الله تأييد الملك المجاهد خرج من الحصن في نفر يسير، وانتصر، وسار إلى

---

(١) ولد يوم عيد الفطر سنة أربع وخمسين وستمائة. درّس بالتوصية وله مصنفات وفوائد ومجاميع وتخاريج البداية والنهاية ٩/ ٣٦٧.

(٢) ولد بالهند، واستوطن وتوفي بدمشق. له مصنفات منها «نهاية الوصول إلى علم الأصول» و «الفائق» و «الزبدة» في علم الكلام. الأعلام ٦/ ٢٠٠.

(٣) القثاء: نبات عشبي حولي، ذو ساق زاحفة زراعي في فصيلة القرعياي، وثماره تشبه الخيار، لكنها أطول.

عدن، وأخذها بمساعدة يافع إذ كانوا هم الذين رتبوا في حصونها وجبالها يحرسونها، ولم يزل ذا نجدة وشجاعة يقاتل قدام الجيش، وملكه يزيد ويعلواً إلى أن لزموا أمر مصر في حجته، وساعدهم الشريف عجلان صاحب مكة، وانخذل عسكره، ولم يزل مخذولاً بعد ذلك، وملكه يضعف وينزل إلى أن لم يبق له من ملك اليمن شيء يعتدّ به، وكان قد عاهد الله بعدما لزم أنه يعدل، فلما تخلص من المِحن، ورجع إلى اليمن لم يفِ بذلك، وانعطف بل زاد ظلمه، ولم يزل الظلم يقوى، والمُلك يضعف إلى أن تلاشى، وذهب بالكلية، ونسأل الله العفو والعافية من كل بلية.

وفيها ضرب بمصر الشهاب بن مري اليمنيّ، وسجن لنهيه عن الاستغاثة والتوصل بأحد غير الله، ومقت لذلك، ثم فرّ إلى أرض الجزيرة، فأقام هناك سنين، ورجع ملك التكرور موسى، فخلع عليه السلطان خلعة الملك، وعمامة مدورة، وجبّة سوداء، وسيفاً مذهّباً.

وفيها مات بمصر الإمام شيخ القرّاء تقي الدين محمّد بن أحمد بن عبد الخالق المصري الشافعي الخطيب ابن الصائغ[1] عن ثمان وثمانين سنة، تلا بالسبع على الكمالين الضريري، وابن فارس، واشتهر وأخذ عنه خلق، ورحل إليه، وكان ذا دين وخير وفضيلة، ومشاركات قوية.

وفيها مات شيخ الحديث بالمنصورية نور الدين عليّ بن جابر الهاشميّ اليمني الشافعي، حدّث عن الزكي البيلقاني، وعرض عليه الوجيز للغزالي، وله مشاركات وشهرة.

وفيها مات بالكرك قاضيها العلاّمة الورع عزّ الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم ابن الأميوطي الشافعي، حكم بالكرك نحواً من ثلاثين سنة، وتفقه به الطلبة، وحدّث عن قطب الدين القسطلاني وغيره، وهو والد شرف الدين قاضي بلبيس[2]، ثم قاضي مدينة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، وخطيبها وإمامها.

وفيها مات بدمشق الإمام شيخ الإسلام، بقية الفقهاء الزهاد، خطيب العقيبة صدر الدين سليمان بن هلال الهاشميّ الجعفريّ الحورانيّ الشافعيّ[3]، عن ثلاث وثمانين سنة، تفقه بالشيخين محيي الدين، وتاج الدين، وناب عن ابن صصري، وبينه وبين جعفر الطيّار ثلاثة عشر أباً، وكان متزهداً في ثوبه، وعمامته الصغيرة، ومأكله. وفيه تواضع، وترك

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ٣٧٠.

(٢) بِلْبِيْس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. فتحت سنة ١٨ أو ١٩ على يد عمرو بن العاص معجم البلدان ١/ ٥٦٧.

(٣) انظر البداية والنهاية ٩/ ٣٧٢.

للرياسة والتصنع، وفراغ عن الرعونات، وسماحة ومروءة، ورفق وسعة الخلق، وحمل على الرؤوس، وكان لا يدخل حمّاماً، حدّث عن أبي اليسر، والمقداد، وكان عارفاً بالفقه، وله حكايات في مشيه إلى شاهد يؤدي عنده، وإلى خصم فقير، وربما نزل في طريق داريّا عن حمار له فحمل عليه حزمة حطب لمسكينة رحمه الله تعالى.

وفيها مات الإمام العلاّمة ذو الفهم الثاقب، والنظر الصائب، قاضي القضاة، الفقي الشافعيّ، اليمنيّ أبو بكر بن أحمد بن عمر المعروف بابن الأديب، كان نجيباً بارعاً رأيته في عدن قاضياً فيها، ثم سكن تعز، وجعله السلطان قاضياً للقضاة، وكان عارفاً بالفقه والأصلين. تفقه على إمام الزمن، وبركة اليمن، الفقيه الكبير، الوليّ الشهير أحمد بن موسى بن عجيل، وعلى الفقيه الإمام العلاّمة البارع أبي العبّاس أحمد بن رَنْبول، بفتح الراء وسكون النون وضم الموحدة اليمنيين وغيرهما، وصار تلميذه الفقيه العلاّمة نائبه، وقاضي القُضاة بعده سلالة البركة، والنور حسن بن أبي السرور اليمنيّ. وكان يقرأ عليه في بعض الفنون، وفي بعضها على القاضي الإمام العلاّمة شيخنا شرف الدين قاضي عدن، ومفتيها، ومدرّسها، ومقريها، وأنا حينئذٍ أكتب القرآن في اللوح نتسابق في الوقت لأجل القراءة على شيخنا المذكور.

سنة ست وعشرين وسبع مائة

فيها توفي سراج الدين عمر بن أحمد بن خضر الأنصاريّ الخزرجيّ، الشافعي المفتي، خطيب المدينة الشريفة وقاضيها، ولد سنة ست وثلاثين، ونشأ بالقاهرة، وتفقه بها على الشيخ سديد الدين، وعلى نصير الدين ابن الطباخ، وعلى الشيخ فخر الدين بن طلحة، وسمع الرشيد العطار، وحضر دروس الإمام عزّ الدين بن عبد السلام، ودروس قاضي القُضاة تقي الدين بن رزين، وله اجازة من المنذريّ والمرسيّ والقسطلاني قدم المدينة الشريفة سنة إحدى وثمانين وست مائة، وأقام بها أربعين عاماً قاضياً وخطيباً، ثم تعلل، وسار إلى مصر ليتداوى، فأدركه الموت بالسويس.

وفيها مات ببعلبك شيخها الصدر الكبير قطب الدين موسى ابن الفقيه الشيخ محمد البوسي، صاحب تاريخ سمع وأخبر عن جماعة.

وفيها ماتت المعمّرة أمة الرحمن ستّ الفقهاء بنت الشيخ تقيّ الدين إبراهيم الواسطيّ بالصالحية عن ثلاث وتسعين سنة، سمعت وأخبرت عن جمع كثير، وكانت مباركة صالحة، وهي والدة فاطمة بنت الدباسيّ.

وفيها مات بالحلّة ابن المطهر الشيعيّ حسن، صاحب التصانيف عن ثمانين سنة وأزيد.

وفيها مات الشيخ الكبير حماد القطانيّ[١] بالعقيبة، وكان يقرأ القرآن، ويحكي عجائب عن الفقراء، ويحضر السماع ويصيح، وله وقع في القلوب. عاش ستّاً وتسعين سنة.

وفيها مات بالمدينة الشريفة الإمام الزاهد التقيّ قاضي الحنابلة شمس الدين محمد بن مسلم الصالحيّ[٢]، وكان من القُضاة العدل، بصيراً بمذهبه، عارفاً بالعربية، كبير القدر، ولّيّ القضاء احدى عشر سنة، وحجّ ثلاثاً، وفي الرابعة أدركه أجله.

سنة سبع وعشرين وسبع مائة

فيها حاصر ودي بن حمار المدينة جمعة، وأحرق بابها ودخلها، وقتلوا القاضي هاشم بن عليّ، وعبدالله بن الفايد عليّ بن يحيى، ودخل قوصون نائبه السلطان الملك الناصر.

وفيها كاتبه الاسكندرية، ووخم أهلها أميرها، واحراقهم الباب، واخراجهم المسجونين، وبعث السلطان إليهم أربعة أمراء، وأمر باخرابها وأهانوا أهلها، وصادروهم حتى افتقر خلق كثير، ووسطوا ثلاثين نفساً.

وفيها طلب قاضي حلب ابن الزملكاني إلى مصر ليتولّى قضاء دمشق بعد أن عرض قضاء دمشق على أبي اليُسر ابن الصائغ، فجاءه الشريف، فصمم وامتنع وبكى، فأعفى تكرماً.

وفيها توفي القُدوة الزاهد عبدالله بن عبد الحليم بن تيميّة الحرّاني، أخو الإمام الكبير تقي الدين بن تيميّة.

وفيها مات الملك الكامل محمّد ابن السعيد عبد الملك بن الصالح إسماعيل ابن العادل.

وفيها مات في بلبيس قاضي حلب الملقّب بفخر المجتهدين كمال الدين محمّد بن عليّ بن عبد الواحد الأنصاريّ، الدمشقيّ، الشافعيّ، كان سيال الذهن أفتى وصنّف وتخرّج به الأصحاب، وطلب ليشافهه السلطان لقضاء دمشق، فأدركه الأجل.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ٣٧٧.

(٢) ولد سنة ستين وستمائة، نشأ يتيماً فقيراً لا مال له، دُفن بالبقيع إلى جانب قبر شرف الدين بن نجيح. البداية والنهاية ٩/ ٣٧٧.

سنة ثمان وعشرين وسبع مائة

فيها قدم صاحب الروم ابن حوبان بعسكر إلى السلطان الملك الناصر، ووصل الماء إلى القدس بعد عمل الضياع، ستة أشهر.

وفيها مات ببغداد مفتيها وشيخها جمال الدين عبدالله بن محمد العاقوليّ الواسطيّ.

وفيها توفي الإمام الواعظ مسند العراق شيخ المستنصرية عفيف الدين عبدالله بن محمد بن الحسن البغداديّ.

وفيها مات بقلعة دمشق الشيخ الحافظ الكبير تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن تيميّة[١] معتقلاً، ومُنع قبل وفاته بخمسة أشهر من الدواة الورق، ومولده في عاشر ربيع الأول يوم الاثنين سنة إحدى وستين وست مائة بحرّان، سمع من جماعة وبرع في حفظ الحديث والأصلين، وكان يتوقد ذكاء، ومصنفاته قيل: أكثر من مائتي مجلد، وله مسائل غريبة أنكر عليه فيها، وحبس بسببها مباينة لمذهب أهل السنة.

ومن أقبحها نهيه عن زيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وطعنه في مشائخ الصوفية العارفين، كحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، والأستاذ الإمام أبي القاسم القشيريّ، والشيخ ابن العريف، والشيخ أبي الحسن الشاذليّ، وخلائق من أولياء الله الكبار الصفوة الأخيار، وكذلك ما قد عرف من مذهبه كمسألة الطلاق وغيرها، وكذلك عقيدته في الجهة، وما نقل عنه فيها من الأقوال الباطلة، وغير ذلك مما هو معروف في مذهبه ولقد رأيت مناماً طويلاً في وقت مبارك يتعلق بعضه بعقيدته، ويدل على خطائه فيها، وقد قدمت ذكره في سنة ثمان وخمسين مائة في ترجمة صاحب البيان، فمن أراد أن يطلع على ذلك، فليطالع هناك، فهو من المنامات التي تنشرح بها الصدور، ويطمئن به قلب من رآه، وينفتح لقبول الهدى والنور.

وفيها قتل نائب المشرق حوبان بهراة، ونقل تابوته، فدفن بالبقيع من المدينة الشريفة، ولم يُدفن في مدرسته منعهم السلطان من دفنه فيها.

وفيها توفي أبو عبدالله محمد بن عليّ بن عبد الواحد المعروف بابن نبهان الخزرجيّ الشافعي.

وفيها توفي الإمام العلاّمة الأوحد مفتي الشام شيخ الشافعية قاضي القُضاة كمال الدين أبو المعالي، سمع من أبي الغنائم وجماعة من الكبار، وكان فصيحاً مفوهاً مسرعاً. له خبرة

(١) انظر الأعلام ١/١٤٤.

بالمتون، ومعرفة بالمذهب وأصوله والعربية ذكياً فطناً مدركاً فقيه النفس له اليد البيضاء في النظم والنثر، تفقّه بتاج الدين، وأفتى وهو ابن نيّف وعشرين سنة، فكان يضرب بذكائه ومناظرته المثل.

سنة تسع وعشرين وسبع مائة

فيها توفي مدرّس البادرائية، ومفتي المسلمين. شيخ الإسلام برهان الدين إبراهيم ابن الإمام شيخ الشافعية تاج الدين عبد الرحمن ابن إمام الرواحية إبراهيم بن سباع بن فركاح الفَزَاريّ المصريّ الأصل[١] وشيّعه الخلق يوم الجمعة عند قبر أبيه بالباب الصغير، وله سبعون سنة، حضر على الزين خالد، وسمع من ابن عبد الكريم، وابن أبي اليُسر وعدة، وله مشيخة يحدث بالصحيحين، وأعاد لوالده، وخلّفه في تدريس البادرانية، وفي حلقته بالجامع، وتخرج له أئمة، وعلق على التنبيه شرحاً كبيراً، وكان رأساً في المذهب عارفاً بالأصول والنحو والمنطق مع الورع والتقوى والتعفف والكرم، وامتنع من القضاء، وباشر خطابة البلد أياماً، ثم ترك، وكان له وقع في القلوب وودّ.

قلت واجتمعت به عند مسجد الخيف، ورأيت له في المنام رؤيا حسنة فيها بشرى، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ في حلقة جده، ولقد سأله بعض الناس وأنا عنده حاضر فيمن قال: أحرمت لله بحجة وعمرة مفردة ما حكمه؟ وكان السائل عامياً قد صدر عنه ذلك، فقال: ما قال من العلماء بهذا اللفظ أحد، فقلت له: فإذا كان قد وقع هذا اللفظ من صاحبه. كيف يكون الحكم؟ وما الجواب في ذلك؟ فانزعج انزعاجاً شديداً، ولم يجب في ذلك بشيء، والذي أراه أنا إذا سئلنا عن مثل ذلك أن نقول: يُحتمل أن يكون محرماً بالحجّ والعمرة معاً، فيكون قوله مفردة لفظاً باطلاً ليس له معنى لحصول قصد الحج والعمرة معاً منه، وتعقيبه ذلك بلفظ يناقضه لا يعتبر لأنهما إذا وقعا لا يرتفعان.

ويحتمل أنه قصد الإحرام بحجة مفردة، فسبق لفظه إلى قوله: وعمرة مدخلاً لفظ العمرة بسبق لسانه من غير قصد بين الحجة، ووصفها بالإفراد، فيكون محرماً بالحجّ فقط، وإذا احتمل حكمنا بالأحوط، وهو صحة الاحرام بالمتيقن فقط. أعني الداخل في التقديرين معاً، وهو الحج، فينبغي له أن يحرم بالعمرة بعد الفراغ من أعمال الحج، ولا يجوز أن يحرم بها قبل ذلك لأنه لا يجوز ادخال العمرة على الحج هذا الذي ظهر لي في ذلك في حال الإملاء، والله أعلم.

---

(١) من كبار الشافعية. مصري الأصل، من أهل دمشق، من بيت علم، عُرض عليه قضاء قضاة الشام، فأبى، منقطعاً للتدريس والعبادة. وتوفي في دمشق. من كتبه «الإعلام بفضائل الشام» و«المنائح لطالب الصيد والذبائح» الأعلام ١/ ٤٥.

وفيها مات بدمشق قاضي القضاة شيخ الشيوخ علاء الدين عليّ بن إسماعيل بن يوسف التبريزي[١] المعروف بالقونويّ الفقيه الشافعي الأصولي الإمام العلّامة، سمع من جماعة كثيرة، واشتغل بالعلوم في بلده على جماعة، وحفظ وفهم، ثم قدم دمشق في سنة ثلاث وتسعين وست مائة، وأخذ في الاشتغال والتحصيل أيضاً على الشيخ نجم الدين مكيّ والشيخ شمس الدين الآبجي، وتصدر للاشتغال بجامعها، وولي تدريس الإقبالية، ثم قدم القاهرة، وولي بها المدرسة الشريفية، ومشيخة الشيوخ بالخلفاء المعروف بسعيد السعداء، ومشيخة الميعاد بجامع ابن طولون، وتصدّر للفتوى والاشتغال ونفع الطلبة، واشتهر صيته، وعلا ذكره، وارتفع محله لفضيلته وعلومه وديانته ورياسته وكثرة تلامذته، وانتفع به خلق كثير، وتخرج به أئمة.

ثم إن الملك الناصر اختاره لقضاء القضاة بالديار الشامية فطلبه عنده وعرض عليه الولاية، فامتنع من ذلك فكرر عليه القول، والآن معه الحديث، وتلطف به حتى قبل الولاية وأضاف إليه مع قضاء القضاة مشيخة الشيوخ أيضاً، فتوجه إلى دمشق متولياً ذلك مع تدريس المدرسة العادلية والغزالية، فنظر في ذلك، وأحسن النظر، وتصدّى للاشتغال بالعلوم من القيام بوظائفه، وكان للطلبة به نفع، وأقام بدمشق سنين مضبوط الأمر، محفوظ الباب، نزهاً عفيفاً، إلى أن أدركه الأجل بها عن بضع وسبعين سنة لأن مولده سنة ثمان وستين وست مائة، وله من المصنّفات شرح الحاوي الصغير في الفقه في أربع مجلدات، ومختصر منهاج الحليميّ، وكتاب شرح التعرف لمذهب التصوّف وله شيء في الأصول، وحواشي، ونكت، وتعاليق رحمه الله تعالى.

قلت: ولم أر في شروح الحاوي أحسن من شرحه جامعاً بين الاقتصاد والتحقيق، وحسن المباحث والقواعد، مشعراً بالتحلي بحليتي العلم والتدقيق.

سنة ثلاثين وسبع مائة

فيها قدم على قضاء دمشق علم الدين الأخنائيّ، فاستناب مدرس الشامية ابن المرحل، وفيها نقل من طرابلس إلى قضاء حلب الشيخ شمس الدين ابن النقيب رحمه الله.

وفيها مات مسند الدنيا المعمّر شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن نعمة الصالحيّ الحجازيّ المعروف بابن شحنة، وحدث يوم موته، وله مائة وبضع سنين، سمع ابن الزبيدي، وابن اللتي، وأجاز له ابن روزبه والقطيعي وعدة، ونزل الناس بموته درجة.

---

(١) انظر الأعلام ٤/ ٢٦٤. والبداية والنهاية ٩/ ٤٠٠.

وفيها مات بمكة قاضيها ومفتيها، ومدرّسها وشيخ حرمها الصدر الكبير الفقيه العالم الشهير الإمام نجم الدين محمد ابن الإمام العالم القاضي جمال الدين ابن الشيخ الإمام الفقيه، المحدث العلاّمة محبّ الدين أحمد بن عبدالله الطبري. سمع من جماعة، وتفقه على جده الإمام محبّ الدين المذكور، وكان فقيهاً نجيباً بارعاً أديباً حليماً كريماً حسن الاعتقاد في الفقراء والعباد بحسن الأخلاق متصفاً متواضعاً، وفي البحث منصفاً.

ولقد كان مع جلالة قدره، وعلوّ محله، وجمعه المناصب الكثير، والمناقب الكبيرة، والمحاسن الشهيرة يقول في أثناء قراءتي عليه (كتاب الحاوي) الصغير الحرم الكثير العلم: لقد استفدت معك أكثر مما استفدت معي، ويقول لي: لقد قرأت هذا الكتاب مراراً ما فهمته مثل هذه المرّة.

ولما فرغتُ من قراءته قال في جماعة حاضرين: اشهدوا عليّ إنّه شيخي فيه، وجاءني إلى مكاني في ابتداء قراءته لأقرأه عليه كل ذلك من التواضع، وحسن الاعتقاد، والمحبة في الله والودّ، وكان قد قرأ الكتاب المذكور، وشرحه على الشيخ الإمام الكبير عزّالدين الفاروقي بحقّ روايته له عن مصنّفه الشيخ الإمام عبد الغفّار القزوينيّ، وكان القاضي نجم الدين المذكور محفوظه كتاب المحرّر للإمام أبي القاسم الرافعي، ولكنه كان معجباً بالحاوي، ويقول: لو جاءنا الحاوي قبل أن أحفظ المحّر لم أشتغل بالمحرّر.

وله نظم حسن، وقد قدمت في ترجمته الشريف حميضة في سنة عشرين وسبع مائة أني سألت النبي عليه السلام في المنام السلامة له، فتبسم عليه السلام، وقال: «ما يصيبه شر»، وكان له رحمة الله عليه نصيب وافر من الصالحين، وبلغني أنه قال لبعض الكبار منهم: أريد أن أصحبك مع التخليط، فقال: اصحبني على أيّ حال كنت، وكانت والدته من الصالحات، وكان قد تمرض في شبابه، فافتجعت عليه فجعاً شديداً، فمرّ بها شيخ لا تعرفه، فقال لها: لا تخافي عليه ما يموت حتى يكون سنه سني سبعين سنة، فلما مرض مرض موته كان يرجو العافية، فدخل عليه صهره إمام المقام أحمد ابن شيخنا رضي الدين، فقال له: ما عليك شر إن شاء الله تعالى قد بشرت والدتك إنك تعيش سبعين سنة، وكان مرضه ذلك بعد كمال السبعين، ولكنه كان غافلاً من ذكر ما جرى لوالدته مع الشيخ المذكور، وكان الإمام أحمد جاهلاً بكونه قد بلغ السبعين، فلما قال له ذلك صاح القاضي نجم الدين، وأيقن بالموت، فمات في ذلك المرض.

وفيها توفي المعمر زين الدين أيوب بن نعمة النابلسيّ، ثم الدمشقي الكحّال: حدّث عن جماعة وتفرّد بمصر ودمشق، ونيف على التسعين.

سنة احدى وثلاثين وسبع مائة

فيها وصل إلى بلاد حلب نهر الساجور وبعد غرامة كثيرة، وحفر زمن طويل في جريانه.

وفيها مات ببلاد المغرب السلطان أبو سعيد عثمان ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق المديني، وكانت دولته اثنتين وعشرين سنة، وتملّك بعده ابنه السلطان الفقيه الإمام أبو الحسن.

وفيها مات الأمير الكبير نائب السلطان أرغون.

وفيها توفي أقضى القُضاة جمال الدين أحمد بن محمد بن القلانسيّ التميمي الشافعي قاضي العسكر، ووكيل بيت المال، ومدرّس الأمينية والظاهرية، وكان عالماً محتشماً، مليح الشكل، ليّن الكلمة. حدث عن ابن البخاري.

سنة اثنتين وثلاثين وسبع مائة

فيها جاء بحمص سيل، فغرق خلق منهم في حمام النائب بظاهرها نحو المائتين من نساء وأولاد.

وفي ربيع الآخر تسلطن الملك الأفضل عليّ بن المؤيّد إسماعيل الحمويّ، وركب بالقاهرة بالغاشية والعصائب، ثم كان عرس محمّد ابن السلطان على بنت الأمير الكبير بكتم. قيل: جهزت بألف ألف دينار، واختلفوا للعرس بما لا يوصف، وأقيمت بالشامية جمعة.

وفيها مات صاحب حماة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل عليّ الأيوبيّ الحمويّ، صاحب التاريخ، وناظم الحاوي، وله كتاب تقويم البلدان وفضائل وفلسفة.

وفيها مات الوليّ الكبير الشيخ العارف بالله الشهير ياقوت الحبشيّ الشاذلي[1] صاحب الأوصاف الحميدة، والكرامات العديدة، والأحوال السنية، والمقامات العليّة، والأنفاس الصادقة، والأنوار البارقة تلميذ شيخ الشيوخ صاحب النور القدسيّ أبي العبّاس المرسيّ.

وفيها مات الشيخ قطب الدين السنباطي محمّد بن عبد الصمد بن عبد القادر الأنصاريّ المصريّ، الفقيه الإمام الشافعيّ، وكان من أعيان الشافعية، وخيار الفقهاء وكبارهم. حسن الهيئة، بهيّ المنظر، قليل التكلّف، كثير التواضع، حسن الأخلاق، محباً للطلبة. درّس

(١) بلغ الثمانين، وكان له أتباع وأصحاب توفي في جمادى البداية والنهاية ٩٠/١٣، ٤١٣.

بالفاضلية، وأعاد بالصالحية والناصرية، وتصدر للاشتغال، وانتفع به خلق كثير، وصنّف في الفقه زوائد التعجيز على التنبيه، وناب في الحكم عن قاضي القُضاة جمال الدين الذرعيّ مدة، ثم عن قاضي القُضاة بدر الدين ابن جماعة، وتولّى وكالة بيت المال مستمراً على ذلك إلى موته.

وفيها مات صدر الأكابر والرياسة والمفاخر، فخر الدين محمّد بن فضل الله كاتب المماليك، ناظر الجيش المصريّ، وله جلالة وشهرة وأوقاف وثروة، وأحيط على حواصله.

قلت: ولقد رأيته في المسجد الحرام يمشي معه القاضي الرئيس الكبير قاضي مكّة نجم الدين الطبريّ، وهو يدور على أهل الخير والصلاح من المجاورين، ويفرّق عليهم الدنانير، فلما رآني نجم الدين المذكور مال به إلى عندي.

ويلغني أنه حجّ مع السلطان الملك الناصر في بعض حجّاته، وكان قريباً منه، فلما مرّ بوادي بني سالم السلطان بدا له جبل ورقان، فقال: يا فخر من في رأس هذا الجبل؟ قال: غلمان مولانا. قال: ليس النازلون في هذا الجبل لي بغلمان. يعني أنّ من كان ساكناً في هذا الجبل المنيع العالي، فليس لي في طاعة، ولا بي مبال، وفي هذا المعنى خطر لي هذان البيتان:

إذا ما كنت في حصن علا في رأس ورقان
فإنّي لا أبالي بوالٍ أو بسلطان

وهذا الجبل المذكور يؤتى منه بالعسل الفائق المشكور، وأخبرني من له به خبرة أنّ فيه أشجاراً ونباتاً وأزهاراً كثيرة يطول في ذكر أسمائها التعداد، ولا يوجد في غيره من البلاد.

وفيها توفي الشيخ الجليل الإمام العلاّمة المقرىء شيخ القرّاء برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري الشافعي(١)، صاحب الفضائل الحميدة، والمباحث المفيدة، والتصانيف العديدة، وجملتها نيف على مائة تصنيف، ومن نظمه:

وإن فسح الله الكريم بمدتي وأدركت عمراً ليس في أصله ضعفُ
سأنشر للطلاب علماً كعادتي عزيز المعاني فيه من حسنهِ لطفُ

---

(١) ولد سنة (٦٤٠ هـ) بقلعة جعبر، وتعلم ببغداد ودمشق واستقر ببلد الخليل إلى أن مات. يقال له: «شيخ الخليل» وقد يعرف بابن السراج.
وكنيته في بغداد (تقي الدين) وفي غيرها «برهان الدين» له نحو مائة كتاب منها «خلاصة الأبحاث» و «موعد الكرام» أو غير ذلك. الأعلام ١/ ٥٥ ـ ٥٦.

وإن صـادفتني يـا صحـابـي منيتـي فصبـر جميـل، فـالصبـور لـه الـوصـفُ
إلهـي، فحقـق لـي رجـائـي تكـرمـاً فشـأنـك فينـا الصفـح والعفـو واللطـفُ

وله أيضاً في عدة مؤلفاته وتاريخ مؤلده، وطلب المغفرة من ربه عزّ وجل:

أيـا سـائلـي عـن عـدمـا قـد جمعتـه من الكتب في أثناء عمري من العلمِ
أصـخ لـي فقـد عـرفـت ذاك بنيـف علـى مـائـة مـا بيـن نثـر إلـى نظـمِ
ومـن عجـب زادت علـى العمـر تسعـة وعشـر ومـا أدري متـى منتهـى يـومـي
فخـذ منـه مـا يختـار، واسمـح بنشـرهِ علـى طـالبيـه داعيـاً لـي علـى رقمـي
وخـذ مـولـدي فـي أربعيـن مقـربـاً وسـت مئـات أو مثيـن علـى الـرسـمِ
وكـان وجـودي فـي الـوجـود جميعـه كطيـف خيـالٍ زار فـي نـوم ذي حلـمِ
إلهـي فـاختـم لـي بخيـر، وكفـرّ مـن ذنـوبـي عسـى ألقـاك ربّ بـلا اثـمِ
بحـق القـرآن، والنبـيّ محمـد تقبّـل دعـائـي ربّ شفعـه فـي جـرمـي
فـأنـت غنـيّ عـن عـذابـي، وإننـي فقيـرٌ إلـى رحمـاك يـا واسـع الحلـمِ

وتوفي رحمه الله تعالى وله اثنتان وتسعون سنة. أجاز له ابن خليل، وعرض التعجير. على مؤلفه وتلا على الوجوهي وغيره، ورحل القرّاء إليه رحمه الله تعالى.

وفيها توفي القاضي شمس الدين المعروف بابن القماح الحسن بن محمّد بن عبد الرحمن السخاويّ الشافعيّ، الفقيه العلامة النحوي، اللغوي البارع، الفاضل المتفنن ابن الإمام جمال الدين ابن الإمام تقي الدين، تولّى القضاء، وكان فاضلاً عالماً ذكياً فقيهاً نبيلاً حافظاً لمقامات الحريري، وديوان المتنبي، وغير ذلك، وكان فيه مكارم، وحسن أخلاق.

ومما روي عنه أنه قال: أنشدني شيخنا زين الدين ابن الرعاد النحويّ لما توفي القاضي كمال الدين النسائي، وولي بعده القاضي كمال الدين بن عيسى القليوبي بالعربية هذين البيتين، وكتب بهما إلى عيسى المذكور:

نقـل النـاس، وهـو نقـل غـريـب إنّ بعـد الكمـال يحـدث نقـص
وأتـانـا بعـد الكمـال كمـال وأتـانـا بعـد الأعـمّ الأخـصّ

وتوفي رحمه الله تعالى ليلة الجمعة الثامن من شهر شوال.

سنة ثلاث وثلاثين وسبع مائة

فيها توفي شيخ الإسلام الإمام بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة الكنانيّ الحمويّ

الشافعي[1]، قاضي القُضاة، المفتي العلاّمة، ذو الفنون والمناقب والرياسة والمناصب، عن أربع وتسعين سنة وشهر.

ولد بحماة سنة تسع وثلاثين وست مائة، وسمع سنة خمسين من شيخ الشيوخ الأنصاري، وبمصر من الرضيّ بن البرهان، وللرشيد العطار وعدة، وبدمشق من أبي اليُسر وطائفة، وأجاز له خلائق، وحدّث وتفرّد في وقته، وكان قويّ المشاركة في فنون الحديث، عارفاً بالتفسير والفقه وأصوله، ذكياً يقظاً مناظراً متفنناً مفسراً خطيباً مفوهاً ورعاً صيتاً، تام الشكل، وافر العقل، حسن الهدى، متين الديانة، ذا تعبد وأوراد، وحجّ واعتمار، وحسن اعتقاد في الأصول، والصالحين من العباد.

وله تصانيف سائرة، وأربعون تساعية درّس وأفتى واشتغل، ثم نقل إلى خطابة القدس، ثم طلبه الوزير ابن سلغوس، فولاّه قضاء مصر، وارتفع شأنه، ثم بعث على قضاء الشام، ثم ولي خطابة دمشق، وروى الكثير، ثم طلب لقضاء مصر بعد ابن دقيق العيد، وامتدت أيامه، وحمدت أحكامه، وكثرت أمواله، وحسُنت أعماله، وترك الأخذ على القضاء عفة، وكان يخطب من إنشائه، ويتثبت في قضائه. وليّ مناصب كباراً، وكان قد صرفه السلطان بالقاضي جمال الدين الزرعيّ نحو السنة، ثم أعاده السلطان إلى منصبه، ثم شاخ، ونقل سمعه، ثم أضر وعزل، وأقبل على شأنه، وعلى أستاذه، وتفرّد وصنّف في علوم الحديث والأحكام وغير ذلك، وله وقع في القلوب، وجلالة في الصدور، وكان والده من كبار الصالحين.

قلت: هكذا ترجم عنه بعض المتأخرين بهذه الترجمة، وهو جدير بها ما خلا ألفاظاً يسيرةً أدخلتها فيها، وكان حسن الاعتقاد في الصوفية، وبلغني أنه سُئل عن ذلك، فقال كلاماً معناه أنّ سبب ذلك أنه كان إذا مرّ في صغره على فقير في بلاد الشام يقول: مرحباً بقاضي الديار المصرية، وكان من أمره ما كان من السيرة الرضية. رحمه الله تعالى.

وفيها توفي مفتي المسلمين الإمام الأجلّ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن جميل[2] الشافعي، مدرّس البادرائية، سمع من الفخر علي، وابن الزين، والفاروثي. وتفقه على شرف الدين ابن المقدسيّ، وابن الوكيل، وابن النقيب، ولّي تدريس الصلاحية في القدس مدة، واشتغل وأفتى، وبرع في الفقه، وولي مشيخه الظاهرية، ثم نُقل إلى تدريس البادرائية، وله محاسن وفضائل ومكارم، وفيه خير وتعبّد، وحجّ غير مرة.

---

(١) انظر الأعلام ٥/ ٢٩٧.

(٢) بن جهبل: البداية والنهاية ٩/ ٤١٧.

قلت: وحصل بيني وبينه اجتماع في حجة في المدرسة الشهابية من المدينة الشريفة لأنه نزل فيها، وكنت قبله نازلاً بها، ثم سألته عن مسألة خطرت لي، وهي أني قلت له: في الذكر الوارد في كفارة المجلس. لا يخلون إما أنْ يكون الشخص صادقاً في قوله، وأتوب إليك، أو كاذباً، فإن كان صادقاً، فالمغفرة تحصل بمجرد التوبة، ولا تفتقر إلى الذكر المذكور من قوله: سبحانك اللهم، وبحمدك إلى آخره، وإن كان كاذباً فكيف تحصل له مغفرة مع اخباره بتوبة هو كاذب فيها مصرّفي نفسه على معاصيها؟ فأجابني بجواب في الحال ليس بشافٍ في هذا السؤال ليس هو الآن لي على بال.

وفيها مات في بدر الوليّ الكبير المشغول بالله الشهير، الشيخ علي بن الحسن الواسطيّ الشافعي[1] محرماً متوجهاً إلى الحجّ، وكان ذا همة عاليةٍ حجّ مراراً كثيرةً واعتمر على ما روى بعضهم أكثر من ألف عمرة، وتلا أزيد من أربعة آلاف ختمة، فطاف مرّات في كل ليلة سبعين أسبوعاً ورأيته يسرع في طوافة مثل ما يرمل المحرم أو أسرع، وبلغني أنّ بعض الناس كان ينكر عليه في إسراعه ذلك، فرأى النبي صلّى الله عليه وآله وسلم، فذكر له ذلك المنكر عليه، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قل له «**إن قدر يزيد على ذلك الإسراع، فليفعل**» والذي فهمت منه أنه كان في عدوه ذلك واجد، أو يدل عليه أني رأيته يطوف في شدة الحرّ، فسألته عن ذلك، فقال: ما أجد حرّاً، ولعمري إنّ كل صادق واجد لا ينبغي أن يعترض عليه فيما يفعله، ولهذا رأيت غيره من بعض الصالحين يطوف في حال وجده، وهو يعدو، فنهاه بعض الفقهاء، فلم يلتفت إليه، فأمر بإمساكه، فسلّط الله على ذلك الفقيه من أمسكه من ظلمة السلطنة، وضربه على القرب من فعله ذلك، وكان الشيخ عليّ الواسطيّ المذكور، شديد المجاهدة، يغتسل لكل فريضة في البرد الشديد وغيره.

وكان قد بلغني أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلّم في اليقظة، فسألته عن ذلك، فأقرّ به، وكان أول اجتماعي به في الليل في شهر رمضان في المسجد الحرام، فقال: «أجدني أحبك» وأطعمني كسرة من بقية عشائه، والناس يصلون التراويح، فقال لي: «ما تصلي بنا» فقلت له: تقدّم بنا تصلي مع الجماعة، فذكر لي كلاماً معناه أنه ما يجد الجماع قلبه في مخالطة الناس، وكان في ذلك الوقت ثلاثة رجال واسطيون كلهم ملاح، مع تفاوت طريقتهم في أوصاف الصلاح.

أحدهم الشيخ عليّ المذكور، وكانت طريقته الانفراد والبعد من الناس كلاهم كأنه أسد، وكان مهنّا ملك العرب يحبه ويعظمه، ويقسم برأسه على ما سمعت.

---

(١) انظر الأعلام ٤/ ٢٧٤.

والثاني الشيخ عز الدين الواسطي، وكانت طريقته القرب من كل أحد مطلقاً، حتى لو جاءه صغير ذهب به حيث شاء، وكان سليم الصدر لا يدري ما عليه الناس، حتى أنه دخل العسكر المدينة مع الشريف روى، فلما رآهم قال: ما هؤلاء؟ وكانوا قد حاصروا المدينة أياماً كثيرة، وما عنده شعور بذلك، وهو في ذلك الوقت إمام الناس في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان إذا عرف الإنسان في يومه أنكره من الغد، وكان أكثر مجاورته في المدينة الشريفة، وكان الصلاح ظاهراً عليه، وهو آخر من ألبسني الخرقة بينه وبين الشيخ شهاب الدين السهروردي، والباسها واحد، كان يعظّم الكعبة المشرفة إذا ذكرها، ويقول قال الله تعالى: ﴿وطهر بيتي﴾ [الحج : ٢٦].

والثالث من الواسطيين المذكورين ابن الشيخ أحمد الواسطي، كان مجاوراً بمكة، كانت طريقته متوسطة بين طريقتي المذكورين، يتقرب من الفقراء، ويتباعد من أهل الدنيا، وكان صاحب جد واجتهاد، وكان أيضاً كثير المودة لي حتى أخبرني الشيخ إبراهيم المقرىء رحمة الله على الجميع عنه أنه قال: ما لي في الحرم صديق إلا فلان فلي والحمد لله من الثلاثة كلهم نصيب. بل من غيرهم من الصالحين أيضاً فقد قال لي الوليّ الكبير، الوافر النصيب، ذو الأحوال السنية، والهمة العلية الشيخ خالد بن شبيب: رأيت الأولياء كلهم يحبونك داعين مستبشرين.

وكان رضي الله تعالى عنه يجتمع برجال الغيب في البراري كثيراً، وله معهم حكايات عجيبة ليس هذا موضع ذكرها، وكان يبلغني السلام عنهم والإشارة بما أفعله، وما يكون في بعض الأحيان، والحمد لله الجواد المنان.

وفيها ماتت بدمشق المعمّرة المسندة أمّ محمد أسماء بنت محمّد بن سالم، سمعت من مكيّ بن غيلان، وتفردت وحجت مراراً، وتصدقت.

سنة أربع وثلاثين وسبع مائة

قال الذهبي: جاء بطيبة سيل عظيم أخذ الجمال، وعشرين فرساً، وخرّب أماكن. هكذا قال في تاريخه، وقد رأيت سيلاً عظيماً يجري في وادي قناة، واستمر ذلك ستة أشهراً وأكثر، وكان قد طلع في قبة حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه أذرعاً، ودار بجبل الرماة من جهة القبة المذكورة المكرمة، ومن جهة المدينة الشريفة المعظمة، وأقمت أياماً وليالي كثيرة أتوضأ منه مع الوليّ المجرد الشيخ المودود ذي الأحوال الباهرة، والكرامات الظاهرة عبد الرحمن الحبشي.

وفي السنة المذكورة توفي الحافظ العلاّمة المتفنن فتح الدين أبو الفتح محمّد بن

محمّد ابن سيد الناس[١] روى عن جماعة، ورحل وحدّث وجمع وصنّف، وله النظم والنثر، ومعرفة الرجال، وبراعة الحفظ والخطّ.

وفيها توفي قاضي القُضاة الإمام العلاّمة أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن عبد الرفيع الربعيّ التونسي، عن تسع وتسعين سنة وأشهر، روى عن جماعة.

سنة خمس وثلاثين وسبع مائة

فيها توفي ملك العرب حسام الدين مهنّا ابن الملك عيسى بن مهنّا الطائي[٢]، وأقاموا عليه المأتم، ولبسوا السواد كان فيه خير وتعبد.

وفيها ماتت المعمّرة زينب بنت الخطيب يحيى ابن الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام السلمية، عن سبع وثمانين سنة، روت عن جماعة وحدّثت بالكثير وتفردّت.

وفيها مات الحافظ قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبي[٣] تلا بالسبع عن إسماعيل المليحي، وسمع من جماعة وصنّف وخرّج وأفاد مع الصيانة، والديانة، والأمانة، والتواضع، والعلم، ولزوم الاشتغال والتأليف حجّ مرّات، وعمل تاريخاً كبيراً لمصر بيّض بعضه، وشرح السيرة لعبد الغني في مجلدين، وعمل أربعين تساعيات، وأربعين متباينات، وأربعين بلديات، وعمل معظم شرح البخاري في عدة مجلدات.

سنة ست وثلاثين وسبع مائة

فيها توفي بدمشق الرحّالة أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن محمد بن ممدود البغدادي الصوفي، عن اثنتين وتسعين سنة، سمع وأجازه جماعة وتفرّد.

وفيها ماتت عائشة بنت محمد بن مسلم الحرّانية عن تسعين سنة، روت حضوراً وسماعاً عن جماعة وتفردت.

وفيها توفي السلطان الذي ملك بعد أبي سعيد ضربت عنقه صبراً يوم الفطر، وكانت دولته نصف سنة.

---

(١) ولد سنة احدى وسبعين وستمائة بالقاهرة وهو مؤرخ، عالم بالأدب. من حفاظ الحديث، له شعر رقيق أصله من إشبيلية، مولده ووفاته بالقاهرة. من تصانيفه «نور العيون» و «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» وغير ذلك. الأعلام ٧/ ٣٤ كذلك انظر البداية والنهاية ٩/ ٤٢٣.

(٢) مات بالغرب من سلمية، وقد أناف على الثمانين. قال الذهبي. كان وقوراً متواضعاً لا يحفل بملبسٍ ديناً حليماً ذا مروءة وسؤدد الأعلام ٧/ ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٣) ولد سنة (٦٦٤ هـ) حافظ للحديث، حلبي الأصل والمولد، مصري الإقامة والوفاة. الأعلام ٤/ ٥٣.

وفيها مات الوزير المعظَّم غيّاث الدين محمّد بن فضل الله الهمدانيّ، وكان وزيراً عادلاً عالماً محباً في العلم والخير وأهلهما. متصفاً بالانصاف، له مآثر وصدقات ومعروف.

وفيها توفي الصاحب الأمجد عماد الدين إسماعيل بن محمد ابن الصاحب فتح الدين ابن القيسراني[١]، وكان منشياً بليغاً رئيساً ديّناً صيتاً نزهاً، روى عن غير واحد.

سنة سبع وثلاثين وسبع مائة

فيها توفي الشيخ الكبير الوليّ الشهير، ذو العجائب العظيمة، والكرامات الكريمة، والهمم العالية، والشمائل الرضية، والمكاشفات الجلية، والآيات الباهرة، والأنوار الزاهرة أبو عبدالله محمّد بن عبدالله ابن المجد المرشديّ في رمضان بقرية مرشد كهلان[٢]. كان له عجائب تحيّر العقول، وغرائب ذكرها يطول. كان لو اجتمع عنده أكثر عسكر في الورى لعجل إليه في الحال ما أحب من القرى يخرج ذلك من خزانة له صغيرة ليس فيها شيء يرى شاهد منه تلك الكرامات الباهرات خلائق لا يحصون.

قلت: حكي لي ذلك من الثقات، وسمعت ذلك عنه من خلائق أدركتهم أخياراً وفضلاء أعياناً، بل رأيت ذلك منه مشاهدة عياناً، وذلك أني لما وردت عليه زائراً، ولم أكن رأيته قبل ذلك دخلت زاويته، فلم أجده فيها، ثم بعد ساعة يسيرة جاءني، فتسالمنا وقال لي: ما أراها إلاّ غزالية، ثم أخذ بيدي، وأدخلني خلوة له، فكان يحدثني فيها ساعة، ثم يخرج ويتلقى من يزوره ساعة، وكنت صائماً، فلم يقرب لي طعاماً إلى أن كان بعد صلاة المغرب، وإذا به قد مدّ عندي سماطاً يكفي جماعة كثيرة من الأضياف، من الأطعمة ما يكثر عدّه من الأنواع والأصناف، وكان في نفسي شهوة طعام مخصوص ما كنت ذقته في جميع عمري أحضره في ذلك السماط، ثم أذن لي في تناول الطعام، فأكلت منه ما اشتهيت، وإذا به فد جاءني، واستأذنني في ادخال جماعة مخصوصين عليّ ليطعموا معي كأنهم التمسوا ذلك، وهم الفقيه الإمام شرف الدين ابن الصاحب، وأولاده من نسل الوزير الشهير المعروف بابن حنّا، وإذا بهم قد أظهروا لي من حسن الاعتقاد، ما يقلّ مثله في المعتقدين من العباد حتى أخذوا الماء الذي غسلت به يدي فشربوه، ثم لما أصبحت عزمت على السفر هارباً من لقاء من يأتيه من سائر البلدان لما قد اعتادوا عنده ليلة النصف من شعبان، فمنعني

(١) أحد كتاب الدست وكان من خيار الناس، محبباً إلى الفقراء والصالحين وفيه مروءة كثيرة، كتب بمصر ثم بحلب ثم انتقل إلى دمشق وتوفي فيها ودفن بالصوفية من خمس وستين سنة. البداية والنهاية ٩/ ٤٣٠.

(٢) منية مرشد كهلان البداية والنهاية ٩/ ٤٣٤.

عن السفر، وقال: تخرج معنا إلى كوم قرح مكان يجتمع فيه عنده خلائق لا يحصون في الليلة المذكورة، ويطعمهم جميعاً من الأطعمة الطيبة المشكورة، فكرهت الإقامة والاجتماع بالخلق، واعتذرت إليه في ذلك، فقال: إذا كان لا بد من السفر، فأقم عندنا إلى العشاء، فوافقته في ذلك، ثم حدثتني نفسي حينئذٍ، وقالت لي: إذا أقمت تصوم أو تفطر، فنازعتني في الإفطار، فقال لي: في الحال تصالحها، ثم قال لخادم عنده: هات الطعام، فتباطأ قليلاً فشدّ الشيخ وسطه وجاءني بمائدة عليها الطعام، فأكلت، ثم قال لي: هل لك في مجلس علم؟ اذهب إلى الموضع الفلاني، فذهبت إلى ذلك الموضع، فمكثت فيه يسيراً، وإذا بفتوى قد جاءت من بعض القرى، وحضر عندي حينئذٍ جماعة من الفقهاء، منهم ابن الصاحب المذكور وغيره فقالوا لي: اكتب عليها، فقلت لهم: أنا تركت ذلك في موضع اقامتي، فكيف أكتب ذلك في بلاد الغربة؟ فقالوا: لا بد من ذلك، فقلت: إن كان ولا بد، فليحضر صاحبها، فأذكر له ما عندي في ذلك من الجواب، ولا حاجة إلى رقم ذلك في كتاب، فجاء صاحبها، فذكرت له ما ظهر لي من الجواب، ثم وقالوا لي: تقيم عندنا مدة حتى نشتغل عليك في كتاب الحاوي، فاعتذرت من ذلك، وعجبت من اشارة الشيخ فيما وقع من البحث في العلم هنالك، وشاهدت منه هذه الكرامات المذكورات. أعني الطعام الذي اشتهيته، ومصالحة النفس في الفطر، والبحث في العلم.

وأما قوله: ما أراها إلاّ غزالية، فاسأل الله الكريم أن يمنّ عليّ بما كان عليه الإمام أبو حامد الغزاليّ من السيرة الحميدة في العلوم، والأعمال الصالحات والانعزال عن الخلق، والأنس في الخلوات.

وأخبرني أنه صحب سبعين من الشيوخ. ذكر منهم الشيخ الكبير العارف بالله أبو العباس المرسيّ، والوليّ الكبير الفقيه الإمام أحمد بن موسى بن عجيل، وكان قد حفظ القرآن عليه، وقرأ كتاب التنبيه، ثم انقطع في زاوية، ومع هذا، فالناس مختلفون فيه فأكثر الناس يعتقدونه لكثرة ما سمعوا ورأوا من كراماته في مدّ السماطات العظيمة من غير وجود لأسبابها في الظاهر، والمكاشفات الكثيرة، والتكلّم على الباطن، ولا خادم يخدمه، ولا معاون حتى قيل: إنه أطعم في ثلاث ليال متوالية ما قيمته ألف دينار، ولم يزل يتوارد عليه الأمراء والوزراء، وأبناء الدنيا، وأهل المناصب الكبار.

ومع ذلك يقريهم في الحال بما يدهش عقولهم من الأطعمة التي ليس للسلطان على احضارها في الحال اقتدار، بعض الناس لا يعتقدونه، ويحمل ما يسمعه منه على تأويلات باطلة كما نقل عن ابن تيمية أنه قال: هو مخدوم لما اشتهر عنده، واستفاض كثرة خوارقه للموائد لم يمكنه جحدها، فحملها على هذا الظن الكاذب، والتأويل الفاسد فيه، فإنّ الجان

ليس له اطلاع على بواطن العباد، وما يخطر في بواطنهم، نعوذ بالله من سوء الاعتقاد ومنهم من تشكك فيه.

وبلغني عن الشيخ الكبير الوليّ الشهير الشيخ عبد الهادي المغربيّ أنه لما ذكر عنده قال: لا أشك أنه حصل له نصيب من أحوال الفقراء إلا أنّ الفقراء لا يرضون بشهرة هذه الكرامات التي تظهر منه.

وكذلك بلغني عن سيّد الكبير الوليّ الشهير الشيخ حسين الحاكي أنه قال: لو كنت يظهر على يدي مثل هذا الذي يظهر على يديه لدخلت في سرب تحت الأرض.

وكذلك بلغني عن السيّد الجليل الإمام الحفيل، الشيخ خليفة الشاذليّ الاسكندراني أنه لما ذكر عنده قال كلاماً معناه ترى متى يتفرغ هذا الرجل لذكر الله لشغل أوقاته بمن يأتيه من الأمراء والوزراء وغيرهم من أهل الدنيا.

قال الراوي: فلما سمعنا منه هذا الكلام أتينا الشيخ محمداً نزوره، فقال لنا: قولوا للفقيه خليفة، والله ما شغلوني عن الله طرفة عين، أو قال: والله لو شغلوني عن الله طرفة عين ما سلمت عليهم، أو قال: ما قرأتهم السلام، أو كما قال من الكلام.

قلت: والذي أراه أنه لا ينبغي أن ينكر عليه شيء مما ينسب، فإنه إن كان يتعاطى ذلك باذن فليس عليّ من اقامة الحق في مقام. وصرفه فيه تصريف الحكام لأحد معه كلام، ولا اعتراض ولا ملام، ولا يصحّ أن يكون صدور ذلك منه بغير اذن، فإنّ الأولياء لا يتعاطون الأشياء بهوى نفوسهم إذ لو فعلوا ذلك ما كانوا أولياء الله، وما كانت تواتيهم الأشياء، ولو أتاهم شيء في وقت بغير ولاية بل بكهانة، أو سحراً وغواية، لظهر ذلك عليهم، وافتضحوا في العواقب، والمرشديّ المذكور لم يزل مستوراً مشكوراً، فظهر، والله أعلم. أنّ ذلك من تخصيص المواهب.

وفيها توفي الملك المعمّر أسد الدين عبد القادر بن عبد العزيز بن السلطان الملك المعظّم، روى السيرة، وأجزاء عن خطيب بردى، وتفرّد وكان ممتعاً بحواسه، مليح الشكل، ما تزوج ولا يسرى.

وفيها قتل صاحب تلمسان أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى[١]، وكان سنيّ السيرة. قتل أباه، وكان قتله له رحمة للمسلمين لما انطوى عليه من خبث السريرة، وكان بطلاً شجاعاً تملّك نيفاً وعشرين سنة. حاصره سلطان المغرب أبو الحسن المرينيّ

(١) عبد الرحمن بن موسى الأولى (أبي حمو) بن أبي سعيد عثمان بن يغمراسن من بني عبد الواد. من سلاطين تلمسان وأطرافها الأعلام ٣/٣٣٩.

مدة، ثم برز عبد الرحمن ليكبس المريني، فلم يتم له ذلك، فطال عليه الحصار حتى دخلت البلد عليه عنوة، فقاتل على حصانه، حتى قتل في رمضان كهلاً.

سنة ثمان وثلاثين وسبع مائة

فيها توفي الصالح المسند أبو بكر بن محمد بن الرضيّ الصالحيّ القطّان، عن تسع وثمانين سنة، سمع حضوراً من خطيب بردا، وعبد الحميد بن عبد الهادي، وسمع من عبدالله بن الخشوعيّ، وابن خليل ابن البرهان، وتفرّد، وأكثروا عنه كان له اجازة السبط وجماعة.

وفيها مات في حماة قاضيها صاحب السيرة السديدة، والمحاسن الحميدة، والفضائل العديدة، والتصانيف المفيدة شرف الدين هبة الله ابن القاضي نجم الدين عبد الرحيم ابن القاضي شمس الدين إبراهيم ابن البارزيّ الجهنيّ الشافعي[١] عن ثلاث وتسعين سنة، روى عن جدّه وغيره، وله اجازة من جماعة منهم الكمال الضرير، وكان إماماً قدوة مصنفاً، صاحب فنون، واكباب على العلم والصلاح، وتواضع حسن، وصحة ذهن تخرج به الأصحاب، وانتفع به وأفاد. قال الذهبي: وبلغ رتبة الاجتهاد.

قلت: وكتب إليّ في آخر عمره يستشيرني في المجاورة في الحرم الشريف إلى الموت، ثم أدركته المنية على القرب.

ومن تصانيفه شرح الحاوي في مجلدين، وكتاب آخر في حلّ الحاوي، وكتاب المغني جمع فيه مسائل التنبيه، وزيادات وغير ذلك، وله مسألة تفرّد بها أعني ما أفتى به من جواز السفر للحائض قبل طواف الإفاضة مع نحر بدنة كمذهب الحنفية.

قلت: ولقد عجبت من ذهابه إلى الفتوى مع جلالة قدره، ورسوخه في العلم، وقد صح عن سيّد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام أنه قال في زوجته صفية رضي الله تعالى عنها: أحابستنا هي يعني عن السفر حتى تطهر لما قيل له أنها حاضت، فإذا كانت حبيب الرحمن المنسوخ بدينه الأديان ينجس عن السفر بسبب حيض امرأته قبل طوف الإفاضة، كيف يطلق غيره من آحاد الناس هذا خارجاً عن الكتاب والسنة والاجماع والقياس؟ وهذا أقول لاطعنا في جلالة شرف الدين، وعلمه المعتبر، بل تحذيراً من فعل ذلك، فالجواد قد يعثر، وكان رضي الله تعالى عنه حسن الاعتقاد في الصوفية والزهاد العباد من سائر العباد ذا أصل أصيل، ومجد أثيل، ووصف جميل يقرّ له بالفضل كل فضيل.

---

(١) انظر الأعلام ٨/ ٧٣.

وقد بلغني أنّ الشيخ الإمام محيي الدين النوويّ رحمه الله تعالى مدحه، وقال: ما في البلاد أفقه من هذا الشاب، أو نحو ذلك لما رآه، وبلغني أيضاً أنّ الشيخ محيي الدين المذكور كان يعرض عليه ما يكتبه في كتاب الروضة، حال اختصاره كتاب الإمام أبي القاسم الرافعي، أعني (العزيز) في شرح (الوجيز) للإمام أبي حامد الغزالي قدس الله تعالى أرواح الجميع.

وفي السنة المذكورة توفي قاضي القُضاة جمال الدين بن حملة بن يوسف بن إبراهيم الأنصاريّ، تميز وباحث وأخذ الفقه عن عزّ الدين الفاروثي، وابن النقيب، وابن الوكيل، وابن الزملكاني، وقرأ النحو، وصار من أعيان الفقهاء، ووليّ قضاء دمشق وحكم فحمد، وكان ماضي الحكم، ذاهيبة وصولة وشدة وطأة، عليّ المرتبة، وجرت له أمور، وأوذي، وعزل فالله تعالى يوجره، ثم أعطي تدريس الشامية، وكان شديد البأس على ابن تيمية والمبتدعين، وكان متين الديانة، حسن المعتقد.

وفيها توفي العلاّمة زين الدين بن المرحّل محمّد بن عبد الله ابن خطيب دمشق عمر بن مكي القرشي العثمانيّ العبديّ الأمويّ الشافعي[1] تفقه بمصر والشام على عمّه الشيخ صدر الدين ابن الوكيل، وعلى الشيخ كمال الدين بن السريشي، وكمال الدين ابن الزملكانيّ، وتولى هو والشيخ العلاّمة شمس الدين بن اللبان التدريس في يوم واحد يوم توفي الشيخ صدر الدين المذكور في أواخر سنة ست عشرة وسبع مائة. درّس في المجدية فأخذها شمس الدين المذكور، وانتقل هو إلى مشهد الحسين، فدرّس فيه سبع سنين، ثم انتقل إلى الشام، ودرّس في الشامية الكبرى والعذراوية، ومكث فيها مدرّساً ثلاث عشرة سنة، وناب في الحكم عن ابن الأخناي بدمشق، وكان رحمه الله تعالى إماماً عالماً عاملاً بارعاً نظاراً ذكياً وفياً ورعاً زاهداً، لم ير بالشام مثله، ولا مثل عبارته مع طلاقة الوجه، وحسن المحيّا رحمه الله تعالى وله مصنّفات جليلة، منها كتاب الفوائد في الفرق بين المسائل، ومنها كتاب النظائر، ومنها مختصر الروضة، ومنها في أصول الفقه كتاب التلخيص، وكتاب المخلص، وكتاب الخلاصة، ولم يصنّف مثلها فاقت على أصول ابن الحاجب وغيره كذا ذكر بعض أهل الطبقات من الشاميين.

وفيها وقيل: في التي بعدها مات بمصر شيخ الشافعية زين الدين عمر بن أبي الحزم الدمشقي ابن الكنتاني أبو حفص العلاّمة كبير الشافعية أوحد الأصوليين. تفقه وناظر، ونشأ بدمشق، ثم تحوّل إلى القاهرة، وكان تام الشكل، حسن الهيئة، جيد الذهن، كثير العلم،

(١) مولده ووفاته بدمشق. تعلم بها وبالقاهرة، ولد بعد سنة ٦٩٠ وكان من أحسن الناس شكلاً، عازماً بالفقه وأصوله، يلقي الدروس بفصاحة وعذوبة لفظ.

إماماً في المذهب، مائلاً إلى الحجة. خطب ودرّس واشتهر اسمه، وسمع جزء الأنصاريّ، وامتنع من الرواية، وكان يوهن بعض المسائل لضعف دليلها، ويُلقي دروساً مفيدةً متقنةً يدهش من يسمعها ويزبر من يعارضه، وكان متصوفاً متديّناً، مليح البزة، حسن الشكل، لا يخضع لقاض ولا أمير، ولا تأهل قطّ. درّس بالمنصورية وغيرها. تفقه على البرهان المراغيّ، فقرأ عليه التحصيل في الأصول وحفظه، وسمع من جماعة، وعيّن للقضاء لكن في خلقه زعارة وعنده قوة نفس، وقلة انصاف، وله أخبار في نفوره وزعارتِهِ.

قلت: هكذا نقلوا عنه، وأخبرني بعض الفقهاء المصريين أنه كان يقرر المسألة حتى لا يخلّي لأحد معه كلاماً، فإن جاء أحد يتكلم. قال: إيش تريد تفسّر، ومن زعارته ما حكى لي بعض الفقهاء الفضلاء المصريين بعد أن جرى لي معه قضية، وهي أنه جاءني يطلب مني إعارة نسخة كتاب الحاوي، وكانت عندي عارية للقاضي نجم الدين الطبري، وذكر أنه أذن له في أخذها منّي، فامتنعت من دفعها إليه، فخرج من عندي مغتاظاً، فلقي بعض الفقهاء المكيين، فشكا عليه ذلك، وقال: جئته، فلم يقم لي وامتنع من دفع الكتاب إليّ فهون عليه ذلك، وكنت قد قلت له: لو جاء صاحبه ما أعطيته إياه، وقال له: إنه يدلّ على القاضي يعني له عند القاضي منزلة ومودة، فلما كان بعد ذلك بأيام جاءني وأنا في المسجد الحرام، وعندي جماعة يشرحون على الكتاب المذكور، فقال لي: أحبّ منك أن تعيرني الكتاب أنت، فأنا أعتقد أنك ما تحتاج إليه، فقلت له عند ذلك بعدما أنعمت له به: ما أنت إلا صبرت على جفائي بجلافة خلقي، فتبسّم عند ذلك، وقال ما معناه المدح لي، وبقي ما ذكرت من الخلق المذكور، ثم بعد ذلك شرع يحكي حكاية جرت له مع الشيخ زين الدين المذكور، وقال: جئت مع والدي إليه، فلما قربنا من الباب قال لي والدي: لا تدخل معي بل قف قليلاً، ثم ادخل قال: فلما دخل والدي، فسلم سمعته يقول له البعيد: حمار قال: ثم وقفت قليلاً، ودخلت فقال لي: إيش أنت، فقلت: يا سيّدي جحش ولد ذلك الحمار، فضحك هو، ومن عنده قلت: وبلغني أنه كان يستحضر.

سنة تسع وثلاثين وسبع مائة

هلك في شهر رجب منها ستون نفساً بالزلزلة في طرابلس الشام.

وفي الشهر المذكور قدم الإمام العلاّمة تقي الدين عليّ بن عبد الكافي السبكي متولياً قضاء القضاة في البلاد الشامية، وفرح العالم به لدينه وعفته وعلومه الباهرة، وأوصافه الجميلة.

وفيها توفي الإمام العلاّمة بدمشق، قاضي القُضاة جلال الدين محمّد بن عبد الرحمن

القَزْويني الشافعي[١] عن ثلاث وسبعين سنة، ذو الفنون، جامع المعقول والمنقول ابن قاضي القُضاة سعد الدين ابن قاضي القُضاة إمام الدين. أخذ المعقول عن الشيخ شمس الدين الألجيّ وغيره، وسمع من الفاروثي وطائفة، ثم وليّ خطابة البلد مدة، ثم طلبه السلطان الملك الناصر، وشافهه بقضاء دمشق، ووصله بذهب كثير، فحكم مع الخطابة، ثم طلب سنة سبع وعشرين، فولاه قضاء الممالك، وعظّم شأنه، وبلغ من الرتبة والعزّ ما لم يصل إليه غيره، وكان فصيحاً حلو العبارة يعرف العربيّ والعجميّ والتركيّ، مليح الصورة، موطأ الأكناف، سمحاً جواداً حليماً. جمّ الفضائل، كثير التحمّل. ثم نُقل في سنة ثمان وثلاثين إلى قضاء الشام، فتعلل وحصل له طرف من الفالج، ثم حضره الأجل، وله من التصانيف المفيدة الكتابان المشهوران في علم المعاني والبيان.

وفيها توفي الإمام العلاّمة، الصالح الخاشع، جامع المحاسن العديدة، والسيرة الحميدة الورع المتواضع الخاضع أبو البشر محمد بن محمّد الأنصاريّ الدمشقي، المعروف بابن الصائغ، ولد سنة ست وسبعين وست مائة، وسمع كثيراً من أبيه، وابن شيبان، والفخر عليّ وعدة وحدّث بصحيح البخاري، وحفظ التنبيه، ولازم حلقة الشيخ بُرهان الدين، وولّوه قضاء القُضاة فاستعفى، وصمم على الامتناع، فاحترمه الناس وأحبوه لتواضعه ودينه وتعبده. حجّ غير مرة، وأعطي خطابة بيت المقدس مدة مديدة، ثم تركها.

وكان مقتصداً في لباسه وأموره، كبير القدر حصل في صغره، ودرّس وهو أمرد[٢]، وزار بيت المقدس عند قرب أجله فتعلل، ثم انتقل إلى دمشق، وفيها انتقل إلى الله تعالى، وكان حسن الاعتقاد، بمن سمع به من أهل الخير، كثير الوداد، ولقد بلغني أنه لما وقف على بعض كتبي، وأظنه كتاب الإرشاد، وضعه على عينه حسن ظنّ منه. نفعه الله ونفع به، وكذا عادة أهل الخير في حسن الظنّ ومن ذلك أني لما حكيت للسيّد الجليل الزاهد الواعظ المقرىء الشيخ أبي عبدالله المغربيّ، المعروف بالقصريّ حكاية الشيخ المشهور، المقرىء المشكور محمد بن زاكي التميمي مع بعض المبتدعين لما قرأ عليه، واجتمع له التحقيق، وحسن الصوت قال له أصحابه: ما أحسن هذا لو كان شيخك منّا، فقال: وما على من ذلك أخذت العسيلة، وتركت الظرف، فلما بلغ ابن زاكي ذلك، قال للطلبة: نحبّ أن ترجع إلينا

---

(١) من أحفاد أبي دلف العجلي: قاض من أدباء الفقهاء. أصله من قزوين، ومولده بالموصل ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة (٧٣٨) ثم ولاه القضاء بها فاستمر إلى أن توفي من كتبه «تلخيص المفتاح» و «السور المرجاني من شعر الأرجاني» الأعلام ٦/ ١٩٢.

(٢) أمرد: لم تنبت لحيته، أو أبطأ نبات وجهه.

عسيلتنا، فأنسى ذلك الشخص جميع ما كان يحفظ، وكان قد قرأ السبع، فعرف من أين أتى، واستغفر الله تعالى، وتاب ودخل في مذهب الشيخ ابن الزاكي، وكان شافعياً، وصار يتعلم كما يتعلم المبتدىء إلى أن بلغ خمس روايات، ثم توفي.

وهذه الحكاية مستفيضة في بلاد اليمن، فلما حكيتها للشيخ أبي عبدالله القصري المذكور قال لي: إن كنت قرأت على هذا الشيخ قرأت عليك نقول ذلك من باب حسن الظنّ كما ذكرت، ولمناسبة أهل الخير والصلاح في حُسن الظن ذكرت هذه الحكاية هنا مع كونها دخيلة، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يسألني عن مذهب الإمام الشافعيّ، ويقول: أنا ما أتقيد بمذهب مالك بل آخذ بما رجح فيه الدليل، وكان يسمع بقراءتي سنن أبي داود على شيخنا الإمام رضيّ الدين الطبريّ، فلما فرغتّ قراءة الكتاب، قال: اكتب لي الإجازة، فكتبت وذكرت فيها بعض أوصافه على سبيل المدح، فأخذ القلم، وضرب على ذلك سوى المقرىء الواعظ، فإنه لم يضرب على لفظهما، وقال: صحيح وذلك من شدة ورعه وزهده أعني ضربه على ما نسبت إليه رحمه الله تعالى.

وفيها توفي شيخ بلاد الجزيرة الإمام القدوة شمس الدين محمد المنتسب إلى شيخ الشيوخ، ذي المجد والمفاخر الذي خضعت لقدمه رقاب الأكابر، الشيخ أبي محمد محيي الدين عبد القادر الجيليّ، جدّه الرابع، أعاد الله من بركاته علينا، وعلى المسلمين، وكان شمس الدين المذكور عالماً صالحاً وقوراً وافر الجلالة، روى عن الفخر عليّ بدمشق، وحجّ مرتين.

وفيها توفي صاحب التاريخ الكبير محمد بن إبراهيم ابن الجرزيّ الدمشقيّ[1] عن احدى وثمانين سنة.

وفيها مات بخليص محرماً في ذي الحجة الإمام الحافظ محدّث الشام علم الدين القاسم بن محمّد بن البرزالي الشافعيّ[2]، صاحب التاريخ، والمعجم الكبير عن أربع وسبعين سنة وأشهر.

---

(١) مؤرخ دمشقي المولد والوفاة. كان به صمم. له كتاب «التاريخ المسمى بحوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه».
قال الذهبي: كان حسن الذاكرة، سليم الباطن، صدوقاً في نفسه، لكن لي تاريخه عجائب وغرائب. وله شعر وسط الأعلام ٥/ ٢٩٨.

(٢) البرزالي: محدث مؤرخ أصله من إشبيلية، ومولده بدمشق زار مصر والحجاز وألف كتاباً في (التاريخ) وله «الوفيات» و«الشروط» وكان فاضلاً في علمه وأخلاقه، حلو المحاضرة. تولى مشيخة النورية ودار الحديث بدمشق الأعلام ٥/ ١٨٢ كذلك انظر البداية والنهاية ٩/ ٤٤٠.

قلت: وعليه أمنت الشاميون في الصلاة عليه في خليص بإشارة بعضهم، وكان روى عن خلق كثير، وقرأ وكتب، وتعب وأفاد مع الصدق والتواضع والاتقان، وكثرة المحاسن، ووقف جميع كتبه، وأوصى بثلثه، وحجّ خمس مرّات رحمه الله.

سنة أربعين وسبع مائة

في صفر منها هبّت بجبل طرابلس ريح فيها سموم وعواصف على جبل عكّا وسقط نجم اتصل نوره بالأرض برعد عظيم، وعلقت منه نار في أراضي الجون أحرقت أشجاراً، ويبست أثماراً، وأحرقت منازل، وكان ذلك آية عظيمة ونزلت من السماء نار بقرية الفيحة[1] على قبّة خشب أحرقتها وأحرقت ثلاثة بيوت. كل هذا صحّ واشتهر.

وفيها توفي بمصر الإمام العلاّمة الصالح المشهور، الخاشع المشكور أبو بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز مجد الدين السنكلوميّ[2] من سنكلوم بالسين المهملة، والنون والكاف، واللام والواو، ثم الميم بلدة من أعمال الشرقية، وبعضهم يقول: السنكلونيّ بالنون قبل باء النسبة، الفقيه الشافعيّ، المفيد الورع. قدم القاهرة قريب بلوغه، أو بعد البلوغ، فأخذ الفقه عن الشيخ محيي الدين عبد الرحيم النشائي الفقيه، وكان أكثر اشتغاله واستفادته عليه، ثم اشتغل أيضاً على الإمام العلاّمة عز الدين بن عمر بن أحمد بن المدلجيّ وغيرهما، وأكثر عن عز الدين المذكور، فأخذ عنه الفقه والنحو، وشيئاً من الأصول، وقرأ عليه الكافية لابن مالك في النحو، وقرأ الفصول لابن معطي على أبي البقاء خطيب القدس، وأخذ أصول الفقه، وشيئاً من علم البيان عن الشيخ علم الدين العراقيّ، وصنّف عدة كتب في الفقه منها انتخابه لكافية النبيه، وشرح التنبيه للإمام نجم الدين بن الرفعة ست مجلدات، وسماه «تحفة النبيه في شرح التنبيه»[3] في أربع مجلدات.

قلت وهذا الكتاب المذكور منتفع به مشكور متداول بين أهل العلم مشهور.

ومنها اللمح العارضة فيما وقع بين الرافعي والنوويّ من المعارضة[4] في مجلد واحد.

ومنها شرح منهاج النوويّ في الفقه، ومنها شرح مختصر التبريزي في الفقه أيضاً، وابتدأ في شرح التعجيز مختصر الوجيز لابن يونس، وسماه الواضح الوجيز في شرح مختصر الوجيز، وبلغ نحواً من النصف، وسمع الحديث عن جماعة منهم الحافظ الدمياطيّ،

---

(١) الفَيْحَة: من ديار مُزينة معجم البلدان ٤/ ٣٢٠.
(٢) انظر الأعلام ٢/ ٦٢.
(٣) سماه «تحفة النبيه بشرح التنبيه» خمس مجلدات ٢/ ٦٢.
(٤) منها «اللمع العارضة فيما وقع بين الرافعي والنووي من المعارضة» ٢/ ٦٢.

وحدّث بالقاهرة، ووليّ مشيخة الرباط الركني، ثم الخانقاه، ثم التدريس بالقبة من الخانقاه، والاعادة في الفاضلية والقطبية والظاهرية وغيرها من المدارس، وكان كريم النفس، حسن الأخلاق، كثير التواضع، طارحاً للتكلف يحمل عيش عياله بنفسه إلى الفرن، كثير الاشتغال للطلبة، متصدياً لاشتغالهم وافادتهم في أكثر أوقاته قلت: وبلغني أنّ له بعض كرامات، وذكر أنّ عمره ينيف على الستين رحمه الله تعالى.

وفيها توفيت مسندة الشام أمّ محمد زينب بنت الكمال أحمد بن عبد الرحيم المقدسيّة[1] المرأة الصالحة العذراء، عن أربع وتسعين سنة، روت عن جماعة سماعاً واجازة، وتكاثروا عليها، وتفردت وروت كتباً كباراً.

قلت: وإلى هاهنا انتهى تاريخ الذهبي، وكذلك انتهى في نيف وستين وست مائة تاريخ ابن خلكان، ومنهما انتقيت تاريخي هذا وها أنا أذكر بعض من توفي من الأعيان في عشر سنين أخرىَ التقطتهم مما ذكره بعض المتأخرين.

سنة احدى وأربعين وسبع مائة

وفيها توفي الإمام العلاّمة الأوحد شمس الدين أحمد بن يحيى بن محمّد القرشيّ البكريّ السهروردي الشافعي الكاتب، سمع الحديث، وأخذ الاجازة من جماعة، وشارك في طرف من العلوم، وبرع في اللغة والأدب، وفاق في صناعة الخطّ، وحسن الكتابة، وتقدم في صناعة الموسيقى، وصار شيخ الكتّاب، ورئيس أهل الآداب، حسن الأخلاق، جميل الأعراق، كثير الحياء والإطراق، سديد المقال، مليح الفعال، كريم الطباع، كثير الإطلاع، معمور الأوقات في الاشتغال والأشغال، صاحب رأي وفصاحة، وشرف نفس وبلاغة.

سنة اثنتين وأربعين وسبع مائة

فيها توفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن منصور الدمياطي المعروف بابن الحبّاس الصوفي الأديب الشاعر، ومن شعره:

زاد وجدي فلست أملك صبراً … أعظم الله لي في الصبر أجرا
راسل الوجد مهجتي فدموعي … أرسلت رسلها على الخدّ تترى
صنتُ سرّ الهوى، فنم بي الدمع … فلولا الدموع لم أبدِ سرّا

---

(١) شيخة عالمة بالحديث: قال ابن حجر. روت الكثير وتزاحم عليها الطلبة، وقرأوا عليها الكتب الكبار وقال الذهبي: تفردت بقدر وفر بعير من الأجزاء بالإجازة وقد أصيب عينها برمد في صغرها ولم تتزوج. وهي آخر من روى في الدنيا عن سبط السلفي وجماعة بالإجارة الأعلام ٣/ ٦٥.

يـا عـذولـي دعْ المـلام فـإنـي أرى مـوتـي علـى الصبـابـة أحـرى
لا تلمنـي علـى الغـرام، ولكـن خـذ مـن الـوجـد والصبـابـة حـذرا

مع أبيات أخرى منها قوله:

يـا عـزيـز الجمـال رفقـاً بقلـبٍ إنّ فيـه ليـوسـف الحسـن مصـرا

سنة ثلاث وأربعين وسبع مائة

فيها توفي الإمام العلاّمة قاضي القُضاة عبدالله بن محمّد العبيدلي الفرغاني الحنفيّ[١] البارع العلاّمة المناظر. يضرب بذكائه ومناظراته المثل. كان إماماً بارعاً متفنناً خرج به الأصحاب بعرف المذهبين الحنفيّ والشافعيّ أقرأهما، وصنّف فيهما.

وأما الأصول والمعقول، فتفرّد فيهما بالإمامة، وله تصانيف منها شرح الغاية في الفقه في مذهب الشافعيّ، وشرح الطوالع[٢] وشرح المصباح، وشرح المنهاج للبيضاويّ وغير ذلك من التصانيف، والأمالي، والتعاليق، وولي تبيز وأعمالها إلى أن توفي، وكان الأستاذين في وقته.

سنة أربع وأربعين وسبع مائة

فيها توفي الإمام العلاّمة تقي الدين أبو الفتح محمّد بن عبد اللطيف الأنصاري الشافعي السبكي المصري. نزيل دمشق برع في الفقه والأصلين، وصار علامة زمانه، ورئيس أقرانه مع حسن أخلاق، وكثرة تواضع، وديانة حسنة، وسمع بمصر والشام كثيراً، وله شعر رائق، ونثر فائق، وكتابة جيدة، وذهن ثاقب، وقريحة حسنة، وحُسن قراءة الحديث، ودرّس وأفتى وصنّف.

سنة خمس وأربعين وسبع مائة

فيها توفي الإمام العلاّمة المفتي الشافعي القاضي شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن النقيب[٣]، بقية الشافعية بالديار الشامية، وليّ القضاء بمدينة حلب وغيرها،

---

(١) لقب بالعبري: عالم بالحكمة وفقه الشافعية. توفي بتبريز. ولعل الأرجح في اسمه «عبيدالله» أما العبري فضبطها ابن قاضي شهبة بكسر العين، وقال: ولا أدري نسبته إلى أي شيء وضبطها السيوطي بالضم وقال نسبته إلى عبرة من بطون الأزد، وهو في خزانة التيمورية مضبوط بالشكل بفتح العين والباء الأعلام ٤/١٢٦.

(٢) شرح المطالع الأعلام ٤/١٢٦.

(٣) ولد سنة (٦٦١ هـ) من قضاة الشافعية. دمشقي. ولي الحكم بحمص وطرابلس ثم بحلب. ودرّس=

ودرّس بالشامية البرانية، وانتفع به المسلمون وأسند وعمر.

سنة ست وأربعين وسبع مائة

فيها توفي العلاّمة الهمام أحد أئمة الأعلام، المقتدي بهم شيوخ الإسلام، المفيدين للطلبة، المفتين للأنام، البارعين في المعقول والمنقول، الجامعين لفنون العلم، الكثير المحصول فخر الدين أبو المكارم أحمد بن حسن[١] نزيل تبريز الفقيه الشافعيّ، صاحب المصنفات البديعة، والمؤلفات المفيدة.

منها الحواشي على الكشاف في عشر مجلدات، وشرح المنهاج للبيضاوي في أصول فقه الشافعية، وشرح البزدويّ وشرح الهداية للحنفية، وشرح التصريف لابن الحاجب.

سنة سبع وأربعين وسبع مائة

فيها توفي الفقيه القدوة المدرّس المفتي، شرف الدين أبو عبدالله محمّد ابن الصاحب، الفقيه الزاهد زين الدين أحمد ابن الصاحب، الفقيه فخر الدين بن الصاحب الكبير الشهير الوزير ذي المحاسن المشكورة، والمكارم المشهورة، بهاء الدين عليّ ابن محمّد المعروف بابن حنّا. توفي شرف الدين المذكور ليلة الجمعة ثامن شهر رمضان من السنة المذكورة، وكان مع فضله في العلم صاحب محاسن. متواضعاً حسن الاعتقاد في أهل الخير، حريصاً على لقاء الصالحين ومجالستهم، وقد قدمت في ترجمة الشيخ محمد المرشديّ سنة سبع وثلاثين اجتماعه هو وأولاده بي في زاويته، وما صدر منه من حسن الاعتقاد والتواضع والوداد، وكتابتهم عني قصيدتي الموسومة «بالحلاب الحالي في مدح الحاوي» والتماسهم منّي الإقامة عندهم، واقراء الكتاب المذكور لهم، وأن أكتب خطّي في بعض الفتاوى، فأجبت لفظاً، واعتذرت عن الخطّ والإقامة، وما عاينت من الشيخ محمّد في ذلك من الكرامة.

سنة ثمان وأربعين وسبع مائة

فيها توفي السيدان الجليلان الإمامان الحفيلان، بركتا الزمن، وزينا اليمن أحدهما شيخنا وسيدنا وبركتنا الشيخ الفقيه الإمام مفتي المسلمين، رفيع المقام، العالم العامل، الورع الزاهد، العابد ذو المحاسن والمحامد والمواهب الجزيلة، والمنزلة الجليلة، والأوصاف الجميلة، والدرجة الرفيعة العلية، والشمائل الحسنة الرضية. المدرّس المفيد ذو

= وتوفي بدمشق وله «عمدة السالك وعدة الناسك» و «مقدمة في التفسير» الأعلام ٦/ ٥٥.

(١) أحمد بن الحسن بن يوسف، فخرالدين الجاربردي الأعلام ١/ ١١١.

الفضل العديد، والكرامات الكثيرة، والمناقب الشهيرة جمال الدين أبو عبدالله محمّد بن أحمد الذُهيبيّ بضم الذال المعجمة والموحدة بين المثناتين من تحت مجموع المحاسن المفضال المشهور بالبّصال. صحب الشيخ الكبير الولي الشهير، صاحب السيرة الحميدة، والكرامات العديدة. مطلع الأنوار، منبع الأسرار الشيخ عمر المعروف بابن الصفّار في مدينة عدن. وانتفع به، وحصل له نصيب وافر، وسكن في قلبه مُذ صحبه، وأقرأ، وهذا الشيخ عمر المذكور رأيته في حياته، ودعا لي بعد وفاته في المنام بعد أن سألته، وقلت له: يا سيدي أما متّ أنت؟ فقال: العجب أن يُقال أني متّ.

قلت: وهذا يؤيد ما ذكره بعض مشائخ الصوفية في قوله: الصوفي لا يموت، ثم دعا إلى الشيخ عمر المذكور المشكور في المنام المذكور بعد أن مسح على صدري، وقال: أصلحك الله صلاحاً لا فساد له نسأل الله الكريم أن يحقق ذلك.

وقد قدمت في ترجمة الشيخ محيي الدين النواويّ أنه دعا لي في المنام أيضاً، فقال: وفقك الله، وزادك فضلاً، وثبتك بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة. اللهم اقبل ذلك لي، ولسائر أحبائي، والمحبين آمين.

وجالس ذا الأنفاس الصادقة، والكرامات الخارقة، والمواهب السنية، والمقامات العلية شيخنا المشكور الوليّ المشهور مسعود الجاوي أحد كبار أصحاب الشيخ الفقيه، ذي المناقب الشهيرة، والكرامات الكبيرة، صاحب موزع المتقدم ذكره في ترجمة الفقيه الإمام ذي الكرامات العظام العليّ المقام محمد بن إسماعيل الحضرمي.

وانتفع الشيخ مسعود المذكور وهو والشيخ عمر بن الصفّار بابن الخطيب المذكور انتفاعاً عظيماً، ونالا منه منالاً كريماً، والشيخ مسعود هو أول من ألبسني الخرقة. جاءني .وأنا منعزل في مكان، وقال لي: وقع الليلة إشارة أني ألبسك الخرقة وألبسنيها، وكان يجتمع هو وشيخنا جمال الدين المذكور، ونحن وجماعة من أصحابهما معهما في أوقات مباركات في عدن، وفي ساحل البحر في بعض الساعات أعني ساحل ضُراس بضم الضاد المعجمة، وفي آخره سين مهملة، وقبل الألف راء الذي خلف ساحل حقات، وحُقات بضم الحاء المهملة وتشد يد القاف، وفي آخره مثناة من فوق.

وتفقه شيخنا جمال الدين المذكور بالفقيه الفاضل، ذي المحاسن، والفضائل، والتصوف، والصلاح، والأوصاف الجميلات الملاح، شيخنا في الفرائض ذي الذوق والوجدان، عبد الرحمن، المعروف بابن سفيان، من ذريّة الشيخ الكبير، العارف بالله الشهير، ذي المقامات العالية، والكرامات الغالية، والمناقب الجميلة، والمواهب الجزيلة،

الفقيه سفيان الحضرميّ اليمنيّ قرأ شيخنا جمال الدين المذكور على ابن سفيان المذكور كتاب التنبيه، وحقق وبحث ودقق، ثم جمع شيخنا جمال الدين المذكور كتاباً ينتفع به الفقيه بعضه.. يتعلق بشرح النبيه، ذا فوائد عديدة، ونكت مفيدة، رأيته يطالعهُ وقت ما كنت إليه أتردد ولا يظهره في ذلك الوقت لأحد، وفاق في معرفته شيخه وغيره من الفقهاء النجباء، والفُضلاء الأدباء، ودرّس وكل من طلبته به انتفع، وعُرض عليه قضاء عدن، فامتنع، وكان له صوت في قراءة القرآن يهيج من الخليين الأشجان، وألفاظ تعجب من وعاها، وتطرب من رآها، وعبارة تُلين القلب القاسي، وخلوات ترغب في مجالسته الناسي، وزهد يسلي من الدنيا كل حريص، ويغلي به في الآخرة كل رخيص، قرأت عليه القرآن الكريم، وصلّيت به في رمضان إماماً خمس سنين، وقرأت عليه كتاب التنبيه فأولم عند ذلك وليمة كبيرة، وذبح كبشين، وأطعم جماعة كثيرة، وهو أول من انتفعت به، ورأيت بركته من الشيوخ الذين صحبتهم قدّس الله أرواحهم، ونوّر ضريحهم، ورضي عنهم.

والثاني من للشيخين المذكورين شيخنا، وقدوتنا، وسيدنا، وبركتنا الشيخ الكبير، العارف بالله الخبير، خزانة الأسرار، ومطلع الأنوار، الفقيه الناسك، المجذوب السالك، ذو السيرة الجميلة، والمناقب الجليلة، والمحاسن الغالية والمقامات العالية، والأحوال الباهرة، والمكاشفات الظاهرة، والكرامات الخارقة، والأنفاس الصادقة، والمعارف والعلوم اللدنيات، والآداب والأخلاق الرضيات، والتربية في سلوك الطريقة، والجمع بين الشريعة والحقيقة، ذو التخصيص والتمكين، أبو الحسن نور الدين، عليّ بن عبدالله اليمنيّ الطواشي، نسباً، الشافعي الصوفي مذهباً، قدّس الله روحه ونوّر ضريحه اشتغل رضي الله تعالى عنه بفنون من العلوم حتى في علم الطب، وأكثر اشتغاله بالفقه، وكان الغالب عليه التنسّك، وحبّ الخلوات والانعزال عن المخالطات، وكان يسافر مع أبيه وأخوته، فإذا دخلوا السوق للتجارات، دخل المسجد للعبادات، ملازماً للتلاوة والإذكار وزيارة الأولياء الأخيار، حتى حصل له من بعضهم تعليم الاسم الأعظم، الذي من عرفه يقرب ويكرم، وحصل له مع السلوكِ جذبة من جذبات الحق، وهيبة جلالية حتى هابته الملوك ذو أحوال عظيمة، وظهور كرامات كريمة، وأفاض عليه الحق من فيض فضله، وملأ قلبه من أنوار. قدسه، وهذّبه، وزكّاه، وطهّره من صفات نفسه، وملأ قلبه وقالبه من أنوار قدسه، وهذّبه وزكّاه وقرّبه وأدناه، وبالحياة الطيبة أحياه، وكشف له حجاب الجمال والجلال، وأطلعه على مكنون المعارف والأسرار، وغير ذلك مما لا يعرفه الأعارف بالله مجذوب سالك هو بمكان من المقام العالي، والحال الخطير، والناس يبصرونه ضعيف الجسم متواضعاً في زيّ فقير، ويحسبونه من جملة الفقراء المشاركين، ولا يدرون ما عنده من جليل الولاية، وعلوّ المنزلة والتمكين، وفي هذا قلت:

يـرون جسمـاً بـراه الحـبّ بـالتلـف وليـس يـدرون درّاً داخـل الصـدف
حـاكـى شيـوخـاً أجـلا سـادة سلفـوا أكـرم بمـن فـي المعـالـي لاحـقّ السلـف

كنت أعهده رضي الله تعالى عنه منذ سنين عديدة يأتي للحجّ والزيارة متحلياً بحلية حميدة، وكثيراً ما يأتي لذلك، ويسافر وفلاح الصلاح عليه قد لاح وهو ظاهر، وربما أتاني في بعض الأوقات تفضلاً منه في مكة شرّفها الله تعالى يقال: عندما يأتي للحج، وهو حينئذٍ من الصالحين، ثم جاءه بعد ذلك نصيبٌ وافرٌ مما أشار إليه الحق سبحانه بقوله تعالى ﴿أتيناهُ رحمةً مِنْ عِندَنا وعلمناه من لدنا علماً﴾ [الكهف: ٦٥] وبقوله عز وجل: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [الحديد:٢١] وبقوله تعالى ﴿يجتبي إليه من يشاء﴾ [الشورى :١٣] وغير ذلك، ثم لزم منزله، وصار لا يحدث شيئاً من الحركات إلاّ بأمر وإشارات كل هذا، وما عندي علم حتى سافرت إلى اليمن السفرة الأولى، فتلقاني إلى الساحل في جمع كثير من فقرائه وجيرانه، وإذا الرجل غير الرجل، والوصف غير الوصل ظاهره قد كسي بملابس الأنوار، وباطنه خزانة المعارف والأسرار، يفوح فيه طيب الوصف بالغدو والآصال. ويصدق فيه قول الذي قال:

إلا إنّ وادي الجـزع أضحـى تـرابـه مـن المـسّ كـافـوراً وأعـواده رَنـدا
ومـا ذاك إلاّ أنّ هنـداً عشيـة تمشـت وجـرت فـي وجـوانبـه بـردا

وفي انتقاله من حالة البُعد والعنا إلى حالة القرب والهنا قلت:

عهـدتكـم قـدمـاً علـى غيـر حـالـة بهـا اليـوم أنتـم سـادة وملـوك
أتـاكـم مـن الـرحمـن جـذب عنـايـة فهـان عليكـم للـوصـول سلـوك

وفي مشيه إلى عندي قلت مستعير البيت الثاني:

لقـد حـقّ لـي يـا هنـد أنشـد فـي الهـوى ولاق بحـالـي حيـن جـاء سيـدي عنـدي
خليلـيّ هـل أبصـرتمـا أو سمعتمـا بـأكـرم مـن مـولـى تمشّـى إلـى عبـدِ

ثم سافرت السفرة الأخيرة، فرأيت ما أدهش عقلي، وحيّر فكري من الأحوال والمعارف والأسرار والمكاشفات، والأنوار والكرامات، وغير ذلك مما شاهدته منه في حال خلوته في أوقات كثيرة عند ورود أحوال عظيمة تجري على لسانه فيها من عجائب الغيوب ما يحيي القلوب، وفي ذلك قلت على جهة النيابة على لسان حاله:

ومـا قلـت قـولاً غيـر أنـي أعـرتهـا لسـانـي فـأومـت للهـوى يتكلـم
فـأسـرارهـا منهـا علمـت، وعنـدمـا سكـرت جليسـي سـرّهـا منـه يعلـم

أعني يعلم الجليس السرّ المودع في القول الجاري على لسان الغائب بواسطة الهوى المشار إليه بالكلام، فالضمير في منه يعود إلى الهوى، والمعنى أنّ الله تعالى يجري على لسانه كلاماً في حال غيبته بما يريده الله تعالى يسمعه الجليس ليس باختيار من الشخص المذكور.

ومن ذلك قول أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه لما سُئل أن يملي كلامه: لو كنت أجريه كنت أمليه، وأما في حال الصحو، فهو في نهاية المحو ينكر ذلك، ولا يظهر منه شيئاً أصلاً لا قولاً ولا فعلاً ولا علماً ولا حالاً. متحقّق بقول القائل:

ومستخبر عن سرّ ليلى رددته ... فأصبح في ليلى بغير يقينِ
يقولون أخبرنا فأنت أمينها ... وما أنا إن أخبرتهم بأمينِ

اللهم ألا مجالس تكلم معي فيها في حال الصحو، فكشف الخمار عن وجه كثير من مليحات المعارف والأسرار، ولكن نادر، وأطال البسط معي في ثلاثة مجالس. المجلس الأول مجلس إيناس وتأليف، والمجلس الثاني مجلس تأديب وتخويف، والمجلس الثالث مجلس تبشير وتعريف على ما سبق به القضاء من التقدير والتصريف، وهذا الملجس الثالث هو الذي أشرت إليه في القصيدة بقولي:

ولا سيما يوماً أغرّ مباركاً ... به اليمن والبشرى بتبليغ منيتي

ولعل أكثر الناس أو كثيراً منهم له معه مجالسة كثيرة، ولا يظهر لهم منه صغيرة ولا كبيرة، ويعرض عليه أشياء كثيرة قبل أوقاتها. من ذلك قولي في قصيدة مدحته بها:

وطفت ببيت الربّ قلب مطهّر ... من الرجس من كل الصفات الدنية

ومفتتح القصيدة المذكورة قولي:

تخلفت يوم البين عنهم بجثتي ... وراحوا بقلبي يوم بانوا أحبتي
وناديت والركب اليماني راحلٌ ... وعندي مقيم في الحشا حر لوعتي
خليلي سيرا بلّغا لي تحيتي ... إلى عند سكان الربوع البهية
إذا جئتما حلي ابن يعقوب بمنا ... قليلاً إلى حيث السعادات حلّت
وبثّا غرامي في الربوع وقبّلا ... رباها وصبا دمعة بعد دمعة

ومنها عند ذكر شيخنا المذكور:

له أسفرت بيض الغُلى عن محاسن ... وقالت له: بشراك بشرى برويتي
فمديت طرفي كي أراها فأسبلت ... خمار الهادوني، فمت بحسرتي

فإن أسعدت يوماً برفع خمارها على الوجه أحيتني بأول نظرةِ
سقى الله أياماً خلوت بسيد بها هل تراها سامحات بعودةِ
فكنا بها في طيب جمع بها الهنا وعيش صفا من قبل تكدير فرقةِ
ولا سيما يوماً أغرّ مباركاً به اليمن والبُشرى بتبليغ منيتي
فشاهدت من أحواله وعلومه وأنواره ما تحته كل تحفةِ
وألبسني عن أمر مولاه خرقة كسيت بها فخراً لأمر بيقظةِ
مولى من الموالي أجل ولاية يسل عليها سيف سطوة عزةِ
به كل جبّار من الخلق خاضع إلى عزة يأتي مطيعاً بذلةِ
له في معالي المجد منزل سؤدد به طربت بيض المعالي وغنتِ

مع أبيات أخرى في بعضها استعارات، يطرق إليها انكار من بعض من لا يفهم معاني الاستعارات والمجاز والاشارات، والعجب أنّ المنكرين هم من أهل السنة مع استحسان إمام الزيدية العلاّمة الفاضل يحيى بن حمزة للقصيدة المذكورة، فيما أخبرني به بعض حملة كتاب الله من المخبرين المباركين. قال: رأيته في حراز من بلاد اليمن، وقد أتي غازياً الإسماعيلية في جيش كثير قال: فلما علم أني قاصد الحجّ قال: لعلك تأتيني، أو قال: عسى أن تأتيني بشيء من كلام فلان، فقد وقفت له على قصيدتين أعجبتاني إحداهما في مدح شيخه قلت: والعجب كل العجب ممن ينكر ما تضمنته من ذكر الاستعارات، وعلوّ المقامات مما يستحسنه المخالفون المنكرون للمقامات، فنسأل الله الكريم الوهاب القادر أن يعافينا من عمي البصائر قد وعدني شيخنا المذكور بالجائزة للقصيدة المذكورة، وقال: هي تأتيك، ولو بعد حين، فلا تيئس منها، وإن طال الزمان، ونزل من مقامه العالي في التواضع وغيره، وأنزلني منزلة ليست لي بمكان، وفي ذلك قلت:

وأهلني المولى لما لست أهله وأنزلني منه الندا فوق منزلي
وأنزلته في مدحتي دون منزل له في العُلى في كل ناد ومحفل

قلت: ومن تواضعه المذكور أني رجعت ذات يوم من صلاة الجمعة في حلى، فوافيته خارج القرية يريد الرجوع إلى منزله، وقد أتى بمركوب يركب عليه لحدوث ضعف فيه مع ضعف مزاجه، وضعفه برياضته وعلاجه، فلما رآني قال: اركب فامتنعت من ذلك، فألح عليّ حتى ركبت، وصار هو يمشي بعدي.

ومن ذلك أيضاً أنه حصل لي تأديب في وقت هو فيه غائب لحال ورد عليه، فلما أفاق قال لي: قد يؤدب الفاضل على يد المفضول. يعني أنه حصل لموسى عليه السلام أدب على يد الخضر عليه السلام.

وله من المحاسن والسيرة الرضية، والكرامات والمناقب العلية، والتواضع والآداب. ما يضيق عن ذكره كتاب، فالله تعالى يزيده من فضله، ويجزل له الأجر والثواب، وينفعنا والمسلمين به وبالصالحين آمين.

وقد ذكرت في بعض كتبي شيئاً من كراماته المشتملة على بشاراته لي بما أرجو حصوله من فضل الله الكريم، وها أنا أذكر هنا بعض ذلك.

ذكر شيء من كرامات شيخنا نور الدين قدس الله روحه على وجه الاختصار.

فمنها ما أخبرني بعض أصحابه وأولاده، واستفاض في جهته وبلاده أنه قال لأمراء زمانه الطاغين في مكانه: إن لم تنتهوا عن كذا وكذا من المظالم والمعاصي جاءتكم النار، فقيل له في ذلك الحال: متى تجيء النار؟ قال: ليلة الجمعة، فلما كان سحر ليلة الجمعة طلع مؤذن الجامع المنارة ليذكر، فرأى ناراً مقبلةً في الجو مثل المنارة تدنو منهم قليلاً قليلاً، فصاح ألا جاءكم ما أوعدكم به الشيخ عليّ، فخرج الأميران في ذلك الوقت قاصدين الشيخ، وكان خارج البلد نازلاً في بيت وحده، وأظهر له التوبة، وبكيا وتضرّعا ومرغا خدودهما على الرماد بين يديه، وإذا بالنار قد انقسمت نصفين، فذهب أحدهما في جهة، والنصف الآخر في جهة راجعين عن البلد، والحمد لله الرحمن الجواد.

ومنها ما سمعته أيضاً غير مرة من غير واحد من تلامذته، واشتهر شهرة عظيمة في بلدته أنّ إنساناً يُقال له: ثابت من بعض البلدان البعيدة ممن أعرفه، وأقام عندنا بمكة أشهراً عديدة، ثم سافر إلى بلاد حلي ابن يعقوب يحبسه العوام من الصالحين المنال. عندهم المطلوب، فأقام زماناً طويلاً في القرية، فلما كان يوم الجمعة من جميع ذلك الزمان جاء شيخنا المذكور إلى الجامع ليصلي الجمعة، وإذا بثابت المذكور جالس في طريقه، فلما مرّ عليه الشيخ أطلق ثابت لسانه فيه وسبه، وهمّ بعض من هو مع الشيخ بالبطش فيه، فقال الشيخ: دعوه معه ما يكفيه، فاشتغل في الحال ناراً فأخذ من حضر ماء، فجعلوا يصبونه على تلك النار لكي تنطفىء، فأحرقت ما شاء الله من جسمه ولحيته، والحمدلله على نعمهِ واكرامه لأهل طاعته.

ومنها ما أخبرني بعض الصالحين ممن أعرفه وأعتقده، أن بعض ذرية الفقيه الكبير الوليّ الشهير، السيد الجليل، أحمد بن موسى بن عجيل ـ قدس الله روحه ـ أتى بقافلة اليمن، فلما وصل بلاد الشيخ أرسل بعض الفقهاء من أصحابه إلى الشيخ يسأله عن الأصلح في سفر البر أو البحر خوفاً من العربان القطّاع أولي الفساد والأطماع، فلما أتاه الرسول وجد الشيخ مقبوضاً، فلما لم ير عنده شيئاً من البسط والإيناس. قال في نفسه: ليت الفقيه فلاناً

استشار فلاناً رجلاً صالحاً في القافلة سمّاه. خطر له ذلك قبل أن يبلغ الرسالة، ولا ذكرها بعد ذلك، فلما خطر له هذا الخاطر قال له الشيخ في الوقت الحاضر: قُل للفقيه إن شاء مسافر براً أو بحراً، فما عليهم إلاّ السلامة، واعلم أنّ المشهورين في بركة المستورين.

ومنها ما أخبرني بعض شيوخ اليمن المشهورين بالصلاح، والاتصاف بالأوصاف الملاح، في شهر رمضان المبارك في الحرم الشريف، وهو متوجه للإحرام بالعمرة. أنه رأى شيخاً المذكور بعد صلاة الصبح منصرفاً من حول الكعبة إلى جهة بلاده، وأنه مرّ عليه، وتبسّم في وجهه، وأشار مع السلام باصبعه إليه، وذكر أنه كان يتعبّد معه في بعض السواحل في أيام البداية، وأنه كان يأتي إلى شيخنا كل ليلة ثلاثة أنفس أحدهم الخضر فيتحدثون معه ما شاء الله تعالى من الليل، وأنه كان يتنحى عنهم في ذلك الاجتماع، ويقول لشيخنا: ما جاؤوا إلاّ إليك اللهم انفعنا بعبادك الصالحين بحرمتهم عليك.

ومنها ما أخبرني بعض الفقهاء المتقنين المباركين المتنسكين أنه أذن له شيخنا المذكور في الخلوة، فدخل فيها، وكان في بعض الأوقات يتصوّر له بعض الشياطين يوسوس عليه يراه بعينه ظاهراً، فشكا ذلك إلى الشيخ، فقال له: إذا رأيت شيئاً من ذلك نادِ باسمي، قال: فلما كان ذات ليلة تصور لي الشيطان، فقلت: يا سيّدي الشيخ عليّ فما تم مقالتي إلاّ والشيخ واقف بباب الخلوة مع بُعد منزله عن ذلك المكان، فسبحان الكريم المنّان الذي طوى لهم المكان والزمان، وأطلعهم على ما شاء من الغيب حتى شاهدوه بالعيان.

ومنها أنا لما بلغنا في سفر البحر إلى مرسى حلي قال لي أصحابي: تنزل إلى الساحل. قلت: لا، فنزلوا وبقيت في المركب وحدي، ونويت أني إذا بلغت اليمن لزيارة جماعة من الصالحين، ورجعت زرت الشيخ نورالدين المذكور في حلي، فلما كان ضحوة اليوم الثاني من نزول أصحابي حدث عندي داعٍ إلى النزول إلى الساحل، وإذا بزورق، وهو المعروف بالسنبوق في اصطلاح بعض الناس فيه بعض البحارين جاء إلى بعض المراكب المرساة لقضاء حاجة، فأشرت إليه أن يدنو منيّ، فأتاني، فركبت معه في الزورق إلى الساحل، فلما صرت في البر تمشيت فيه قليلاً، وإذا بالشيخ عليّ المذكور مقبلاً إليّ في جمع كثير ركبان ورجالة من أصحابه وجيرانه، فسلّم عليّ، وألبسني الخرقة، فعلمت أنّ الداعي الذي أزعجني إلى النزول في ذلك الوقت بعد أن لم يكن لي فيه نية إنما هو بخاطر الشيخ إذ كان الاجتماع الذي وقع بيننا مقدوراً له النزول سبب، والحمد لله على ذلك السبب الذي قدر لي به أني أصحب، وعلى جميع ما أنعم ووهب.

ومنها أني خرجت في بعض الأيام إلى خارج البلد، واخترت موضعاً بعيداً عن الناس، فخلوت فيه تحت شجرة خفية بين أشجار البرية بحيث لا يهتدي مكاني أحد، فما شعرت إلاّ

والشيخ معي، فجلس معي قليلاً، فسررت بذلك سروراً كثيراً، وحسبت أنه يطيل الجلوس عندي فأتملأ به، واسأله عن كل ما أريد، فورد عليه حال، فقام بعد أن ظهر فيه مبادي السُّكر، فحصل في باطني عند ذلك تألم واحتراق لعدم حصول ما أملت، فقلت له: عند ذلك ما كان لي بمجيئك حاجة، فقال: ولم قلت؟ لأني فرحت بمجيئك، ثم تألمت بقيامك، فأتى إليّ ووضع اصبعه على قلبي، وقال: هذا موضع الألم، فسكن ذلك الألم، وبردت تلك الحرقة كما تبرد النار إذا صُبّ عليها الماء، وازددت عند ذلك في اعتقاد فضله علماً، والحمد لله على المعرفة لهم والصحبة، وعلى ما خلق بيننا وبينهم من المحبة.

ومن هذا الإسكار الذي يفارق به الأغيار، ولا يرضى فيه إلا بمجالسة الملك لقهار أني مررت بجنبه في بعض الأحيان، وهو جالس على بعض الكثبان، فناداني إليه، فجلست معه قليلاً، وهو منشرح منبسط معي، ثم ورد عليه وارد أخرجه عن ذلك الحال إلى حال آخر ظهر عليه في مبادي السكر، فقبض نفسه فيه، وتنمر ونظر إليّ نظرة النشاوي في سكرهم، وقال: من جالس الملوك لم يرض مجالسة غيرهم، فقمت عنه هارباً، ورجعت في طريقي التي كنت فيها ذاهباً، وكان هذا ضحوة النهار، ثم رجعت من وجهي الذي توجهت فيه بعد العصر، فإذا به قد تغير عن ذلك الأسلوب، ورجع إلى أسلوب الانبساط المحبوب، وقد أتى بمركوب يركبه فأقسم عليّ أن أركب ذلك المركوب، فركبته، ومشى هو مع جلالته وضعفه، وتباين ما بين طرفي نهاره في هيبته ولطفهِ متحقّقاً بقول قائلهم:

إذا كنّـــا بـــه تهنـــا دلالاً ... علـى كـل المـوالـي والعبيـد
ولكنـــا إذا عُـــدنـــا إلينـــا ... يعطـــل دلنـــا ذلّ اليهـــود

ومنها أني حكيت له مرّة أني قصدت في أيام الحجّ رجلاً من الصالحين في منىً، فطلبته في منزله، فلم أجده، فطلعت بعض جبال منىً، وانعزلت بعيداً من الناس تحت بعض الأحجار، فبينا أنا كذلك، وإذا بذلك الرجل الصالح الذي كنت أطلبه معي، فوقف عندي ما شاء الله، فلما حكيت لشيخنا المذكور هذه الحكاية تعجبياً له بذلك في ظني قال لي: عسى كان اجتماعكم في المكان الفلاني، وأشار إلى ذلك المكان بعينه مع عدم تميزه عن غيره تميزاً يُهتدى به إليه، فلما سمعت منه ذلك تعجبت، وقلت له: الفرسان يمرون علينا، ولا يسلمون، فقال: يسلمون بالقلوب، ثم جمعت بينه وبين الصالح المذكور، وهو الوليّ الحبيب خالد بن صالح بن شبيب في المسجد الحرام ليلاً، فحصل للشيخ خالد بذلك سرور، فلما افترقا قال لي الشيخ عليّ: هذا من غزة، ولم يكن لهما قبل ذلك اجتماع بل بمعرفة القلوب والكشف والاطلاع رضي الله تعالىٰ عنهم، ونفعنا بهم.

ومنها أنه خطر لي في وقت خلوة، ونحن في خلوة من أفضل هو أو شخص آخر،

فقال لي: عند خطور هذا الخاطر، ما الفرق بين الرسول والنبيّ؟ فأردت أن أذكر ما بينهما من الفرق بحسب ما يخطر لي من العبارة، فسبقني وعبّر في الفرق بينهما بعبارة حسنة مشتملة على ألفاظ وجيزة جامعة، ومعانٍ حسنة، حاصلها أنّ الرسول هو الذي يوحى إليه، ويُرسل إلى الخلق، ويؤيد بالمعجزات التي تدل على الحق، والنبيّ غير متصف بهذه الصفات، وكذلك الأولياء منهم من يُؤمر بارشاد المُريدين، ويؤيد بالكرامات والبراهين. ومنهم من له فضل في نفسه، وليس له شيء من هذه المذكورات، ففهمت من ذلك أنّ الفرق بينه وبين ذلك الشخص نسبته نسبة الفرق بين الرسول والنبي على حسب ما بين النبوة والولاية من التفاوت، فهو في أعلى درجات الولاية كما أنّ الرسول في أعلى درجات النبوة، وذلك الشخص في أسفل درجات الولاية، كما أنّ النبيّ في أسفل درجات النبوة، ومفهوم كلامه أنه أفضل من ذلك الشخص، فقلت له في ذلك الحال: هل يتصور أن يصير النبي رسولاً؟ ومرادي أنّ ذلك الشخص، هل يصير في مرتبة التربية والتأييد بالكرامة، وإرشاد السالك؟ فأشار إليّ أنه قد يتصور ذلك، نسأل الله الكريم من فضله العظيم لنا ولأحبابنا والمحبيّن.

ومنها أنه قال لي بعض الأولياء الكبار ممن له بكثرة الكرامات في بلاد اليمن اشتهار: سلّم لي على الشيخ عليّ يعني شيخنا المذكور، وذلك عقيب صحبتي للشيخ، وكنت في ذلك الوقت زائراً عشرة من الأولياء، فلم يذكر لي أحد منهم بالسلام ولا غيره غير الشيخ عليّ، فقال: يأخذ كل واحد منكما عن صاحبه تأخذ عنه نوراً، ويأخذ عنك علماً، فقلت في نفسي متعجباً: كيف يأخذ عني العلم، وهو ممن يُفيد العلم وغيره؟ وأما أخذي عنه النور، فهو أهل لذلك، وأنا مفتقر إليه، فاسأل الله تعالى أن يحقق ذلك، وكان هذا الكلام سرّاً بيني وبينه لم يطلع عليه أحد غير الله.

فلما قدمت على سيدي الشيخ أخرج لي كتاباً من كتب الإمام حجّة الإسلام أبي حامد الغزاليّ، وقال: ما تقول في هذه المسألة؟ وأشار إلى كلام فيه لأبي حامد، فقلت: سبحان الله مثلك يسأل مثلي: فقال لي: إيش قال الشيخ فلان؟ مشيراً إلى ما ذكرت من قول ذلك الشيخ، ويأخذ عنك علماً، فلما قال لي ذلك تعجبت، وعلمت أنّ الرجل صاحب تمكين في الاطلاع على القلوب، وما شاء الله من علم الغيوب، وقوة التصرّف النافذ فيما شاء الله من الوجود، بمن الملك المنّان ذي الكرم والجود.

ومن قوة تصرفه أن بعض أصحابه كان قد منعه من الأسفار مع رغبته فيها، فقال صاحبه المذكور لشيخ من شيوخ اليمن الكبار: أشتهي منك، ومن فلان شيخ آخر من الكبار أيضاً أن تكفياني أمر الشيخ عليّ في منعه لي من السفر، وتضمنا لي ذلك، فقال له: لا والله

يا فلان لا أقدر وأنا وفلان على منع الشيخ عليّ مما أراد، فإن جنده سفهاء يعني أنه صاحب حال قوي، وتصرف نافذ لا يستطيع رده، ولو اجتمعنا على ذلك. كما أنّ الجند السفهاء لا يستطيع أحد مدافعتهم وردهم عما طلبوا.

رجعنا إلى ما كنا فيه من ذكر المسألة، فأخذت الكتاب، ونظرت فيه فإذا هي على غير ظاهر ألفاظها، فقال لي: تقول؟ قلت: نعم، وإذا به قد ورد عليه وارد غيبه عن الاحساس من واردات الأحوال التي ترد عليه في كثير من الأوقات، وعلى غيره من أرباب القلوب والرجال، فخفق برأسه في حجري، وكان جالساً إلى جنبي، فمكث قليلاً، ثم أفاق منشرحاً. فقال لي: وفقك الله، فعرفت أنه قد حصل له اطلاع في تلك الغيبة على أنّ ما ذكرت له من الجواب هو عين الصواب، والحمدلله على ذلك، وعلى جميع الأئمة، واسأله أنْ يتقبل ما ذكرت من دعائه، وأن يغفر لنا جميع الذنوب، ويبلغنا من الخيرات كل مطلوب بجاه نبيّه المصطفى المكرّم صلّى الله عليه وآله وسلم، فهذه عشر من كراماته الكبيرة يدل بعضها على فضله عنده من له بصيرة.

وأما ما له من الاشارات التي في ضمنها لي بشارات.

فمنها قوله رضي الله تعالى عنه لي: إني أرجو لك في آخر العمر بعد قولي له أرى فلاناً يبشرني، وأنت ما تبشرني.

ومنها قوله لي: لا تيئس من الجائزة فهي تأتيك، وإن طال الزمان يعني على القصيدة التي ذكرته فيها.

ومنها قوله لي: يا ما يخرج الله من هذا الصدر من الحكم مشيراً إلى صدري.

ومنها قوله لي: ما ظنّك بعبد بن أشرف المولى عليهما أيردّهما خائبين؟ وذلك بعد خلوتي معه في مجلس مبارك، وردّ عليه فيه وارد شريف، فأضحكه بشراء بعدما أحزنه تخويفه وأبكاه.

ومنها قوله لي لما قدمت عليه زائراً: رأيتك منصرفاً من عندي، وعليك ثوب أبيض.

ومنها قوله لي: أشتهي لك سيفاً تضرب به، وفي قوله هذا اشارتان إحداهما أنّ ذلك الضرب أكون فيه محقّاً، والمضربون مبطلين، ولو لم يكن كذاك لما جاز أن يحب إلى السيف المذكور، والثانية أن تكون لي أعداء كثيرون، نسأل الله أن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين حرباً لأعدائه المعتدين، وسلماً لأوليائه المهتدين آمين اللهم آمين.

ومنها قوله لي بعد ورود حال عليه مقامك عال حقق الله تعالى ذلك بمنه وكرمه.

ومنها قوله في حال سكره لواردة تواردت عليه الأحوال. في مسجد الخيف خالياً عن الخلق، وسائر الأشغال، في ساعة أؤمل من الله الكريم أن أنال فضلها إذا جاء سيل الفضل غسل الأوساخ كلها، فنسأل الله الكريم أن يحقق لما ما ذكر من الغسل بسيل الفضل، وأن يحيي بغيث رحمته ما بقلوبنا من موات المحل، وإلى قوله المذكور أشرت في بعض القصائد حيث أقول:

أؤمل من ذي الفضل ما هو أهله	وإن لم أكن أهلاً لما منه أطلب
عسى سيل فضل منه يغسل كل ما	بأوساخه كم قد تلطخ مذنب
كما قال نورالدين شيخي وسيدي	وقد مال من حال به الراح يشرب
إذا جاء سيل الفضل يغسل كل ما	يلاقي من الأوساخ في الحال يذهب
إلهي بجاه المصطفى سيّد الورى	وملجأهم من كل ما منه يهرب
وتاج العلى بدر الهدى معدن الندى	طراز جمال الكون أبهج مذهب
أنلني منائي منك يا غاية المُنى	لا ضحى ولي شغل بحبّك مذهب
وحقق أرجائي يا جواداً ومنعماً	كريماً تعالى للرجال تخيب

ومنها ما في مكاتبته لي من دعوات صالحات، ووصف بصفات جميلات، أسأل الله الكريم المنّان المالك، أن يحقق بمنه جميع ذلك، وهذه صورة ما ذكرت من مكاتبة شيخنا العارف بالله القدوة الدليل، مرشد السالكين السيد الجليل، ولفظه بحروفه، والله على ما نقول وكيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين، الفقير إلى عفو ربّه، وإحسانه، خويدم الفقراء عليّ بن عبدالله سلام الله ورحمته وبركاته. وتحياته على المولى الشيخ الفقيه العالم، العامل الورع الزاهد عبدالله بن أسعد اليافعي زاده الله حكماً وعلماً ومعرفةً وفهماً، ورفع في العلم درجته، وأظهر على الخصم حجته، ونشر أعلام ولايته، وكلأه بحسن كلايته، وجعله موفقاً للصواب، في كل سؤال وجواب، وتصنيف للكتاب، وجعله داعياً إليه، ودالاً للسالكين عليه، ثم أوصله به إليه، وبعد فقد ورد الكتاب الكريم، والخبر المبارك المحتوى على الدرّ النظيم، فنظر فيه المملوك، واستحسنه غاية الاستحسان، وأعجبه ما أودع فيه من الفوائد والإيضاح والبيان، وما طرزه به من الحكم والمعارف، ما يشهد له بصحته كل عارف، فزاده الله من كل فضيلة، وأحله لديه المنزلة الرفيعة الجليلة لكن لو أخلي الكتاب عن ذكر المملوك، وأطلق بعد ذكر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ذكر أرباب السلوك لكان يتمّ حسنه وجماله، ويبقى عليه

رونقه وكماله، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، جزى الله المولى عن المملوك. وعن الإسلام والمسلمين خيراً، ودفع به عنهم في الدين ضيراً، وختم للجميع بخير، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

ومنها قوله لي في مسجد الخيف في بعض ليالي التشريق: حصلت لي إشارة في قصيدتك الفلانية، وقد أمرت ولدي أبا بكر أن يحفظها، وذلك أني رأيت كأني أقرأها في صلاة الصبح يوم الجمعة. قلت: في ذلك اشارة إلى ما اشتملت عليه من تحقيق التوحيد، وصحة العقائد، وغير ذلك مما تضمنته من جميل المقاصد ومدح جمال الوجود سيد ولد آدم صلى الله عليه وآله وسلم وهذه عشر أيضاً من البشارات، المشتملات على الاشارات، والحمدلله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وتتنزل البركات، أعني اشارات شيخنا المذكور لي.

وأما ما بشرني به غيره من المشائخ والاخوان مما وقع لهم في اليقظة، أو في المنام، من جهة النبي عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، ومن جهة الأولياء الكرام، فليس هاهنا موضع لذلك الكلام، فلنثن العنان، ولنعد إلى ما نحن بصدده من البيان، لأوصاف شيخنا الجميلات الحسان، وما من علينا بصحبته الحنان المنان.

وله رضي الله عنه تصنيف في الحقيقة محاه، لغرض قبل أن نقف عليه ونراه ليله خشية إنى لا يفهم الناس معناه، وله نظم رائق، ونثر فائق، فمن نظمه رضي الله تعالى عنه قوله:

أسفي من هجر سكان الحمى ... تركوني من هواهم في عمى
كلما قدمت يوماً قدماً ... نحوهم أخرّت عنهم قدما
صرت مما فاتني من وصلهم ... أقرع السنّ عليهم ندما
ليتهم إذ هجروا لم يتلفوا ... بالضنا صبا معنى مغرما
فعسى الدهر يوصل منهم ... يسعف الصب، ويشفى السقما
قد جعلت الدمع منّي شافعاً ... ورجائي وانكساري سلما

ومن نثره رحمه الله تعالى قوله: ينبغي للفقير الصادق أن يكون كثير الفضائل، لطيف الشمائل، ما في يده لا يرد عنه سائل، ولا يخيب منه آمل، أخلاقه ألطف من نسيم السحر، وأوصافه كالمسك إذا فاح وانتشر، طلق الوجه عند لقاء الأخوان، بسّام الثغر عند وجود الحدثان، قلبه من الغشّ والحسد مكنوس، قد طهر ونقى من آفات النفوس، حرفته في الدنيا الزهادة، وحانوته فيها العبادة، إذا جنّ عليه الليل فهو قائم، وإذا أصبح النار فهو صائم، كثير التلاوة للقرآن، بدمع منحدر كالجمان، دائم الفكرة متواصل الأحزان.

ومنه أيضاً: يا هذا لو أخذت كبريت الاخلاص وطبخته بماء الصدق، ثم أطفأته بدهن

فتسق الصبر، ثم دهن لوز الزهد، ثم دُهن بيض القناعة، ثم سحقته على صلابة التقوى بقهر طاعة الموالي، ثم ألقيت منه جزءاً على مائة جزء من نحاس نحو سك صار ذهباً منفى، والله الموفق.

وأما ما ذكرته في لبس الخرقة المذكورة في القصيدة من اكتساء الفخر، فهو من أجل إنه أمر بذلك في اليقظة في حال حال ورد عليه على ساحل البحر، وهو قولي في القصيدة:

وألبسني عن أمر مولاه خرقة ... كسيت بها فخر الأمر بيقظة

وقد ألبسني إياها جماعة أيضاً من القوم بعضهم باشارة أيضاً، ولكن ربما وقعت له في اليقظة، وربما وقعت في النوم، ولم أشاهد في أحد منهم من حسن سلوك الطريقة، والجمع بين الشريعة والحقيقة، والجدّ والاجتهاد، وعلوّ الهمة، ومواصلة الأوراد، والحرص على متابعة السنة والتورع، والمبالغة في المحو والأدب والتواضع، وكثرة المعارف والمكاشفات، والمحاسن والكرامات، ما شاهدته في الشيخ المذكور، وفي ذلك أنشد وأقول:

وكم عاذل في حبّ سلمى ومدحها ... يقولون قد أكثرت في الشعر وصفها
يلومونني يا أمّ عمر وما دروا ... بما أبصرت عيني من الحسن والبَها
وأهوى سوا هارب خود خريدة ... ولكن ما شاهدت في الحُسن مثلها

والجماعة المذكورون في الباسهم لي الخرقة، بعضهم أدرك الشيخ أبا الغيث، وبعضهم ينتسب إلى الشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي للنسبة من بعض ذريته وبعضهم ينتسب إلى الشيخين الإمامين الحضرميين أعني الفقيه إسماعيل، والشيخ أبا عباد، وبعضهم هو الشيخ محمد بن عمر النهاري، وبعضهم قال لي: هذه يدي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إني أصحب بها عنه، فاصحب بها أنت عنّي. كلّ هؤلاء المذكورين يمانيون، ومنهم من ينتسب إلى الشيخ أبي مدين شيخ بلاد المغرب رضي الله تعالى عنه، ومنهم من ينتسب إلى الشيخ شهاب الدين السهرورديّ رضي الله تعالى عنه وعنهم.

وأما شيوخي من جهة العلم، فقد تقدم ذكر بعضهم، وقد ذكرت طريق الخرقة وشروطها وإنها خرقتان خرقة بركة واحترام، وخرقة تحكم والتزام، في كتاب (نشر الريحان في فضل المتحابين في الله من الأخوان)، وذكرت أنّ غالب شيوخ اليمن يرجعون في لبسها إلى شيخ الشيوخ ذي المجد والفاخر، الذي خضعت لقدمه رقاب الأكابر، الشيخ محيي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلانيّ قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه، وإلى ذلك أشرت في بعض القصيدات بقول هذه الأبيات:

وفي منهج الأشياخ إلباس خرقة لهم سنة أصل روى ذلك عن أصل
ولبس اليمانيين يرجع غالباً إلى سيد سام فخاراً على الكلِّ
إمام الورى قطب الملا قائل على رقاب جميع الأولياء قدمي أعلى
فطأطأ له كلّ بشرق ومغرب رقاباً سوى فرد فعوقب بالعزلِ

الأبيات المقدمات في ترجمته في سنة احدى وستين وخمس مائة.

وفي شيخيّ المذكورين رفيعي القدر والمحل، قلت هذه الأبيات مفتتحاً لها بالمرثية والغزل:

دعا ذكر هامي دمع طرف مسهد بتذكار أطلال لمى ومعهدِ
وبشاغر أما من حشى مودع الشجى غريم الجوى من لوعة الحبّ موقدِ
لفرقة أحباب لنا قطعت بهم مطايا المنايا فدفدا بعد فدفدِ
فامسوا بدار قد نأت لا يزورها سوى راكب حدبا إلى قعر ملحدِ
به روضة خضر البرّ موحد وموقدة جمر الطاغِ وملحدِ
ترى ساكنيه تحت أطباق مظلم قد استنزلوا عن كل قصر مشيدِ
وكثرة غلمان وعزّ ورفعة إلى ذي هوان في التراب الموسدِ
مقيمين حتى يرحل الركب كلهم لدار نعيم أو عذاب مؤيدِ
وقد فارقوا للأهل والمال والهنا وجاه وعيش والحبيب المودِدِ
وقد لبسوا ثوب البلا بعد لبسهم لثوب البقا الزاهي الجمال المحدّدِ
تزى الدود في تلك الخدد ومقلة تسيل على الخدّ الأسل المورِدِ
وقد زال عنها ما زهاها وزانها وما طال فيها من تغزل منشدِ
تغزل، ولكن لا بإفك وباطل وأنشد ولا تسمع ملام مفندِ
حمامة أيك في الحمى غردت ضُحى مطوقة ورقاء مخضوبة اليدِ
وريم طويل الجيد أدعج أهيف أغن كحيل الطرف من غير إثمدِ
فتلك شجاني في الصبا طيب نغمها وحسن الحل لكن حمامة مسجدِ
أحلت هوى لما شدت وترنمت فؤاد خليّ البال غير معودِ
فيا طيب عصر فيه طاب سماعها لدى عدن يا ليته لي بمسعدِ
تريع لوصال بواو معوضاً موحدة كم قد سبت ذا تعبدِ
فأنشد حالي عندها متمّثلاً بمصراع صبّ في المحبة مبتدي
وما كنت أدري قبل حبّك ما الهوى كما لم من الغير الملاحة أشهدِ
وهذي سباني في الكهولة حسنها وبهجتها لكن غزالة معبدِ

تـرعـت فيـا فـي حيّ حلي، وكـم لهـا ... تـرو بـذاك الحـيّ مـن عـذب مـوردِ
تـريـع غـواشـي الملـك للغيـن مبـدلاً ... عـن الطلبهـاكـم مـن فـؤاد مقيّـدِ
تصيـد ولا تُصطـاد فـي شـرك الهـوى ... فـاعجـب بمصطـاد لهـا متصيّـدِ
شـرودا بقلـب الصـبّ فـي فلـواتهـا ... بـوارد حـال للغـزال مشـرد
ويـا حبـذا يـومـاً علـى الصبّ عطفـه ... بـه بعـد صـدّ مـن وصـال مـوددِ
ويـومـاً بـه منهـا افتتـاح زيـارة ... وصحبتهـا مـن غيـر تقـديـم مـوعـدِ
ويـومـاً علـى الهجـران منهـا بشـارة ... بتحصيـل مـا مـول لقلـب مبـردِ
فهـاتـان مـع حبّـي حسـانـاً سـواهمـا ... مـلاح الحلي كـم فـائـقِ الحُسـن أغيـدِ
همـا سبيـانـي فـي قـديـم وحـادث ... بمـا لـوراه عـاذلـي ومفنـدي
لبـادر فـي عـذري، وخلـع عـذاره ... بحبهمـا مثلـي، ولـم يتـرددِ
إلـى كـم أوري غيـرة وتستـرا ... ولـوح الهـوى كـم فيـه عهـد مـؤكّـدِ
خليلـيّ مـا ريـم عـدت وحمـامـة ... شـدت مـا بـه مـوهـت ليـس بمقصـدِ
ولكـن أكنـى عـن مليحـي حمـاهمـا ... وعصـرهمـا بـدري ديـاج لمهتـدِ
جمـال الهـدى البصـال شيخـي وسيّـدي ... إمـام الأنـام الـزاهـد المتعبـدِ
مليح الحلي زاهي المحاسن ذي العُلى ... وسـانـي الـورى نغمـاً كـدرّ منضـدِ
ونـور الهـدى بحـر المعـارف والنـدى ... خـزانـة أسـرار وسيـف مهنّـدِ
دليـل طـريـق السـالكيـن إلـى العلـى ... علـى حضـرة يحظـى بهـا كـل مسعـدِ
علـيّ بـن عبـدالله ذي السعـد والعطـا ... إمـامـي وأستـاذي وشيخـي وسيّـدي
مسقـى بكـأس الحـبّ فـي قـدس حضـرة ... مـدامـاً بهـا مـن سكـرهـا كـم معـربـدِ

قلت: وقد اقتصرت في هذه الأبيات الأحد والأربعين من قصيدة لي ثلاث مائة، وبضع عشرة بيتاً ذكرت فيها مائة من أجلاء الشيوخ الأكابر، العارفين بالله أولي الأبصار والبصائر، والمقامات العاليات والمفاخر، صدّرتهم بشيخي المذكورين البدرين، وأودعتها ديواني الموسوم بكتاب الدّرر في مدح سيد البشر، ومدح الأولياء الغرر، وفي الوعظ والعبر، وعلوم فضلها اشتهر، وسميتها بلبل الإطراب، وحلاوة الحلاب، في ذكر الفراق والمدح للأولياء الأحباب، وترجى لقائهم في دار النعيم والثواب بفضل الله الكريم الوهاب.

سنة تسع وأربعين وسبع مائة

فيها توفي الإمام العلاّمة، البارع المتفنن، المفيد القرشي المصري الشافعي المدّرس المفتي شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان المعروف بابن عدلان، سمع الحديث من جماعة منهم الحافظ أبو محمّد الدمياطي، وأبو الحسن ابن الصوّاف الشاطبي وغيرهما،

وتفقّه على جماعة أيضاً، وعرض المفصل على حجة للعرب بهاء الدين ابن النحّاس، وأخذ عنه النحو، وكان له منه حظّ عظيم، وانتفع به انتفاعاً كليّاً، وأخذ أصول الفقه عن العلاّمة شرف الدين الشافعي الفاسي الشهير بالكركيّ، وناب في الحكم عن قاضي القُضاة تقي الدين ابن دقيق العيد القشيريّ بالقاهرة ومصر مدة، وتولّى التدريس في عدة مدارس، وتولّى الاعادة بالمدرسة الصالحية والناصرية، والميعاد العلاي في جامع الأزهر، ونفذ رسولاً من سلطان الديار المصرية إلى اليمن بعد السبع مائة، وهو إمام مُشار إليه في الفتيا والفقه في الديار المصرية حلو العبارة، كثيرْ التودّد للطلبة، مكرم لهم وولّي قضاء العساكر للمنصورة بالديار المصرية، ومات أقرانه وعمر، وبقي طرفة في البلاد، ومولده سنة احدى وستين وست مائة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الإمام البارع المتفنن العلاّمة، الفقيه النحوي، الأصولي اللغويّ، المنطقي المدرّس، المصنّف المفيد شمس الدين الأصبهاني، حفظ كتباً عديدة، وصنّف تصانيف مفيدة، ودرّس في بلاده، وفي تبريز، وفي الشام، وفي مصر واشتغل عليه العلماء في المعقولات، واستفادوا خصوصاً في أصول الفقه، ومن محفوظاته بعد الكتاب العزيز كتاب السامي في الأسامى، وهو كتاب كبير الحجم في اللغة، وأدوات الميداني، والمصادر الثلاثة المجردة للزورني، والكافية في النحو، وبحثها على والده وغيره من الفضلاء، ثم حفظ الغاية القصوى في الفقه، والمنهاج في الأصول كِلاهما من مصنفات العلاّمة القاضي ناصر الدين البيضاوي، وبحثهما على والده وغيره، وبحث الحاصل على والده أيضاً من مؤلفات تاج الدين الأرمويّ، ثم قرأ الرسالة الشمسية في المنطق مع شرحها على أخيه الأوحد إمام الدين، وقرأ المطالع في المنطق أيضاً وحفظه، ثم قرأ الطوالع في أصول الدين من مؤلفات القاضي ناصر الدين المذكور، ثم حفظ الحاوي في الفقه، وبحثه على والده، وبحث أصول النسفي في الخلاف، وبحث كتاباً في علم الهيئة للجغمنيّ، والتذكرة وإقليدس والكليات في الطبّ، ثم درّس، وكان يُلقي من الدروس ما بين السبعين والثمانين، وكان يشتغل من الصبح إلى العشاء، ثم شرع في التصانيف، فمنها شرح المختصر لابن الحاجب، وعلقه عنه جماعة كثيرة مَنّ الفُضلاء أولي النظر، واشتهر في البلاد وانتشر، وفرغ منه في سنة، وشرح المطالع، وصنّف ناظرة العين في المنطق في يوم واحد، وشرح التجريد في أصول الدين، وعروض الساوي، وشرح الحاجبية، وسمع البخاري عن ابن الشحنة، وسمع خلائق في دمشق، ودرّس في الرواحية، ثم سافر إلى الديار المصرية، ودرّس في المعزية، ونزل في خانقاه سعيد السعداء، ووليّ مشيخة الخانقاه السيفية، وكانت اقامته بدمشق سبع سنين، وألف كتاباً في المنطق، وكتاباً مختصراً في أصول الدين مع شرحه، وشرح منهاج البيضاوي على طريق الإملاء، وبديع ابن الساعاتي الحنفي في أصول الفقه، وشرح الطوالع،

وأصول النسفيّ وألّف كتاباً في الفقه في مذهبي الإمامين الشافعيّ، وأبي حنيفة رحمهما الله تعالى، وحجّ مرتين.

قلت: وذكر لي الشيخ جمال الدين الحويراي شيخ خانقاه، سعيد السعداء ـ رحمه الله تعالى ـ أنّ شمس الدين المذكور يحبّ الاجتماع بي مستدعياً بذلك إسعافاً منّي بالاذن، فلم يصادف مني في ذلك الوقت انشراحاً للاجتماع، وقلت له: العلماء كثير، وأنا اليوم في طلب الاجتماع بالفقراء في الخرابات، فلما لم يجد منيّ انعاماً بذلك سَكَت عني، وبلغني أن شمس الدين المذكور كان أول قدومه الشام يحضر حلقة الشيخ برهان الدين، ويسمع بحثه، وهو ساكت كأنه ما يعرف شيئاً من العلوم، والجماعة ما يعرفون أنه من أهل العلم مدّة من الزمان حتى نبّههم بعض الناس عليه، فالتمسوا منه أن يبحث، فامتنع من الكلام حتى ألحّوا عليه، فبحث حينئذٍ معهم، وظهرت لهم فضيلته، فاشتغلوا عليه حينئذٍ في العلوم، وهذا الذي فعله حسن عزيز جداً لا يكاد يصدر من الفقهاء مثله أعني سكوته موهماً عدم معرفته بالعلوم، وحسن اعتقاده في الشيخ برهان الدين ـ رحمه الله تعالى ـ على الجميع.

وفي السنة المذكورة توفي الإمام العلاّمة البارع الفقيه، المفتي الشافعي الأصولي النحوي، الخطيب المصقع الوحيد الفريد، الصوفي المتكلم، لسان الحقيقة، ودليل الطريقة شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد المعروف بابن اللّبّان[١] المصريّ المنزل ذو الإفادة الدمشقي المنشأ والولادة، ولد سنة تسع وسبعين وست مائة، وعاش سبعين سنة.

وأخذ الفقه عن جمال الدين السريشي، ونجم الدين ابن الرفعة، وكمال الدين ابن الزملكاني، وصدر الدين ابن الوكيل وأذنوا له جميعاً بالفتيا، وأخذ العربية عن شمس الدين أبي الفتح، وقرأ الشاطبية في القراءات على والده شهاب الدين، وسمع الحديث عن جماعة منهم ناصر الدين ابن الفراس، والخطيب شرف الدين الفزاريّ وغيرهما، وصحب الشيخ الكبير الولي الشهير أبا الدرّ ياقوت الشاذليّ، وبورك في صحبته، وفتح عليه في كلامه، وسرعة عبارته.

وله مصنفات جليلة منها كتاب إزالة الشُبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات.

ومنها ترتيب الأم للإمام الشافعي على مسائل الروضة واختصرها في أربع مجلدات، ومنها مختصر الروضة والرافعي واستدرك عليهما.

ومنها ألفية في النحو ضمنها كثيراً من فوائد التسهيل والمعرب. قيل لم يصنف مثلها

(١) محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الإسعردي الدمشقي مفسّر من علماء العربية ولد ونشأ بدمشق، واستقر وتوفي بمصر.

في العربية، ووضع لها شرحاً بيّن فيه مجملها، وفتح مقفلها، وله ديوان خُطب جمعة وفي كل جمعة يُضيف خطبه يخطب بها، وله في علم الحديث مصنّف مفيد جمع فيه كتب ابن الصلاح والنووي، وتوفي وهو يصنّف تفسير القرآن جاءت سورة البقرة في مجلدين منه قيل: لو كمل لم يوجد في التفاسير مثله لأنه كان رحمه الله نهاية في علوم القرآن، وفي الأصلين والجدل، وإمامته في الفقه مشهورة، وبراعته في العلوم مذكورة، وله نظم رائق، وشعر فائق.

سنة خمسين وسبع مائة

فيها توفي الإمام العلّامة، المدرّس المفتي نجم الدين عبد الرحمن بن يوسف الأصفهاني الشافعي نزيل الحرم الشريف مولده سنة سبع وسبعين وست مائة، وفيها توفي آخر أيام التشريق في منىً، ودُفن بالمعلى سمع الحديث على جماعة، وتفقه وقرأ الأصول والعربية والفرائض والجبر والمقابلة، وقرأ القراءات السبعة، وله مصنّفات منها مختصر الروضة في مجلدين اشتهر كثير من البلاد، وكان رحمه الله حسن الأخلاق، سليم الباطن، مشهوراً بالصلاح، وكثرة المحاسن، حسن الاعتقاد رآني في وقت، وقال لي: كنت إذا رأيتك في المنام في بلادي، وأنا مريض تعافيت، وقال لي لما وقف على بعض كتبي هذا الكتاب ما يجيء تصنيفه إلاّ بعلوم كثيرة، ثم قال لي: ينبغي لك أن تصنّف كتاباً في الردّ على المبتدعين، فلما وضعت كتابي الموسوم بمرهم العلل المعضلة في الردّ على فئة المعتزلة بالبراهين القاطعة المفصلة، وذكر عقيدة أهل السنة المفصلة والفرق الثنتين والسبعين، والمخالفين المبتدعين ذكرت بعد ذلك أنه كان ـ رحمه الله ـ قد حرّضني على ذلك، نسأل الله تعالى حسن الخاتمة، والسلامة من المهالك.

ولما وضعت كتاب نشر المحاسن في العقيدة وغيرها، ولقّبته بكفاية المعتقد ونكاية المنتقد في فضل سلوك الطريقة، والجمع بين الشريعة والحقيقة، ووقف عليه، وطالعه الفقيه الإمام مفتي الأنام البارع العلّامة فخر الدين المصريّ، قال لي: لقد انتفعت بهذا الكتاب بعد أن سمع على أشياء ـ رحمه الله تعالى ـ من كتاب الإرشاد، نسأل الله تعالى الكريم التوفيق، وسلوك طريق الرشاد، والعفو والعافية، والفوز يوم المعاد، مع سائر الأحباب والمحبين آمين.

تنبيه

اعلم أيها الواقف على هذا الكتاب أني إنما لم أذكر تاريخ موت أحد من أعيان متأخري شيوخ اليمن الصالحين، وعلمائه العاملين مع كثرتهم سوى ستة مضى ذكرهم إلاّ

لأني لم أظفر بتاريخ يكون لهم جامعاً لا واقفاً عليه ولا سامعاً.

وأما المتقدمون منهم فقد سمعت بتاريخ الإمام ابن سمرة اليمني، ولم أزل حريصاً على روايته، حتى وقفت عليه، فوجدته قد تتبعهم منذ زمن الصحابة إلى زمانه، فذكر من هاجر من أعيان أهل اليمن، ومن روى منهم الحديث، ومن بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلّم إلى اليمن من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، إما قاضياً وإما عاملاً، وقد تعرضت لذكر شيء من ذلك فيما مضى.

ثم ذكر من فقهاء التابعين إلى عصره من أهل اليمن مئيناً عديدة في تاريخه المذكور الموسوم بطبقات فقهاء اليمن، وعيون من أخبار رؤساء الزمن، وذكر أنه اجتمع عند واحد منهم من الطلاب أكثر من مائتي طالب في صنعاء، وهو الإمام زيد بن عبدالله اليفاعي أحد شيوخ صاحب البيان، أخذ عنه كثير ممن رحل إليه من البلدان، وكل ذلك قد قدمت ذكره في هذا التاريخ، وهؤلاء الذين ذكرهم كلهم من الفقهاء، ولم يتعرض لذكر الشيوخ من الصوفية العارفين، وقد أخلي كتابه عن كبار الشيوخ المذكورين، وعمن لم يطلع عليه من الفقهاء النائيين، وعن جميع المتأخرين، ولم أذكر أنا من الذين ذكرهم إلاّ أفراداً من أعيان أعيانهم مثل هؤلاء الأئمة طاوس، ووهب بن منبه، وعمرو بن دينار، والشيخ عبد الرزاق وآخرين ممن بعدهم، منهم الإمام ابن عبدويه، والإمام زيد اليفاعي، والإمام يحيى بن أبي الخير العمراني وغيرهم، وإنما لم أذكر تاريخ المتأخرين إلا لأنه لا يدلّ لمن تصدّى لعلم من معرفة مواده، وحصول استمداده من مواد التاريخ، وتقدم فيه كتاب يعتمد، ومنه في المولد والوفاة والأنساب والأوصاف يستمد، ولعمري أنه قد كثر في اليمن من السادة الذين جلّ قدرهم، وشاع ذكرهم، ولم ينتدب لتاريخهم من أظله عصرهم، ولا من تأخر زمانه عنهم حتى اتبعه سالكاً في ذلك الأثر، ومقلداً له في ما ثبت عنده من الخبر، فذلك هو الذي منعني مما ذكرت، وحال بيني وبين ما أردت، بعد ما التمس منّي ذلك غير واحد من أهل العلم والصلاح، وله عقيدة حسنة في الأولياء أولي الأوصاف الملاح، فاعتذرت بسبب ذلك إذ لا يكون التصنيف محموداً، إلاّ إذا كان جميع ما يتعلق به موجوداً، وذلك الذي منعني أيضاً من اكمال شرح قصيدتي الموسومة تباهية المحيّا في مدح شيوخ اليمن الأصفيا التي مفتتحها:

نسيم الصباهي يحمل الرسائل ونشر الأحبّا في الضُّحى والأصائل

فإني لما بلغت فيه إلى ذكر الشيوخ أولى الأوصاف المشكورة ثنيت العنان في أثناء الميدان من أجل العلة المذكورة، ولم أذكر فيه سوى أربعين شيخاً من السادة الأكابر أولى المقامات العالية، والكرامات الغالية، وشرف الفضائل والمفاخر ممن ذكر فضائلهم يطول،

وكراماتهم تحيّر المقول، وسيأتي ذكرهم مع غيرهم إن شاء الله تعالى، ولا مطمع في حصرهم، ولا عشر معشار العشر في ذكرهم، فإنّ شيوخ اليمن عصائب لا يحصيهم كاتب ولا حاصب كما بلغني عن صفوة زمانه الجميل المناقب، وبركة أوانه، ذي المحاسن والمواهب، علم الأعلام، وقدوة الأولياء الكرام، سامي المجد الأثيل أحمد بن موسى المعروف بابن عجيل نفعنا الله تعالى ببركته إنه قيل له: يا سيدي أرى الأولياء في سائر البلدان يذكرون في الكتب، فيقال: فلان البلخي، وفلان البغداديّ، وفلان الشامي وفلان المصري، ولا يذكر أهل اليمن، فقال: إنما لم يذكروا لكثرتهم، فإنهم عصائب، وكذلك منعني عام الاطلاع من ذكر تاريخ موت ناس كثير من أولي الفضل، والوصف الحسن ممن أدركت، وممن لم أدرك من غير أهل اليمن.

ذكر جماعة

من كبار قدماء اليمن وأوليائهم ورؤسائهم وعلمائهم مجموعين، وإن كان قد مضى ذكرهم متفرقين.

فمنهم السادة الأجلاء، والنخبة الأصفياء أبو موسى الأشعريّ الصحابيّ رضي الله تعالى عنه، وأويس القرني وأبو مسلم الخولانيّ، وطؤس، وعمرو بن دينار، ووهب بن منبه، والإمام الحافظ عبد الرزاق الصنعاني، والإمام الشعبي ـ رحمهم الله تعالى ـ أصله من اليمن، وذو الكلاع الحميريّ والأشعث بن قيس الكنديّ، وعمرو بن معد يكرب، ومن بعد هؤلاء الجلّة الكبار خلائق ليس لعددهم انحصار، وإلى ذلك أشرت بقولي في بعض الأشعار:

عصائب لا يُحصى مدى الدهر عدّها ... ومن ذاك يحصي للحصى والجنادل
فكم في التهايم والجبال وفي القرى ... من اليمن الميمون كم في السواحل

ذكر أول من أظهر مذهب الإمام الشافعي في اليمن من الفقهاء الجلّة.

فمنهم الإمام العلاّمة موسى بن عمر ابن المعافري.

ومنهم الفقيه الإمام عبدالله بن عليّ المرادي، سمع من أبي زيد المروزيّ في ذَمار[1] بفتح الذال المعجمة، وفي آخره راء، ورحل إلى مكة، وسمع بها في سنة ثلاث وخمسين وثلاث مائة.

ومنهم الفقيه الإمام زيد بن عبدالله اليفاعيّ، والشيخ الإمام الجليل محمّد بن عبدويه المدفون في جزيرة كمران، وممن نشر المذهب المذكور أيضاً بنو عقامة في زبيد، وممن

(١) ذمار: اسم لقرية باليمن على مرحلتين من صنعاء؛ يُنسب إليها نفر من أهل العلم معجم البلدان ٣/ ٧.

نشره أيضاً الإمام العلاّمة صاحب البيان يحيى بن أبي الخير في جبال اليمن، وقد تقدم ذكر جميع هؤلاء في مواضع متفرقة من هذا الكتاب.

ذكر آفات عظيمة ذات فتن واقعة في بلاد اليمن مما تقدم ذكره متفرقاً في مواضع ليسهل معرفته مجموعاً على السامع.

فمنها فتنة القرامطة واستيلائهم على معظم بلاد اليمن، ومدنه كصنعاء وزبيد، عدن، وتعز، وأبين وغيرها ممن قهر ولاتها؟ وقتل حماتها على يد داعيهم ذي الزندقة والطغيان عليّ بن الفضيل الخبيث الشيطان.

ومنها فتنة الشريف الهادي ودعوته.

ومنها ظهور ابن الصالحيّ، وما كان عليه من ضد اسمه من الافساد للبلاد والعباد في الظلم والاعتقاد، ودعوته إلى مذهب العبيديين الباطنية أولى الزندقة والالحاد.

ومنها ظهور بني مهدي، وما كانوا عليه من ضدّ الهداية في كثرة الغرابة عن عبد النبي، وأخاه قبله، وقتلهما الرجال، ونهبهما لأموال وتخريب الديار، وتحريق الأشجار، وكانت دولة بني مهدي تنيف على خمسة عشر سنة حتى زالت على يد شمس الدولة بن أيوب أخ السلطان صلاح الدين حسين، وليّ بلاد اليمن، فدخلها بالبأس الشديد، فقتل عبد النبيّ، وصلبه في زبيد، وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك.

وتقدم أيضاً خروج الإمام أحمد بن الحسين في جبال اليمن بدعوته إلى أتباعه، وكتابه إلى الشيخ أبي الغيث بن جميل ـ قدّس الله تعالى روحه ـ وجوابه له في ترجمته في سنة احدى وخمسين وست مائة.

ذكر بعض الأكابر والأعيان والسادات من شيوخ اليمن المجهول موت بعضهم في أيّ زمن أولى المحاسن والمناقب العديدات، الذين ذكرتهم في بعض القصيدات، وهي قصيدتي الموسومة ببلبل الإطراب، وحلاوة الحلاب في ذكر الفراق والمدح للأولياء الأحباب، وترجي لقائهم في دار الثواب، بفضل الله الكريم الوهاب، وهي مشتملة على مائة شيخ من أعيان الشيوخ الأكابر، منهم اليمانيون ثلاثة وستون بعضهم مذكور في القصيدة المتقدم ذكرها. أعني باهية المحيّا في مدح شيوخ اليمن الأصفياء، والباقون من بلاد شتّى.

وقد تقدم ذكر جماعة منهم في هذا التاريخ، وها أنا أشير إلى مجموعهم في القصيدة المذكورة على حسب ترتيبهم فيها من غير ذكر فضائلهم وكراماتهم وأحوالهم، وما لهم من المناقب العديدة، والمحاسن الحميدة، وقد تقدّم غزل القصيدة المذكورة في تاريخ شيخي

المذكورين في سنة ثمان وأربعين، وسبع مائة، ثم عقبت ذلك بقولي:

خليلي ما ريم عدت، وحمامة — شدت ما به موهت ليس بمقصدِ
ولكن أكنى عن مليحي حماهما — وعصرهما بدري دياج لمهتدِ
جمال الهدى البصال شيخي وسيّدي — إمام الأنام الزاهد المتعبدِ
مليح الحُلي زاهي المحاسن والعُلى — وسالبي الورى، نغماً كدر منضدِ
ونور الهدى بحر المعارف والندى — خزانة أسرار، وسيف مهنّدِ
دليل طريق السالكين إلى البلا — على حضرة يحظى بها كلّ مسعدِ
عليّ بن عبدالله ذي السعد والعطا — إمامي وأستاذي وشيخي وسيّدي
مسقى بكأس الحبّ في قُدس حضرة — مداما بها من سكرها كم معربدِ
وكم نصبت أحبولة لاصطيادهم — فصاد لصياد حوى الفضل أحمدِ
له جليت بيض المعارف والعُلى — بعالي مقام في الثريا شيّدِ
وجيء بخلعات الولاية واللوى — ومركوب خيل في رواية مسندِ
فأضحى الفتى مستوفياً عند كشفه — غيوب ذوي الإنكار وقت التجرّدِ
فامسوا بعلم الولاية والعلا — له قد أقرّ، وليس ذاك بمجحدِ
وصاحبه ألفان أو هم ثلاثة — وآياته عدت لحصر معددِ
وللحكمي قد حكمت في تصرف — يولي ويعزل كلّ طاغ ومفسدِ
ولـه ملكاً نافذاً فيه حكمه — صريحاً على الإطلاق لا بمقيدِ
كذاك روينا من كبار وسادةٍ — وكم مكرمات كم كرامات مسعدِ
فأمسى له ينقاد من كان منكراً — أديباً بقلّب خاضع متعبّدِ
وللبجلي إذ حكمت حكميهم — سقاه هنا كأس عليه مردّدِ
فأمسى إماماً للفريقين دالّلا — لكلّ الطريقين اقتداء بمرشدِ
له أنقذ الرحمن إذ كان منكراً — على شيخه من قبل حتى به هدي
وبحر المعارف شيخه كان أميّاً — فسبحان منّان لفضل معودِ
وأكرم ببدر رجاء من بدر داجر — من البجلي من نسلهِ متولدِ
له وارث سرّاً فأكرم بوارث — وارث وموروث، وفرع ومحتدِ
عليّ بن إبراهيم زين زمانه — مصاحب شيخ ربّ سعد مجدّدِ
له الأصفهاني الكبير ملقب — بنور اليمن أكرم به من ممجّدِ
ومن نوره إبراهيم بدر كلاهما — مع الجدّ فالمولود نور المولدِ
فيا حسن أيام رأيتهما بها — إليها يحن المغرم الشجي الصدي
ويا شجنابي كامناً من شجينة — ثوى بحوى بين الجوانح موقدِ

ويا بركات قد حوتها عواجة   آوى تربها كم سيّد بعد سيّدِ
فآهاً على رؤيا كرام ترحّلوا   وآهاً على سامي فخر مجدّدِ
ومستتر فيها الهنار معلّل   براح معلّى فوق ربّ مسود
عظيم كرامات كريم مناقب   همام لدى نعي إمام لمبتدي
ولما أغاثت من قطيعة هجرها   أبا الغيث أمسى غرث دهر لمجهدِ
وشمساً على مرّ الزمان منيرة   بها يهتدي نهج الهدى كل مهتدِ
له بركات باقيات ومذهب   زها مذهب في نهج قفرٍ بمسجدِ
باهدلهم عالي المعالي معلّل   فأمسى كعقد جيّد حسناً مقلدِ
وفي كأس ينبوع الفلاح ابن أفلح   جميل المساعي منهل عندما هدي
فتى أسد للأسد حامل حزمة   علىٰ ظهر ليث، وهو يحطب مبتدي
له نظمت بل قدمته أكابر   كبحر خضم ذاخر عذب موردِ
وكم حيّرت حيرى علوم معارف   وشرع هما بدراً دياج لمفتدي
أيا راسماً محد المعالم والعُلى   وصار أهدى للحائر المتردّدِ
وليان كلّ كم له من كرامة   عليان كل في مقام مشيدِ
جليلان كلّ صادق في وداده   خليلان كلّ في ردّ المجبّ مرتدي
ردّا مجداً كرام الولاية مثلما   بنور الهدى وأنه كل مُسعد
هما الحضرميّ نجل الوليّ محمّد   إمام الهدى نجل الإمام الممجدِ
له كم خطت كم دللت ثم عللت   عنايات فضل لبس تدرك ليدِ
مدل ومحبوب وفي كلفة العنا   عظيم كرامات، وجاه وسؤدد
ومن جاهه أومى إلى الشمس أن قفى   فلم تمشِ حتى أنزلوه بمقصدِ
ونجل عجيل كم مواهب عجلت   له وسعادات ومجد مجددِ
تحلي حلي بزهو الوجود بحسنها   ويرفُل في ثوب الجمال المنجدِ
كان حلاه حلّة الحسن مثلما   بهاها على كمّ الزمان بمسجدِ
مشى سيرة محمودة لا يسيرها   سوى كلّ صديق يحفظ مؤيّدِ
عظيم كرامات عزيز وجودها   لها شهرة نالت لذكر معدّدِ
هو القمر الثاني البهي ليت نظرة   إلى بدر حسن في الدُجى متهجدِ
وكم طبت لابن الخطيب وكم أتى   به كشف طب في البلاد مشدّدِ
مسقى حميا حضرة حضرمية   وكم قد سقاها من ولي مسدّدِ
إمام لأهل العلم بدر لسالك   غريم غرام ناسك زين معبدِ
عزيز نظير زاهد متورّع   له سيرة حسناً وحلية مرشدِ

على مقامات سني معارف ... شهير كرامات، كثير تعبّد
مراد ومحمول بلطف عناية ... له مشرب صافي الهنا عذب موردِ
وللزيليين الشهيرين شهرة ... بفضل عليّ، والفتى الليث أحمد
فذاك إلى سعدن الجرد والندى ... وذو مكرمات فوق عدّ معددِ
وهذا مسقي الراح بدر طريقة ... شهر كرامات، ومجد وسؤددِ
كذاك النهاريات كم نورت، وهل ... فتى غير بالنور النهاري مهتدِ
وكم غانم منها عذ نجل يغنم ... هدى سالك ضرغام غلب لمعتدِ
وكم قد زكى منها ابن زاكي فاثمرت ... قرائه نفعاً لمن فيه معتدي
وكم فاز بي حسن وإحسانها فتى ... يكنّى أبا حسّان للخير قد هدي
وكم سلمت من مرهف لابن سالم ... ومن ضر به كم من عدو مقددِ
وقد قلدت لابن الكميت كميها ... بحربته حرب بها كم ممددِ
وكم أصرت منصورهم بجيوشها ... وبيض وبيض والحصان المرددِ
وكم فاز اقبال بإقبالها وكم ... شفت بابن أحوص عين أحوص أرمدِ
وكم أذنت لابن المؤذن بالصبا ... غريم الغرام المسجن المتوجّدِ
وكم فرجت كرباً بيمن مفرج ... كما بالدماميني المسمّى المسودِ
ومهد هدى في ربع مهدي هدية ... ليوسف حتى صار نور المهتدي
ولابن كبريت تحلت وكبرت ... وكبر نعت مع كلّ وصف له ردي
وكم صفحت بابن الصفح وأصلحت ... به من فساد في البلاد ومفسدِ
وكم ما بجت ذبا وما حججت هدى ... عن ابن الحجاج لوش وحسدِ
وكم قد هدى بدر الدُجى ماطر الندى ... بذي مطر بن نجلٍ عيسى الممجدِ
وكم فاز مروزق برزق أتى له ... من الغيب من هاتي العطيات مرغدِ
وكم حفر الحفار حتى أساسها ... بدا، فسقى من فوق أصل ممهدِ
وكم غربت لابن الغريب غرائب ... وأغرى الغرام الهائم الظامي الصدى
وكم لابن علوان على الدهر من علا ... فتى برد أمجد المعارف مرتدي
ولي على الأيام بعلو بمنصب ... إلى فرع علياء المفاخر مصعدِ
وأعداؤه تهوي مناصبهم إلى ... ثرى أرضهم من متهميها ومنجدِ
فما زال في جيش من النصر مسعد ... له تحت رايات العناية منجدِ
إلى أن لهم أمسى ملاذاً وملجأ ... وحصناً لدى طن وهجو منشدِ
وكم أسعدت في ذي عقيب بوصلها ... لجل سعيد حبذا وصل مسعدِ

إمام لعلم ظاهر، ثم باطن … ولي كبير فضله غير مجحدِ
فتى عارف ما ليس بدريه غير من … سقى بكؤوس الحبّ من كل سيّد
أتى بجواب مشرح الصدر عندما … أبى بكر قدم بأنس متحمدِ
سماعاً الأصحاب التصوف والصفا … رجال الوفا أهل الجوى والتوجدِ
سقوا مشرباً ما ذاقه الغير منهل … لهم في على نهج العلى عذب موردِ
وعنهم شروط في السماء ذكرتها … بنشر المحاسن من حلي كل جيدِ
وكم سرّ من أسرار عرفاً بها أبو … سرور كيف بالمسن محددِ
مسن له حداحد من الذي … يحد به أحد بذلك وأحددِ
وكم جوهر غالٍ حملت جواهراً … شهادة طير للولاية مشهدِ
فسر أبي حمران أكرم بعارف … لمن أسمه كالجوهر المتوقدِ
فاعجب بأمي عتيق وسوقي … به دون عزّ مسعد بن مسعدِ
ولا عجب في حكم حكمةٍ حاكم … حكيم مقرّب من يشاء ومبعدِ
بحق سما فوق السماك ابن باطل … بأصحاب منهاج المبشر مقتدِ
كذاك عليّ بن قيدا رأوا تقي … لمرتبة تعلو على فوق فرقدِ
وبالسعد سعد فائز عن عناية … وذلك حداد به كم عمي هدي
وفي فاضل كم من فضائل أودعت … ومراثي من مرشد بعد مرشدِ
وريحانهم ريحانها سمحت وكم … تنفس مع التجويف، والظاهر الردي
وفي عودها الجاوي الذكي الرطب جمرت … بجاويهم مسعود فضل معودِ
وفي عمركم عمر قلب منور … وتعمير وقت بالتقى والتعبدِ
وحسن اجتماع كان في مسجدِ العطا … لأخوان صدق كم بذلك مسعدِ
بعصريه يمن السعادات مقبل … وعيش صفا من غير نغص منكدِ
وكم بأبي الخطاب خطب، وفيّ وكم … ظهور اعوجاج بالعواجي مسددِ
وكم بالذهبي اذهبت من مصائب … وعلياؤه قدمت بالذكر مبتدي
وسُفيان لما أن سقته سلافها … له قلدت حيفاً سطا رقّ معتدِ
حسام لذي ظلم ربيع لمجدب … شفاء لضر بدر داج لمهتدِ
وللعائديّ كم عودت من وصالها … وأسرارها أكرم بذا من معودِ
وفي البركاني الليث نسل مبارك … بدت بركات تلك لا بمولدِ
تربي بلا شيخ مرب كبقلة … لدى رملة تسقى بماء التفردِ
بهذا مجيب حين ناقشه فتى … مرّبي بشيخ بعد طول تعبدِ

هو ابن سعيد ذو السعادة والعُلى … ثوى في رباط في دثينة[١] مقصدِ
وموسى اجتلى لما سما للعلى سما … لبيض المعالي والمعارف خردِ
وأمسى ببخل المرعب من كان منكراً … من الضدّ وإلا عدا محباً ومفندِ
وممن كذا كان الوليّ محمّد … دليل الطريق العارف السيد الهدى
ثوى مرشداً في ذي السفال لسالك … طريق الهدى أكرم هناك بمرشدِ
وغنت لنجل جعد جعد ذوائب … وبيض مفان كم بها من مسودِ
وفدته في الهيجا لدى أخذناه … يرمي به تمريق قرن ممجدِ
ورقت أبا عيسى الفتى الليث قرنهُ … لدى ضربة رجلي فتى منه مقعدِ
فيا عجباً من رقها وعتاقها … لضدّين حقاً لاتفاق التوددِ
رمى ذاك ذا في أسهم مرقت وذا … لرجليهِ رام بالحُسام المهندِ
ولا قود في ذا ولا أرش واجب … ولا إثم لاحق بدنيا ولا غدِ
ومع ذاك كل منهما كان قاصداً … إلى قرنه لا عن خطا بل تعمدِ
ولا صائب لو قيل لا بدّ واحدٌ … مع العمدِ في هذاك والعلم معندِ
فما قط في حكم الولاية قاطعٌ … سلاح ذوي العدوان بل سيفُ مهندِ
على مثل سيف من طريق استقامةٍ … إلى الله بالله استقام فتى هدي
فهل من جواب أيها السادةُ فلا … أفيدوا وإلا فاسألوا للتفودِ
كذا سالم سامي العُلى سلمت له … لواءُ الولاءِ في الرباط بمسجدِ
فأمسى به بدر أمضينا كسارى … على النار ذانو ربه الركبُ يهتدي
مائة علم مع مقامٍ ولايةٍ … وبعدُ عن الدنيا وكثر تعبدِ
ومن بعدهِ أيضاً بدور منيرةٍ … هناك أقاموا سيداً بعد سيدِ
وأدركتُ منهم سيّداً لي مؤاخياً … كسيفٍ به من هيبةٍ كَمْ مُشرَّدِ
وأعني أبا الخطاب أكرم بماجدٍ … وإلى حسيب الجانبينِ مسودِ
فتىً طرفاهُ معلمانِ كلاهما … أصيلٌ كلا الأصلين مولى ممجدِ
أصلة دينٌ ذي علا وولاية … لها في ذرى العلياء منزلُ سُؤْدُد
وأكرم بضرغامين بدريْ دجنةً … وبحري علومٌ من ركوعٍ وسُجّدِ
كراماتِ كلٍ منهما عظُمَتْ عليّ … وأعني أبا عبادٍ مولى ومعبدِ
كبيرًا بن مشهورين نسلي أكابرٌ … رؤوسُ الملا منِ كلُ فحلٍ مولدِ
سلامٌ على الغرّ الكرام أولى العُلى … غياثُ البرايا مرشدي كل مُقْتَدِ

---

(١) دُثينة: ناحية بين الجند وعدن معجم البلدان ٢/ ٥٠١.

قلت: فهؤلاء الثلاثة والستون المذكورون في القصيدة المذكورة لهم كرامات، يطولُ ذكرها، بل يتعذر حصرها. وها أنا أشيرُ إلى شيءٍ يسير من غرائب ما اشتهر من كرامات بعضهم من غير التزام ترتيبهم المتقدم.

فمنهم في عدن الشيخ الكبير جوهر، وكان عبداً عتيقاً أميّاً متسبّباً في السوق، يحضر عند الفقراء محبةً لهم وحُسْنُ اعتقاد فيهم فحضرتْ وفاةُ الشيخ، الجليل، العارف بالله، الحفيل ذيْ النور، والبرهان المكنّى أبا حمران، قالوا له: يا سيدي من يكون الشيخ بعدك؟ قال: الذي يقع على رأسه الطائر الأخضر في اليوم الثالث من موتي هو الشيخ، فلما كان اليوم الثالث اجتمع الخلقُ من الفقهاء والفقراء، والعوام في مسجده، وقعدوا ينتظرون ما يكون من الوعد الكريم. الواقع بتقدير العزيز العليم. وفيهم المصدّق بذلك والمكذّب، والمتشكك، وإذا بالطائر الموصوف قد طار ووقع في طاقة المسجد فعند ذلك تشرّف للمشيخة كبار أصحاب الشيخ والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فطار ذلك الطائر، ووقع على رأس جوهر المذكور، فقام إليه الفقراء ليزفّوه، ويضعوه في منصب المشيخة، فبكى وقال أين أنا من هذا وأنا لا أصلح به بل جاهل لا أعرف الطريق فقالوا له: ما أقامك الحقّ في هذا إلا ويعلمك، ويوليك التوكيل فقال: وإن كان لا بد فامهلوني ثلاثة أيام لتبرأ ذمتي برد الحقوق التي عليّ للناس، والتخلص منهم، فأمهلوه، ثم بعد الثلاث جلس في مرتبة المشيخة، فكان كاسمه جَوْهَرَاً معظَّماً موقراً، فقدم بعض المشائخ إلى بعض البلاد التي بقرب عدن، فزاره المشائخ، ولم يزره الشيخ جوهر المذكور، فكتب إليه ذلك الشيخ كتاباً يشتمه فيه ويحتقره، فلما صلّى الشيخ جوهر الصبح قال لأصحابه قبل أن يأتيه الكتاب: لا يخرج منكم أحد من المسجد، فقعدوا ينتظرون ما يحدث، وإذا بالرسول قد دخل ومعه الكتاب، فدفعه إلى الشيخ جوهر، فناوله الشيخ بعض الفقراء، وقال له: اقرأه علينا فلما فتحه وجد فيه ما يستحيي أن يذكره، فسكت، فقال له الشيخ: لم لا تقرأ فكره أن يقرأه، فقال له الشيخ: اقرأ هو فيك أو فيَّ، فقرأ، وكلما ذكر طعنا قال الشيخ: صدق إنما كما يقول، وهو يبكي، فلما فرغ من القراءة قال الشيخ: أكتب جوابه، فقال: يا سيدي ما أكتب؟ قال: أكتب:

إذا سعـــدوا أحبـــابنـــا وشقينـــا صبـرنـا علـى حكـم القضـا ورضينـا

ثم ناوله الرسول، فرجع به إلى الشيخ فلما وقف على هذا الجواب المذكور استغفر الله تعالى، وتاب وتهيأ للاجتماع معه والحضور، ورحل من بلاده إلى الشيخ جوهر، فلما اجتمع به كشف رأسه، واستغفروا لي ذلك أشرت بهذا البيت:

وقـد طـار أخضـر طـائـر كـان شـاهـداً بتقـديـم نصـب عـن اشـارة كـامـل

ومنهم شيخه الشيخ الكبير أبو حمران المذكور، ومنهم شيخنا وبركتنا، الشيخ الكبير مسعود الجاوي، وهو أول من ألبسني الخرقة باشارة وقعت له، وكان ممن لقي شيخ زمانه الفقيه الإمام إسماعيل بن محمّد الحضرميّ، وحضرنا معه عند قبر بعض الصالحين، ففهمت منه أنه كلمه من قبره.

ومنهم في الَلحْج بفتح اللام، وسكون الحاء المهملة والجيم، الشيخ الكبير الوليّ الشهير سفيان الحصريّ بفتح الحاء والصاد المهملتين، وإليه أشرت بقولي: وسفيانهم سيف القضاضنغم الوغا مشيراً إلى وقائع وقعت له في ضمنها كرامات له، وكثرت وشاعت واشتهرت.

منها قتله لليهوديّ الذي ولاّه السلطان، ويمشي في خدمته تحت ركابه المسلمون أينما كان، وعجز الأمير وعسكر عند قتله عن الوصول إلى قاتله سفيان المذكور بسوء، وعن دخولهم إلى المسجد عليه فضلاً عن ايصالهم سوءاً إليه، وقد أوضحت هذه القضية، وكفيتها في كتاب روض الرياحين وغيره، وحذفتها هنا لطولها، وكان بالعلم مشتغلاً فقيل له في حال حال ورد عليه: إذا أردتنا فاترك القولين والوجهين.

وذكره الشيخ صفي الدين في رسالته، وأثنى عليه، وكان قد قتل بعضهم بالحال الشديد، وبعضهم بالضرب بالحديد، وإليه أشرت بقولي في بعض القصائد:

وكم قد سقت سرّ سلافها ... فهام وخلي للأقارب والخلٌ
وكم سطوة أولى الولاة من البلا ... يحد بحال أو حديد، وكم قتلِ
ولم تغنهم أجنادهم عند قتله ... ومن ذلك ذبح لليهوديّ الذي ولي
ويمشي أولو الإسلام تحت ركابه ... له مجلس مع ذاك من فوقه علي
فحا بعد ذبح للتقرب مسجداً ... فصلّي وبالنيران قربانه مصلي
فأرسل إذ ذاك الأمير جماعة ... ليأتوا به سحباً على الرأس لا للرجلِ
فلم يدر أنّ الملك ملك غريمه ... له لا نجي لو جاء بالخل والرجلِ
فرامت دخول المسجد الرسل نحوه ... فلم يقدروا من بعد حرص على الدخلِ
فما راكباً في موكب، وهو جاهل ... بموكب عز ليس يجمع بالطبلِ
وحامل رايات العُلى من جماعة ... ليوث العدى لا يخلط لجدّ بالهزلِ
فرامَ به كبلاً وقتلاً بزعمهِ ... فما استطاع دخل الباب فضلاً عن الكبلِ
فكاتب سلطاناً، فقال، سلامة ... رضينا فقد من قبل ذا سامني عزلي
رجالٌ إذا ما قام لله واحد ... بحرب البرايا فهو عال على الكلٌ

ومنهم في مسجد الرباط الشيخ العليّ المقام، الحبر الإمام، ذو الفضائل والمكارم، المعروف بالفقيه سالم من أصحاب الشيخ فقيه أهل عواجة، وإليه أشرت بقولي:

وتاج المعالي سالم في رباطهم جزيل العطا مع سادة وأفاضل

أعني جماعة من السادة معه في المسجد المذكور على ساحل على البحر.

وله ولد من السادات الكبار العارفين بالله، مطالع الأنوار، لما ولد رأى بعض أصحاب والده في الليل عمود نور متصلاً من بيته إلى السماء، فدنا من البيت لينظر ما سبب ذلك، ولم يكن لعلم بولادته، فسمع قائلاً يقول: يهنيكم الولد المبارك أماالسرّ فسر أبيه، وأما السيرة فسيرة جدّه.

ومما وقع لوالد المذكور محمّد بن سالم بن غرائب الآيات، وعجائب الكرامات في ضمن الفعل الذي هو في الظاهر مستقبح، وفي الباطن مُستملح، وذلك ما شاع في بلادهم عند الفقراء المباركين.

وأخبرني به غير واحد من الصالحين أنه جاء إنسان من العرب إلى الشيخ الفقيه محمد بن سالم المذكور، وذكر له أنه كان له زوجة جميلة يحبها، فوقع بينه وبينها مخاصمة ومغاضبة وطلّقها، وبانت منه بدون الثلاث، ثم ندم ندماً شديداً، وطلب أن ترجع إليه بنكاح جديد فامتنع أهلها، وكانوا من عرب تلك البلاد، فدخل عليهم، وألحّ في ذلك، فلم يقبلوا، ثم كلّمه أن يرسل إليهم ويستحضرهم عنده، ويتكلم معهم، ويشفع له في أن يزوجوها منه فقال: يكون خيراً إن شاء الله تعالى، فطمع في قضاء حاجته لعلمه أنهم لا يخالفون الشيخ المذكور، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أبصر مملوكه زوجته تمشي بين بيوت المكان الذي الشيخ نازلٌ فيه، ففرح بذلك فرحاً شديداً ظنّاً منه أنها جاءت مع سيّدتها وأوليائها باستحضار الشيخ لهم بسببه، فسألها ما جاء بك إلى هنا؟ فذكرت له أنها جاءت مع سيّدتها، وأن الشيخ المذكور تزوجها، فلما سمع منها ذلك طار عقله، وازداد كرباً على كرب، ثم قصد الشيخ الكبير الوليّ الشهير أحمد بن الجَعد ـ قدّس الله روحه ـ إلى القرية التي هو فيها فشكا إليه ذلك، فاستعظم الشيخ أحمد ما وقع من الشيخ محمّد واستقبحه، واشتد إنكاره عليه فيه، فجمع جمعاً كثيراً من الفقراء، وقصده مطالباً له بالانصاف، وهو تلميذ والده سالم المذكور، فلما وصل إلى موضعه أقام أياماً في المسجد هو ومن معه من الفقراء، والشيخ محمد يصلي بالناس فيه، ويخرج لا يكلّم بعضهم بعضاً، ثم فاتحه الشيخ محمد بالكلام، وقال له: ارفع رأسك، وانظر في اللوح المحفوظ تبصر فيه أولادي فلاناً وفلاناً وفلانة وعددهم وأسماهم من المرأة المذكورة فرفع الشيخ أحمد رأسه، فرأى ذلك،

فقام واستغفر الله عزّ وجل، وقام منصفاً بعدما جاء مطالباً مستنصفاً رضي الله تعالى عن الجميع، ونفعنا بهم.

ومنهم الشيخ الكبير المشهور أحمد بن الجعد المذكور في تلك الناحية سكن الطرية بالطاء المهملة، والراء والمثناة من تحت مشددة، قرية معروفة هنالك وهو القائل في قصيدة:

كافل للأنام بالشدّ منّي   من رآني، ومن رآى من آني

وقال في أخرى:

قد كان ذلك في الزجاجة باقياً   وأنا الوحيد شربت ذاك الباقي

ومنهم في حضرموت الشيوخ الكبار المذكورون أولو الأنوار والأسرار المكنون أبا عباد، وأبا معبد، وأبا عيسى.

من عجائب الآيات، وغرائب الكرامات، ما وقع بين الشيخين العارفين، السيفين القاطعين أعني أبا عيسى، واسمه سعيد وأحمد بن أبي الجعد المذكورين، وذلك أنه ورد الشيخ أحمد المذكور في جمع من أصحابه على الشيح سعيد في وقت جاؤوا إلى زيارة بعض القبور الشريفة في حضرموت، فوافقه الشيخ سعيد وأصحابه على الزيارة ومشوا، فلما بلغوابعض الطريق بد للشيخ سعيد أن يرجع في هذا الوقت، ويزور في وقت آخر، فرجع هو وأصحابه إلى موضعهم، واستمر الشيخ أحمد على عزمِهِ حتى انتهى إلى مقصده، فزار ورجع، والشيخ سعيد مكث أياماً، ثم خرج هو وأصحابه إلى الزيارة المذكورة، فالتقى الشيخان وأصحابهما في الطريق، فقال الشيخ أحمد للشيخ سعيد: توجه عليك حقّ الفقراء في رجوعك، فقال: لا ما توجه عليّ حقّ، فقال له الشيخ أحمد بلى قد توجه عليك الحق، فقُم وانصف، فقام الشيخ سعيد، وقال: من أقامنا أقعدناه، فقال الشيخ أحمد: ومَنْ أقعدنا ابتليناه، وأصاب كل واحد منهما ما قاله صاحبه، فصار الشيخ أحمد مقعداً إلى أن لقي الله تعالى، وصار الشيخ سعيد مبتلى في جسمه ببلاء قطع جسمه حتى لقي الله تعالى رضي الله تعالى عنهما.

وهذه لعمري أحوال تكمل في جنب بعضها السيوف القماطية، وإنما يقطع الحالان معاً إذا كان صاحباهما متكافيين أو قريباً من التكافي فإن لم يكونا كذلك قطع القوي منهما الضعيف، وقد يقطع السابق دون المسبوق فيما يظهر، والله أعلم.

وإلى ما جرى لهما في هذه القضية مع ما لكل واحد منهما من الفضائل العديدة أشرت

بقولي في قصيدة:

وعنت لنحل الجعد جعد ذوائب ... وبيض معال كم بها من مسودِ
وفدته في الهيجا لدى أخذ ثأره ... ويرمي به تمزيق قرن ممجدِ
ورقت أبا عيسى الفتى الليث قربه ... لدى ضربه رجلي فتى منه مقعدِ
فيا عجباً من رقها وعتاقها ... لضدّين حقاً لاتفاق التودّدِ
رمى ذاك هذا في أسهم مزقت وذا ... لرجليه رام بالحُسام المهندِ
ولا قود في ذا ولا أرش واجب ... ولا إثم لاحق بدنيا ولا غدِ
ومع ذاك كلّ منهما كان قاصداً ... إلى قرنه لا عن خطابل تعمدِ
ولا صائب لو قيل لا بدّ واحد ... مع العمد في هذاك والعلم معتدِ
فما قط في حكم الولاية قاطع ... سلاح ذوي العدوان بل سيف مهندِ
على مثل سيف من طريق استقامة ... إلى الله بالله استقام فتى هدي
فهل من جواب أيها السادة الملا ... أفيدوا وإلا فاسألوا للنفودِ

والجواب في ذلك، والله أعلم أنه يحتمل وجهين.

أحدهما أن يكون المولى تبارك وتعالى اذن لكل واحد منهما أن يؤدب الآخر بإشارة مفهومة عند ذوي الأحوال والمقامات العوالي ابتلاء منه بعد كما لو أمر بعض المخلوقين كل واحد من عبدين له أن يؤدب الآخر، كما جرى لبني إسرائيل في قتل بعضهم بعضاً حين أمروا بذلك.

والثاني أن يكون كلّ واحد منهما مفوضاً في الحكم، مصرفاً في المملكة كما ذلك واقع لكثير منهم مشهور عنهم يولّي كل منهما، ويعزل ويقطع ويصل غادي اجتهاد كل واحد منهما أنّ صاحبه مخطىء يستحق التأديب، وأنه فيما فعله فيه مصيب هذا ما ظهر لي من الجواب، والله أعلم بالصواب، وإلى ذلك أشرت في بعض القصائد بقولي:

رماه وضراب ببيض حد يدها ... من الصدق والاخلاص في القول والفعلِ
كمثل الفتى ابن الجعد بالثأر أخذ ... يرمي فتى منهم له ضارب الرجلِ
فذا مقعد بالسيف في طول دهره ... وذاك جميع الدهر يشكو من النبلِ

وإليهما أيضاً أشرت في قصيدتي الأخرى، وهي باهية المحيّا المتقدم ذكرها.

وأكرم بضرغامين قدما تضاربا ... بسيفين كل منهما غيرنا كلّ
حميد الثنا ابن الجعد أعني وماجداً ... يكنّى أبا عيسى وليس بخاملِ

ومن غرائب كرامات ابن الجعد المذكور أيضاً، وكرامات شيخه الشيخ سالم المتقدم ذكره أنه استأذنه في زيارة الكثيب الأبيض، وهو كثيب يزوره أهل تلك البلاد وما حولها من البلدان في كل سنة في وقت معلوم في رجب، وكان استئذان ابن الجعد لشيخه في زيارته في غير الوقت المذكور، فلم يأذن له، وقال: أخشى أن تسيء الأدب هنالك، ويقال في ذلك المكان قبور بعض الصالحين، فخالف أبي الجعد شيخه، ومشى إلى الكثيب المذكور، فبات عليه، ورأى بعض الصالحين فيه يصلّي، فلم يكلمه حتى صلّى الصبح، فصلّى معه مقتدياً به، فلما سلّما مكث كلّ واحد منهما في مكانه، ثم رنق ذلك الشيخ، فانتظره ابن الجعد للسلام عليه، حتى ارتفعت الشمس، فلم يرفع رأسه، وهو لا يرى إلا دلقه[1]، فمدّ يده، وحرّك الدلق، فلم يجد فيه أحداً فلبسه ونزل به إلى أسفل الكثيب راجعاً إلى مكان شيخه، فوجد ديناراً، ثم صار في أول كل يوم يجد ديناراً ينفق ذلك على الفقراء أين ما كان، فبقي على ذلك سنة، ثم قال له شيخه: سافر للحج ورد الوديعة إلى صاحبها يعني بها ذلك الدلق، وقال له: ما قلت لك أني أخاف عليك أن تسيء الأدب في زيارة الكثيب، فخرج إلى الحجّ، فلما كان يوم الوقوف بعرفة ظهر له صاحب الدلق، وقال: هات الأمانة مع بقاء أجر ما تجده كل يوم عليك إلى أن ترجع إلى بلادك، فلم يزل يجد كل يوم ديناراً ينفقه على الفقراء إلى أن رجع إلى بلاده.

ومن كرامات الحضرميين الآخرين أعني أبا عباد، وأبا معبد أنّ الأول منهما أعني أبا عباد رأى بعضهم نهراً يجري من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى زاويته في بلاد حضرموت، وفسر ذلك بأنه مدد منه صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ظاهر من حاله، فإنه ما زال من زمانه إلى الآن زاويته عامرة بتلاوة القرآن والإذكار والرزق عليهم من فضل الله تعالى مدراراً.

ومن كرامات الثاني أعني أبا معبد أنه كان ينزل في البرية، فيتفجر أنهاراً، فينتقل إليها الناس، ويغرسون فيها، ويزرعون، فإذا بهجت بالبساتين، واختلط أبناء الدنيا بالمساكين، وسارت بالخضرة والزينة زاهرة. انتقل إلى برية مجدبة دامرة، فإذا سكنها صار هو وأصحابه يسبّحون الله تعالى ويذكرون، فانفجرت فيها بقدرة الله تعالى عزّ وجل العيون، ثم كذلك إذا صارت كما تقدم يهرب منها إلى محلّ المحلّ والعدم، وكانت الدنيا تطلبه، وهو يهرب منها، ثم استقر بعد حيث شاء الله تعالى، ولم يمل عنها.

---

(١) دلق: دلق الشيء دُلوقاً، ودَلقا: خرج من مخرجه سريعاً. ودلَقت الخيل دُلوقاً: خرجت متابعة. ودلق السيف دلقاً: أخرجه من غِمده والباب: فتحة فتحاً شديداً.

ومنهم في الحصى بفتح الحاء وكسر الصاد المهملتين، الشيخ الكبير الوليّ الشهير المعروف بالرعب بكسر الراء، وسكون العين المهملة، وبموحدة وهو الذي قطع بعض الرافضة لسانه لمدحه أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، فرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلّم في المنام ردّ لسانه إلى موضعه، فانتبه وقد عاد لسانه إليه صحيحاً في قصة يطول ذكرها، وقعت للشيخ عمر المذكور وذلك في اليمن والحجاز مستفيض مشهور.

ومما روى لولده موسى أنه بنى مسجداً، فلما أخذ الصنّاع في تسقيفه قصر بعض الخشب عن بلوغ الجدار، فلما رأى ذلك قال لهم: اقعدوا تغدّوا، فلما فرغوا من الغداء رجعوا إلى التسقيف، فوجدوا تلك الخشبة قد طالت، ووصلت إلى موضعها من الجدار.

ومنهم في خنفر[1] بالخاء المعجمة والنون والفاء والراء، الشيخ المشهور الولي المشكور محمّد بن مبارك البركاني.

ومما بلغني من كراماته أنه سافر جماعة من أصحابه مع قافلة، فنهبت تلك القافلة، فنهب أصحابه، معهم، فرجعوا إليه، فقال: ما خبركم؟ فقالوا: نهبنا قال: فما عرفوكم؟ قالوا: بلى، ولكن أنتم يا فقراء نتبارك بكم، فقال: أنا ابن مبارك كم من يظن أنه أخذنا، ونحن أخذناه، ثم رنّت ساعة، وإذا بالحرامية قد جاؤوا، وردوا متاع الفقراء.

ومنهم في مَوْزَع بفتح الميم والزاي، وسكون الواو في آخره عين مهملة، الفقيه الكبير الوليّ الشهير، وافر العطاء والنصيب عبدالله بن أبي بكر الخطيب المُشار إليه في بعض قصائدي بقولي أحسن الله أحوالي مشيراً إلى العناية:

وكم خطبت لابن الخطيب، وخاطبت ... وكم كشفت خطبا وأولته من فضل؟!.
وولتهُ ملكاً نافذاً فيه حكمه ... وبالحلة الحسنا الرضية قد حلي

شيخ شخينا الشيخ مسعود الجاوي، وغيره من الشيوخ.

ومن غرائب كرامات الشيخ عبدالله ابن الخطيب المذكور أنه كان في شبابه مجاوراً في المدينة الشريفة، وكان إذا حصلت له فاقة يذهب إلى السوق، ويقترض من إنسان يبيع الهريسة ما يسدّ به فاقته، فإذا اجتمع له عليه دين يقول له ذلك المهرس: قد جاءني رسولك بالدراهم التي عليك، ولم يزل هكذا يقترض، ويقضي الله تعالى عنه على يد شخص من رجال الغيب ذكر الشيخ المذكور أنّ ذلك الشخص هو الخضر عليه السلام، وعلى سائر

(١) خَنْفَر: قال ابن الحائك: أبين بها مدينة خنفر والرواع وبها بنو عامر بن كندة قبيلة عرنين معجم البلدان ٢/ ٤٥٠.

المُصطفين الكرام.

ومنهم في جبال اليمن الشيخ الكبير الشأن أحمد بن علوان القائل:

جزت الصفوف إلى الحروف إلى الهجا حتى انتهيت مراتب الإبداع
لا باسم ليلى أستعين على السرى كلاّ، ولا لبنى تردّ شراعي

ومن كراماته أنّ ذرية الفقهاء الذين كانوا ينكرون عليه صاروا يلوذون عند النوائب بقبره، ويستجيرون من خوف السلطان به، وإلى ذلك، وبعض مناقبه الحميدة أشرت في القصيدة:

وكم لابن علوان على الدهرِ من علا فتى برداً مجد المعارف مرتدي
ولي على الأيام يعلو بمنصب إلى فوق علياء المفاخر مصعدِ
وأعداؤه تهوى مناصبهم إلى ترى أرضهم من متهميها ومنجدِ
فما زال في جيش من النصر مسعد له تحت رايات العناية منجدِ
إلى أنّ لهم أمسى ملاذ أو ملجأ وحصناً لذي طعن وللهجو منشد

ومنهم في زبيد الشيخ الكبير العارف، ذو الكرامات والمعارف، المشهور بالولاية، والكرامات الخارجات عن حصر التعداد أبو العباس أحمد بن أبي الخير المعروف بالصيّاد وإليه الإشارة بقولي: وصيادهم سامي العُلا والفضائل، وأشرت إليه أيضاً في غزل القصيدة المذكورة. بقولي مشيراً إلى محاسنه وتقدم زمانه:

كحسناء زهت قدماً بعالي جمالها سبت كم فتى صادت بنصب حبائل

وكان أميّاً، فحصل له من فضل الله تعالى ما اعترف به العلماء، وتأدب له به الأولياء، وهو من قدماء شيوخ اليمن. أدرك زمن ولاية الحبشة بها.

ومن عجائب كراماته أنه كان في وقت في مسجد الفازة على ساحل زبيد، وعنده شخص من تلامذته، فدخل عليه بعض الناس، وقال له: هذا تلميذك يا صيّاد، فسكت، فقال لصاحبه: هذا شيخك؟ قال: نعم، فقال: إن كان لك تلميذاً يا صياد، فمره فليمش على الماء، وليأتنا بحجر من الجبل الفلاني، وهو في موضع تصل إليه السفن في نصف يوم، فغضب الصياد، وقال لتلميذه: اذهب، فامش على البحر مسرعاً وآتنا بحجر من الجبل المذكور، فذهب المُريد إلى البحر، ومشى عليه مسرعاً كأنه يجري على الأرض، فلحقه المنكر جارياً على الساحل، وسأله أن يرجع، فلم يرجع، فاستغفر الله تعالى إلى الشيخ، وسأله وتضرع إليه طالباً العفو، ورجوع التلميذ فناداه الشيخ أن أرجع فرجع.

ومنهم في التُّرَيْبة بضم المثناة من فوق، وفتح الراء والموحدة بينهما مثناة من تحت ساكنة، الشيخ الكبير الوليّ الشهير، ذو المقامات الفاضلة، والكرامات الهائلة، الشيخ عيسى المعروف بالهِتّار بكسر الهاء وقبل الألف مثناة من فوق وبعدها راء.

ومن كراماته العظيمة انقلاب الخمر سمناً في قصة طويلة مختصرها أنه تابت على يده بعض المعروفات بالفساد، فزوجها من بعض الفقراء، وقال: اعملوا الوليمة عصيدة[1]، ولا تشتروا لها أدماً، ففعلوا ذلك، وأحضروها، فذهب إنسان إلى أمير كان رفيقاً لتلك المرأة، فأعلمه بتوبتها وزواجها وحديث الوليمة، فما هان عليه، وما قدر يفعل شيئاً غير أنه أراد مكراً ليفضح به الفقراء، ويستهزأ بهم، وهو أنه أعطاه قارورتين مملوءتين خمراً، وقال: اذهب به إلى الشيخ، وقل له: يسرّني ما بلغني عنكم، وسمعت أنّ الوليمة ما لها آدام، فخذوا هذا تأدموا به، فلما جاء رسوله بهما وجد الشيخ عيسى قاعداً منتظراً ما يأتي، فقال له: أبطأت يا بارد، ثم تناول أحدهما فصبّ ما فيها على العصيدة، ثم كذلك الأخرى، ثم قال: للرسول: اجلس وكُلْ، فجلس وأكل، فذاق سمناً لم يذق مثله، فتحير عقله. ثم رجع إلى الأمير، فأخبره بذلك، فجاء وأكل معهم، ورأى من انقلاب الخمر ما أدهش عقله، فتاب أيضاً.

ومنهم في ذَوال[2] بفتح الذال المعجمة، السيّد الجليل العليّ المقام، الفقيه العلاّمة زين الزمن، وبركة اليمن، ذو المناقب والمجد الأثيل أحمد بن موسى المعروف بابن عجيل، وإليه أشرت بقولي: وزينهم ابن العجيل شهيرهم، وأشرت إليه أيضاً في الغزل بقولي:

وكم في ذوال من ملاح ذوائب   إذا بتّ قلوباً للنفوس الذوابلِ
كذات البها الحسنا عجيلة زهت   بها سارت الركبان من كلّ راحلِ

ومن عظيم كراماته، وحميد سيرته ما تقدم في ترجمته:

ومنهم في عواجة السيّدان الكبيران، الوليّان الشهيران، مطلعا الأنوار، وخزانتا الأسرار، ذو الفضائل العظمات، والكرامات الكريمات، الشيخ محمّد بن أبي بكر الحكميّ، والشيخ الفقيه محمّد بن الحسين البجليّ.

ومن غرائب الكرامات المذكورات عنهما أنّه أتى بدويّ إلى البجليّ منهما، فقال له:

---

(١) عصيدة: دقيق يُخلط بالسَّمن ثم يُطبخ. (ج) عصائد.

(٢) ذوال: وادي ذوال: باليمن، أم بلاده القمحةُ بُليد شامي وزبيد، بينها يوم وفشال بينهما معجم البلدان ٩/٣.

إنه سَرق لي ثور، فخاطرك سعى في رجوعه إليّ فقال له: أتريد أن يرجع ثورك قال: نعم، قال: اذهب إلى المكان الفلاني تجد فيه شيخاً فألزمه، فعنده ثورك، فذهب إلى المكان الذي ذكر، فوجد فيه الشيخ الحكمي، فقال له: يا شيخ ردّ عليّ ثوري، فقال: من قال لك هذا محمّد بن حسين؟ قال: ردّ عليّ ثوري، وخلِّ عنك هذا الكلام، قال: وما صفة ثورك؟ قال: تسرق ثوري وما تعرف صفته: فضحك الشيخ، وقال له: اذهب إلى الشعب الفلاني في الجبل الفلاني تجد ثورك مربوطاً في شجرة، فحلّه وخذه، فذهب إلى الشعب المذكور، فوجد الثور مربوطاً كما ذكر فحلّه، وذهب به مسروراً، وجاء السارق، فلم يجده، فرجع محزوناً ومحسوراً، ورجع كل من الشيخين الدالّين له مأجوراً ومبروراً.

ومنهم في شُجَيْنَة بضم الشين المعجمة وفتح الجيم وسكون المثناة من تحت، وفتح النونْ الإمام الوليان الشهيران عليّ بن إبراهيم، وابنه إبراهيم الساكنان في شُجينة، وفي عواجة مقبوران.

ومما حدثت من كرامات عليّ المذكور أنّ بعض الناس أودع عند امرأة وديعة ثم سافر، فهلكت المرأة، ولم يعلم أين تركت الوديعة، فجاء صاحبها يطلبها، فلم يجد من يعلمه بمكانها، فذكر ذلك للفقيه عليّ المذكور، فقال: أرني قبرها، فلما وقف عليه خلابه ساعة، ثم استدعى بابن الهالكة، وقال له: هل في بيتكم شجرة حنّاء؟ قال: نعم، قال: احفروا تحت أصلها، فالوديعة هنالك، فحفروا فوجدوها كما ذكر.

ومن كرامات ابنه ما أخبرني بعض أهل العلم أنه زار مع أبيه مساجد الفتح غربي المدينة الشريفة، فنبحهم كلب، فبصق عليه الابن المذكور، فمات الكلب، والتفت إليه أبوه، ولامه على ذلك.

ومنهم في الضَحِي بفتح الضاد المعجمة، وكسر الحاء المهملة الإمام الكبير الوليّ الشهير إسماعيل ابن السيد الجليل، الفقيه المحدث، الولي الوجيه محمّد بن إسماعيل الحضرميّ، وقد تقدم ذكر شيء من كراماته في ترجمته، وإليه الإشارة بقولي في غزل أخرى:

وخود في الضحى أضحت بحسن ... زها تختال فاقت للغواني

ومنهم في بيت عطا بحر الحقائق الذي سارت بفضله الركبان في المغارب والمشارق، الشيخ الجليل أبو الغيث بن جميل، وقد تقدم ذكر شيء من كريم مناقبه، وعظيم مواهبه، وإليه الاشارة بقولي:

بيبت عطار عيطبول خريدة ... بجانبه في سابقات المحامل

ومنهم في حلي ابن يعقوب شيخنا وبركتنا، الشيخ الكبير، صاحب القلب المنير نور الدين عليّ المعروف بالطواشي، وقد تقدم ذكر شيء من فضائله وكراماته ومحاسنه وبركاته، وإليه الاشارة بقولي:

سقى الله أياماً خلت بعدما حلت ... ومرت، فمرت بعد ذاك التواصلِ
وأيام وصل واجتماع به الهنا ... وعيش صفا لي بالحبيب المواصلِ
يحيى به حلي ابن يعقوب زاهراً ... لسلمى به باهي خيام منازل

فهولاء نيف وعشرون من بين الجمّ الغفير أشرت من كراماتهم إلى شيء يسير في هذا التاريخ الذي على الخمسين بعد السبع مائة انتهاؤه، والحمدلله الذي بحمده وبذكره ختم الكلام وابتداؤه، وأفضل صلواته على أشرف المرسلين المختوم به أنبياؤه، وعلى آله السادة الكرام وأصحابه الذين هم نجوم الهدى الباهج بهاؤه، وسلّم عليه وعليهم أجمعين، وعلى جميع النبيّين والمرسلين، وآل كل والملائكة المقرّبين، وسائر عباد الله المخلصين.

تناهى تاريخي الذي انتقيت معظمهُ من تاريخ لذهبيّ وابن خلّكان خاذفاً التطويل الممل للإنسان وما يُكره ذكره للمتدين، وهو الخلاعة والمجون المستقبحان، فجاء متوسطاً بين الاختصار والاطناب، كما أشرت إليه في خطبة الكتاب، ونسأل الله الكريم، بالآيات والذكر الحكيم، وبرسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم، أن تجمع بيننا وبين أحبابنا في جنات النعيم، إنه الجواد المنّان. ذو الفضل العظيم. آمين آمين آمين يا ربّ العالمين.

تمّ الكتاب الموسوم بمرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان، وتقلب أحوال الإنسان، وتاريخ موت بعض المشهورين الأعيان، للإمام اليافعيّ ـ قدس الله تعالى أسراره ـ والحمد لله الذي بتيسيره نجاح الأمور وبنوره انشراح الصدور، وبتقديره تقلّب الدهور.

وسبحانك اللهم ربا مقدسا ... لك الدهر كل الكائنات تسبح
بحمدك أشهد لا إله سواك قطّ ... تعاليت بل أنت الإله المسبّح
وغفرانك اللهم تب ومجالسي ... فكفر كما جاء الحديث المصحح
عن الصادق المختار صل مسلماً ... على روحه ما غرّد المترنح
ولله ربّي الحمد قبلاً وآخراً ... به يختم القول الحميد ويفتح

ومن نظم المصنّف، الشيخ العارف بالله، عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعيّ نفع الله تعالى به آمين، هذه القصيدة الغوثية وجدت في آخر بعض النُسخ القلمية:

بسم الله الرحمن الرحيم

يا خير داعٍ دعا في خيرةِ الأمم   بخير دين ومعبود وملتزمِ
يا سيّد العرب العرباء قاطبة   وخيرة الخلق من عربٍ ومن عجمِ
إني بجاهك أدعو الله متّقياً   إن الإجابة تأتي قبل نطق فمي
بصاحبيك أبي بكر وصاحبه   أبر بر وأقوى بطش منتقمِ
بحقّ صهريك عثمان وحيدرة   الحائزين لفضل منك مكتتمِ
أئمة الحق يا الله أربعة   لولاهم لم عماد الدين يستقمِ
بحق سبطيك من قد شاع فضلهما   في الناس أشهر من نار على علمِ
بطلحة بزبير بابن عوفهم   وبالأمين ابن جراح وسعدهمِ
بابن زيد بعباس بحمزتهم   بالصالحين بني الزهرا بأمهمِ
بجعفر ببنية بل بباقرهم   بابن الحسين علي بل يزيدهمِ
بالكاظميّ بالرضا بالفاطميّ فلهم   حبّ جرى حيث يجري في العروق دمي
واستشفع الله بالهادي وعترتهِ   والأنبياء فيا طوبى لذكرهمِ
بآدم ثم شيث ثم نوحهم   بالأنبياء جميعاً ثم صحبهمِ
بحق عيسى بيحيى بل بوراثهم   أعني سليمان ربّ المُلك والكرمِ
بفتية الكهفِ بالكهفِ الذي نزلوا   بدانيال ولقمان بخضرهمِ
بمريم ابنة عمران بآسية   بفاطم بخديج أفضل الحرمِ
بعائش ثم أزواج النبيّ ومن   بايعنه بينات المُصطفى الحرمِ
واذكر نفيسة واستشفع برابعة   وكل صالحة من سائر الأممِ
ببيت لحم ببيت القدس بل بقبا   بمسجد لرسول الله محترمِ
بمكة بل ببطحاها بغار حرّا   بالطور بالتين بالزيتون بالقسمِ
بالحجر بالحجر الأسود ثم بمن   يلوذُ من طائف منهم ومستلمِ
بموقفِ الناسِ يوم الحجّ بل بهم   بمروة بالصفا بالبيت والحرمِ
بليلة القدر مع شهر الصيام   وبالسعيدين مع جمع والأشهر الحرمِ
وبالضُحى مع تزاويح فضلهما   وبالعشا ثم وتر ثم بالعتمِ
بحق صبح وظهر ثم عصرهما   بكل وقت شريف القدر ذي الكرمِ
بحق عرش وأملاك ثمانية   بالروح باللوح بالكرسيّ بالقلمِ
بجبريل وميكال وثالثهم   النافخ الصور محيي الأعظم الرممِ
بحق فُرقان الذكر الحكيم وبالسبع   الدواني وما فيها من الحكمِ
بنافع بأبي عمر وبحمزتهم   بعاصم ثم عبدالله بعدهمِ

بحق فضل الكسائي بابن عامرهم   ومن روى لهم والمقتدي بهم
بالشافعيّ بنعمان بمالكهم   بأحمد بل بأهل الرأي كلهم
بالتابعين فلا تمهل أويس فما   للنائبات كمولانا أويسهم
بحقّ قطب وإبدال هم أملي   وهم لدى الخطب بعد الله معتصمي
بالترمذيّ بأبي داؤد بالنسائي   بمسلم بالبخاري عالي الهمم
بالبيهقي بأصحاب الحديث معاً   بمن به منهم الدين الحنيف حمى
بابن دينار بالبصريّ بفرقدهم   بذي الكرامات والأحوال والقدم
أبي يزيد بمعروف بعتبتهم   بابن المبارك بالشبليّ بالعجمي
وبالسرى ببشر بابن أدهمهم   وبالجنيد بداود بذي الصمم
بحقّ نساجهم والخشبي وبا   لفضيل واذكر شقيقاً وابن وردهم
بحق سهل بسهل بابن خضرويه   بابن الخفيف بممشاد مع هرم
بحقّ ذي النون بالدقاق إنّ لهم   في الأولياء شيمة تعلو على الشمم
بابن أسباط بل شاه وشيعته   وبالرفاعي والحلاج نجمهم
ذاك الذي اعتاض في العليا بدايته   ومن له قدم في الصدق عن قدم
واذكر أبا الغيث والصيّاد أحمدهم   وابن الغريب ولا تنسَ ابن هودهم
بابن العجيل بإسماعيل بالبجلي   بالعامريّ بحقّ البحر بالحكمي
بجوهر بهتار بابن يضمهم   بأهدل بل بياقوت بحقهم
وبالمريدين بالأشياخ في يمن   بغررهم حللوا غرباً ونجدهم
فإنّ في الجيليّ منهم عبد قادرهم   المرتقى همة تعلو على الهمم
ابن الرسول الذي ناداه مرسلهُ   فبات منه قريباً غير متهم
في ليلة قد رقى حجبا وارتفعا   وكان إذ ذاك جبرائيل من الخدم
بذي عقيب وما فيها وفي جند   زيد اليفاعي لقد فازوا بزيدهم
بالزيلعيّ بفيروز بأحمدهم   أعني ابن علوان إن قالوا: بأيهم
بابن المسنّ بسفيان بسالمهم   بأحمد سيّدي الشيخ ابن جعدهم
بحرمة العارف ابن الرعب زاهدهم   الصائم القائم الملسون بالحرم
وبابنه الشيخ موسى، ثم اخوته   قوماً بفضلهم تجلو لك الظلم
بوادِ عمد بسادات بها، وبمن   في دوعن من صبيح الوجه مبتسم
بني أبا حفص الأخيار، ثم بني   سعيد العيسويّ الوافون بالذمم
واهتف بيوسف مهما كنت منتظراً   فنعم غوث الملهوف ومهتضم
وحضرموت بها قوم بفضلهم   يستمطر الواكف الهامي من الديم

بنو أبا علوي، والكرام بنوا   عباد السادة الحامون للحرم
وعصبة في نواحي الشحر بل يبني   أبا وزير ذوي الاحسان والكرم
وفي ظفّار رجال يُستغاث بهم   ويُستعان بهم بالدفع في النقم
بحق شيخي وأشياخ له. فهم   غوثي وعوني ومقصودي ومعتصمي
بذي سفال حماها الله من بلدٍ   وبل منها الحيا والقاع والأكم
حوائجي أقضها وأقضِ الديونِ ولا   ألجأ بجاهك من خصمي إلى لزم
واغفر ذنوبي، وإن جلت كبائرها   وما به قد ألمت مني اللمم
وعافني وأعف للوالدين كذا   واسمح وسامح وسلمنا من النقم
واسبل الستر يا ربي عليّ إذا   ما جئت يا ربّ كُن حصني من الألم
ومن نكير، ومن قبر ومنكره   ومن عذابٍ ليوم الحشر للزم
يسّر حسابي وإن جزت الصراط فلا   أراع فيه، وثبت عنده قدمي
إذا فتحت لأبواب الجنان خذوا   عبدي إليها ونجّوه من الحطم
واغفر لأهلي وأولادي وما ولدوا   والآل مني وأصحابي وذي الرحم
وواسع الفضل للجيران إنّ لهم   حقّ عليّ: وأنت الواسع الكرم
جيران بيتي وجيراني بمقبرتي   يا من يقابل ذا الأرحام بالنعم
بمن ذكرت، وبالماحي وعترته   فليبتدأ به مدحي ويختتم
وأصل الله موصول الصلاة له   وآله ما سجن الورق في السلم
وأوصل الله أزكاها وأفضلها   إليه ما دام يهدي الساق بالقدم

فهرس الموضوعات

فهرس تراجم الوفيات

باب الألف

باب الباء

باب التاء

باب الثاء

باب الجيم

باب الحاء

باب الخاء

باب الدال

باب الذال

باب الراء

باب الزاي

باب السين

باب الشين

باب الصاد

باب الضاد

باب الطاء

باب الظاء

باب العين

باب الغين

باب الفاء

باب القاف

باب الكاف

باب اللام

باب الميم

باب النون

باب الهاء

باب الواو

باب الياء

